

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ،
ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ)

« الْحَمْدُ لِلَّهِ » أى جميع الحماد ، بما حمد به نفسه أو خلقه ، أو حمد به الخلق ربهم ،
أو بعضهم ، مخصوص به . ثم أخبر عن قدرته الكاملة ، الموجبة لاستحقاقه لجميع الحماد بقوله :
« الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ » خصهما بالذكر ، لأنهما أعظم المخلوقات ، فيما يرى
العباد ، وفيهما العبر والمنافع ، لأن السموات بأوضاعها وحركاتها أسباب الكائنات
والفاسدات التى هى مظاهر الكمالات الإلهية . والأرض مشتملة على قوايل الكون والفساد
التى هى المسببات .

« وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ » أى : أوجدهما منفعة لعباده ، فى ليلهم . ونهارهم .
وهنا :

لطائف

الأولى - أن المقصود من الآية التنبيه على أن المنعم بهذه النعم الجسام هو الحقيق بالحمد
والعبادة ، دون ما سواه .

الثانية - لفظ (جعل) يتعدى إلى واحد إذا كان بمعنى أحدث وأنشأ ، كما هنا ؛ وإلى
مفعولين إذا كان بمعنى (صير) كقوله ^(١) : وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَانًا .
والفرق بين (الخلق) و (الجعل) : أن (الخلق) فيه معنى التقدير ، و (الجعل) معنى
التضمين ، كأنشاء شىء من شىء أو تصيير شىء شيئاً ، أو نقله من مكان إلى مكان . ومن ذلك :

(١) [٤٣ / الزخرف / ١٩] .

وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا^(١) أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا^(٢) . وإنما حَسَّنَ لفظ (الجعل) ههنا، لأن النور والظلمة لما تعاقبا ، صار كأن كل واحد منهما إنما تولد من الآخر - قاله الرازي - وسبقه إليه الزمخشري .

قال الناصر في (الانتصاف) : وقد وردت (جَعَلَ) و (خَلَقَ) موردًا واحدًا . فورد : وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا^(٣) . وورد : وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا^(١) . وذلك ظاهر في الترادف . إلا أن للخواطر ميلاً إلى الفرق الذي أبداه الزمخشري . ويؤيده أن (جَعَلَ) لم يصحب السموات والأرض، وإنما لزمتهما (خَلَقَ) . وفي إضافة (الخلق) في هذه الآية إلى السموات والأرض ، و (الجعل) إلى الظلمات والنور ، مصداق للميم بينهما - والله أعلم - .

الثالثة - إن قيل : لم جمعت السموات دون الأرض مع أنها مثلهن لقوله تعالى : وَمِنْ

(١) [٧ / الأعراف / ١٨٩] ونصها : هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ، فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيًّا فَمَرَّتْ بِهِ ، فَلَمَّا أَتَتْكُمْ دَعَا إِلَهُ رَبَّهُمَا لَنِ : أَتَيْتُنَا صَالِحًا لَنَكُونَ مِنَ الشَّاكِرِينَ .

و [٣٩ / الزمر / ٦] ونصها : خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ، يَخْلُقْكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظِلْمَاتٍ ثَلَاثٍ ، ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، فَانْصَرِفُونَ .

(٢) [٣٨ / ص / ٥] .

(٣) [٤ / النساء / ١] ونصها : يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ، وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا .

الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ^(١) ، وفي الحديث^(٢) : هل تدرون ما هذه ؟ قالوا : هذه أرض . هل تدرون ما تحتها ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ! قال : أرض أخرى ، وبينهما مسير خمسمئة عام ، حتى عدد سبع أرضين ، بين كل أرضين مسيرة خمسمئة عام - أخرجه الترمذی ، وأبو الشيخ عن أبي هريرة رضي الله عنه ؟ .

(١) [٦٥ / الطلاق / ١٢] ونصها : اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لَعَلَّكُمْ أَنْ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا .

(٢) أخرجه الترمذی في : ٤٤ - كتاب التفسير ، ٥٧ - سورة الحديد ، ونصه :
عن أبي هريرة قال : بينا نبي الله ﷺ جالس وأصحابه إذ أتى عليهم سحاب . فقال نبي الله ﷺ « هل تدرون ما هذا » ؟ فقالوا : الله ورسوله أعلم . قال « هذا العنان . هذه روايا الأرض ، يسوقه الله تبارك وتعالى إلى قوم لا يشكرونه ولا يدعونه » قال « هل تدرون ما فوقكم » ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال « فإنها الرقيع ، سقف محفوظ وموج مكفوف » ثم قال « هل تدرون كم بينكم وبينها » ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال « بينكم وبينها مسيرة خمسمئة سنة » ثم قال « هل تدرون ما فوق ذلك » ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال « فإن فوق ذلك سماءين ، ما بينهما مسيرة خمسمئة سنة » حتى عدد سبع سموات ، ما بين كل سماءين كما بين السماء والأرض . ثم قال « هل تدرون ما فوق ذلك » ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال « فإن فوق ذلك العرش ، وبينه وبين السماء بُعد ما بين السماءين » ثم قال « هل تدرون ما الذي تحتكم » ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال « فإنها الأرض » ثم قال « هل تدرون ما الذي تحت ذلك » ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال « فإن تحتها الأرض الأخرى ، بينهما مسيرة خمسمئة سنة » حتى عدد سبع أرضين ، بين كل أرضين مسيرة خمسمئة سنة . ثم قال « والذي نفس محمد بيده ! لو أنكم دليتم رجلاً بجبل إلى الأرض السفلى لهبط على الله » .
ثم قرأ : هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ .

فالجواب : لأن السموات طبقات متفاضلة بالذات ، مختلفة بالحقيقة ، بخلاف الأرضين - كما قاله البيضاوى - .

وقال الرازى : إن السماء جارية مجرى الفاعل . والأرض مجرى القابل . فلو كانت السماء واحدة لَتَشَابَهَ الأثر ، وذلك يخلّ بمصالح هذا العالم . أما لو كانت كثيرة اختلفت الانصالات الكوكبية ، فحصل بسببها الفصول الأربعة ، وسائر الأحوال المختلفة ، وحصل بسبب تلك الاختلافات مصالح هذا العالم . أما الأرض فهي قابلة للأثر ، والقابل الواحد كاف في القبول . انتهى .

وقدم السموات لشرفها وعلوّ مكانها .

الرابعة - الظاهر في (الظلمات والنور) أن المراد منهما الأمران المحسوسان بحس البصر . والذي يقوى ذلك أن اللفظ حقيقة فيهما . والأصل حمل اللفظ على حقيقته ، ولأن (الظلمات والنور) إذا قرنا بالسموات والأرض ، لم يفهم منهما إلا الأمران المحسوسان . ونقل عن بعض السلف أنه عني بهما الكفر والإيمان .

ورجح الرازى الأول لما ذكر .

ووجه بعضهم الثانى بأن المعنى : أنه لما خلق السموات والأرض ، فقد نصب الأدلة على معرفته وتوحيده . ثم بيّن طرق الضلال ، وطريق الهدى ، بإنزال الشرائع والكتب السماوية . ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ، فناسب المقام (ثم) الاستيعادية ، إذ يبعد من العاقل الناظر بعد إقامة الدليل ، اختيار الباطل . انتهى .

وعليه فجمع (الظلمات) وتوحيد (النور) ظاهر . لأن الهدى واحد ، والضلال متعدد ، كما قال في آخر هذه السورة ^(١) : وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ .

(١) [٦ / الأنعام / ١٥٣] ونصها : وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ، وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ، ذَلِكَمُ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ .

وعلى الأول، فجمعها لظهور كثرة أسبابها ومحالها عند الناس ، فإن لكل جرم ظلمة ،
وليس لكل جرم نور . وأما تقديمها فلسبقها في التقدير والتحقق ، على النور .

وفي الأثر^(١) : إن الله خلق الخلق في ظلمة ثم رشّ عليهم من نوره .

وقوله تعالى: « تُمُّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ » معطوف على الجملة السابقة الناطقة
بما مر من موجبات اختصاصه تعالى ، بالحمد المستدعى لاقتصار العبادة عليه . مسوق لإنكار
ما عليه الكفرة ، واستبعاده من مخالفتهم لمضمونها ، واجترأهم على ما يقضى ببطلانه بديهة

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند بالصفحة ١٧٦ من الجزء الثاني (طبعة الحلبي)
والحديث رقم ٦٦٤٤ (طبعة المعارف) ونصه :

عن عبد الله بن الدليمي قال : دخلت على عبد الله بن عمرو ، وهو في حائط له بالطائف ،
يقال له الوهط ، وهو مخاصر فتى من قريش ، يُزَنُّ بشرب الخمر . فقلت له : بلغني عنك
حديثٌ : أن من شرب شربة خمر لم يقبل الله له توبة أربعين صباحا . وأن الشقي من شقى
في بطن أمه ، وأن من أتى بيت المقدس لا ينهزه إلا الصلاة فيه خرج من خطيئته مثل يوم
ولدت أمه .

فلما سمع الفتى ذكر الخمر ، اجتذب يده من يده ، ثم انطلق .
ثم قال عبد الله بن عمرو : إني لا أحلّ لأحد أن يقول على ما لم أقل .

سمعت رسول الله ﷺ يقول . . .

وسمعت رسول الله ﷺ يقول « إن الله عزّ وجلّ خلق الخلق في ظلمة ، ثم ألقى عليهم
من نوره يومئذ . فمن أصابه من نوره يومئذ اهتدى ، ومن أخطأه ضلّ . فلذلك أقول :
جف القلم على علم الله عزّ وجلّ » .

وسمعت رسول الله ﷺ يقول . . .

ورواه الترمذي في : ٣٨ - كتاب الإيمان ، ١٨ - باب ما جاء في افتراق هذه الأمة .

المقول. والمعنى أنه تعالى مختص باستحقاق الحمد والعبادة ، باعتبار ذاته ، وباعتبار ما فصل من شؤونه العظيمة الخاصة به ، الموجبة لقصر الحمد والعبادة عليه . ثم هؤلاء الكفرة لا يعملون بموجبه ، ويعبدون به سبحانه . أى : يسوون به غيره في العبادة التي هي أقصى غايات الشكر ، الذي رأسه الحمد ، مع كون كل ما سواه مخلوقا له ، غير متصف بشيء من مبادئ الحمد . وكلمة (ثم) لاستبعاد الشرك بعد وضوح ما ذكر من الآيات التكوينية ، القاضية بطلانه . و (الباء) متعلقة بـ (يعبدون) ووضع (الرب) موضع ضميره تعالى ، لزيادة التشنيع والتقبيح . والتقديم لمزيد الاهتمام ، والمصارعة إلى تحقيق مدار الإنكار والاستبعاد ، والمحافظة على الفواصل . وترك المفعول لظهوره ، أو لتوجيه الإنكار إلى نفس الفعل ، بتنزيله منزلة اللازم ، إذاناً بأنه المدار في الاستبعاد ، لا خصوصية المفعول . هذا هو الحقيق بجزالة التنزيل - أفاده أبو السعود - .

ثم ناقش ما وقع للمفسرين هنا مما يخالفه . فانظره .
وأصل (المعدل) مساواة الشيء بالشيء . والمعنى : أنهم يجعلون له عدلاً من خلقه ، مما لا يقدر على شيء ، فيعبدون الحجارة ، مع إقرارهم بأن الله خلق السموات والأرض . وقال النضر بن شميل : (الباء) بمعنى (عن) أى : عن ربهم يعبدون وينحرفون ، من المعدول عن الشيء .

لطيفة :

قال ابن عطية رحمه الله : (ثم) دالة على قبح فعل الذين كفروا ، لأن المعنى أن خلقه السموات قد تقرر ، وآياته قد سطعت ، وإنعامه بذلك قد تبين . ثم بعد هذا كله قد عدلوا بربهم . فهذا كما تقول : أعطيتك وأحسنيت إليك ، ثم تشتمني ؟ ولو وقع العطف في هذا ونحوه بـ (الواو) لم يلزم التوبيخ كلزومه بـ (ثم) . انتهى . أى : ففيها الدلالة على التوبيخ والإنكار ، كالتعجب أيضاً .

قال أبو حيان : هذا الذى ذهب إليه ابن عطية من أن (ثم) للتوبيخ . والزخشرى من أنها للاستبعاد - مفهوم من سياق الكلام ، لا من مدلول (ثم) . انتهى .
وإنما لم تحمل (ثم) على التراخى ، مع استقامته ، لكون الاستبعاد أوفق بالمقام ، لأن التراخى الزمانى معلوم فيه ، فلا فائدة فى ذكره .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢] (هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا ، وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ ، ثُمَّ أَنْتُمْ تَحْتَرُونَ)

« هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ » استئناف مسوق لبيان بطلان كفرهم بالبعث ، مع مشاهدتهم لما يوجب الإيمان به ، إثر بيان بطلان إشرأ كههم به تعالى ، مع معانيثهم لوجبات توحيده . وتخصيص خلقهم بالذكر من بين سائر دلائل صحة البعث ، مع أن ما ذكره من خلق السموات والأرض من أوضحها وأظهرها ، كما ورد فى قوله تعالى ^(١) : « أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ » - لما أن محل النزاع بعثهم . فدلالة بدء خلقهم على ذلك أظهر ، وهم بشؤون أنفسهم أعرف ، والتعاضى عن الحجة النيرة أقبح . والالتفات لمزيد التشنيع والتوبيخ . أى : ابتداء خلقكم منه ، فإنه المادة الأولى للكل ، لما أنه منشأ آدم الذى هو أبو البشر . وإنما نسب هذا الخلق إلى مخاطبين ، لا إلى آدم عليه السلام ، وهو المخلوق منه حقيقة ، بأن يقال : هو الذى خلق أبأكم ... الخ مع كفاية علمهم بخلقه عليه السلام منه ، فى إيجاب الإيمان بالبعث ، وبطلان الامتراء - لتوضيح منهاج القياس ، وللمبالغة فى إزاحة الاشتباه والالتباس . مع ما فيه من تحقيق الحق والتنبيه على حكمة خفية : هى أن كل فرد من أفراد البشر له حظ من إنشائه ، عليه السلام ، منه ،

(١) [٣٦ / يس / ٨١] ... بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ .

حيث لم تكن فطرته البديعة مقصورة على نفسه ، بل كانت أنموذجاً منظوياً على فطرة سائر
أحاد الجنس ، انطواءً إجمالياً ، مستتبهاً لجريان آثارها على الكل . فَكَانَ خَلْقُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ
من الطين خلقاً لكل أحد من فروعه منه . ولما كان خلقه على هذا النمط السارى إلى جميع
أفراد ذريته ، أبدع من أن يكون ذلك مقصوراً على نفسه ، كما هو المفهوم من نسبة الخلق
المذكور إليه ، وأدل على عظم قدرة الخلاق العليم ، وكمال علمه وحكمته ، وكان ابتداء حال
المخاطبين أولى بأن يكون معياراً لانتهائها - فعل ما فعل . والله در شأن التنزيل ! وعلى هذا
السر مدار قوله تعالى : وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ . . . (١) الخ . وقوله تعالى : وَقَدْ
خَلَقْتُكُمْ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُنْ شَيْئاً (٢) . كما سيأتى .

وقيل : المعنى خلق أباكم منه ، على حذف المضاف . وقيل : معنى خلقهم منه ، خلقهم من
الطينة الحاصلة من الأغذية المتكونة من الأرض . وأياً ما كان ، ففيه من وضوح الدلالة على كمال
قدرته تعالى على البعث ، مالا يخفى . فإن من قدر على إحياء ما لم يشم رائحة الحياة قط ، كان على
إحياء ما قاربها مدة أظهر قدرة - أفاده أبو السعود - .

وفي (العناية) : أن في الآية التفاتاً ، لأن الخطاب - وإن صح كونه عاماً - لكنه خاص
بالذين كفروا ، كما يقتضيه (ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ) . ونكتته أن دليل الأنفس أقرب إلى
الناظر من دليل الآفاق الذى فى الآية السابقة ، والشكر عليه أوجب . وقد أشير فى كل من
الدليلين إلى المبدأ والمعاد ، وما بينهما . انتهى .

(١) [٧ / الأعراف / ١١] . . . ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا
إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ .
(٢) [١٩ / مريم / ٩] ونصها : قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْنٍ وَقَدْ
خَلَقْتُكُمْ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُنْ شَيْئاً .

أخرج أبو داود^(١) والترمذى عن أبي موسى الأشعرى قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض ، فجاء بنو آدم على قدر الأرض . جاء منهم الأحمر والأبيض والأسود ، وبين ذلك . والسهل والحزن ، والخبث والطيب . وقوله تعالى : « ثُمَّ قَضَى أَجَلًا » أى: كتب لموت كل واحد منكم أجلاً خاصاً به . أى : حداً معيناً من الزمان يفنى عند حلوله . أو كتب ، لِمَا بَيْنَ أَنْ يُولَدَ كُلُّ مِنْكُمْ إِلَى يَوْمِ أَنْ يَمُوتَ ، أَجَلًا .

« وَأَجَلَ مُسَمًّى عِنْدَهُ » أى : وحدّ معين لبعثكم جميعاً ، مثبت معين فى علمه ، لا يقبل التغير ، ولا يقف على وقت حلوله أحد . كقوله تعالى^(٢) : « إِنَّمَا عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّى لَا يَجْلِيهَا لَوْقَتَهَا إِلَّا هُوَ . فَمَعْنَى (عِنْدَهُ) أَنَّهُ مُسْتَقِلُّ بِعِلْمِهِ . وَ (أَجَلَ) مُبْتَدَأٌ لِتَخْصِيصِهِ بِالصِّفَةِ ، وَلَوْ قَوْعُهُ فِي مَوْقِعِ التَّفْصِيلِ . وَتَنَوِينُهُ لِتَفْخِيمِ شَأْنِهِ ، وَتَهْوِيلِ أَمْرِهِ ، وَلِذَلِكَ أَوْثَرَ تَقْدِيمَهُ عَلَى الْخَبَرِ الَّذِى هُوَ (عِنْدَهُ) ، مَعَ أَنَّ الشَّائِعَ فِي مِثْلِهِ التَّأْخِيرُ ، كَأَنَّهُ قِيلَ : وَأَىَّ أَجَلَ مُعَيَّنٍ فِي عِلْمِهِ لَا يَعْلَمُهُ أَحَدٌ لَا مَجْمَلًا وَلَا مَفْصَلًا . وَأَمَّا أَجَلَ الْمَوْتِ فَمَعْلُومٌ إِجْمَالًا وَتَقْرِيْبًا ، بِنَاءً عَلَى ظُهُور أَمَارَاتِهِ ، أَوْ عَلَى مَا هُوَ الْمَعْتَادُ فِي أَعْمَارِ الْإِنْسَانِ .

« ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ » استبعاد واستنكار لامترائهم فى البعث ، بعد معاينتهم لما ذكر

(١) أخرجه أبو داود فى : ٣٩ - كتاب السنّة ، ١٦ - باب فى القدر ، حديث ٤٦٩٣

وأخرجه الترمذى فى : ٤٤ - كتاب التفسير ، ٢ - سورة البقرة ، ١ - حديثنا محمد

ابن بشار .

(٢) [٧ / الأعراف / ١٨٧] ونصها : يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ، قُلْ إِنَّمَا عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّى ، لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ، ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ، يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ، قُلْ إِنَّمَا عَلِمَهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ .

من الحجج الباهرة الدالة عليه . أى : تمترون فى وقوعه وتحققه فى نفسه ، مع مشاهدتكم فى أنفسكم ما يقطع مادة الامتراء . فإن من قدر على خلق المواد وجمعها وإيداع الحياة فيها ، وإبقائها ما يشاء ، كان أقدر على جمع تلك المواد وإحيائها ثانياً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] (وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ ، يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ)

« وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ » أى المعبود فيهما ، « يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ » أى من الأقوال أو الدواعى والصوارف القلبية وأعمال الجوارح ، « وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ » أى : ما تفعلونه من خير أو شر ، فيثيب عليه ويعاقب . وتخصيصه بالذكر ، مع اندراجها فيما سبق ، على التفسير الثانى للسر والجر - لإظهار كمال الاعتناء به لأنه الذى يتعلق به الجزاء ، وهو السر فى إعادة (يعلم) .

قال الناصر فى (الانتصاف) : وما هاتان الآيتان الكريمتان - معنى هذه الآية وآية الزخرف ، وهى قوله تعالى ^(١) : « وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهُ - إِلَّا تَوَاضَعَا » . فإن التمدح فى آية الزخرف ، وقع بما وقع التمدح به ههنا من القدرة على الإعادة والاستثناء بعلم الساعة والتوحد فى الألوهية ، وفى كونه تعالى المعبود فى السموات والأرض .

وقال الإمام ابن كثير رحمه الله تعالى : للمفسرين فى هذه الآية أقوال ، بعد اتفاقهم على إنكار قول الجهمية الأول ، القائلين - تعالى عن قولهم علواً كبيراً - بأنه فى كل مكان ، حيث حملوا الآية على ذلك . فالأصح من الأقوال أنه المدعو فى السموات وفى الأرض ، أى :

(١) [٤٣ / الزخرف / ٨٤] . . . وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ .

يعبدوه ويوحده ويقرّ له بالإلهية من في السموات ومن في الأرض ، ويسمونه الله ، ويدعونه رَغَبًا وَرَهَبًا^(١) إلا من كفر من الجن والإنس . وهذه الآية - على هذا القول - كقوله تعالى : وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ . أَيْ : هو إله من في السماء وإله من في الأرض . وعلى هذا ، فيكون قوله : (يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ) خبراً أو حالا .

والقول الثاني - إن المراد أنه الله الذي يعلم ما في السموات وما في الأرض من سر وجهر . فيكون قوله (يَعْلَمُ) متعلقاً بقوله (فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ) تقديره : وهو الله يعلم سركم وجهركم في السموات ... الخ .

والقول الثالث - إن قوله : (وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ) وقف تام ، ثم استأنف الخبر فقال (وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ) وهذا اختيار ابن جرير . انتهى .
ورجح ابن عطية في الآية : أنه الذي يقال له (الله) فيهما . قال : وهذا عندي أفضل الأقوال ، وأكثرها إحرازاً لفصاحة اللفظ ، وجزالة المعنى . وإيضاحه : أنه أراد أن يدل على خلقه ، وآيات قدرته ، وإحاطته واستيلائه ، ونحو هذه الصفات . فجمع هذه كلها في قوله (وَهُوَ اللَّهُ - الَّذِي لَهُ هَذِهِ كُلُّهَا - فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ) كأنه قال : وهو الخالق والرازق والحفي والميت فيهما .

تنبيه :

قال الرازي : الآية تدل على كون الإنسان مكتسباً للفعل ، والكسب هو الفعل المفضي إلى اجتلاب نفع ، أو دفع ضرر . ولهذا السبب لا يوصف فعل الله بأنه كسب ، لكونه تعالى منزهاً عن جلب النفع ، ودفع الضرر - والله أعلم - .

(١) يشير إلى قوله تعالى في : [٢١ / الأنبياء / ٩٠] ونصها : فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَاهُ زَوْجَهُ ، إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ، وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤] (وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ)

« وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ » : يعنى : ما يظهر لكفار مكة دليل من الأدلة التى يجب فيها النظر والاعتبار ، أو معجزة من المعجزات ، أو آية من آيات القرآن ، التى من جملتها الآيات السالفة ، الناطقة بمبادئ صنعه وقدرته على البعث « إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ » أى : على وجه التكذيب والاستهزاء ، لقلة خوفهم وتدبرهم ، فى العواقب .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥] (فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ ، فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ)

« فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ » : يعنى : القرآن الذى تُحَدِّثُوا به ، فمعجزوا عنه « فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ » : أى : مصداق أنباء الحق الذى كانوا يكذبون به على سبيل الاستهزاء . وأنباؤه عبارة عما سيحقق بهم من العقوبات العاجلة . فهو وعيد شديد لهم بأنه لا بد لهم أن يذوقوا وبالهم . وقد ذاقوه يوم بدر وغيره .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦] (أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِذْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ)

« أَلَمْ يَرَوْا » أى : ألم يعلموا علماً يشبه الرؤية بالبصر ، لما سمعوا بالتواتر من إتيان المستهزئين قبلهم ، أنباءهم مرارا كثيرة « كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ » ، أى من أمة ، فلم ينبق منها

أحدا ، مثل قوم نوح وعاد وثمود ، وغيرهم من الأمم الماضية ، والقرون الحالية . « مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ » أى : قررناهم وثبتناهم في الأرض ، « مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ » أى : ما لم نجعل لكم من السعة والرفاهية وطول الأعمار ، يأهل مكة ! « وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ » أى المطر . قال المهايى : هو أبلغ من (أَنْزَلْنَا) فى الدلالة على الكثرة ، « عَلَيْهِمْ مِذْرَارًا » أى كثيراً ، « وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمْ » أى من تحت أشجارهم ، فعاشوا فى الخصب بين الأنهار والثمار ، وسقيا الغيث المدرار ، « فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ » أى : بسبب ذنوبهم وكفرهم ، وتكذيبهم رسلكم ، وجعلناهم أحاديث ، فأغنى عنهم ما كانوا فيه . أى وسيحل بهمؤلا مثل ما حل بهم من العذاب . « وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ » أى : بدلا من الهالكين . يعنى : فلا يتعاطمه تعالى أن يهلك هؤلاء ، ويخلق ديارهم منهم ، وينشئ أمة سواهم ، فاهم بأعز على الله منهم . والرسول الذى كذبوه أكرم على الله من رسلكم . فهم أولى بالعذاب ، ومفاجأة العقوبة ، لولا لطفه وإحسانه .

ثم بين تعالى شدة مكابرتهم ، إثر إعراضهم ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] (وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالُوا الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ)

« وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ » أى مكتوباً فى ورق ، « فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ » أى : فسوه ، « لَقَالُوا الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا » أى : ليس هذا المعظم بهذه الوجوه الدالة على أنه لا يكون إلا من الله ، « إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ » تمنناً وعناداً . وتخصيص (اللمس) لأن التزوير لا يقع فيه ، فلا يمكنهم أن يقولوا إنما سكرت أبصارنا ، ولأنه يتقدمه الإبصار ، حيث لا مانع . وتقييده بـ (الأيدى) لرفع التجوز ، فإنه قد يتجوز به للفحص ، كقوله ^(١) : وَأَنَا كَمَسْنَا السَّمَاءَ - أفاده البيضاوى .

(١) [٧٢ / الجن / ٨] . . . فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهْبًا .

قال الناصر في (الانتصاف) : والظاهر أن فائدة زيادة لمسه لهم بأيديهم ، تحقيق القراءة على قرب . أى : فقرءوه وهو في أيديهم ، لا بعيد عنهم ، لما آمنوا .

وقال ابن كثير : وهذا كما قال تعالى مخبراً عن مكابرتهم للمحسوسات : وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَاباً مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ * لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ^(١) . ولقوله تعالى : وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ^(٢) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨] (وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ، وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ)

« وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ » أى : ليكون معه فيكلمنا أنه نبي ، كقوله ^(٣) : لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا .

« وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الْأَمْرُ » جواب لمقترحهم ، وبيان لما نعه ، وهو البقيا عليهم ، كيلا يكونوا كالباحث عن حقه بظلفه . والمعنى : أن الملك لو أنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم في صورته ، وهى آية لا شىء أبين منها وأيقن ، ثم لم يؤمنوا ، لحاق بهم العذاب ، وفرغ الأمر . فإن سنة الله قد جرت في الكفار أنهم متى اقترحوا آية ، ثم لم يؤمنوا ، استؤصلوا بالعذاب ، كما قال تعالى : مَا نُنْزِلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا

(١) [١٥ / الحجر / ١٥ و ١٤] .

(٢) [٥٢ / الطور / ٤٤] .

(٣) [٢٥ / الفرقان / ٧] ونصها : وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا .

إِذَا مُنْظَرِينَ^(١). وقوله تعالى : يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَىٰ لَوْمَدٍ لِلْمُجْرِمِينَ^(٢).
« ثُمَّ لَا يَنْظُرُونَ » أى : لا يمهلون بعد نزوله طرفه عين ، فضلا عن أن يندروا به .
ومعنى (ثم) بعد ما بين الأمرين ، قضاء الأمر ، وعدم الإنظار . جعل عدم الإنظار . أشد من
قضاء الأمر ، لأن مفاجأة الشدة أشد من نفس الشدة .

تنبيه :

ذكر الزخشرى وجهاً ثانياً فى تعجيل عذابهم ، عند نزول الملائكة ، وهو أنه يزول
الاختيار الذى هو قاعدة التكليف ، فيجب إهلاكمهم ، وفى (الكشف) الاختيار قاعدة
التكليف ، وهذه آية ملجئة . قال تعالى : فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا^(٣) .
فوجب إهلاكمهم ، لثلا يبق وجودهم عارياً عن الحكمة ، إذ ما خلقوا إلا للابتلاء بالتكليف ،
وهو لا يبق مع الإلجاء . هذا تقريره على مذهبهم ، وهو غير صاف عن الإشكال . انتهى .
وفيه إشارة إلى أنه ليس على قواعد السنة ، وكأن وجه إشكاله أنه وقع فى القرآن ، والواقع
ما ينافيه ، كما فى قوله تعالى : أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ ... الآية^(٤) - كذا فى (العناية) -

(١) [١٥ / الحجر / ٨] .

(٢) [٢٥ / الفرقان / ٢٢] ... وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا .

(٣) [٤٠ / الفتح / ٨٥] ... سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ ، وَخَسِرَ هُنَالِكَ

الْكَافِرُونَ .

(٤) [٢ / البقرة / ٢٥٩] ونصها : أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ
عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ، فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ، قَالَ
كَمْ كُنْتُ عَمِلْتُ ، قَالَ كُنْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ، قَالَ بَلْ كُنْتُ مِائَةَ عَامٍ فَأَنْظَرُ إِلَىٰ طَعَامِكَ
وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ، وَأَنْظَرُ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ ، وَأَنْظَرُ إِلَىٰ الْعِظَامِ كَيْفَ
نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ، فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

وذكراً أيضاً وجهاً ثالثاً . وهو أنهم إذا شاهدوا ملكاً في صورته ، زهقت أرواحهم من هول ما يشاهدون .

قال في (الانتصاف) : ويقوى هذا الوجه قوله : وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا . قال ابن عباس . ليمكنوا من رؤيته ، ولا يهلكوا من مشاهدة صورته . انتهى .

وهذا الوجه آثره أبو السعود في التقديم حيث قال : أى لو أنزلنا ملكاً على هيئته حسبما اقترحوه ، والحال أنه من هول المنظر ، بحيث لا تطيق بمشاهدته قوى الآحاد البشرية . ألا يرى أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام كانوا يشاهدون الملائكة ويفاضونهم على الصورة البشرية ؟ كضيف إبراهيم ولوط ، وخصم داود عليهم السلام ، وغير ذلك . وحيث كان شأنهم كذلك ، وهم مؤيدون بالقوى القدسية ، فما ظنك بمن عداهم من العوام ؟ فلو شاهدوه كذلك لقضى أمر هلاكهم بالسكية ، واستحال جملة نذيراً ، وهو - مع كونه خلاف مطلوبهم - مستلزم لإخلاء العالم عما عليه يدور نظام الدنيا والآخرة ، من إرسال الرسل ، وتأسيس الشرائع . وقد قال سبحانه : وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ^(١) . انتهى .

وفي (العناية) أن الوجه الثالث لا يناسب قوله (ثُمَّ لَا يَنْظُرُونَ) ، لأنه يدل على إهلاكهم ، لا على هلاكهم ، برؤية الملك ، إلا بتكلف .

هذا ، وقال الناصر في (الانتصاف) : على الوجه الأول لا يحسن أن يجعل سبب مناجرتهم بالهلاك وضوح الآية في نزول الملك . فإنه ربما يفهم هذا الكلام أن الآيات التي لزمهم الإيمان بها دون نزول الملك في الوضوح ، وليس الأمر كذلك . فالوجه - والله أعلم - أن يكون سبب تعجيل عقوبتهم بتقدير نزول الملك وعدم إيمانهم ، أنهم اقترحوا ما لا يتوقف وجوب الإيمان عليه ، إذ الذي يتوقف الوجوب عليه المعجز من حيث كونه معجزاً ، لا المعجز الخاص ،

(١) [١٧ / الإسراء / ١٥] ونصها : مَنْ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ، وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ، وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ، وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا .

فإذا أجيبوا على وفق مقترحهم ، فلم ينجع فيهم ، كانوا حينئذ على غاية من الرسوخ في العناد المناسب لعدم النظرة - والله أعلم -

قال المهامبي : لا دليل على النبوة سوى شهادة الملك ، وتنزيل الملك بصورته المملوكية يقطع أمر التكليف ، إذ لا ينفع الإيمان بعد انكشاف عالم المملوكات ، فلا يملكون ، لأن الإهمال للنظر . والمعجزة - وإن أفادت علماً ضرورياً - لا تخلو عن خفاء يحتاج إلى أدنى نظر ، ولا خفاء مع انكشاف عالم المملوكات ، فلا وجه للإهمال للنظر ، فلا يقبل الإيمان معه ، فلا بد من المؤاخذه عقبيه . انتهى - فليتأمل -

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩] (وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ)

« وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا » جواب ثان . أى : ولو جعلنا النذير الذى اقترحوه ملكاً لثلاثه رجلاً ، لاسم من عدم استطاعة الآحاد ، لمعينة الملك على صورته ، من النور . وإنما رآه كذلك الأفراد من الأنبياء بقوتهم القدسية . « وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ » جواب محذوف . أى : ولو جعلناه رجلاً لشبهنا عليهم ما يشبهون على أنفسهم حينئذ ، بأن يقولوا له : إنما أنت بشر ، ولست بملك . ولو استدلل على ملكيته بالقرآن المعجز ، الناطق بها ، أو بمعجزات آخر غير ملجئة إلى التصديق - لكذبوه ، كما كذبوا النبي عليه الصلاة والسلام . ولو أظهر لهم صورته الأصلية لزم ما تقدم من قضاء الأمر .

تنبيهات

الأول - فى إثبات (رَجُلًا) على (بَشَرًا) إيدان بأن الجمل بطريق التمثيل ، لا بطريق قلب الحقيقة ، وتعيين لما يقع به التمثيل .

الثانى - فى الآية بيان لرحمته تعالى بخلقه ، وهو أنه يرسل إلى كل صنف من الخلائق

رُسُلًا مِنْهُمْ، لِيَدْعُوا بِمَعْشَرَ بَعْضٍ، وَلِيَكُنْ بَعْضُهُمْ أُنْثَىٰ وَبَعْضُهُمْ ذَكَرًا. قَالَتْ تَعَالَىٰ: لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ... (١) الآية. وقال تعالى: قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكَائًا رَسُولًا (٢).

الثالث - التعبير عن تمثيله تعالى (رُجُلًا) باللبس إما لكونه في صورة اللبس، أو لكونه سبباً للبسهم، أو لوقوعه في صحبته بطريق المشاكلة. وفيه تأكيد لاستحالة جعل النذير ملكاً، كأنه قيل: لو فعلناه لفعلنا ما لا يليق بشأننا من لبس الأمر عليهم - أفاده أبو السعود.

الرابع - جوز بعضهم وجهاً ثانياً في قوله تعالى: (وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكَ) وهو أن يكون جواب اقتراح ثان، على أن الضمير عائد للرسول، لا لمقرحهم السابق. قال: لأنهم تارة يقولون: لَوْ لَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ، وتارة يقولون: لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً (٣). والمعنى: ولو جعلنا الرسول ملكاً لمثلناه رجلاً. والظاهر هو الوجه الأول.

(١) [٣ / آل عمران / ١٦٤] ... وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ.

(٢) [١٧ / الإسراء / ٩٥].

(٣) [٤١ / فصلت / ١٤] ونصها: إِذْ جَاءَهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ، قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ.

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠] (وَلَقَدْ اسْتَهْزَيْ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ)

وقوله تعالى : « وَلَقَدْ اسْتَهْزَيْ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ » . تسليية لرسول الله ﷺ عما يلقاه من قومه ، ووعد لهو للمؤمنين به بالنصر ، والعاقة الحسنة في الدنيا والآخرة . و (حاق) بمعنى نزل وحل . ولا يكاد يستعمل إلا في الشر . أى : فنزل بهم وبال استهزائهم ، أو العذاب الذى كانوا يسخرون من التخويف به ، إذ هلكوا في الدنيا على أقبح الوجوه ، ثم ردوا إلى أفظع العذاب أبد الأبد . وجعل الرسل في أعلى منازل القرب من رب العالمين .

ثم أمر تعالى أن يصدعهم بالتجول في الأرض إن ارتابوا فيما تواتر ، أو تعاموا عما رأوا ، بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١] (قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ)

« قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ » أى : سيرا في الأرض لتعرف أحوال أولئك الأمم ، وتفكروا في أنهم كيف أهلكوا لما كذبوا الرسل وعاندوا ، فتمرفوا صحة ما توعظون به . وفي السير في الأرض ، والسفر في البلاد ، ومشاهدة تلك الآثار الخاوية على عروشها - تكملة للاعتبار ، وتقوية للاستبصار . أى : فلا تغتروا بما أنتم عليه من التمتع بلذات الدنيا وشهواتها .

وفي هذه الآية تكملة للتسليية ، بما في ضمنها من العدة اللطيفة ، بأنه سيحقيق بهم مثل ما حاق بأضرابهم المكذبين . وقد أنجز ذلك يوم بدر أى إنجاز .

لطيفة :

وقع هنا (ثُمَّ انْظُرُوا) . وفي النمل ^(١) : قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا . وكذا في العنكبوت ^(٢) . فتكلف بعضهم لتخصيص ما هنا بـ (ثم) ، كما هو مبسوط في (العناية) ، مع ما عليه . ونقل عن بعضهم أن السير متحد فيهما ، ولكنه أمر ممتد ، يعطف بالفاء تارةً ، نظراً لآخره ، وبـ (ثم) نظراً لأوله ، ولا فرق بينهما .
وفي (الانتصاف) : الأظهر أن يجعل الأمر بالسير في المكانين واحداً ، ليكون ذلك سبباً في النظر ، حيث دخلت الفاء ، فلاظهار السببية . وحيث دخلت (ثم) ، فللتنبية على أن النظر هو المقصود من السير ، وأن السير وسيلة إليه لا غير . وشتان بين المقصود والوسيلة - والله أعلم - .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢] (قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، قُلْ لِلَّهِ ، كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ ، لِيَجْمَعَٰنَكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ، الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ)
« قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » أى : خلقاً وملكاً ، وهو سؤال تبكيت وتقريع ، « قُلْ لِلَّهِ » تقرير للجواب ، نيابة عنهم . أى : هو الله ، لا خلاف بيني وبينكم ، ولا تقدرون أن تضيفوا شيئاً منه إلى غيره . ففيه تنبيه على تعينه للجواب اتفاقاً ، كما في قوله تعالى : وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ . ومن المقرر أن أمر السائل بالجواب إنما يحسن في موضع يكون فيه الجواب قد بلغ من الظهور إلى حيث لا يقدر

(١) [٢٧ / النمل / ٦٩] ... كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ .

(٢) [٢٩ / العنكبوت / ٢٠] ... كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ، ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ

الْآخِرَةَ ، إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

على إنكاره منكراً ، ولا على دفعه دافع ، كما هنا . قيل : وفيه إشارة إلى أنهم تثاقفوا في الجواب ، مع تعيينه ، لكونهم محجوجين .

وقوله تعالى « كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ » جملة مستقلة داخلية تحت الأمر ، ناطقة بشمول رحمته الواسعة لجميع الخلق ، شمول ملهه وقدرته للكل ، مسوقة لبيان أنه تعالى رؤوف بعباده ، لا يعجل عليهم بالمقوبة ، ويقبل منهم التوبة والإنابة ، وأن ماسبق ذكره ، وما لحق من أحكام الغضب ، ليس من مقتضيات ذاته تعالى ، بل من جهة الخلق . كيف لا ؟ ومن رحمته أن خلقهم على الفطرة السليمة ، وهداهم إلى معرفته وتوحيده ، بنصب الآيات الأنفسية والآفاقية ، وإرسال الرسل ، وإزالة الكتب المشحونة بالدعوة إلى موجبات رضوانه ، والتحذير عن مقتضيات سخطه . وقد بدلوا فطرة الله تبديلاً ، وأعرضوا عن الآيات بالمرة ، وكذبوا بالكتب ، واستهزؤوا بالرسل ، وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ^(١) . ولولا شمول رحمته لسلك بهؤلاء أيضاً مسلك الغابرين . ومعنى : (كتب الرحمة على نفسه) أنه تعالى أوجبها وقضاها بطريق التفضل والإحسان على ذاته المقدسة ، بالذات ، لا بتوسط شيء أصلاً . وفي التعبير عن (الذات) بـ (النفس) حجة على من ادعى أن لفظ (النفس) لا يطلق على الله تعالى ، وإن أريد به الذات ، إلا مشاكلة . لما ترى من انتفاء المشاكلة ههنا - أفاده أبو السعود - .

وقوله تعالى « لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ » جواب قسم محذوف . والجملة استئناف مسوق للوعيد ، على إشرأ كههم وإغفالهم النظر ، لأنه لما بين كمال إلهيته بقوله (قُلْ لِمَنْ مَّافِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، قُلْ لِلَّهِ) . ثم أخبر بأنه يرحمهم في الدنيا بالإمهال ، ودفع عذاب الاستئصال ، أعلم أنه يجمعهم لذلك اليوم ، ويحاسبهم على كل ما فعلوا ، لأن الملك الحكيم

(١) [٤٣ / الزخرف / ٧٦] .

لا يهمل أمر رعيته ، ولا يسوغ في حكمته أن يسوى بين الطيع والعاصي قيل : (ليجمعنكم) جواب لقوله : (كُتِبَ) ، لأنه يجري مجرى القسم .

وقيل : (لِيَجْمَعَنَّكُمْ) بدل من الرحمة ، بدل البعض .

قال المهايى : كمال الرحمة في الجزاء ، إذ بدونه تضيع مشاق المعارف الإلهية ، والأعمال الصالحة ، وتضيع المظالم ، ولا جزاء في دار الدنيا ، لأنه فرع التكليف ، ودار التكليف لا تكون دار الجزاء ، لأن مشاهدته مانعة من التكليف . انتهى .

و (إلى) بمعنى اللام ، كقوله ^(١) : إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ «لَا رَيْبَ فِيهِ» أى في اليوم ، أو في الجمع .

«الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ» أى : بتضييع رأس مالهم ، وهو الفطرة الأصلية ، والعقل السليم ، والاستعداد القريب الحاصل من مشاهدة الرسول عليه الصلاة والسلام ، واستماع الوحي ، وغير ذلك من آثار الرحمة .

«فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ» أى : لا يصدقون بالمعاد ، ولا يخافون شر ذلك اليوم .

قال أبو السعود : والفاء لتضمن المبتدأ معنى الشرط ، والإشعار بأن عدم إيمانهم بسبب خسرانهم ، فإن إبطال العقل باتباع الحواس ، والانهماك في التقليد ، وإغفال النظر ، أدى بهم إلى الإصرار على الكفر ، والامتناع من الإيمان . والجملة تذييل مسوق من جهة تعالى ، لتقبيح حالهم ، غير داخل تحت الأمر .

تنبيه :

روى في معنى هذه الآية عن أبي هريرة ^(٢) قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لما خلق الله

(١) [٣ / آل عمران / ٩] ونصها : رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ .

(٢) يضطرنا هذا السياق إلى سرد جميع روايات هذا الحديث كما جاءت في كتابنا =

الخلق كتب في كتاب ، فهو عنده فوق العرش : إن رحمتي تغلب غضبي - رواه الشيخان -
وفي البخاريّ : إن الله كتب كتاباً قبل أن يخلق الخلق : إن رحمتي سبقت غضبي ، فهو
مكتوب عنده ، فهو العرش .
وفي رواية لهما : أن الله لما خلق الخلق .

= (جامع مسانيد صحيح البخاريّ) والحديث رقم ١٥٠٩ في الصحيح ورقم ٢٣٤ من مسند
أبي هريرة ، فيها كموها بنصها الكامل :
٥٩ - كتاب بدء الخلق ، ١ - باب ما جاء في قول الله تعالى : وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ
ثُمَّ يُعِيدُهُ .

حدثنا قتيبة بن سعيد . حدثنا مغيرة بن عبد الرحمن القرشيّ عن أبي الزناد ، عن الأعرج ،
عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ « لما قضى الله الخلق كتب في كتابه
فهو عنده فوق العرش : إن رحمتي سبقت غضبي » .

٩٧ - كتاب التوحيد ، ١٥ - باب قول الله تعالى : وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ .

حدثنا عبدان عن أبي حمزة ، عن الأعمش ، عن أبي صالح ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ
قال « لما قضى الله الخلق ، كتب في كتابه ، هو يكتب على نفسه ، وهو وضع عنده على العرش :
إن رحمتي تغلب غضبي » .

٩٧ - كتاب التوحيد ، ٢٢ - باب : وكان عرشه على الماء . وهو رب العرش العظيم .

حدثنا أبو اليان . أخبرنا شعيب . حدثنا أبو الزناد عن الأعرج ، عن أبي هريرة ، عن
النبي ﷺ قال « إن الله لما قضى الخلق ، كتب عنده فوق عرشه : إن رحمتي سبقت غضبي » .

٩٧ - كتاب التوحيد ، ٢٨ - باب وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ .

حدثنا إسماعيل . حدثني مالك عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة رضي الله عنه ؛
أن رسول الله ﷺ قال « لما قضى الله الخلق كتب عنده فوق عرشه ؛ إن رحمتي سبقت غضبي » . =

وعند مسلم : لما قضى الله الخلق ، كتب في كتاب كتبه على نفسه ، فهو موضوع عنده .
 زاد البخاري : على عرش . ثم اتفقا : إن رحمتي تغلب غضبي .
 وسند كره ، إن شاء الله ، شذرة من أحاديث الرحمة عند آية (كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ
 الرَّحْمَةَ) قريباً .

قال أبو السعود : ومعنى سبق الرحمة وغلبتها أنها أقدم تعلقاً بالخلق ، وأكثر وصولاً
 إليهم ، مع أنها من مقتضيات الذات المفضية للخير .

= ٩٧ - كتاب التوحيد ، ٥٥ - باب قول الله تعالى : بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَجِيدٌ فِي لَوْحٍ
 مَحْفُوظٍ .

وقال لي خليفة بن خياط . حدثنا معتمر . سمعت أبي عن قتادة ، عن أبي رافع ، عن
 أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال « لما قضى الله الخلق كتب كتاباً عنده : غلبت (أو قال
 سبقت) رحمتي غضبي ، فهو عنده فوق العرش » .

٩٧ - كتاب التوحيد ، ٥٥ - باب قول الله تعالى : بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَجِيدٌ فِي لَوْحٍ
 مَحْفُوظٍ .

حدثني محمد بن أبي غالب . حدثنا محمد بن إسماعيل . حدثنا معتمر . سمعت أبي يقول :
 حدثنا قتادة ؛ أن أبا رافع حدثه أنه سمع أبا هريرة يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول « إن الله
 كتب كتاباً قبل أن يخلق الخلق ؛ إن رحمتي سبقت غضبي . فهو مكتوب عنده فوق العرش » .
 وأخرجه مسلم في : ٤٩ - كتاب التوبة ، رقم ١٥١٤ و ١٦ (طبعنا) .

الحديث رقم ١٤ ؛ أن النبي ﷺ قال « لما خلق الله الخلق ، كتب في كتابه ، فهو عنده
 فوق العرش : إن رحمتي سبقت غضبي » .

الحديث رقم ١٥ ؛ عن النبي ﷺ « قال الله عز وجل ، سبقت رحمتي غضبي » .
 الحديث رقم ١٦ ؛ قال رسول الله ﷺ « لما قضى الله الخلق ، كتب في كتابه على نفسه ،
 فهو موضوع عنده : إن رحمتي تغلب غضبي » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣] (وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)

«وَلَهُ» أى : والله عز وجل ، «مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ» أى ما استقر وحلّ ، من (السكنى) بمعنى (الحلول) . كقوله تعالى : وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ^(١) . والمعنى : له تعالى كل ما حصل فى الليل والنهار ، مما طلعت عليه الشمس أو غربت . شبه الاستقرار بالزمان ، بالاستقرار فى المكان ، فاستعمل استعماله فيه . أو (سكن) من (السكون) ، مقابل الحركة . أى : ما سكن فيهما وما تحرك ، فاكثف بأحد الضدين عن الآخر ، كما فى قوله : سَرَّابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ^(٢) ، لأن ذلك يعرف بالقرينة . وعليه ، فإنما اكثف بالسكون عن ضده دون العكس . لأن السكون أكثر وجوداً ، والنعمة فيه أكثر .

قال بعضهم : لا حاجة لدعوى الاكتفاء ، فإن ما سكن يعم جميع المخلوقات ، إذ ليس شئ منها غير متصف بالسكون ، حتى المتحرك ، حال حركته ، على ما حقق فى الكلام : من أن تفاوت الحركات بالسرعة والبطء لقلة السكنات المتخللة وكثرتها .
لطيفة .

قال أبو مسلم الأصفهاني : ذكر تعالى فى الآية الأولى السموات والأرض ، إذ لا مكان سواهما . وفى هذه الآية ذكر الليل والنهار ، إذ لا زمان سواهما . فالزمان والمكان طرفان
(١) [١٤ / إبراهيم / ٤٥] . . . وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمْ
الْأَمْثَالَ .

(٢) [١٦ / النحل / ٨١] ونصها : وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا ، وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا ، وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ ، وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمُ
بَأْسَكُمْ ، كَذَلِكَ يُبَيِّنُ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ .

للمحدثات ، فأخبر سبحانه أنه مالك للمكان والمكانيات ، ومالك للزمان والزمانيات . وهذا بيان في غاية الجلالة .

وقال الرازي : ههنا دقيقة أخرى . وهو أن الابتداء وقع بذكر المكان والمكانيات ، ثم ذكر عقيبه الزمان والزمانيات . وذلك لأن المكان والمكانيات أقرب إلى العقول والأفكار من الزمان والزمانيات ، لدقائق مذكورة في العقلات الصرفة . والتعليم الكامل هو الذي يبدأ فيه بالأظهر فالأظهر مترقياً إلى الأخفى فالأخفى . وهذا من سر نظم الآية مع ما قبلها . « وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ » يسمع كل مسموع ، ويعلم كل معلوم ، فلا يخفى عليه شيء مما يشتمل عليه المكوّن .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٤] (قُلْ أَغَيَّرَ اللَّهُ اتَّخِذْ وَلِيًّا فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعَمُ وَلَا يُطْعَمُ ، قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ، وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)

« قُلْ » أى لكفار مكة المبكّتين بما تقدم : « أَغَيَّرَ اللَّهُ اتَّخِذْ وَلِيًّا » أى معبوداً . كقوله تعالى : قُلْ أَغَيَّرَ اللَّهُ تَأْمُرُونَنِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ . والمعنى : لا اتّخذ وليّاً إلا الله وحده . « فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » أى : خالقهما ومبدعهما على غير مثال سبق . بالجر ، صفة للجلالة ، مؤكدة للإنكار ، « وَهُوَ يُطْعَمُ وَلَا يُطْعَمُ » أى : يرزق ولا يرزق . أى : المنافع كلها من عنده ، ولا يجوز عليه الانتفاع . أى : فيجب اتّخاذه وليّاً ليعبد شكراً على إنعامه ، وكفايته الحوائج بلا طلب عوض . قيل : المراد بالطعم الرزق ، بمعناه اللغوى . وهو كل ما ينتفع به ، بدليل وقوعه مقابلاً له في قوله تعالى : مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا^(١) . فمبر بالخاص عن العام مجازاً ، لأنه أعظمه وأكثره ، لشدة الحاجة إليه . واكتفى به عن العام ، لأنه يعلم ، من نقي ذلك ، نقي ما سواه .

(١) [٥١ / الذاريات / ٥٧] .

«قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ». أى : وجهه لله خلاصاً له ، لأصير متبوعاً للباقيين . كقوله : وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ^(١) . وكقول موسى : سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ^(٢) .

«وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ» أى : وقيل لى : (وَلَا تَكُونَنَّ) . فهو معطوف على (أُمِرْتُ) بمعنى : أمرت بالإسلام ، ونهيت عن الشرك صريحاً مؤكداً ، بعد النهى فى ضمن الأمر . ونهى المتبوع نهى التابعين . ويجوز عطفه على (قُلْ) . وفى الآية إرشاد إلى أن كل أمر ينبغى أن يكون عاملاً بما أمر به ، لأنه مقتداهم . قيل : هذه الآية للتحريض ، كما يأمر الملك رعيته بأمر ، ثم يقول : وأنا أول من يفعل ذلك ، ليحملهم على الامتثال .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥] (قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ)

«قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي» أى : بمخالفة أمره ونهيه أى عصيان . فيدخل فيه ما ذكر دخولا أولياً . «عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ» يعنى : عذاب يوم القيامة ، الذى تظهر فيه عظمة القهر الإلهى . وفى الآية مبالغة أخرى فى قطع أطاعهم ، وتعريض لهم بأنهم عصاة مستوجبون للعذاب العظيم . ووجه التعريض إسناد ما هو معلوم الانتفاء ، بـ (إِنْ) التى تفيد الشك تعريضاً . وجىء بالماضى إبرازاً له فى صورة الحاصل على سبيل الفرض ، تعريضاً

(١) [٦ / الأنعام / ١٦٣] ونصها : لَا شَرِيكَ لَهُ . . .

(٢) [٧ / الأعراف / ١٤٣] ونصها : وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ ، قَالَ لَنْ تَرََانِي وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرََانِي ، فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ، فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ .

بمن صدر عنهم ذلك . وحيث كان تعريضا لهم ، والمراد تخويفهم إذا صدر منهم ذلك - لم يكن فيه دلالة على أنه يخاف هو ﷺ على نفسه المعصية ، مع أنه معصوم . كما لا يتوهم مثله في قوله : لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ^(١) . وحينئذ فلا حاجة إلى ما أجيب عن ظاهر دلالاته على ما ذكر ، بأن الخوف تعلق بالمصيان الممتنع الوقوع امتناعاً عادياً ، فلا يدل إلا على أنه يخاف لو صدر عنه العصيان . وهذا لا يدل على حصول الخوف .

قال بعضهم : لا يقال على تقدير العصيان ، يكون الجواب هو استحقاق العذاب ، لا الخوف . لأننا نقول : لا منافاة بينهما . فالخوف إما على حقيقته ، أو كناية عن الاستحقاق . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٦] (مَنْ يُصْرِفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ ، وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ)

« مَنْ يُصْرِفْ » بالبناء للمفعول ، أى العذاب ، « عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ » أى : نجاه وأنعم عليه ، أو أدخله الجنة ، لقوله : فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ^(٢) ، وقوله : يَدْخُلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ^(٣) والجملة مستأنفة ، مؤكدة تهويل العذاب . « وَذَلِكَ » أى الصرف أو الرحمة ، « الْفَوْزُ الْمُبِينُ » أى : الظاهر . ثم ذكر تعالى دليلاً آخر ، فى أنه لا يجوز للعاقل أن يتخذ ولياً غير الله تعالى ، بقوله :

(١) [٣٩ / الزمر / ٦٥] ونصها : وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ ..

(٢) [٣ / آل عمران / ١٨٥] ونصها : كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ، وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ الْجُورَ كُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ، وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ .

(٣) [٤٢ / الشورى / ٨] ونصها : وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يَدْخُلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ ، وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ .

انقول في تأويل قوله تعالى :

[١٧] (وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ، وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

« وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ » أى ببلية ، كفقْر ومرض ونحوها . و(الضر) : اسم جامع لما ينال الإنسان من مكروه ، « فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ » أى : فلا يقدر على دفعه إلا هو وحده . « وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ » من عافية ورخاء ونحوها : و (الخير) اسم جامع لما ينال الإنسان من محبوب له ، « فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » أى : ومن جملته ذلك ، فيقدر عليه ، فيمسك به ، ويحفظه عليك من غير أن يقدر على دفعه أو رفعه أحد . كقوله تعالى : فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ^(١) . وكقوله سبحانه : مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ^(٢) .

وفى الصحيح^(٣) أن رسول الله ﷺ كان يقول : اللهم ! لا مانع لما أعطيت ، ولا معطى لما منعت ، ولا ينفع ذا الجد منك الجد .

(١) [١٠/يونس/١٠٧] ونصها : وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ ، وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ ، يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ، وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ .
(٢) [٣٥/فاطر/٢] ... وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ .

(٣) أخرجه البخارى فى : ١٠ - كتاب الأذان ، ١٥٥ - باب الذكر بعد الصلاة ،

حديث رقم ٥٠٠ وهذا نصه :

عن وَرَّاد ، كاتب المغيرة بن شعبة قال : أُملى على المغيرة بن شعبة ، فى كتاب إلى معاوية : أن النبى ﷺ كان يقول فى دُبُر كل صلاة مكتوبة « لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير . اللهم ! لا مانع لما أعطيت ، ولا معطى لما منعت ، ولا ينفع ذا الجد منك الجد » .

وعن ابن عباس رضى الله عنه ^(١) قال : كنت خلف النبي ﷺ فقال : يا غلام ! إني أعلمك كلمات : احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله . واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء ، لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله تعالى لك ، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء ، لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله تعالى عليك . رقت الأفلام ، وجفت الصحف - رواه الترمذى - وقال : حسن صحيح .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] (وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ، وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ)

« وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ » أى : هو الغالب بقدرته ، المستعلى فوق عباده ، يدبر أمرهم بما يريد ، فيقع فى ذلك ما يشق عليهم ويثقل وينعم ويحزن ، فلا يستطيع أحد منهم ردّ تدبيره ، والخروج من تحت قهره وتقديره .
قال أبو البقاء : فى (فوق) وجهان :

أحدهما - فى موضع نصب على الحال من الضمير فى (القاهر) أى : مستعليا وغالبا .
والثانى - فى موضع رفع على أنه بدل من (القاهر) أو خبر ثان .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩] (قُلْ أَيْ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً ، قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ، وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ ، أَأَنْتُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ إِلَهَةً أُخْرَى ، قُلْ لَا أَشْهَدُ ، قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِنِّى بَرِّىءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ)
« قُلْ أَيْ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً » أى بحيث لا يمكن معارضته بما يساويه « قُلِ اللَّهُ »

(١) أخرجه الترمذى فى : ٣٥ - كتاب القيامة ، ٥٩ - باب حدثنا بشر بن هلال البصرى .

أى : أكبر شهادة ، إذ لا احتمال لطروء الكذب فى خبره أصلاً ، جل شأنه . وأمره ﷺ بأن يتولى الجواب بنفسه ، إما للإيدان بتمينه ، وعدم قدرتهم على أن يجيبوا بغيره ، أولاً أنهم ربما يتلعثمون فيه ، لا لتردهم فى أنه تعالى أكبر من كل شيء ، بل فى كونه شهيداً فى هذا الشأن .

وقوله تعالى « شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ » خبر لمحذوف ، أو خبر عن لفظ الجلالة . ودل على جواب (أى) من طريق المعنى ، لأنه إذا كان تعالى هو الشهيد بينه وبينهم ، كان أكبر شيء شهادة ، شهيداً له . فيكون من الأسلوب الحكيم ، لأنه عدل عن الجواب المتبادر - إليه ، ليدل على أن أكبر شيء شهادة شهيد للرسول ، فإن الله أكبر شيء شهادة ، والله شهيد له ، فينتج الأكبر شهادة شهيد له . والقياس المذكور من الشكل الثالث ، لأن الحد الأوسط موضوع فى المقدمتين ، لا من الثانى ، كما وقع للشهاب فى (العناية) وهو من بداهيات الميزان .

قال بعضهم : الغرض من السؤال بـ (أى شيء أكبر شهادة) أن شاهدى أكبر شهادة . فقوله (شهيداً ...) الخ تنصيص له ، والسؤال المذكور لا يحتاج إلى جواب ، لكونه معلوماً بيئاً عند الخصم ، فحاصله أن الله الذى هو أكبر شهادة ، شهد بذلك . انتهى . ومعنى (شهيداً) مبالغ فى الشهادة على نبوتى ، بحيث يقطع النزاع بينى وبينكم ، إذ شهد سبحانه بالقول فى الكتب التى أنزلها على الأولين ، وبالفعل فيما ظهر على يدي من المعجزات ، لا سيما معجزة القرآن ، كما قال تعالى :

« وَأَوْحَىٰ إِلَيْنَا هَٰذَا الْقُرْآنُ » أى : الجامع للعلوم التى يحتاج إليها فى المعارف والشرائع ، فى ألفاظ يسيرة ، فى أقصى مراتب الحسن والبلاغة ، معجزة شاهدة بصحة رسالتى . لأنكم أنتم الفصحاء والبلغاء ، وقد عجّزتم عن معارضته « لِأَنذَرَكُمْ بِهِ » ، أى بما فيه من الوعيد ، « وَمَنْ بَلَغَ » عطف على ضمير مخاطبين . أى : لأنذركم به ، يا أهل مكة ! وسائر من بلغه

من الناس كافة ، فهو نذير لكل من بلغه ، كقوله تعالى : وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ
فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ^(١) .

« أَتُنْكُمُ لِلشَّهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ إِلَهَةً أُخْرَى » تقرير لهم مع إنكار واستبعاد .
« قُلْ لَا أَشْهَدُ » بما تشهدون ، « قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ » أى : بل أشهد أن لا
إله إلا هو ، لا يشارك في إلهيته ، ولا في صفات كماله « وَإِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ »
يعنى : الأصنام .
وفي هذه الآية :

مسائل :

الأولى - استدل الجمهور بقوله تعالى (قُلِ اللَّهُ) في جواب (أَى شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً)
على جواز إطلاق (الشىء) عليه تعالى . وكذا بقوله سبحانه وتعالى : كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ
إِلَّا وَجْهَهُ^(٢) ، فإن المستثنى يجب أن يدخل تحت المستثنى منه ، وذلك لأن الشىء أعم العام
- كما قال سيبويه - لوقوعه على كل ما يصح أن يعلم ويخبر عنه . واختار الزمخشري شموله حتى
للمستحيل . وصرح كثير من المحققين بأنه يختص بالوجود ؛ وضعفوا من أطلقه على المدوم ،
بأنه محجوج بعدم استعمال العرب ذلك ، كما علم باستقراء كلامهم ، وبنحو . كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ

(١) [١١ / هود / ١٧] ونصها : أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيْتَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ
وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً ، أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ، وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ
الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ ، فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ ، إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ
النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ .

(٢) [٢٨ / القصص / ٨٨] ونصها : وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ . لَا إِلَهَ إِلَّا
هُوَ ، كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ، لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ .

إِلَّا وَجْهَهُ ، إذ المدموم لا يتصف بالهلاك ، وبنحو: وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ (١) .
إذ المدموم لا يتصور منه التسبيح .

قال الناصر في (الاتصاف) : هذه المسألة معدودة من علم الكلام باعتبار ما ، وأما
هذا البحث فلفظي ، والتحاكم فيه لأهل اللغة . وظاهر قولهم : غضبت من لا شيء . و
* إذا رأى غير شيء ظنه رجلاً (٢) *

- أن الشيء لا ينطلق إلا على الوجود ، إذ لو كان الشيء كل ما يصح أن يعلم ، عدماً كان
أو وجوداً ، أو ممكناً أو مستحيلاً ، لما صدق على أمرٍ ما أنه ليس بشيء ، والأمر في ذلك
قريب . انتهى .

(١) [١٧ / الإسرائ / ٤٤] ونصها : تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ
فِيهِنَّ ، وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ، إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا
غَفُورًا .

(٢) صدر البيت :

* وضائق الأرض حتى كان هاربهم *

من قصيدة لأبي الطيب المتنبي ، قالها في صباه ، يمدح سعيد بن عبد الله بن الحسن
ابن الكلابي المنبجي .
ومطلعها :

أَحْيَا ! وَأَيْسَرُ مَا لَاقَيْتُ مَا قَتَلَا وَالْبَيْنُ جَارٌ عَلَى ضَعْفِي وَمَا عَدَلَا

قال الواحدى : يعنى لشدة ما لحقهم من الخوف ضاقت عليهم الأرض ، فلم يجدوا مهرباً
- كقوله تعالى : ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ - وهاربهم إذا رأى غير شيء يعبأ به
أو يفكر في مثله ، ظنه إنساناً يطلبه . وكذا عادة الهارب الخائف . كقول جرير :
ما زلت تحسب كل شيء بعدهم خيلاً تكرّر عليهم ، ورجلاً

هذا ، وتمسك مَنْ منع إطلاقه عليه تعالى بقوله تعالى : وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا^(١) . والاسم إنما يحسن لحسن مسماه ، وهو أن يدل على صفة من صفات الكمال ، ونعت من نعوت الجلال . ولفظ (الشيء) أعم الأشياء ، فيكون مسماه حاصلًا في أحسن الأشياء وفي أردلها . ومتى كان كذلك ، لم يكن المسمى بهذا اللفظ صفة من صفات الكمال ، فوجب أن لا يجوز دعوة الله بهذا الاسم ، لأنه ليس من الأسماء الحسنى ، وقد أمر تعالى بأن يدعى بها . وأجيب : بأن كونه ليس من الأسماء الحسنى ، لكونها توقيفية ، وكونه لا يدعى به لعدم وروده - لا ينافي شموله للذات العلية ، شمول العام . والمراد بإطلاقه عليه تعالى (فيما تقدم) شموله ، لا تسميته به . وبالجملة ، فلا يلزم من كونه ليس من الأسماء الحسنى ، أن لا يشمل الذات المقدسة شمولًا كليًا ، كيف ؟ وهو الموضوعات العامة . والتحكم للغويين في ذلك - كما قدمنا - .

الثانية - ما أسلفناه من أن المعنى بالشهادة هو شهادته تعالى في ثبوت النبوة له ﷺ ، هو الذى جنح إليه الأكثر . وكأن مشركى مكة طلبوا منه صلى الله عليه وسلم شاهدًا على نبوته . فقيل لهم : أكبر شئ شهادة هو الله تعالى ، وقد شهد لى بالنبوة ، لأنه أوحى إلى هذا القرآن ، وتحدّاكم بمعارضته ، فمجزتم ، وأنتم أنتم فى مقام البلاغة . وإذ كان معجزاً ، كان إظهاره تعالى إياه على وفق دعواى ، شهادةً منه على صدق فى النبوة .

ولبعضهم وجه آخر ، وهو أن المعنى ، شهادته تعالى فى ثبوت وحدانيته ، ونزله عن الأنداد والأشباه . ويرشحه تنمة الآية ، وهو قوله : (أَتُنْكُمُ لِلشَّهَدُونَ . . .) الخ وقوله (شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ . . .)^(٢) الآية ، وقوله (فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ

(١) [٧ / الأعراف / ١٨٠] ونصها : وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ، وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ، سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ .

(٢) [٣ / آل عمران / ١٨] ونصها : شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ .

مَعَهُمْ^(١) ، مما يدل على أن الشهادة إنما عنى بها ، في موارد التنزيل ، ثبوت الوجدانية .
والقرآن يفسر بعضه بعضا - والله أعلم - .

الثالثة - إنما اقتصر على الإنذار في قوله (لِأَنْذِرَكُمْ بِهِ) لكون الخطاب مع كفار مكة ، وليس فيهم من يبشّر . أو اكتفى به عن ذكر البشارة على حدّ (سَرَّائِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ)^(٢) .

الرابعة - استدل بقوله تعالى (لِأَنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ) على أنه ﷺ مبعوث إلى الناس كافة ، وإلى الجن .

الخامسة - استدل به أيضاً على أن أحكام القرآن تعمّ الموجودين يوم نزوله ، ومن سيوجد بعدُ إلى يوم القيامة ، خلا أن ذلك بطريق العبارة في السكل - عند الحنابلة - وبالإجماع عندنا في غير الموجودين ، وفي غير المكلفين يومئذ - أفاده أبو السعود - .

السادسة - روى ابن أبي حاتم عن محمد بن كعب في قوله (وَمَنْ بَلَغَ) : من بلغه القرآن ، فكأنما رأى النبي ﷺ وكلمه . ورواه ابن جرير^(٣) عنه بلفظ : من بلغه القرآن فقد أبلغه محمد ﷺ .

(١) [٦ / الأنعام / ١٥٠] ونصها : قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمْ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا ، فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ، وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ .

(٢) [١٦ / النحل / ٨١] ونصها : وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمُ بَأْسَكُمْ ، كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ .

(٣) الأثر رقم ١٣١٢٤ من التفسير .

وروى ^(١) عبد الرزاق عن قتادة في هذه الآية ؛ أن رسول الله ﷺ قال : بلغوا عن الله ، فمن بلغته آية من كتاب الله ، فقد بلغه أمر الله .

وقال الربيع بن أنس : حق على من اتبع رسول الله ﷺ ، أن يدعو كالذي دعا رسول الله ﷺ ، وأن يندر بالذي أنذر .

السابعة - دلّ قوله تعالى (قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ) وقوله (وَإِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ) على إثبات التوحيد بأعظم طرق البيان ، وأبلغ وجوه التأكيـد . لأن (إنما) تفيد الحصر ، و(الواحد) صريح في نفي الشركاء . ثم صرح بالبراءة عن إثبات الشركاء . وقد استحب الشافعي لمن أسلم بعد إتيانه بالشهادتين ، أن يتبرأ من كل دين سوى دين الإسلام ، لقوله (وَإِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ) عقب التصريح بالتوحيد .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ . الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ)

وقوله تعالى « الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ » يعني : اليهود والنصارى « يَعْرِفُونَهُ » أى : يعرفون رسول الله ﷺ بحليته ونعته الثابت في الكتابين « كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ » بحلاهم ونعوتهم ، لا يخفون عليهم ، ولا يلتبسون بغيرهم .

قال المهيبي : لأنه ﷺ ذكر في الكتاب نعمته . وهو ، وإن لم يفد تعينه باللون والشكل والزمان والمكان ، تعين بقرائن المعجزات . فبقاء الاحتمال البعيد فيه ، كبقائه في الولد ، بأنه يمكن أن يكون غير ما ولدته امرأته ، أو يكون من الفجور ، مع دلالة القرائن على براءتها من التزوير والفجور . فهو ، كما يعرفون أبناءهم في ارتفاع الاحتمال البعيد بالقرائن على براءتها .

(١) الأثر رقم ١٣١١٩ من تفسير ابن جرير .

قال الزخشرى : وهذا استشهاد لأهل مكة بمعرفة أهل الكتاب ، وبصحة نبوته .
ثم بين تعالى أن إنكاره خسران لما عرفوه ، ولما أمروا بالدين به بقوله « الَّذِينَ خَسِرُوا
أَنْفُسَهُمْ » أى : من المشركين « فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ » أى : بهذا الأمر الجلى الظاهر الذى
بشرت به الأنبياء ، وتوّهت به ، لأنه مطبوع على قلوبهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١] (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ، إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ
الظَّالِمُونَ)

« وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا » كقولهم : الملائكة بنات الله^(١) ،
وهؤلاء شفعاؤنا عند الله . قال تعالى : وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ
أَمْرًا نَّابِهًا^(٢) .

(١) [٦ / الأنعام / ١٠٠] ونصها : وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا
لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُصِفُونَ .
و [١٦ / النحل / ٥٧] ونصها : وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ .
و [١٧ / الإسراء / ٤٠] ونصها : أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمُ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ
الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا ، إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا .

و [٣٧ / الصافات / ١٥٠] ونصها : أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ .
و [٤٣ / الزخرف / ١٩] ونصها : وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا
أَشْهَدُوا خَلَقَهُمْ ، سَتَكْتُبُ شَهَادَتَهُمْ وَيُسْأَلُونَ .

و [٥٣ / النجم / ٢٧] ونصها : إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيَسْمَعُونَ الْمَلَائِكَةَ
تَسْمِيَةَ الْأُنثَىٰ .

(٢) [٧ / الأعراف / ٢٨] ونصها : وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا =

« أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ » أى : القرآن والمعجزات ، حيث سموها سحرًا . وإنما ذكر (أو) مع أنهم جمعوا بين الأمرين ، تنبيهاً على أن كلا منهما وحده بالغ غاية الإفراط في الظلم على النفس . فكيف ؟ وهم قد جمعوا بينهما ، فأثبتوا ما نفاه الله تعالى ، ونفوا ما أثبتته .

« إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ » أى : لا ينجون من مكروه ، ولا يفوزون بمطلوب . وإذا كان حال الظالمين هذا ، فكيف بمن لا أحد أظلم منه ؟

تنبيه :

ما ذكرناه من كون الموصول كناية عن المشرकिन هو الظاهر ، لأن السورة مكية ، والخطاب مع مشركي أهلها . وجعله البيضاوى لهم ، ولأهل الكتاب ، وقوفاً مع عموم اللفظ . والمهايمى : لأهل الكتاب خاصة ، ربطاً للآية بما قبلها . والظاهر الأول ، لما قلنا . وعبارة المهايمى : (الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ) بتفويت ما أوتوا من الكتاب ، وما أمروا به ، فهم لا يؤمنون . وكيف لا يخسرون ، وهم ظالمون ، وكل ظالم خاسر ؟ وإنما قلنا : إنهم ظالمون ، لأنهم يحرفون كتاب الله لفظاً أو معنى ، فيفترون على الله الكذب ، ويكذبون آيات الله من كتابهم ، ومعجزات محمد ﷺ وكتابه . وقد يسترون بعض ما في كتابهم ، وهو أيضاً تكذيب . فعلوا جميع ذلك لأنه لا يتأتى لهم ترك الإيمان بمحمد ﷺ بدون أحد هذه الأمور . وقال في قوله تعالى (وَمَنْ أَظْلَمُ ...) الآية : لأنهم بالتحريف يدعون إلهية أنفسهم ، وبالتكذيب يريدون تعجيز الله عن تصديقه الرسل ، وينسبون إيجادها إلى غير الله ، مع افتقارها إلى القدرة الكاملة . وإنما قلنا : كل ظالم خاسر ، لأن كل ظالم لا يفلح . كما قال تعالى (إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ) أى : لا يفلحون في الدنيا بانقطاع الحجة عنهم ، وظهور المسلمين عليهم . وفيه إشارة إلى أن مدعى الرسالة ، لو كان كاذباً كان مفترياً على الله ، فلا يكون مفلحاً ، فلا يكون سبباً لصلاح العالم ، ولا محلاً لظهور المعجزات . انتهى .

وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ، قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ ، أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاءُكُمْ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ)

« وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ » أى : الإنس والجن والشياطين . منصوب بمضمر تهويلًا للأمر . « جَمِيعًا » ليفتضح من لا يفلح من الظالمين مزيد افتضاح ، ويظهر المفلحون بكال الإعزاز . « ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا » أى مضوا على الشرك ، بأن ماتوا عليه ، وهم الشاهدون أن مع الله آلهة أخرى « أَيْنَ شُرَكَاءُكُمْ » أى الذين جعلتموهم شركاءنا ، وهم شركاؤكم في العبودية - كذا قاله المهايمى - وعليه ، فالإضافة على بابها .

وفى (العناية) : الإضافة فيه لأدنى ملابسة ، كما أشار إليه القاضى بقوله : أى آلهتكم التى جعلتموها شركاء لله ، لأنه لا شركة بينهم ، وإنما سموهم شركاء ، فلهذه الملابسة أضيفوا إليهم .

قيل : قوله تعالى (احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ) يقتضى حضورهم معهم فى المحشر ، و (أين) يسأل بها عن غير الحاضر ؟ أوجب بأنه بتقدير مضاف . أى : أين نفهمهم وشفاعتهم ، أو أنهم بمنزلة الغيب ، لعدم ما رجوا منهم من الشفاعة . وعلى كلِّ ، فالقصد من السؤال توبيخهم وتقريعهم ، وأن يقرر فى نفوسهم أن ما كانوا يرجونه مأیوس منه . وذلك تنبيه لهم فى دار الدنيا على فساد هذه الطريقة . وقوله تعالى « الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ » أى : تزعمونها شركاء من عند أنفسكم . أى : فقصدتم بذلك فعل الفاتنين فى الملكة بجعلها لغير من هى له .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٣] (ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ)

« ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتَهُمْ » أى : جواب ما اعترض به على فتنتهم التى هى شهادة أن مع الله آلهة أخرى . وعبر عن جوابهم بالفتنة ، لأنه كذب « إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ » اعتذروا عن أصنامهم بنفيها مؤكداً بالقسم بالاسم الجامع ، مع نسبة الربوبية إليه تعالى ، لا إلى ما سواه ، مبالغة فى التبرؤ من الإشراك . فكان هذا العذر ذنباً آخر مؤكداً لافتراءهم بالإشراك الذى نفوه . كما قال تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٤] (انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ)

« انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ » أى : بنى الإشراك عنها أمام علام الغيوب ، بحضرة من لا ينحصر من الشهود « وَضَلَّ » أى : وكيف ضاع وغاب « عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ » أى : من الشركاء ، فلم تغن عنهم شيئاً ، ففقدوا ما رجوا من شفاعتها ونصرتها لهم ، كقوله تعالى : (ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَئِنَّ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا)^(١) ف (ما) موصولة ، كناية عن الشركاء . وإيقاع الافتراء عليها ، مع أنه فى الحقيقة واقع على أحوالها من الإلهية ، والشركة والشفاعة ونحوها - للمبالغة فى أمرها ، كأنها نفس المفتري .

(١) [٧ / الأعراف / ٣٧] ونصها : فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ

كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ، أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ ، حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ رَسُولُنَا يُتَوَفَّوهُمْ قَالُوا أَئِنَّ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ، قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ .

تنبيهات :

الأول - ما ذكرناه من أنه عبر عن جوابهم بالفتنة هو الأظهر . فالمراد : الجواب بما هو كذب ، لأنه سبب الفتنة ، فتجوز بها إطلاقاً للمسبب على السبب ، أو هو استعارة . وقيل : الفتنة بمعنى العذر ، لأنها التخليص من الغش لغة ، والعذر يختص من الذنب ، فاستعيرت له . وقيل : بمعنى الكفر ، لأن الفتنة ما تفتن به ويمجيك ، وهم كانوا معجبين بكفرهم مفتخرين به ، ويظنون شيئاً ، فلم تكن عاقبته إلا الخسران ، والتبرؤ منه ، وليس هذا على تقدير مضاف ، بل جعل عاقبة الشيء عينه ، ادعاءً .

قال الزجاج : تأويل هذه الآية حسن في اللغة ، لا يعرفه إلا من عرف معاني الكلام ، وتصرف العرب في ذلك . وذلك أن الله تعالى بين كون المشركين مفتونين بشركهم ، متهاككين على حبه . فأعلم في هذه الآية ، أنه لم يكن افتتانهم بشركهم ، وإقامتهم عليه ، إلا أن تبرؤوا منه وتبعدوا عنه ، فخلفوا أنهم ما كانوا مشركين . ومثاله : أن ترى إنساناً يحب غاوياً مذموم الطريقة ، فإذا وقع في محنة بسببه تبرأ منه ، فيقال له : ما كانت محبتك لفلان إلا أن انتفيت منه .

قال الخفاجي - بعد نقله ما ذكر - : وليس هذا من قبيل عتابك السيف ، ولا من تقدير المضاف ، وإن صح فاحفظه ، فإنه من البدائع الروائع .

الثاني - ما بيناه من أن (ما) في قوله تعالى : (وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ) موصولة ، كناية عن الشركاء ، بمعنى عدم إغنائها عنهم - هو الموافق للآية الثانية التي سقناها . وجوز كونها مصدرية . أي : انظر كيف ذهب وزال عنهم افتراؤهم من الإشراك ، حتى نفوا صدوره عنهم بالسكينة ، وتبرؤوا منه بالمرة .

هذا ، وجعل الناصر في (الانتصاف) (ضلَّ) بمعنى سلبوا علمه ، فكأنهم نسوه وذهلوه دهشاً . وهو بعيد ، لعدم ملاقاته للآية الأخرى . والتزبل يفسر بعضه بعضاً . وعبارته :

في الآية دليل بين على أن الإخبار بالشئ على خلاف ما هو به ، كذب ، وإن لم يعلم الخبر مخالفة خبره بمخبره . ألا تراه جعل إخبارهم وتبريهم كذباً ؟ مع أنه تعالى أخبر أنهم ضل عنهم ما كانوا يفترون . أى : سلبوا علمه حينئذ دهشاً وحيرة ، فلم يرفع ذلك إطلاق الكذب عليهم . انتهى .

الثالث - قال الزمخشري : فإن قلت : كيف يصح أن يكذبوا حين يطلعون على حقائق الأمور ، وعلى أن الكذب والجحود لا وجه لمنفعته ؟ .

قلت : الممتحن ينطق بما ينفعه وبما لا ينفعه ، من غير تمييز بينهما ، حيرة ودهشاً . ألا تراه يقولون : رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ^(١) ؟ وقد أيقنوا بالخلود ، ولم يشكوا فيه . وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ^(٢) ، وقد علموا أنه لا يقضى عليهم .

وأما قول من يقول : معناه ما كنا مشركين عند أنفسنا ، وما علمنا أنا على خطأ في معتقدنا ، وحمل قوله : (انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ) يعنى في الدنيا - فتمحل وتعسف وتحريف لأفصح الكلام ، إلى ما هو عي وإفحام . لأن المعنى الذى ذهبوا إليه ، ليس هذا الكلام بترجم عنه ، ولا منطبق عليه ، وهو ناب عنه أشد النبوة . وما أدري ما يصنع ، مَنْ ذَلِكَ تَفْسِيرُهُ ، بقوله تعالى : يَوْمَ يَبْعَثُهُمْ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ ، أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ^(٣) بعد قوله : وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ، فشبه كذبهم في الآخرة بكذبهم في الدنيا . انتهى .

والقول المذكور ، والحمل الذى ناقش فيه ، أصله لأبي على الجبائي والقاضى . فإنهما

(١) [٢٣ / المؤمنون / ١٠٧] .

(٢) [٤٣ / الزخرف / ٧٧] . . . قَالَ إِنَّكُمْ مَا كَاثُونَ .

(٣) [٥٨ / المجادلة / ١٨] .

ذهبا إلى أن أهل القيامة لا يجوز إقدامهم على الكذب ، واعتلا بوجوه واهية ساقها الرازي .
فلتنظر ثمت ، فإننا لا نسود وجوه صحائفنا بما فيه تحكيم العقل على النقل .

ثم بين تعالى بعض ما كان يصدر من مشركي مكة ، مما طبع على قلوبهم بسببه فقال سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٥] (وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ، وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا، وَإِنْ يَرَوْا كَلَاءً آيَةً لَا يُؤْمِنُوا بِهَا، حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ)

« وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ » أى : يصنعى حين تملو القرآن ، ولا يجزى عنه شيئا ،
لأنه لا يتدبر فيه حتى يطلع على إعجازه ، ويؤثر فيه الإرشاد « وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً » أى
حُجُبًا ، جمع كنان . كغطاء وأعطية ، لفظا ومعنى « أَنْ يَفْقَهُوهُ » أى : كراهة أن يفهموا ، ببواطن
قلوبهم ، بواطنه التي بها إعجازه وإرشاده ، بإقامة الدلائل ورفع الشبه . « وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا »
أى : وجعلنا في آذانهم ، التي هي طريق الوصول إلى بواطن القلوب ، صمما مانعا من وصول
السمع النافع . وقد مرّ في أول البقرة تحقيق ذلك . فتذكر !

وقوله تعالى « وَإِنْ يَرَوْا كَلَاءً آيَةً لَا يُؤْمِنُوا بِهَا » إشارة إلى أنه لا يختص ما ذكر
منهم بالقرآن ، لرؤيتهم قصورا فيه ، بل مهما يروا من الآيات والحجج مما يدل على صدق
الرسول لا يؤمنوا بها ، ويحملوها على السحر . لفرط عنادهم ، واستحكام التقليد فيهم ،
فلا فهم عندهم ولا إنصاف . كقوله تعالى : وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ ^(١) .

« حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ » أى : بلغ تكذيبهم الآيات إلى أنهم إذا جاءوك
يجادونك وينظرونك في الحق بالباطل . ثم فسر المجادلة بقوله « يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ

(١) [٨ / الأنفال / ٢٣] ... وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ .

هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ « أَيْ : أَبَاطِيلُهُمْ وَأَحَادِيثُهُمُ الَّتِي لَا نِظَامَ لَهَا . وَعَدُّ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ وَأَصْدَقَهُ ، مِنْ قَبِيلِ الْأَبَاطِيلِ (وَهُوَ الَّذِي لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ) - رَتَبَةٌ مِنَ الْكُفْرِ لَا غَايَةَ وَرَاءَهَا .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ، وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ) «وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ» أَيْ : لَا يَقْنَعُونَ بِمَا ذَكَرَ مِنْ تَكْذِيبِهِ ، بَلْ يَنْهَوْنَ النَّاسَ عَنْ اسْتِمَاعِهِ . قَالَ الْمُهَاسِنِيُّ : وَهُمْ ، لِرُؤْيَيْهِمْ حِلَاوَةَ نَظْمِهِ فَوْقَ ثَرَمِ شَعْرِهِمْ ، مَعَ مَتَانَةِ مَعَانِيهِ ، يَعْرِفُونَ أَنَّ التَّدْبِيرَ فِيهِ يَفِيدُ التَّطَلُّعَ عَلَى إِعْجَازِهِ . فَيَخَافُونَ تَأْثِيرَهُ فِي قُلُوبِ الْخَلَائِقِ . لِذَلِكَ يَنْهَوْنَ عَنْهُ . أَيْ : عَنْ قِرَائَتِهِ وَاسْتِمَاعِهِ ، لِثَلَا يَدْعُوهُمْ إِلَى التَّدْبِيرِ فِيهِ ، فَيُفْسِدُ عَلَيْهِمْ أَغْرَاضَهُمُ الْفَاسِدَةَ . «وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ» أَيْ : يَتَّبَاعِدُونَ عَنْهُ بِأَنْفُسِهِمْ ، إِظْهَارًا لِغَايَةِ نَفُورِهِمْ عَنْهُ ، وَتَأْكِيدًا لِنَهْيِهِمْ عَنْهُ . فَإِنْ اجْتَنَبَ النَّاهِي عَنِ الْمُنْهَى عَنْهُ ، مِنْ مَتَمِّمَاتِ النَّهْيِ . وَلَعَلَّ ذَلِكَ هُوَ السِّرُّ فِي تَأْخِيرِ (النَّأْيِ) عَنِ (النَّهْيِ) - أَفَادَهُ أَبُو السَّعُودِ - .

وَلَا أَشْعُرُ ذَلِكَ بِكَوْنِهِمْ يَبْغُونَ الْغَوَائِلَ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ، خَوْفًا مِنْ قُوَّةِ تَأْثِيرِ التَّنْزِيلِ فِي الْقُلُوبِ ، أَتْبَعَهُ بِأَنَّهُ لَا يَحْصُلُ لَهُمْ هَذَا الْمَطْلُوبُ ، لِأَنَّ اللَّهَ مَتَمُّ نُورِهِ ، وَمُظْهَرُ دِينِهِ ، وَإِنْ الدَّائِرَةُ عَلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ : «وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ» بِتَعْرِيزِهَا لِأَشَدِّ الْعَذَابِ عَاجِلًا وَآجِلًا «وَمَا يَشْعُرُونَ» أَيْ بِذَلِكَ .

تنبیه :

رَوَى الْحَاكِمُ وَغَيْرُهُ ، عَنْ ثَلَاثَةٍ مِنَ التَّابِعِينَ ، أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي أَبِي طَالِبٍ ، كَانَ يَنْهَى عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنْ يُؤْذَى ، وَيَنْأَى عَنْهُ فَلَا يُؤْمِنُ بِهِ ، وَجَمِيعَتُهُ حِينَئِذٍ ، بِاعْتِبَارِ اسْتِتْبَاعِهِ لِاتِّبَاعِهِ .

وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جَبْرِ أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي عُمُومَةِ النَّبِيِّ ﷺ ، وَكَانُوا عَشْرَةً ،

فكانوا أشد الناس معه في الملانية ، وأشدهم عليه في السر . ولا يخفى أن لفظ التنزيل مما يصدق على ما ذكر ولا ينافية ، وهو المراد بالنزول - كما أسلفنا مراراً - وقد قال أبو طالب يخاطب النبي ﷺ :

والله لن يصلوا إليك بجمعهم
فاصدع بأمرك ما عليك غصاضة
ودعوتني وزعمت أنك ناصح
وعرضت ديناً لا محالة أنه
لولا اللامة أو حذارى سبة
لوجدتني سمحاً بذاك مبيناً
حتى أوسد في التراب دفيناً
وابشر بذاك وقر منه عيوناً
ولقد صدقت وكنت ثم أميناً
من خير أديان البرية ديناً
وفي (ينهن) و (يأون) تجنيس بديع .

ولما أخبر تعالى أنهم يهلكون أنفسهم ، شرح كيفيته مع بيان ما سيصدر عنهم في الآخرة من القول المناقض لعقدهم الدنيوي ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٧] (وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ قَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نَكَذَّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَنَّ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)

« وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ » أي : اطلعوا عليها فعاينوها . يقال : وقف فلان على ذنبه : أطلعه عليه . أو أدخلوها فعرّفوا ما فيها من العذاب . يقال : وقفت على ما عند فلان ، تريد : فهمته وتبينته . والوقف عليها مجازي ، أو هو حقيق بمعنى القيام . و (على) إما على حقيقتها . أي : أقيموا واقفين فوق النار على الصراط ، وهو جسر فوق جهنم . أو هي بمعنى (في) ، أي : أقيموا في جوف النار وغاصوا فيها ، وهي محيطة بهم . وصحح معنى الاستعلاء حينئذ ، كون النار دركات وطبقات ، بعضها فوق بعض .

« فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بَيَّاتٍ رَبَّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ » تمنوا الرجوع إلى الدنيا ، حين لا رجوع ، واعدن أن لا يكذبوا بما جاءهم ، وأن يكونوا من المؤمنين ، أى : بآياته ، العاملين بمقتضاها ، حتى لا نرى هذا الموقف الهائل . أو من فريق المؤمنين الناجين من العذاب ، الفارين بحسن المآب .

تنبيه :

جواب (لو) محذوف ، تفخيماً للأمر ، وتمظيماً للشأن . وجاز حذفه لعلم المخاطب به . وأشباهه كثيرة في القرآن والشعر . ولو قدرت الجواب ، كان التقدير : لرأيت سوء منقلبهم . وحذف الجواب في ذلك أبلغ في المعنى من إظهاره . ألا ترى أنك لو قلت لنلامك : والله! لننقت إليك . وسكت عن الجواب ، ذهب بفكره إلى أنواع المكروه من الضرب والقتل والكسر ، وعظم الخوف ، ولم يدر أى الأقسام تبغى . ولو قلت : لأضربنك ، فأتيت بالجواب لأمن غير الضرب ، ولم يخطر بباله نوع من المكروه سواء . فثبت أن حذف الجواب أقوى تأثيراً في حصول الخوف - أفاده الرازى - وملخصه : أن حذف الجواب ثقة بظهوره ، وإيذاناً بقصور العبارة عن تفصيله .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (بَلْ بَدَأَ لَهُمْ مَا كَانُوا يُخَفُّونَ مِنْ قَبْلُ ، وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ)

« بَلْ بَدَأَ لَهُمْ مَا كَانُوا يُخَفُّونَ مِنْ قَبْلُ » إضراب عما يدل عليه تمنيه الباطل من الوعد ، بالتصديق والإيمان ، أى : ليس ذلك عن عزم صحيح ، وخلوص اعتقاد ، بل هو بسبب آخر ، وهو أنه ظهر لهم ما كانوا يكتمون في أنفسهم من الكفر والشرك ، بقولهم : (وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ) ، وعرفوا أنهم هالكون بشرهم ، فتمنوا لذلك ،

أو بشهادة جوارحهم عليهم ، أو ما كانوا يكتُمون في أنفسهم في الدنيا من صدق ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ، وإن كانوا يظهرون لأتباعهم خلافه ، كقوله تعالى مخبرا عن موسى أنه قال لفرعون : قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَافِرٍ... (١) الآية - وقوله تعالى (٢) مخبرا عن فرعون وقومه : وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَمَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلُمًا وَعُلوًّا . أو هذه الآية إخبار عن حال المنافقين ، وأنه يظهر نفاقهم الذي كانوا يسرونه . ولا ينافي هذا كون السورة مكية ، والنفاق إنما كان من بعض أهل المدينة ، ومن حولها من الأعراب بعد الهجرة . لأن الله تعالى ذكر وقوع النفاق في سورة مكية وهي (العنكبوت) فقال : وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ (٣) . هذا ما ذكره مما يمكن تنزيل اللفظ الكريم عليه لعمومه . وقد ناقش في ذلك كله العلامة أبو السعود ، واعتمد أن المراد بـ (مَا كَانُوا يُخْفُونَ فِي الدُّنْيَا) النارُ التي وقفوا عليها ، إذ هي التي سيق الكلام تهويل أمرها ، والتعجب من فظاعة حال الموقوفين عليها ، و (بإخفائها) تكذيبهم بها ، فإن التكذيب بالشيء كفر به ، وإخفاء له لا محالة . وإشارته على صريح التكذيب الوارد في قوله عز وجل : (هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ) (٤) وقوله تعالى : (هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ) (٥) ، مع كونه أنسب بما قبله من قولهم :

(١) [١٧ / الإسراء / ١٠٢] ... وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا .

(٢) [٢٧ / النمل / ١٤] ... فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ .

(٣) [٢٩ / العنكبوت / ١١] .

(٤) [٥٥ / الرحمن / ٤٣] .

(٥) [٥٢ / الطور / ١٤] .

(وَلَا نُكْذِّبُ بَيَّاتٍ رَبَّنَا) ^(١) لمراعاة ما في مقابلته من البدو . هذا هو الذى تستدعيه جزالة النظم الكريم .

ثم قال فى الوجوه المتقدمة : إنه بعد الإغضاء عما فى كل منها من الاعتساف والاختلال ، لا سبيل إلى شئ من ذلك أصلا ، لما عرفت من أن سوق النظم الشريف لتحويل أمر الفار ، وتفضيع حال أهلها ، وقد ذكر وقوفهم عليها ، وأشير إلى أنه اعتراهم عند ذلك من الخوف والخشية والحيرة والدهشة ما لا يحيط به الوصف . ورتب عليه تمنيمهم المذكور بـ (الفاء) القاضية بسببية ما قبلها لما بعدها ، فإسقاط النار بعد ذلك من تلك السببية ، وهى نفسها أدهى الدواهى ، وأزجر الزواجر ، وإسنادها إلى شئ من الأمور المذكورة التى دونها فى الهول والزجر ، مع عدم جريان ذكرها ، ثمت - أمر يجب تنزيهه ساحة التنزيل عن أمثاله . وأما ما قيل من أن المراد جزاء ما كانوا يخفون ، فمن قبيل دخول البيوت من ظهورها ، وأبوابها مفتوحة . فتأمل .

أقول : لا ريب فى بلاغة ما قرره ونفاسته ، لولا تكلفه حمل الإخفاء على ما ذكره ، مما هو غير ظاهر فيه ، وليس له نظائر فى التنزيل الكريم . فجازيته حينئذ من قبيل المعى . وفى الوجوه الأول إبقاؤه على حقيقته بلا تكلف ، وشمله لها - غير بعيد . لأن فى كل منها ما يؤيده ، كما بيناه . غاية الأمر أن ما قرره وجه منها بديع . وأما كونه المراد لا غير ، فدونه خبط القتاد - والله أعلم بأسرار كتابه - .

« وَلَوْ رُدُّوا » أى عن موقفهم ذلك إلى الدنيا كما تمنوه ، وغاب عنهم ما شاهدوه من الأهوال « لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ » من الكفر والشرك « وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ » فى وعدهم بالإيمان ، أو ديدنهم الكذب فى أحوالهم .

(١) [٦ / الأنعام / ٢٧] ونصها : وَلَوْ تَرَى إِذْ وُفِّقُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبُ بَيَّاتٍ رَبَّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (وَقَالُوا إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ)

« وَقَالُوا » عطف على (لعادوا) أو استئناف ، « إِن هِيَ » أى ما الحياة ، فالضمير لما بعده ، « إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا » أى : ليست الحياة التى يتوهم فيها البعث ، والتى يتوهم فيها الرد إلا حياتنا الأولى « وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ » أى : بعد مفارقتنا هذه الحياة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٠] (وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ، قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ، قَالُوا بَلَىٰ وَرَبَّنَا، قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ)

« وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ » قال الجلال : أى عرضوا عليه . وقال ابن كثير : أى وقفوا بين يديه . « قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا » أى المعاد « بِالْحَقِّ » تقريباً لهم ، ورداً لما يتوهمون عند الرد « قَالُوا بَلَىٰ وَرَبَّنَا » أى : إنه لحق ، وليس يباطل ، كما كنا نظن . أكدوا اعترافهم باليمين إظهاراً لكمال يقينهم بحقيقته ، وإيذاناً بصدور ذلك عنهم بالرغبة والنشاط ، طمعاً فى نفعه . « فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣١] (قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ، حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ، أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ)

« قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ » أى : يبلوغ الآخرة وما يتصل بها ، أو هو مجرى على ظاهره ، لأن منكر البعث منكر للرؤية - قاله النسفى - والثانى هو الصواب ، وإن

اقتصروا كثير من على الأول ، وجعلوه استعارة تمثيلية لحالهم بحال عبدٍ قدم على سيده بعد مدة ، وقد أطلع السيد على أحواله . فإما أن يلقاه ببشر لما يرضى من أفعاله ، أو يسخط لما يسخط منها - فإنه نزعة اعتزالية . ولا عدول إلى المجاز ما أمكنت الحقيقة .

وفي كلام النسفي إشعار بأن اللقاء معناه الرؤية ، وهو ما في القاموس . قال شارحه الزبيدي : وهو مما نقده ، وأطالوا فيه البحث ، ومنعوه . وقالوا : لا يلزم من الرؤية اللقي ، كالعكس .

وقال الراغب : هو مقابلة الشيء ومصادفته معاً ، ويعبر به عن كل منهما . ويقال ذلك في الإدراك بالحس والبصر .

لطيفة :

قال الخفاجي في (العناية) : قيل : روى عن علي رضي الله عنه أنه نظم أبياتاً على وفق هذه الآية ، وفي معناها وهي :

زعم النجم والطبيب ، كلاهما لا تُحْشَرُ الأجساد . قلت : إليكما
إن صح قولكما فليست بخاسر . أو صح قولي ، فالحسار عليكما

قال الخفاجي : لأدري من أيهما أعجب ؟ الرواية أم الدراية ؟ فإن هذا الشعر لأبي العلاء المعري في ديوانه وهو :

قال النجم والطبيب ، كلاهما : لا تُحْشَرُ الأجساد . قلت : إليكما
إن صح قولكما فليست بخاسر . أو صح قولي ، فالحسار عليكما
أنحى التقي والشر يصطرعان في الدنيا . فأيهما أبرّ لديكما
طهرت نوبى للصلاة وقبله . فأين الطهر من جسديكما
وذكرت ربى في الضمائر مؤنساً . خلدى بذاك ، فأوحشاً خلدَيْكما

وبكرت في البردين^(١) أنبى رحمة منه ، ولا ترعان في برديكما
إن لم تعد بيدي منافع بالذي آتى ، فهل من عائد بيديكما
برؤ التقى ، وإن تهلهل نسجه ، خير ، بعلم الله ، من برديكما

قال ابن السيد في (شرح) . هذا منظوم مما روى عن علي رضي الله عنه؛ أنه قال لعمض
من تشكك في البعث والآخرة : إن كان الأمر كما تقول من أنه لا قيامة ، فقد تخلصنا جميعاً . وإن
لم يكن الأمر كما تقول ، فقد تخلصنا وهلكنا . فذكروا أنه ألزمه فرجع عن اعتقاده . وهذا
السلام ، وإن خرج مخرج الشك ، فإنما هو تقرير للمخاطب على خطابه ، وقلد أخذه بالنظر
والاحتياط لنفسه . مع أن المناظر على ثقة من أمره ، وهو نوع من أنواع الجدل .
وقوله : (إليكما) كلمة يراد بها الردع والزجر . ومعناها : كُفَّا عما تقولان ، وحقيقته:
قولكما مصروف لكما ، لا حاجة لى به . انتهى .

ومن له معرفة بقرض الشعر ، يعلم أنه شعر مولد .

ثم نبه الخفاجي على أن هذا النوع يسمى استدراجاً .

قال في (المثل السائر) : الاستدراج نوع من البلاغة استخرجته من كتاب الله تعالى ،
وهو مخادعات الأقوال التي تقوم مقام مخادعات الأفعال ، يستدرج الخصم حتى ينقاد ويدعن ،

(١) البردان : الغداة والعشي :

ومنه الحديث الشريف المروي في الصحيحين ، عن أبي موسى الأشعري ، رقم ٣٦٩

(اللؤلؤ والمرجان ، فيما اتفق عليه الشيخان) ونصه :

« من صلى البردين دخل الجنة » .

أى : من صلى صلاة الفجر والمصر ، لأنهما في بردي النهار ، أى طرفيه ، حين يطيب
الهواء وتذهب سورة الحر .

وترعان من ورع يرع . قال في اللسان : الورع الكف عن المحارم والتحرج .

وهو قريب من المغالطة ، وليس منها . كقوله تعالى : (أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ ، وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ)^(١) .
ألا ترى لطف احتجاجه على طريقة التقسيم بقوله : (إن يك كاذبا فكذبه عائد عليه ، وإن يصدق يصيبكم بعض ما وعدكم به) ، ففيه من الإنصاف والأدب ما لا يخفى ، فإنه نبي صادق ، فلا بد أن يصيبهم كل ما وعد به ، لا بعضه ، لكنه أتى بما هو أذعن لتسليمهم وتصديقهم ، لما فيه من الملاطفة في النصيح ، بكلام منصف غير مشدّد . أراهم أنه لم يعطه حقه ، ولم يتعصب له ، ويحجم عنه ، حتى لا ينفروا عنه . ولذا قدم قوله (كَاذِبًا) ، ثم ختم بقوله (إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي . . .) الخ يعني : أنه نبي على الهدى ، ولو لم يكن كذلك ما آتاه الله النبوة وعضده . وفيه من خداع الخصم واستدراجه ما لا يخفى . انتهى .

وقوله تعالى « حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً » أي : جاءتهم القيامة فجأة . وسميت القيامة (ساعة) ، لأنها تفجأ الناس بغتة في ساعة لا يعلمها أحد إلا هو تعالى . والمعنى : جاءتهم منيبتهم . على أن المراد بالساعة ، الصغرى . قال الراغب : الساعة الكبرى بعث الناس للمحاسبة ، والصغرى موت الإنسان . فساعة كل إنسان موته ، وهي المشار إليها بقوله تعالى (قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً) . ومعلوم أن الحشر ينال الإنسان عند موته . انتهى .

و (بغتة) مصدر في موضع الحال ، أي : مباغتة . أو مصدر لمحذوف ، أي : تبغتهم . أو للمذكور . فإن (جاءتهم) ، بمعنى (تبغتهم) .

(١) [٤٠ / غافر / ٢٨] ونصها : وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ ، وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ .

« قَالُوا » يعنى : منكرى البعث ، وهم كفار قريش ، ومن سلك سبيلهم فى الكفر والاعتقاد . « يَاحَسْرَتَنَا » أى : يا ندامتنا ! والحسرة : التلهف على الشئ الفائت . وذكرت على وجه النداء للمبالغة . والمراد : تنبيه المخاطبين على ما وقع بهم من الحسرة . « عَلَى مَافَرَطْنَا » أى : قصرنا « فِيهَا » أى : فى الحياة الدنيا . أضمرت وإن لم يجر ذكرها ، للعلم بها . أى : على ما ضيعنا فيها ، إذ لم نكتسب من الاعتقادات والأخلاق والأعمال ما ينبغي . أو الضمير للساعة ، أى : على ما فرطنا فى شأنها ، ومراعاة حقها ، والاستعداد لها ، بالإيمان بها ، واكتساب الأعمال الصالحة .

وقال ابن جرير^(١) : الضمير يعود إلى الصفقة التى دل عليها قوله (قَدْ خَسِرَ ...) الخ إذ الخسران لا يكون إلا فى صفقة بيع قد جرت . قال : والمعنى : قد وكس الذين كذبوا بقاء الله ، ببيعهم الإيمان الذى يستوجبون به من الله رضوانه وجنته ، بالكفر الذى يستوجبون به منه سَخَطَهُ وعقوبته . ولا يشعرون ما عليهم من الخسران فى ذلك ، حتى تقوم الساعة . فإذا جاءتهم الساعة بغتة ، فرأوا ما لحقهم من الخسران فى بيعهم ، قالوا حينئذ تندما : (يَاحَسْرَتَنَا عَلَى مَافَرَطْنَا فِيهَا) .

وقوله تعالى « وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ » حال من فاعل (قَالُوا) ، فائدته الإيذان بأن عذابهم ليس مقصوراً على ما ذكر من الحسرة على ما فات وزال ، بل يقاسون ، مع ذلك ، تحمل الأوزار الثقالة . والإيحاء إلى أن تلك الحسرة من الشدة ، بحيث لا تزول ولا تُنسى بما يكابدونه من فنون العقوبات - قاله أبو السعود - .

والأوزار : جمع وزر ، وهو فى الأصل : الحمل الثقيل ، سمي به الذنب لثقله على صاحبه . قيل : جعلها محمولة على الظهور استعارة تمثيلية ، مثل لزومها لهم ، على وجه لا يفارقهم ، بذلك . وخص الظهر ، لأنه الممهد حمل الأثقال عليه . كما عهد الكسب بالأيدي .

(١) تفسير ابن جرير (طبعة المعارف) بالصفحة ٣٢٥ من الجزء الحادى عشر .

وقيل : هو حقيقة ، لما روى عن السدّي^(١) أنه قال : ليس من رجل ظالم يموت فيدخل قبره ، إلا جاءه رجل قبيح الوجه ، أسود اللون ، مُنْتِن الريح ، عليه ثياب دَنَسَة ، حتى يدخل معه قبره . فإذا رآه قال له : ما أقبح وجهك ! قال : كذلك كان عملك قبيحاً . قال : ما أنتن يحك ! قال : كذلك كان عملك منتناً . قال : ما أدنس ثيابك ! قال فيقول : إن عملك كان دنساً . قال : من أنت ؟ قال : أنا عملك . قال : فيكون معه في قبره . فإذا بعث يوم القيامة قال له : إني كنت أحملك في الدنيا بالذات والشهوات ، وأنت اليوم تحملني . قال : فيركب على ظهره فيسوقه ، حتى يدخله النار . فذلك قوله تعالى (وَهُمْ يَحْمِلُونَ ...) الآية .

قال الخفاجي : ولعل هذا تمثيل أيضاً . وقريب منه ما قيل : من قال بالميزان ، واعتقد وزن الأعمال ، لا يقول إنه تمثيل . انتهى .

« أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ » أى : بئس ما يحملونه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٢] (وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ، وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ)

« وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ » أى : هزل ، وعمل لا يجدى نفعا « وَلَهْوٌ » أى : اشتغال بهوى وطرب ، وما لا تقتضيه الحكمة ، وما يشغل الإنسان عما يهيمه مما يلتذ به ثم ينقضى .

« وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ » لدوامها ، وخلوص منافعها ولذاتها عن المضار والآلام .

« أَفَلَا تَعْقِلُونَ » ذلك حتى تتقوا ما أنتم عليه من الكفر والمعاصي ، ولا تؤثرن الأدنى الفاني ، على الأعلى الباقي . وههنا

(١) الأثر رقم ١٣١٨٨ من تفسير ابن جرير .

لطائف

الأولى: قال الرازى : اعلم أن المنكرين للبعث والقيامة تعظم رغبتهم في الدنيا ، وتحصيل لذاتها. فذكر الله تعالى هذه الآية تنبيهاً على خساستها وركاكتها. واعلم أن نفس هذه الحياة لا يمكن ذمها . لأن هذه الحياة العاجلة ، لا يصح اكتساب السعادات الأخروية إلا فيها . فلهذا السبب حصل في تفسير هذه الآية قولان :

الأول - أن المراد منه حياة الكافر. قال ابن عباس : يريد حياة أهل الشرك والنفاق . والسبب في وصف حياة هؤلاء بهذه الصفة ، أن حياة المؤمن يحصل فيها أعمال صالحة ، فلا تكون لعباً ولهواً .

والقول الثانى - إن هذا عام في حياة المؤمن والكافر . والمراد منه : اللذات الحاصلة في هذه الحياة ، والطيبات المطلوبة في هذه الحياة ، وإنما سماها (اللَّعِبِ وَاللَّهْوِ) لأن الإنسان، حال اشتغاله باللعب واللهو، يلتذ به. ثم عند انقراضه وانقضائه لا يبقى منه إلا الندامة. فكذلك هذه الحياة، لا يبقى عند انقراضها إلا الحسرة والندامة .

الثانية : قال الخفاجى : جمع اللهو واللعب في آيات. فتارة يقدم اللعب، كما هنا . وتارة قدم اللهو كما في العنكبوت^(١) . ولهذا التفتن نسكتة مذكورة في (درة التأويل) ملخصها : أن الفرق بين اللهو واللعب ، مع اشتراكهما في أنهما الاشتغال بما لا يعنى العاقل ويهيمه من هوى أو طرب ، سواء كان حراماً أم لا ؛ أن اللهو أعم من اللعب ، فكل لعب لهو ، ولا عكس . فاستمتع الملاهى لهو ، وليس بلعب . وقد فرقوا بينهما أيضاً بأن اللعب ما قصد به تعجيل المسرة ، والاسترواح به ، واللهو كل ما شغل من هوى وطرب ، وإن لم يقصد به

(١) [٢٩ / العنكبوت / ٦٤] ونصها : وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ، وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِىَ الْحَيَوَانُ ، لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ .

ذلك ، كما نقل عن أهل اللغة ، قالوا : واللّهو ، إذا أطلق ، فهو اجتلاب المسرة بالنساء ، كما قال امرؤ القيس ^(١) :

ألا زعمت بسباسة اليوم أننى كبرتُ وأن لا يحسنُ اللهو أمتالى
وقال قتادة : اللهو ، فى لغة اليم (المرأة) . وقيل : اللعب طلب : المسرة والفرح بما لا يحسن أن يطلب به . واللهو : صرف المهن بما لا يصلح أن يصرف به .

ولما كانت الآية ردًا على الكفرة فى إنكار الآخرة ، وحصر الحياة فى الحياة الدنيا ، وليس فى اعتقادهم إلا ما عجل من المسرة بزخرف الدنيا الفانية - قدم اللعب الدال على ذلك ، وتمم باللهو . وأما فى المنكوبات فلمقام لذكر قصر مدة الحياة وتحقيرها ، بالقياس إلى الآخرة . ولذا ذكر باسم الإشارة المشعر بالتحقير . والاشتغال باللهو ، مما يقصر به الزمان ، وهو أدخل من اللعب فيه . وأيام السرور قصار ، كما قال :

وليلةٍ إحدى الليالى الزُّهرِ لم تك غير شفقٍ وفجرٍ

(١) من قصيدته التى مطلعها :

ألا عم صباحا أيها الطللُ البالى وهل يعمن من كان فى العصر الخالى

قال السندوبى : بسباسة إحدى صواحباته التى يتغزل بهن .

لا يحسن اللهو (ويروى : لا يحسن السر) وهو ما يكون بين الرجل والمرأة .

وقال الوزير أبو بكر عاصم بن أيوب :

ويروى السر ، وهو النكاح .

وأمثال جمع مثل ، أراد أمتالى من الرجال .

ومعنى البيت : أنه لما عيرته وقالت له : كبرت وشغلت عن اللهو . ولا يحسن أمتالك

من الرجال اللهو ، وإذا لم يحسنه أمتالك فأنت لا تحسنه .

وإذا قالت العرب (مثلك لا يحسن كذا) فإنما هو على طريقة التعظيم أن يذكروا مثله

ولا يذكروه .

الثالثة :

في قوله تعالى (لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ) تنبيهه على أن ما ليس من أعمال المتقين، لعب ولهو .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ ، فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ

الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَحْجَدُونَ)

وقوله تعالى « قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ » قرئ بفتح الياء وضمها ، « الَّذِي يَقُولُونَ »

أى : يقولونه فيك ، من أنك كاذب أو ساحر أو شاعر أو مجنون .

قال أبو السعود : استئناف مسوق لتسليته عليه السلام عن الحزن الذى يعتريه ، مما حكى عن

الكفرة من الإصرار على التكذيب ، والمبالغة فيه ، ببيان أنه عليه الصلاة والسلام بمكانة من

الله عز وجل ، وأن ما يفعلونه فى حقه فهو راجع إليه تعالى فى الحقيقة ، وأنه ينتقم منهم أشد

انتقام . وكلمة (قَدْ) لتأكيد العلم بما ذكر ، المفيد لتأكيد الوعيد .

وقوله تعالى : « فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَحْجَدُونَ »

الفاء للتعليل ، لأن قوله تعالى : (قَدْ نَعْلَمُ) بمعنى لا تحزن ، كما يقال فى مقام المنع والزجر :

نعلم ما تفعل ! وجه التعليل فى تسليته له عليه السلام بأن التكذيب فى الحقيقة لى ، وأنا الحليم

الصبور ، فتخلق بأخلاقى .

قال أبو السعود : وهذا يفيد بلوغه عليه الصلاة والسلام فى جلاله القدر ، ورفعة المحل ،

والزلقى من الله عز وجل ، إلى حيث لا غاية وراءه ، حيث لم يقتصر على جعل تكذيبه عليه

الصلاة والسلام تكذيباً لآياته سبحانه ، على طريقة قوله تعالى (مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ

اللَّهَ)^(١) ، بل نفى تكذيبهم عنه ، وأثبت لآياته تعالى على طريقة قوله تعالى : (إِنَّ الَّذِينَ

(١) [٤ / النساء / ٨٠] . . . وَمَنْ تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا .

يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ^(١) إِذَا مَا بِكُلِّ الْقَرْبِ ، وَاضْمَحَلَّ شَوْؤُهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي شَأْنِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ . وَفِيهِ اسْتِعْظَامُ لُجْنَاتِهِمْ ، مِنْبِئٌ عَنْ عَظَمِ عَقُوبَتِهِمْ . وَقِيلَ : الْمَعْنَى : فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ بِقُلُوبِهِمْ ، وَلَكِنْهُمْ يَجْحَدُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ ، عُنَادًا أَوْ مَكَابِرَةً . وَيَعْضُدُهُ مَارِوِي سَفِيَانُ الثَّوْرِيُّ عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ عَنْ نَاجِيَةَ عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ أَبُو جَهْلٍ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : إِنَّا لَا نَكْذِبُكَ ، وَلَكِنْ نَكْذِبُ بِمَا جِئْتَ بِهِ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ : (فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ) الْآيَةَ - رَوَاهُ الْحَاكِمُ وَصَحَّحَهُ .

وَرَوَى ابْنُ جُرَيْرٍ^(٢) عَنِ السَّيِّدِ قَالَ : لَمَّا كَانَ يَوْمَ بَدْرٍ ، خَلَا الْأَخْنَسُ بِأَبِي جَهْلٍ فَقَالَ : يَا أَبَا الْحَكَمِ ! أَخْبِرْنِي عَنْ مُحَمَّدٍ ، أَصَادِقٌ هُوَ أَمْ كَاذِبٌ ؟ فَإِنَّهُ لَيْسَ هَهُنَا مِنْ قُرَيْشٍ غَيْرِي وَغَيْرِكَ يَسْتَمْعُ كَلَامَنَا ، فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ : وَيْحَكَ ! وَاللَّهِ إِنْ مُحَمَّدًا لَصَادِقٌ ، وَمَا كَذَبَ مُحَمَّدٌ قَطُّ ، وَلَكِنْ إِذَا ذَهَبَتْ بِنُوقِصَى بِاللَّوَاءِ وَالسَّقَايَةِ وَالْحِجَابَةِ وَالنَّبُوءَةِ ، فَاذَا يَكُونُ لِسَارِ قُرَيْشٍ ؟ فَذَلِكَ قَوْلُهُ : (فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بَيَّاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ) فَأَيَّاتِ اللَّهِ مُحَمَّدٌ ﷺ .

قَالَ الرَّازِيُّ : وَهَذَا الْقَوْلُ غَيْرُ مُسْتَبْعَدٍ ، وَنَظِيرُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى^(٣) فِي قِصَّةِ مُوسَى (وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا) . وَقِيلَ : الْمَعْنَى : فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ لِأَنَّكَ عِنْدَهُمُ الصَّادِقُ الْمُسَوِّمُ بِالصَّدَقِ ، وَلَكِنْهُمْ يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ . كَمَا يَرَوِي أَنَّ أَبَا جَهْلٍ كَانَ يَقُولُ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : مَا نَكْذِبُكَ ، وَإِنَّكَ عِنْدَنَا لَصَادِقٌ ، وَلَكِنَّا نَكْذِبُ مَا جِئْتَنَا بِهِ .

(١) [٤٨ / الْفَتْحُ / ١٠] . . . يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ، فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثْ عَلَى نَفْسِهِ ، وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا .

(٢) الْأَثَرُ رَقْمُ ١٣١٩٣ مِنَ التَّفْسِيرِ .

(٣) [٢٧ / النَّمْلُ / ١٤] . . . فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ .

قال أبو السعود : وكأن صدق الخبر عند الخبيث ، بمطابقة خبره لاعتقاده . والأول هو الذى تستدعيه الجزالة التنزيلية . وقرئ « لَا يُكْذِبُونَكَ » من (أ كذبه) ، بمعنى وجده كاذباً ، أو نسبته إلى الكذب ، أو بين كذبه ، وقال : أ كذبه وكذبه بمعنى - كذا في القاموس وشرحه - .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٤] (وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّىٰ

أَتَاهُمْ نَصْرُنَا، وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ، وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِيِّ الْمُرْسَلِينَ)

« وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ » افتنان في تسليته عليه الصلاة والسلام ، فإن عموم البلية ربما يهون أمرها بعض تهوين . وإرشاد له ﷺ إلى الافتداء بمن قبله من الرسل الكرام ، في الصبر على ما أصابهم من أمهم ، من فنون الأذية . وعدة ضمنية له ﷺ بمثل ما منحوه من النصر . وتصدير الكلام بالقسم ، لتأكيد التسلية . وتنوين (رسل) للتفخيم والتكثير - أفاده أبو السعود - .

قال الزخشري : في قوله تعالى (وَلَقَدْ كُذِّبَتْ) دليل على أن قوله : (فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ) ليس بنفي لتكذيبه ، وإنما هو من قولك لفلانك : ما أهانوك ، ولكنهم أهانوني ! انتهى .

وناقشه الناصر في (الاتصاف) بأنه لا دلالة فيه ، لأنه مؤلف مع نفي التكذيب أيضاً ، وموقعه حينئذ من الفضيلة أبين . أى : هؤلاء لم يكذبوك ، فحقك أن تصبر عليهم ، ولا يحزنك أمرهم . وإذا كان من قبلك من الأنبياء قد كذبهم قومهم ، فصبروا عليهم ، وأنت إذ لم يكذبوك أجدر بالصبر . فقد اختلف ، كما ترى ، بالتفسيرين جميعاً . ولكنه من غير الوجه الذى استدل به ، فيه تقريب لما اختاره ، وذلك أن مثل هذه التسلية قد وردت مصرحاً بها

في نحو قوله تعالى (وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ) فسلاؤه عن تكذيبهم له، بتكذيب غيرهم من الأمم لأنبياهم . وما هو إلا تفسير حسن مطابق للواقع ، مؤيد بالنظر - والله أعلم - .

« فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا » أى على تكذيبهم وإيذائهم ، فتأس بهم « حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ » أى : لمواعيده ، من قوله : (وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ)^(١) ، وقوله (كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي)^(٢) .

« وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِيٍّ الْمُرْسَلِينَ » أى من خبرهم فى مصابرة الكافرين ، وما منحوه من النصر ، فلا بد أن نزيل حزنك بإهلاكهم ، وليس إهلاكهم لإهلاكهم ، بل لجريان سنته تعالى بتحقيق صبر الرسل وشكرهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٥] (وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ ، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ ، فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ)

« وَإِنْ كَانَ كَبُرَ » أى : شق وثقل ، « عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ » أى : عن الإيمان بما جئت به من القرآن ، ونأيهم عنه ، ونهيهم الناس عنه ، « فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ » أى سرباً ومنفذاً تنفذ فيه إلى ما تحت الأرض ، حتى تطلع لهم آية يؤمنون

(١) [٣٥ / فاطر / ٤] . . . وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ .

(٢) [٣٧ / الصافات / ١٧١ و ١٧٢] .

(٣) [٥٨ / المجادلة / ٢١] . . . إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ .

بها ، « أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ » أى مصعدا تخرج به فيها ، « فَتَأْتِيهِمْ بَايَةٌ » أى : مما اقترحوه ، فافعل . وحسُنَ حذف الجواب لعلم السامع به . أى : لكن لم يجعل الله لك هذه الاستطاعة ، إذ يصير الإيمان ضروريا غير نافع .

« وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى » أى : ولكنه شاء بمقتضى جلاله وجماله ، إظهار غاية قهره ، وغاية لطفه ، « فَلَا تَكُونَنَّ » أى : بالحرص على إيمانهم ، أو الميل إلى نزول مقترحهم « مِنَ الْجَاهِلِينَ » أى : بما تقتضيه شؤونه تعالى ، التى من جملتها ما ذكر من عدم تعلق مشيئته تعالى بإيمانهم . إما اختيارا ، فلعدم توجههم إليه . وإما اضطرارا ، فلخروجه عن الحكمة التشريعية المؤسسة على الاختيار .

تنبيهات

الأول - فى هذه الآية مالا يخفى من الدلالة على المبالغة فى حرصه ﷺ على إسلام قومه ، وتراميه عليه ، إلى حيث لو قَدَّرَ أن يأتيتهم بآية من تحت الأرض ، أو من فوق السماء ، لأتى بها . رجاء إيمانهم ، وشفقة عليهم .

الثانى - قال الناصر فى (الانتصاف) : هذه الآية كافلة بالرد على القدرية فى زعمهم أن الله تعالى شاء جمع الناس كلهم على الهدى فلم يكن . ألا ترى أن الجملة مصدرة بـ (لو) ، ومقتضاها امتناع جوابها ، لامتناع الواقع بعدها . فامتناع اجتماعهم على الهدى ، إذا إنما كان لامتناع المشيئة . فنتم ترى الزخشرى يحمل المشيئة على قهرهم على الهدى بآية ملجئة ، لا يكون الإيمان معها اختيارا ، حتى يتم له أن هذا الوجه من المشيئة لم يقع ، وأن مشيئته اجتماعهم على الهدى على اختيار منهم ، ثابتة غير ممتنعة ، ولكن لم يقع متعلقها . وهذه من خباياه ومكانه فاحذرهما - والله الموفق - .

الثالث - لم يقل (لَا تَكُنْ جَاهِلًا) بل من قوم ينسبون إلى الجهل ، تعظيما لنبيه ﷺ

بأن لم يُسند الجهل إليه ، للمبالغة في نفيه عنه . وما فيه من شدة الخطاب ، سرُّه تبعيد جنباه الكريم عن الحرص على ما لا يكون والجزعُ في مواطن الصبر ، مما لا يليق إلا بالجاهلين .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٦] (إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ. وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ) وقوله تعالى « إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ » تقرير لما مرَّ من أن على قلوبهم أكنة ، وتحقيق لكونهم بذلك من قبيل الموتى ، لا يتصور منهم الإيمان البتة . أى : إنما يستجيب لك ، بقبول دعوتك إلى الإيمان ، الأحياء الذين يسمعون ما يلقي إليهم ، سماع تفهم ، دون الموتى الذين هؤلاء منهم . كقوله تعالى (إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَىٰ)^(١) وإن كانوا أحياء بالحياة الحيوانية ، أموات بالنسبة إلى الإنسانية ، لموت قلوبهم بسموم الاعتقادات الفاسدة ، والأخلاق الرديئة .

و (الْمَوْتَىٰ) مبتدأ . معنى : الكفار الذين لا يسمعون ولا يستجيبون ، يبعثهم الله يوم القيامة ، ثم إليه يرجعون ، فيجزئهم بأعمالهم . فالموتى مجاز عن الكفرة كما قيل : لا يُعْجِبَنَّ الْجَهْلَ بِزَّتُهُ فَذَاكَ مَيِّتٌ ثِيَابُهُ كَفَنٌ

قيل : فيه رمز إلى أن هدايتهم كبعث الموتى ، فلا يقدر عليه إلا الله . ففيه إقناط للرسول ﷺ عن إيمانهم . وفي تسميتهم (موتى) من التهمك بهم ، والإزرأ عليهم ، ما لا يخفى .

(١) [٢٧ / النمل / ٨٠] ... وَلَا تَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٧] (وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ ، قُلْ إِنْ اللَّهُ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْزِلَ آيَةً وَلَئِنْ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)

« وَقَالُوا » بمعنى : مشركى مكة ، بيان لنوع آخر من تعنتهم ، إذ لم يقتنعوا بما شاهدوا من البينات التى تخرّ لها صمّ الجبال ، « لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ » أى : خارق ، على مقتضى ما كانوا يريدون ومما يبتغون . كقولهم ^(١) (وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ...) الآيات .

« قُلْ إِنْ اللَّهُ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْزِلَ آيَةً وَلَئِنْ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ » أى : إن اقتراحها جهل ، لما أن فى تنزيلها قلماً لأساس التكليف ، المبني على قاعدة الاختيار . أو استئصالا لهم بالسكينة ، فإن من لوازم جحد الآية اللجئة ، الهلاك ، جريا على سنته تعالى فى الأمم السالفة . وتخصيص عدم العلم بأكثرهم ، لما أن بعضهم واقفون على حقيقة الحال ، وإنما يفعلون ما يفعلون مكابرة وعنادا .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٨] (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ ، مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ، ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ)

« وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ » أى : مستقرة فيها ، لا ترتفع عنها « وَلَا طَائِرٍ » يرتفع عنها إذ « يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ » أى : أصناف مصنفة فى ضبط أحوالها ، وعدم إهمال شىء منها ، وتدير شؤونها ، وتقدير أرزاقها .

« مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ » أى : ما تركنا ، وما أغفلنا ، فى لوح القضاء المحفوظ ، « مِنْ شَيْءٍ » أى : جليل أو دقيق ، فإنه مشتمل على مايجرى فى العالم ، لم يهمل فيه أمر شئ : والمعنى : أن الجميع علمهم عند الله ، لا ينسى واحداً منها من رزقه وتديره . كقوله : (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ، كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ)^(١) أى : مفسح بأسمائها وأعدادها ومظانها ، وحاصر لحركاتها وسكناتها . « ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ » يعنى : الأمم كلها ، من الدواب والطيور ، فينصف بعضهم من بعض ، حتى يبلغ من عدله أن يأخذ للجَمَاء من القرناء . وإيراد ضميرها على صيغة جمع العقلاء ، لإجرائها مجراهم .

تنبيهات

الأول - قال الرمحشري : إن قلت : فما الغرض فى ذكر ذلك ؟ قلت : الدلالة على عظم قدرته ، ولطف علمه ، وسعة سلطانه ، وتديره تلك الخلائق المتفاوتة الأجناس ، المتكاثرة الأصناف ، وهو حافظ لما لها وما عليها ، مهيمن على أحوالها ، لا يشغله شأن عن شأن ، وأن المكلفين ليسوا بمخصوصين بذلك دون من عداهم من سائر الحيوان .
وقال الرازى : المقصود أن عناية الله لما كانت حاصلة لهذه الحيوانات ، فلو كان إظهار آية ملجئة مصلحة ، لأظهرها ، فيكون كالدليل على أنه تعالى قادر على أن ينزل آية .
وقال القاضى : إنه تعالى لما قدم ذكر الكفار ، وبين أنهم يرجعون إلى الله ويحشرون ، بين بعده بقوله : (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ ..) إلخ ، أن البعث حاصل فى حق البهائم أيضاً .
الثانى - زيادة (مِنْ) فى قوله : (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ) لتأكيد الاستغراق .
و (فى) متعلقة بمحذوف هو وصف (دَابَّةٍ) مفيد لزيادة التعميم . كأنه قيل : وما فرد من
(١) [١١ / هود / ٦] .

أفراد الدواب يستقر في قطر من أقطار الأرض . وكذا زيادة الوصف في قوله : (يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ) .

قال في الانتصاف : في وجه زيادة التعميم ، أن موقع قوله : (فِي الْأَرْضِ) و (يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ) موقع الوصف العام - وصفة العام عامة - ضرورة المطابقة ، فكأنه مع زيادة الصفة ، تضافت صفتان عامتان .

الثالث - قال الزمخشري : إن قلت : كيف قيل (الأمم) مع إفراد الدابة والطارء ؟ قلت : لَمَّا كَانَ قَوْلُهُ تَعَالَى : (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ) دَالًّا عَلَى مَعْنَى الاسْتِغْرَاقِ ، وَمَعْنِيًّا عَنْ أَنْ يَقَالَ : وَمَا مِنْ دَوَابٍّ وَلَا طَيْرٍ ، حَمَلَ قَوْلُهُ : (إِلَّا الْأُمَمُ) عَلَى الْمَعْنَى .

الرابع - دلت الآية على أن كل صنف من البهائم أمة ، وجاء في الحديث : لولا أن الكلاب أمة من الأمم ، لأمرت بقتلها - رواه أبو داود^(١) والترمذي عن عبد الله بن مغفل رضي الله عنه - .

الخامس - ما ذكرناه في معنى مماثلة الأمم لنا ، من تديره تعالى لأمرها ، وتكفله برزقها ، وعدم إغفال شيء منها ، مما يبين شمول القدرة ، وسعة العلم - هو الأظهر . موافقة لقوله تعالى (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا . . .)^(٢) الآية - والقرآن يفسر بعضه بعضاً . ونقل الواحدي عن ابن عباس أن المماثلة هي في معرفته تعالى ، وتوحيده وتسبيحه وتحميده . كقوله تعالى : (وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا لَيْسَ بِحَمْدِهِ)^(٣) ، وقوله :

(١) أخرجه أبو داود في : ١٦ - كتاب الأضاحي ، ٢٢ - باب في اتخاذ الكلاب للصيد وغيره ، حديث ٢٨٤٥ .

والترمذي في : ١٦ - كتاب الصيد ، ١٦ - باب ما جاء في قتل الكلاب .

(٢) [١١ / هود / ٦] .

(٣) [١٧ / الإسراء / ٤٤] ونصها : تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ، وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا لَيْسَ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ، إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا .

(كُلُّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ) ^(١) .

وعن أبي الدرداء قال : أبهت عقول البهائم عن كل شئ ، إلا عن أربعة أشياء : معرفة الإله ، وطلب الرزق ، ومعرفة الذكر والأنثى ، وتهيوكل واحد منهما لصاحبه .
وقيل : المائلة في أنها تحشر يوم القيامة كالناس .

أقول : لا شك في صحة الوجهين بذاتهما ، وصدق المثلية فيهما ، ولكن الحمل عليهما يُعمده عدم ملاقاته للآية الأخرى . فالأمر ، تأييداً للنظائر ، ما ذكرناه أولاً - والله أعلم - .
السادس - ما بيناه في معنى (الكتاب) من أنه اللوح المحفوظ في العرش ، وعالم السموات المشتمل على جميع أحوال المخلوقات على التفصيل التام - هو الأظهر ، لملاقاته للآية التي ذكرناها تأييداً للنظائر القرآنية . ولم يذكر الإمام ابن كثير سواء ، على توسعه .

وقيل : المراد منه القرآن كقوله تعالى (وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ) ^(٢) .
قال الخفاجي : قيل : حمله على القرآن لا يلائم ما قبله وما بعده . ويدفع بأن المعنى لم نترك شيئاً من الحجج وغيرها إلا ذكرناه ، فكيف يحتاج إلى آية أخرى مما اقترحوه ، ويكذب بآياتنا ؟ فالكلام بمضه أخذ بحجز بعض بلا شبهة .

وقال أبو السعود : أى ما تركنا في القرآن شيئاً من الأشياء المهمة التي من جملتها بيان أنه تعالى مراعاة لمصالح جميع مخلوقاته .

قال الشهاب في قول البيضاوي (فإنه قد دون فيه ما يحتاج إليه من أمر الدين مفصلاً

- (١) [٢٤ / النور / ٤١] ونصها : أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجَعُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَاقَاتٍ ، كُلُّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ .
(٢) [١٦ / النحل / ٨٩] ونصها : وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ، وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ ، وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ .

أو مجملًا) : يشير إلى أن ما ثبت بالأدلة الثلاثة ثابت بالقرآن ، لإشارته بنحو قوله (١) : (فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ) إلى القياس . وقوله (وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ) (٢) إلى السنة . بل قيل : إنه بهذه الطريقة يمكن استنباط جميع الأشياء منه . كما سأل بعض الملحدين بعضهم عن طبع الحلوى ، أين ذكر في القرآن ؟ فقال : في قوله تعالى (٣) (فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) انتهى .

واستظهر الرازي أن المراد (بالكتاب) القرآن . واحتج بأن الألف واللام إذا دخلا على الاسم المفرد ، انصرف إلى المهود السابق ، والمهود السابق من الكتاب عند المسلمين هو القرآن . فوجب أن يكون المراد من (الكتاب) في هذه الآية القرآن . إذا ثبت هذا ، فلقابل أن يقول : كيف قال تعالى : (مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ) مع أنه ليس فيه تفاصيل علم

(١) [٥٩ / الحشر / ٢] ونصها : هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ ، مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا ، وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ، يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ .

(٢) [٥٩ / الحشر / ٧] ونصها : مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَثِيرٌ لَا يَسْكَونَ دَوْلَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ ، وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ، وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ .

(٣) [١٦ / النحل / ٤٣] ونصها : وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ ، فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ .

و [٢١ / الأنبياء / ٧] ونصها : وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ ، فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ .

الطب ، وتفاصيل علم الحساب ، ولا تفاصيل كثير من المباحث والعلوم . وليس فيه أيضاً تفاصيل مذاهب الناس ودلائلهم في علم الأصول والفروع ؟ .

والجواب : أن قوله : (مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ) يجب أن يكون مخصوصاً ببيان الأشياء التي يجب معرفتها ، والإحاطة بها ، وبيانه من وجهين :

الأول - أن لفظ (التفريط) لا يستعمل نفيًا وإثباتًا ، إلا فيما يجب أن يبين ، لأن أحداً لا ينسب إلى التفريط والتقصير في أن لا يفعل ما لا حاجة إليه ، وإنما يذكر هذا اللفظ فيما إذا قصر فيما يحتاج إليه .

الثاني - أن جميع آيات القرآن ، أو الكثير منها ، دالة بالمطابقة أو التضمن أو الالتزام على أن المقصود من إنزال هذا الكتاب بيان الدين ، ومعرفة الله ، ومعرفة أحكام الله . وإذا كان هذا التقييد معلوماً من كل القرآن ، كان المطلق ههنا محمولاً على ذلك المقيّد . أما قوله : إن هذا الكتاب غير مشتمل على جميع علوم الأصول والفروع ، فنقول : أما علم الأصول فإنه بتمامه حاصل فيه ، لأن الدلائل الأصلية مذكورة فيه على أبلغ الوجوه . فأما روايات المذاهب ، وتفاصيل الأقاويل ، فلا حاجة إليها . وأما تفاصيل علم الفروع ، فقال العلماء : إن القرآن دل على أن الإجماع ، وخبر الواحد ، والقياس ، حجة في الشريعة . فكل ما دل عليه أحد هذه الأصول الثلاثة ، كان ذلك في الحقيقة موجوداً في القرآن .

وذكر الواحدى رحمه الله لهذا المعنى أمثلة ثلاثة :

المثال الأول - روى أن ابن مسعود^(١) كان يقول : ما لي لا ألعن من لعنه الله في كتابه؟

(١) أخرجه البخارى في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٥٩ - سورة الحشر ، ٤ - باب وَمَا أَنَا كُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ .

عن عبد الله قال : لعن الله الواشيات والموتشيات والمتفلجات للحسن المغيرات خلق الله . فبلغ ذلك امرأة من بني أسد يقال لها : أم يعقوب .

يعنى : الواشمة والمستوشمة ؛ والواصلة والمستوصلة ،

وروى أن امرأة قرأت جميع القرآن ، ثم أتته ، فقالت : يا ابن أم عبد ! تلوت البارحة ما بين الدفتين ، فلم أجد فيه لعن الواشمة والمستوشمة ! فقال . لو تلوتيه لوجدتيه ، قال الله تعالى : (وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ) وإن ما آتانا به رسول الله أنه قال : لعن الله الواشمة والمستوشمة .

قال الرازى : وأقول : يمكن وجدان هذا المعنى فى كتاب الله بطريق أوضح من ذلك ، لأنه تعالى قال فى سورة النساء (وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَّرِيدًا * لَعَنَهُ اللَّهُ) (١) فحكم

== فجاءت فقالت : إنه بلغنى إنك لعنت كيت وكيت . فقال : ومالى لا ألعن من لعن رسول الله ﷺ ، ومن هو فى كتاب الله ؟

فقالت : لقد قرأت ما بين اللوحين فما وجدت فيه ما تقول .

قال : لئن كنت قرأتيه ، لقد وجدته . أما قرأت : وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ؟
قالت : بلى .

قال : فإنه قد نهى عنه .

قالت : فإنى أرى أهلك يفعلونه .

قال : فاذهبى فانظرى .

فذهبت فنظرت فلم تر من حاجتها شيئاً .

فقال : لو كانت كذلك ما جامعتنا .

وأخرجه مسلم فى : ٣٧ - كتاب اللباس والزينة ، حديث ١٢٠ (طبعتنا) .

(١) [٤ / النساء / ١١٧ ، ١١٨] ونصها : إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَّا نَا... .

عليه باللعن ، ثم عدد بعده قبائح أفعاله ، وذكر من جملتها قوله ^(١) (وَلَا مَرْئَهُمْ فَلْيَغْيِرْنِ خَلْقَ اللَّهِ) . وظاهر هذه الآية يقتضى أن تغيير الخلق يوجب اللعن . انتهى .

قلت : وتمة الحديث تؤيد ذلك أيضاً . ولفظه : لعن الله الواشحات والمستوشحات والنامصات والمتنمصات والمتفلجات للحسن المغيرات خلق الله - رواه الإمام أحمد والشيخان وأصحاب السنن عن ابن مسعود ^(٢) . -

ثم قال الرازى :

المثال الثانى - ذكر أن الشافعى رحمه الله كان جالساً فى المسجد الحرام فقال: لا تسألونى عن شىء إلا أجبتكم فيه من كتاب الله تعالى . فقال رجل : ما تقول فى المحرم إذا قتل الزنبور ؟ فقال : لا شىء عليه . فقال : أين هذا فى كتاب الله ؟ فقال : قال الله تعالى : « وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ » ثم ذكر إسناداً إلى النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين من بعدى . ثم ذكر إسناداً إلى عمر رضى الله عنه أنه قال : للمحرم قتل الزنبور . قال الواحدى : فأجابه من كتاب الله مستنبطاً بثلاث درجات .

وأقول . ههنا طريق آخر أقرب منه ، وهو أن الأصل فى أموال المسلمين العصمة . قال تعالى : (لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ) ^(٣) . وقال : (لَا يَسْأَلُكُمْ

(١) [٤ / النساء / ١١٩] ونصها : وَلَا ضِلْنَهُمْ وَلَا مَنِيْنَهُمْ وَلَا مَرْئَهُمْ فَلْيَغْيِرْنِ خَلْقَ اللَّهِ إِذَا نَ الْأَنْعَامِ وَلَا مَرْئَهُمْ فَلْيَغْيِرْنِ خَلْقَ اللَّهِ ، وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا .

(٢) انظر الحاشية رقم ١ ص ٢٣٠١ .

(٣) [٢ / البقرة / ٢٨٦] ونصها : لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ، لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ، رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ، رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا =

أَمْوَالِكُمْ^(١) وقال (وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ^(٢)) فهى عن أكل أموال الناس إلا بطريق التجارة ، فعند عدم التجارة وجب أن يبقى على أصل الحرمة . وهذه العمومات تقتضى أن لا يجب على المحرم الذى قتل الزبور شىء ، وذلك لأن التمسك بهذه العمومات يوجب الحكم بمرتبة واحدة .

المثال الثالث - قال الواحدى : روى فى حديث العسيف الزانى^(٣) أن أباه قال للنبي ﷺ : اقض بيننا بكتاب الله . فقال عليه السلام : والذى نفسى بيده ! لأقضين بينكما بكتاب الله .

= إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا ، رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ، وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا ، أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ .

(١) [٤٧ / محمد ﷺ / ٣٦] ونصها : إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوَ ، وَإِنْ تَوَمَّنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أَجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلَكُمْ أَمْوَالَكُمْ .

(٢) [٤ / النساء / ٢٩] ونصها : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ ، إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ ، وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا .

(٣) أما حديث العسيف فيها كوه بنصه الكامل :

فقد أخرجه البخارى فى : ٨٦ - كتاب الحدود ، ٣٠ - باب الاعتراف بالزنى ، حديث

١١٥٤ و ١١٥٥ .

عن أبى هريرة وزيد بن خالد قالوا : كنا عند النبي ﷺ ، فقام رجل فقال : أنشدك الله إلا قضيت بيننا بكتاب الله .

فقام خصمه ، وكان أقره منه ، فقال : اقض بيننا بكتاب الله وأذن لى .

قال « قل » .

قال : إن ابنى كان عسيفاً على هذا ، فزنى بامرأته . فافتديت منه بمائة شاة وخادم .

ثم قضى بالجلد والتغريب على السيف، وبالرجم على المرأة إن اعترفت. قال الواحدى: وليس للجلد والتغريب ذكر في نص الكتاب . وهذا يدل على أن كل ما حكم به النبي ﷺ فهو عين كتاب الله . قال الرازى: وهذا حق ، لأنه تعالى قال : (لَتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ) ، وكل ما بينه الرسول عليه الصلاة والسلام كان داخلا تحت هذه الآية . انتهى .

وبالجملة ، فالقرآن الكريم كلية الشريعة ، والمجموع فيه أمور كليات ، لأن الشريعة تمت بتمام نزوله ، فإذا نظرنا إلى رجوع الشريعة إلى كلياتها ، وجدناها قد تضمنها القرآن على السكال . وقد جود البحث في هذه المسألة المهمة ، العلامة الشاطبي في (الموافقات) في الطرف الثانى ، في الأدلة على التفصيل . فارجع إليه .

وقد نقلنا شذرة منه في مقدمة هذا التفسير . فتذكر ! .

السابع - قال أبو البقاء: (مِنْ) في قوله تعالى (مِنْ شَيْءٍ) زائدة . و (شَيْءٍ) هنا واقع موقع المصدر . أى : تفريطاً . وعلى هذا التأويل لا يبق في الآية حجة لمن ظن أن الكتاب يحتوى على ذكر كل شىء صريحاً . ونظير ذلك : لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً (٣) . أى :

== ثم سألت رجلاً من أهل العلم فأخبرونى ؛ أن على ابني جلد مائة وتغريب عام ، وعلى امرأته الرجم .

فقال النبي ﷺ « والذى نفسى بيده ! لأقضين بينكما بكتاب الله ، جلّ ذكره . المائة شاة والخادم ردّ . وعلى ابنك جلد مائة وتغريب عام . واغد ، يا أُنَيْس ! على امرأة هذا ، فإن اعترفت فارجمها » .

فغدا عليها ، فاعترفت ، فرجمها .

وأخرجه مسلم في : ٢٩ - كتاب الحدود ، حديث ٢٥ (طبعنا) .

(١) [٣ / آل عمران / ١٢٠] ونصها : إِنْ تَمَسَّسَكُمْ حَسَنَةٌ تَسُوءُهُمْ وَإِنْ =

ضررا . وقد ذكرنا له نظائر . ولا يجوز أن يكون (شَيْئًا) مفعولا به ، لأن (فَرَطْنَا)
تتعدى بنفسها ، بل بحرف الجر ، وقد عدت بـ (في) إلى (الْكِتَابِ) ، فلا تتعدى بحرف آخر .
ولا يصح أن يكون المعنى : ما تركنا في الكتاب من شيء ، لأن المعنى على خلافه ، فبان
أن التأويل ما ذكرنا . انتهى .

وقال الخفاجي : التفريط التقصير . وأصله أن يتعدى بـ (في) وقد ضمن هنا معنى
(أَغْفَلْنَا وَتَرَكْنَا) . فـ (مِنْ شَيْءٍ) في موضع المفعول به ، و (مِنْ) زائدة . والمعنى :
ما تركنا في الكتاب شيئا يحتاج إليه من دلائل الألوهية والتكليف .

هذا ما ارتضاه أبو حيان والزخشي ، وعدل عنه البيضاوي . لأنه لا يتعدى . فجعل
التقدير (تفريطاً) فحذف المصدر ، وأقيم (شيئا) مقامه ، وتبع فيه أبا البقاء ، إذ اختار
هذا ، وأورد عليه في (الملتقط) أنه ليس كما ذكر ، لأنه إذا تسلط النفي على المصدر ، كان
منفيا على جهة العموم ، ويلزمه نفي أنواع المصدر ، ونفي جميع أفرادها ، وليس بشيء ، لأنه
يريد أن المعنى حينئذ : أن جميع أنواع التفريط منفية عن القرآن ، وهو ما لا شبهة فيه ، ولا
يلزمه أن يذكر فيه كل شيء كما لزم على الوجه الآخر ، حتى يحتاج إلى التأويل . كما أن
نفي تعديه لا يضر من قال إنه مفعول به على التضمين ، كما مر . وأما ما قيل : إن (فرط)
يتعدى بنفسه ، لما وقع في القاموس (فرط الشيء) ، وفرط فيه تفريطاً ضيماً وقدم العجز فيه وقصر) فلا
نسلم أنه يتعدى بنفسه . وتفرد صاحب القاموس بأمر ، لا يسمع في مقابلة الزخشي وغيره .
مع أنه يحتمل أن تعديته المذكورة فيه ليست وضعية ، بل مجازية ، أو بطريق التضمين
- انتهى كلام الشهاب - .

أقول : ما للمجدد في القاموس ، ليس من تفرداته وعندياته ، إذ اللغة مرجعها السماع ،

تُصَبِّكُمُ سَيِّئَةً يَفْرَحُوا بِهَا ، وَإِنْ تَصَرُّوْا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا ،
إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ .

لا الاجتهاد . وموازنته بين الزمخشري وغيره ، من باب معرفة الحق بالرجال ، الذي الصواب عكسه . على أنه ليس في (الكشاف) ما يقتضى مازعمه . وقد استشهد شارح القاموس ، الزبيديّ شاهدا على تعديته بنفسه ، تأييدا لكلام المجد ، قول صخر الفى^(١) :

ذلك بَزَى فلنْ أَفَرَّطُهُ أَخاف أن يُنْجِزُوا الذى وعدوا

قال ابن سيدة : يقول . لا أضيعه ، وقوله : بَزَى ، أراد سلاحى . ثم قال الزبيديّ : وقال أبو عمرو : فرطتك في كذا وكذا ، أى تركتك . وبه فسر أيضاً قول صخر . انتهى .
وأُشْد أبو السعود قول ساعدة بن جُوَيَّْة^(٢) :

* معه سِقَاءٌ لا يَفَرُّطُ حملة *

أى : لا يتركه .

وبه يعلم سقوط ما لأبى البقاء ، وسقوط دعوى أن أصله أن يتعمدى بـ (فى) ودعوى التضمن السابقة ، وتكلف كون (شئٌ) واقعا موقع المصدر .

هذا وقرئ (فَرَطْنَا) بالتخفيف ، وهو بمعنى المشدّد . وإنما توسعنا فيما روى على القول الثانى فى معنى الكتاب ، لشهرة الآية فى هذا المعنى ، وإن كان الأظهر الأول ، لما ذكرناه ، ولأن السورة مكية ، والأحكام فيها لم تتم - والله أعلم - .

الثامن - دلت الآية على حشر الدوابّ والبهائم والطير كلها ، أى : بعثها يوم القيامة . كقوله تعالى : (وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ)^(٣) .

وروى الإمام أحمد^(٤) عن أبى ذر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى شاتين

(١) استشهد به فى اللسان فى مادة (ف ر ط) يقول : لا أخلفه فأتقدم عنه . وقال

ابن سيدة . يقول : لا أضيعه . وقيل : معناه لا أقدمه وأتخلف عنه .

(٢) استشهد به فى اللسان فى مادة (ف ر ط) يقول : لا يترك حملة ولا يفارقه .

(٣) [٨١ / التكوير / ٥] .

(٤) أخرجه فى المسند بالصفحة ١٦٢ من الجزء الخامس (طبعة الحلبيّ) .

تنتطحان ، فقال : يا أباذر ! هل تدري فيم تنتطحان ؟ قال : لا . قال : لكن الله يدري ، وسيقضى بينهما . ورواه عبد الرزاق وابن جرير^(١) ، وزاد : قال أبو ذر : ولقد تركنا رسول الله ﷺ ، وما يقلب طائر جناحيه في السماء إلا ذكر لنا منه علما .
وروى عبد الله ابن الإمام أحمد^(٢) في مسند أبيه عن عثمان أن رسول الله ﷺ قال : إن الجماء لتُقص من القرناء يوم القيامة .

وروى عبد الرزاق عن أبي هريرة في هذه الآية قال : يحشر الخلق كلهم يوم القيامة : الدواب والبهائم والطير وكل شيء ، فيبلغ من عدل الله يومئذ أن يأخذ للجماء من القرناء ، ثم يقول : كونى تراباً ! فلذلك يقول الكافر : « يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَاباً » . وقد روى هذا مرفوعاً في حديث الصور . أفاده ابن كثير .

قلت : روى الإمام أحمد^(٣) ، والبخاري في (الأدب المفرد) ومسلم^(٤) والترمذي^(٥) عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : لتؤذن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة ، حتى يقاد للشاة الجلاء ، من الشاة القرناء ، تنطحها .

(١) الأثر رقم ١٣٢٢٣ من التفسير .

وفي المسند بالصفحة ١٥٣ من الجزء الخامس (طبعة الحلبي) .

(٢) أخرجه في المسند بالصفحة ٧٢ من الجزء الأول (طبعة الحلبي) والحديث رقم ٥٢٠ (طبعة المعارف) .

(٣) أخرجه في المسند بالصفحة رقم ٢٣٥ من الجزء الثاني (طبعة الحلبي) والحديث رقم ٧٢٠٣ (طبعة المعارف) .

(٤) أخرجه مسلم في : ٤٥ - كتاب البر والصلة والآداب ، حديث ٦٠ (طبعتنا) .

(٥) أخرجه الترمذي في : ٣٥ - كتاب القيامة ، ٢ - باب ما جاء في شأن الحساب

والقصاص .

وروى ابن أبي حاتم عن عكرمة عن ابن عباس في الآية قال : حشرها الموت . وروى عن مجاهد والضحاك مثله . والأول أظهر .

التاسع - (في الإكليل) : استدل بهذه الآية على مسألة أخرى ، أخرجها أبو الشيخ عن أنس أنه سئل : من يقبض أرواح البهائم ؟ قال : ملك الموت . فبلغ الحسن فقال : صدق ! وإن ذلك في كتاب الله . ثم تلا هذه الآية .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٩] (وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمُّوا وَبُكِمُوا فِي الظُّلُمَاتِ ، مَنْ يَشَاءُ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَاءُ يُجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

«وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمُّوا وَبُكِمُوا فِي الظُّلُمَاتِ» أى : مثلهم في جهلهم ، وعدم فهمهم ، وسوء حالهم ، كمثل الصم (جمع أصم وهو الذى لا يسمع) والبكم (جمع أبكم ، وهو الذى لا يتكلم) . وهم مع ذلك في ظلمات لا يبصرون . فكيف يهتدى مثلهم إلى الطريق ، أو يخرج مما هو فيه ؟ وقد كثر تشبيههم بذلك في التنزيل ، إعلالاً ببيان كمال غرقتهم في الجهل ، وانسداد باب الفهم والتفهم بالكلية .

ثم أشار إلى أنهم من أهل الطبع بقوله « مَنْ يَشَاءُ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَاءُ يُجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » أى : فهو المتصرف في خلقه بما يشاء ، فمن أحب هدايته ، وفقه بفضله وإحسانه للإيمان . ومن شاء ضلالتة تركه على كفره . (وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ) .

ثم أمر تعالى رسوله بأن يبيحهم بما لا سبيل لهم إلى إنكاره ، ببيان أنهم إذا نزلت بهم شدة ، فإنهم يفزعون إليه تعالى ، لا إلى الأصنام ، فقال تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٠] (قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمْ السَّاعَةُ ، أَعْبَرِ اللَّهُ تَدْعُونَ ، إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

« قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ » أى : أخبرونى « إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ » أى : مثل ما نزل بالأمم الماضية الكافرة ، « أَوْ أَتَتْكُمْ السَّاعَةُ » يعنى القيامة « أَعْبَرِ اللَّهُ تَدْعُونَ » أى : فى كشف العذاب عنكم . وهذا محط التبكيث . أى : أنخصون آلهتكم بالدعوة إلى رفع تلك الشدة ، بل لا تدعونها مع الله أيضاً « إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » متعلق بـ (أَرَأَيْتَكُمْ) مؤكداً للتبكيث ، كاشف عن كذبهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤١] (بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ ، وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ)

« بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ » أى : تخصون بالدعوة « فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ » أى : إن شاء كشفه . والتقيد بالمشيئة لبيان أن إجابتهم غير مطردة ، بل هى تابعة لمشيئته تعالى ، المبنية على حكم استأثر بعلمها « وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ » أى : تتركون ما تشركون تركاً كلياً لعلمكم بأنها لا تضر ولا تنفع . عطف على (تَدْعُونَ) ، وتوسيط الكشف بينهما مع تقارنهما ، وتأخر الكشف عنهما ، لإظهار كمال العناية بشأن الكشف والإيدان بترتبه على الدعاء خاصة .

ثم بين تعالى أن من كفر الأمم السالفة من بلغوا فى القسوة إلى أن أخذوا بالشذائد ليخضعوا ويلتجئوا إلى الله تعالى ، فلم يفعلوا . تسلياً لنبيه ﷺ فقال :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٢] (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ
يَتَضَرَّعُونَ)

« وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ » أى : رسلاً ، فكذبوهم ولم يبالوا ، لكونهم فى
الرخاء ، « فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ » أى : الشدة والقحط ، « وَالضَّرَاءِ » أى : المرض
ونقصان الأنفس والأموال « لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ » أى : يتذللون ويتخشعون لربهم ويتوبون
إليه من كفرهم ومعاصيهم ، فالنفوس تتخشع عند زول الشدائد .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٣] (فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَٰكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ
الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

« فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا » أى : بالتوبة والتسكن . ومعناه . نفي التضرع .
كأنه قيل : فلم يتضرعوا . وجىء بـ (لَوْلَا) ليفيد أنه لم يكن لهم عذر فى ترك التضرع إلا
عنادهم ، كما قال « وَلَٰكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ » فلم يكن فيها إين يوجب التضرع ، ولم ينجروا
وإنما ابتلوا به ، « وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » أى : من الشرك . فالاستدراك
على المعنى لبيان الصارف لهم عن التضرع ، وأنه لا مانع لهم إلا قساوة قلوبهم ، وإعجابهم
بأعمالهم المزينة لهم .

لطيفة :

إن قلت : قد أسند تعالى هنا التزيين إلى الشيطان ، وأسنده إلى نفسه فى قوله : وَكَذَٰلِكَ
زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ^(١) فهل هو حقيقة فيهما ، أوفى أحدهما ؟ قلت : وقع التزيين

(١) [٦ / الأنعام / ١٠٨] ونصها : وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ =

في مواقع كثيرة : فتارة أسنده إلى الشيطان ، كالآية الأولى ، وتارة إلى نفسه كالثانية ، وتارة إلى البشر كقوله (زَيْنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ)^(١) - في قراءة - وتارة مجهولاً غير مذكور فاعله كقوله (زَيْنَ لِلْمُشْرِكِينَ)^(٢) ، لأن التزيين له معان يشهد بها الاستعمال واللغة : أحدها : إيجاد الشيء حسناً مزيناً في نفس الأمر ، كقوله : (زَيْنًا السَّمَاءَ الدُّنْيَا) ، والثاني : جملة مزيناً من غير إيجاد ، كتزيين الماشطة المروس ، والثالث : جملة محبوباً للنفس ، مشتهى للطبع ، وإن لم يكن في نفسه كذلك . فهذا إن كان بمعنى خلق الميل في النفس والطبع لا يسند إلا إلى الله ، لأنه الفاعل له حقيقة ، لإيجاده له ، ولغة ونحواً لا تصافه بخلقه . وإن كان بمجرد تزويره وترويجه بالقول وما يشبهه ، كالوسوسة والإغواء ،

فَيَسْبُوا اللَّهَ عَدُوًّا بِغَيْرِ عِلْمٍ ، كَذَلِكَ زَيْنًا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ .

(١) [٦ / الأنعام [١٣٧] ونصها : وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْذُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ، فَذَرَهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ .

(٢) [١٠ / يونس / ١٢] ونصها : وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرِّ مَسَّهُ ، كَذَلِكَ زَيْنَ لِلْمُشْرِكِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ .

(٣) [٣٧ / الصافات / ٦] ونصها : إِنَّا زَيْنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ .

و [٤١ / فصلت / ١٢] ونصها : فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا ، وَزَيْنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَارِيحَ وَحِظًا ، ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ .

و [٦٧ / الملك / ٥] ونصها : وَلَقَدْ زَيْنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَارِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ ، وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ .

فهذا لا يسند إليه تعالى حقيقة ، وإنما يسند إلى البشر أو الشيطان . وإذا لم يذكر فاعله ، يقدر في كل مكان ما يليق به - كذا في (العناية) - .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٤] (فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ)

« فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ » أى : من البأساء والضراء ، أى تركوا الاتمـاظ به « فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ » أى : من النعم ، كالصحة والسعة وراحة البال والأمن ، وصنوف رغائبهم ، استدراجاً وإملاءً ومكرًا بهم ، عيادًا بالله من مكره ، « حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا » من مطالبهم ورغائبهم ، مع الشرك « أَخَذْنَاهُمْ » أى : بالمذاب المستأصل ، « بَغْتَةً » أى : فجأة بلا تقديم مذكر ، إذ لم يفدهم في المرة الأولى ، « فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ » متحسرون ، يئسون من كل خير .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٥] (فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

« فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا » أى : آخرهم . كناية عن الاستئصال ، لأن ذهاب آخر الشيء يستلزم ذهاب ما قبله . وهو من (دَبْرَةٍ) إذا تبعه ، فكان في دُبْرِهِ . أى : خلفه . فالدابر ما يكون بعد الآخر ، ويطلق عليه تجوزًا . وقال أبو عبيد : دابر القوم آخرهم . وقال الأصمعي : الدابر الأصل ، ومنه : قطع الله دابره ، أى : أصله .

« وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » أى : على ما جرى عليهم من الهلاك . فإن إهلاك الكفار والعصاة من حيث إنه تخليص لأهل الأرض ، من شؤم عقائدهم وأعمالهم ، نعمة جليلة يحق أن يحمد عليها ، لاسيما مع ما فيه من إعلاء كلمة الحق التي نطقت بها رسلهم ، عليهم السلام .

تنبيهات

الأول - روى في هذه الآية أخبار وآثار . منها ما أخرجه الإمام أحمد^(١) عن عقبة بن عامر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : إذا رأيت الله يعطى العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب ، فإنما هو استدراج . ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم : « فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ ... إلى .. هُمْ مُبْلِسُونَ » ورواه ابن جرير^(٢) وابن أبي حاتم عنه .

وروى ابن أبي حاتم أيضاً عن عبادة بن الصامت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول : إذا أراد الله بقوم اقتطاعاً فتح لهم (أَوْ فُتِحَ عَلَيْهِمْ) باب خيانة ، حتّى إذا فرحوا بما أوتوا أخذوا نائمهم بغتة ... الآية . ورواه أحمد وغيره .

وقال الحسن البصرى : من وسع الله عليه ، فلم ير أنه يمكر به ، فلا رأى له . ومن قتر عليه ، ولم ير أنه ينظر له ، فلا رأى له . ثم قرأ . « فَلَمَّا نَسُوا ... » الآية - قال الحسن : مكر بالقوم ، ورب السكبة ! أعطوا حاجتهم ثم أخذوا .

وقال قتادة : بغت القوم أمر الله ، وما أخذ الله قوماً قط إلا عند سكرتهم وغرتهم ونعمتهم ، فلا تغتروا بالله ، فإنه لا يفتّر بالله إلا القوم الفاسقون - روى ذلك ابن أبي حاتم -
الثانى - قال الرازى : قال أهل المغانى : وإنما أخذوا فى حال الرخاء والراحة ليكون أشد ، لتحسرهم على ما فاتهم من السلامة والعافية .

الثالث - قال الزمخشري : فى قوله تعالى (وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) إيدان بوجوب الحمد عند هلاك الظلمة ، وأنه من أجل النعم ، وأجزل القسم . أى : فهو إخبار بمعنى الأمر ، تعليماً للعباد .

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة ١٤٥ من الجزء الرابع (طبعة الحلبي) .

(٢) الأثر رقم ١٣٢٤١ من التفسير .

قال الناصري (الانتصاف) : ونظيرها قوله تعالى^(١) (وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا ، فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ . قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى) فيمن وقف ههنا ، وجعل الحمد على إهلاك المتقدم ذكرهم من الطاغين . ومنهم من وقف على (الْمُنْذَرِينَ) وجعل الحمد متصلًا بما بعده من إقامة البراهين على وحدانية الله تعالى ، وأنه جل جلاله خير مما يشركون . فعلى الأول يكون الحمد ختمًا ، وعلى الثاني فاتحة ، وهو مستعمل فيهما شرعًا ، ولكنه في آية النمل أظهر في كونه مفتتحًا لما بعده ، وفي آية الأنعام ختم لما تقدمه ختمًا ، إذ لا يقتضي السياق غير ذلك . انتهى .

قلت : إذا جربنا على ماهو الأسد في الآي من توافق النظائر ، اقتضى حمل آية النمل على ما هنا ، وإدعاء الأظهرية فيها ممنوع ، فإن التزويل يفسر بعضه بعضًا . فتأمل . ثم أمر تعالى رسوله بتكرير التبكيث عليهم . وثنية الإلزام .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٦] (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ ، انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْذِفُونَ)

بقوله تعالى : « قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ » بأن أصمكم وأعماكم ، « وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ » بأن غطى عليها ما يزول به عقولكم وفهمكم « مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ ؟ » أي : بذلك المأخوذ . وإنما خصت هذه الأعضاء الثلاثة بالذكر ، لأنها أشرف أعضاء الإنسان ، فإذا تعطلت اختل نظام الإنسان ، وفسد أمره ، وبطلت مصالحه في الدين والدنيا .

« انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ » أي نوردها بطرق مختلفة ، كتصريف الرياح . و(انظر)

يفيد التمجيب من عدم تأثرهم بما عاينوا من الآيات الباهرة .

(١) [٢٧ / النمل / ٥٨ و٥٩] ... ءَاللهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ .

« ثُمَّ هُمْ يَصْذِقُونَ » أى : بعد رؤيتهم تصريح الآيات يعرضون عنها ، فلا يتأملون فيها ، عنادا وحسدا وكبرا .

تنبيهات

الأول - المراد بالآيات : إما مطلق الدلائل ، أو الدلائل القرآنية مطلقا ، أو ما ذكر من أول السورة إلى هنا ، أو ما ذكر قبل هذا من المقدمات العقلية الدالة على وجود الصانع وتوحيده المشار إليها بقوله : **إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ ... الآية .** ومن الترغيب بقوله : **فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ ، والترهيب بقوله : إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ ... الآية .** ومن التنبيه والتذكير بأحوال المتقدمين . ذهب إلى كلٍّ بعض من المفسرين ، وعموم اللفظ يصدق على ذلك كله بلا تدافع .

الثانى - قال بعض المفسرين من الزيدية : دلت الآية على جواز الاحتجاج فى أمر الدين . انتهى . وهو ظاهر .

الثالث - المقصود من هذه الآية : بيان أن القادر على تحصيل هذه القوى الثلاث ، وصونها عن الآفات ، ليس إلا الله تعالى . وإذا كان الأمر كذلك ، كان المنعم بهذه النعم العالية ، والخيرات الرفيعة ، هو الله تعالى . فوجب أن يقال : المستحق للتعظيم والثناء والعبودية ليس إلا الله تعالى . وذلك يدل على أن عبادة الأصنام طريقة باطلة فاسدة - قرره الرازى - .

ثم أشار تعالى إلى تبيكت لهم آخر يالجاهم إلى الاعتراف باختصاص العذاب بهم بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٧] (قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الظَّالِمُونَ)

قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ « لإِعْرَاضِكُمْ عَنِ الْآيَاتِ بِعَدِّ تَصْرِيفِهَا » عَذَابُ اللَّهِ « أَى : المستأصل لكم ، « بَغْتَةً » أى : فجأة من غير تقديم ما يشعر به ؛ إذ لم يفد ما تقدم ، « أَوْ جَهْرَةً » بتقديمه مبالغة فى إزاحة العذر . وقيل : ليلاً أو نهاراً ، كما فى قوله تعالى : بَيِّنَاتًا أَوْ نَهَارًا ، لما أن الغالب فيما أتى ليلاً البغته ، وفيما أتى نهاراً الجهره « هَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الظَّالِمُونَ » أى : هل يهلك بذلك العذاب إلا أنتم ؟ وَوَضَعَ الظَّاهِرَ موضعه ، تسجيلاً عليهم بالظلم ، وإبداناً بأن مناط إهلاكهم ظلمهم الذى هو وضعهم الإعراض عما صرف الله له من الآيات ، موضع الإيمان

ثم أشار تعالى إلى وظيفة الرسل ، وتحقيق ما فى عهدهم ، لبيان أن ما يقترحه الكفار عليه ، **بِطَائِفٍ** ، ليس مما يتعلق بالرسالة أصلاً ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٨] (وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ ، فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

« وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ » بالثواب لأهل الإيمان والأعمال الصالحة ، « وَمُنْذِرِينَ » بالعقاب لأهل الكفر والمعاصى ، « فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ » للأعمال والأخلاق ، فهم أهل البشارة ، « فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ » أى : من العذاب الذى أنذروا به دنيوياً وأخروياً ، « وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ » أى : بفوات ما بشروا به من الثواب العاجل والآجل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٩] (وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ)

« وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ » أى : الذى أنذروا به عاجلاً أو آجلاً « بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ » أى : عن أمر الله فى ترك الإيمان ، ومباشرة الأعمال الطالحة واكتساب الأخلاق الرديئة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٠] (قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ ، إِنْ أَتَّبَعُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ ، قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ، أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ)

وقوله تعالى « قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ » أى : قل لهؤلاء المشركين المقترحين عليك تارة تنزيل الآيات ، وأخرى غير ذلك : لا ادعى أن خزائن رزق الله مفوضة إلى ، فأعطيك منها ما تريدون من قلب الجبال ذهباً ، وغير ذلك .
(والخزائن : جمع خزانة ، وهى اسم للمكان الذى يخزن فيه الشيء . وخزن الشيء إحرازه ، بحيث لا تناله الأيدي) .

« وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ » أى : من أفعاله تعالى حتى تسألونى عن وقت الساعة ، أو وقت نزول العذاب أو نحوها .

« وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ » أى : حتى تكلفونى من الأفاعيل الخارقة للمعادات مالا يطيقه البشر ، من الرقى فى السماء ونحوه ، أو تعدوا عدم اتصافهم بصفاتهم قادحا فى أمرى ، كما بنى عنه قولهم : مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ . والمعنى : إني لا أدعى شيئاً من هذه الأشياء الثلاثة ، حتى تقترحوا على ما هو من آثارها وأحكامها ،

وتجعلوا عدم إجابتي إلى ذلك، دليلاً على عدم صحة ما أدعيه من الرسالة التي لاتعلق لها بشيء مما ذكر قطعاً . بل إنما هي عبارة عن تلقى الوحي من جهة الله عز وجل، والعمل بمقتضاه فقط ، كما ينبي عنه قوله تعالى :

«إِنْ أَنْتَبِيعُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ» أى : ما أتبع فيما أقول لكم إلا ما يوحى إلى من جهته تعالى ، شرفنى بذلك وأنعم به على ، إذ يكشف لى عن الملائكة فيخبرونى . ثم كرر الأمر تذكيراً للتبكييت بقوله :

«قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ» مثل للضال والمهتدى على الإطلاق . والاستفهام إنكارى ، والمراد إنكار استواء من لا يعلم ما ذكر من الحقائق ، ومن يعلمها . وفيه من الإشعار بكال ظهورها، ومن التنفير عن الضلال، والترغيب فى الاهتداء - ما لا يخفى . أفاده أبو السعود . وقوله تعالى : « أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ » تقرير وتوبيخ داخل تحت الأمر . أى : أفلا تفكرون فمتهدوا ، ولا تكونوا ضالين أشباه العميان .

تنبيهات :

الأول - جعل بعض المفسرين قوله تعالى : (قُلْ لَا أَقُولَ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ) تبرؤاً من دعوى الألوهية، لأن قسمة الأرزاق بين العباد ، ومعرفة الغيب ، مخصوصان به تعالى . قال : ولذا كرر فى الملكية لفظ (وَلَا أَقُولُ) . والمعنى : لا أدعى الألوهية ولا الملكية .

وأورد على هذا أن المراد : لا أملك أن أفعل ما أريد مما تقتضونه ، وليس المراد التبرؤ عن دعوى الإلهية ، وإلا لقل : لا أقول لكم إني إله . كما قيل : ولا أقول لكم إني ملك . وأيضاً فى الكناية عن الألوهية بـ (عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ) ما لا يخفى من البشاعة ، بل هو جواب عن اقتراحهم عليه ﷺ أن يوسع عليهم خيرات الدنيا - كذا فى (النهاية) - . قال أبو السعود : وجعل هذا تبرؤاً عن دعوى الإلهية ، مما لا وجه له قطعاً .

الثاني - قال الجبائي : الآية دالة على أن الملك أفضل من الأنبياء ، لأن المعنى : لا أَدعى منزلة فوق منزلتى . ولولا أن الملك أفضل ، وإلا لم يصح ذلك .

قال القاضي : إن كان الغرض بما نفي طريقة التواضع ، فالأقرب أن يدل ذلك على أن الملك أفضل ، وإن كان المراد نفي قدرته على أفعال لا يقوى عليها إلا الملائكة ، لم يدل على كونهم أفضل .

وقرر الزمخشري الأول تأييدا لمذهبه فقال في تفسير الآية : أى لا أَدعى ما يستبعد في العقول أن يكون لبشر من ملك خزان الله ، وهى قِسَمه بين الخلق وأرزاقه ، وعلم الغيب ، وإنى من الملائكة الذين هم أشرف جنس خلقه الله تعالى ، وأفضله ، وأقربه منزلة منه . أى : لم أَدعِ إلهية ولا ملكية ، لأنه ليس بعد الإلهية منزلة أرفع من منزلة الملائكة ، حتى تستبعدوا دعواى وتستنكروها ، وإنما أَدعى ما كان مثله لكثير من البشر ، وهو النبوة . انتهى .

وتعقبه الناصر فى (الانتصاف) بقوله : هو يبنى على القاعدة المتقدمة له ، فى تفضيل الملائكة على الأنبياء . ولعمري إن ظاهر هذه الآية يؤيده ، فلذلك انتهز الفرصة فى الاستدلال بها . ولخالفه أن يقول : إنما أوردت الآية ردًا على الكفار فى قولهم : مَا لَهُذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ ...) الآية - فردّ قولهم : (مَا لَهُذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ) بأنه بشر ، وذلك شأن البشر ، ولم يدّع أنه ملك حتى يتعجب من أكله للطعام ، وحينئذ لا يلزم منها تفضيل الملائكة على الأنبياء ، لأنه لا خلاف أن الأنبياء ، يأكلون الطعام ، وأن الملائكة ليسوا كذلك ، فالتفرقة بهذا الوجه متفق عليها ، ولا يوجب ذلك اتفاقا على أن الملائكة أفضل من الأنبياء .

وكذلك رد قولهم (أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ) بأنه لا يملك خزان الله تعالى حتى يأتيهم بكنز منها على وفق مقترحهم ، ولا قال لهم ذلك حتى يقام عليه الحجة به .

ثم قال الناصر رحمه الله : ولم يحسن الزمخشريّ في قوله (ليس بعد الإلهية منزلة أرفع من منزلة الملائكة) فإنه جعل الإلهية من جملة المنازل كالملاكية ، ومثل هذا الإطلاق لا يسوغ . والمنزلة عبارة عن المحل الذي يُنزل الله فيه العبد من علوّ وغيره ، فإطلاقها على الإلهية تحريف . والله الموفق للصواب .

الثالث - قال الرازيّ : ظاهر قوله تعالى (**إِنْ أَتَّبِعْ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ**) يدل على أنه

ﷺ لا يعمل إلا بالوحي ، وهو يدل على حكيم :

الأول - أن هذا النص يدل على أنه **ﷺ** لم يكن يحكم من تلقاء نفسه في شيء من الأحكام ، وأنه ما كان يجتهد ، بل جميع أحكامه صادرة عن الوحي ، ويتأكد هذا بقوله تعالى (**وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ**) .

الثاني - أن نفاة القياس قالوا : ثبت بهذا النص أنه **ﷺ** ما كان يعمل إلا بالوحي النازل عليه ، فوجب أن لا يجوز لأحد من أمته أن يعملوا إلا بالوحي النازل عليه ، بقوله تعالى : (**فَاتَّبِعُونَهُ**) ، وذلك ينفي جواز العمل بالقياس . ثم أكد هذا الكلام بقوله : (**قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ**) وذلك لأن العمل بغير الوحي يجري مجرى عمل الأعمى . والعمل بمقتضى نزول الوحي يجري مجرى عمل البصير . ثم قال (**أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ**) والمراد منه التنبيه على أنه يجب على العاقل أن يعرف الفرق بين هذين البابين ، وأن لا يكون غافلاً عن معرفته . انتهى . وفي (فتح الرحمن) : تمسك بذلك من لم يثبت اجتهد الأنبياء ، عملاً بما يفيد القصر في هذه الآية .

والمسألة مدونة في الأصول . وقد صح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : أوتيت القرآن

ومثله معه .

ثم لما أخبر تعالى : أن أولئك المشركين كالصم البكم العمى ، بل الموتى ، إذ لم يتعضوا بتصرف الآيات الباهرة ، أمر بتوجيه الإنذار إلى من يتأثر بما يوحى إليه ، أطراحاً لأولئك الفجار ، فقال تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥١] (وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ)

« وَأَنْذِرْ بِهِ » أى : بما يوحى ، المتقدم ذكره « الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ » يعنى : من دون الله تعالى ، « وَلِيٌّ » أى : ناصر ينصرهم « وَلَا شَفِيعٌ » يشفع لهم وينجيهم من العذاب ، غيره تعالى (لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ » أى : الاعتقادات الفاسدة ، والأعمال الطالحة ، والأخلاق الرديئة .

قال فى (العناية) : خص بالذكر هؤلاء ، لأنهم الذين ينفعهم الإنذار ، ويقودهم إلى التقوى . وليس المراد الحصر حتى يرد أن إنذاره لغيرهم لازم أيضاً . انتهى .
وجملة (لَيْسَ لَهُمْ) فى موضع الحال من (يُحْشَرُوا) ، فإن الخوف هو الحشر على هذه الحالة . والمراد بـ (الولي) و (الشفيع) الآلهة التى كان المشركون يزعمون أنها شفعاؤهم ، وحينئذ فلا دلالة فى الآية على نفى الشفاعة للمسلمين ، لأن شفاعة الرسل يومئذ إنما تكون بإذنه تعالى ، فكأنها منه تعالى . ♦

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٢] (وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ)

روى الإمام مسلم^(١) عن سعد بن أبي وقاص رضى الله عنه قال : كنا مع رسول الله ﷺ ستة نفر ، فقال له المشركون : اطرد هؤلاء يجترئون علينا ! قال : وكنت أنا وابن مسعود ورجل من هذيل وبلال ورجلان لست أسميهما ، فوقع في نفس رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يقع ، فحدث نفسه ، فأنزل الله تعالى : « وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ ... » الآية . وأخرج نحوه الحاكم وابن حبان في صحيحهما .

وروى الإمام أحمد^(٢) عن ابن مسعود قال : مرّ الملا من قريش على رسول الله ﷺ ، وعنده خباب وصهيب وبلال وعمار ، فقالوا : يا محمد ! أرضيت بهؤلاء ؟ فنزل عليه القرآن : « وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ » إلى قوله « أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ » .

ورواه ابن جرير^(٣) عن ابن مسعود أيضاً قال : مرّ الملا من قريش برسول الله ﷺ وعنده صهيب وبلال وعمار وخباب وغيرهم من ضعفاء المسلمين .

(١) أخرجه مسلم في : ٤٤ - كتاب فضائل الصحابة ، حديث ٤٦٥٥ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه في السند بالصفحة ٤٢٠ من الجزء الأول (طبعة الحلبي) والحديث رقم

٣٩٨٥ (طبعة المعارف) .

(٣) الأثر رقم ١٣٢٥٥ من التفسير .

وفيه : فقالوا : يا محمد ! أرضيت بهؤلاء من قومك ، أهؤلاء من الله عليهم من بيننا ونحن نصير تبعاً لهؤلاء ؟ اطردهم ، فلعلك إن طردتهم تتبعك ! فنزلت هذه الآية : « وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ ... » الآية .
ووراء ما ذكرنا ، روايات لا تصح ولا يوثق بها .

إذا علمت ذلك تبين أنه ﷺ لم يطردهم بالفعل ، وإنما هم بإبعادهم عن مجلسه أن قدوم أولئك ، ليتألفهم فيقودهم ذلك إلى الإيمان ، فهاه الله عن إمضاء ذلك لهم .
فأأورده الرازي من كونه ﷺ طردهم ، ثم أخذ يتكليف الجواب عنه ، لمنافاته العصمة على زعمه ، فبناءً على وإ . والقاعدة المقررة أن البحث في الأترفع ثبوته ، وإلا فالباطل يكنى فيرده ، كونه باطلاً . وقد أوضح ذلك في كتابي (قواعد التحديث من فنون مصطلح الحديث) .
والمعنى : لا تبعد هؤلاء المتصفين بهذه الصفات عنك ، بل اجعلهم جلساءك وأخصاءك .
كقوله^(١) : (وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا) .

وقوله تعالى : « يَدْعُونَ رَبَّهُمْ » أى يعبدونه ويسألونه ، « بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ » قال سعيد بن المسيب وغيره : المراد به الصلاة المكتوبة .

وقوله تعالى : « يُرِيدُونَ وَجْهَهُ » المراد بالوجه الذات ، كما في قوله (كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ) ومعنى إرادة الذات الإخلاص لها ، والجملة حال من (يَدْعُونَ) أى : يدعون ربهم مخلصين له فيه ، وتقييده به لتأكيد علميته للنهى ، فإن الإخلاص من أقوى موجبات الإكرام ، المضاد للطرده .

وقوله تعالى « مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ » ،

كقول نوح عليه السلام في الذين قالوا^(١) : (اُنُؤْ مِنْ لَكَ وَاتَّبِعَكَ الْأَرْدُ لَنْ نَعْمَلَ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ) أى : إنما حسابهم على الله عز وجل ، وليس على من حسابهم من شيء ، كما أنه ليس عليهم من حسابي من شيء .

قال العلامة أبو السعود : الجملة اعتراض وسط بين النهي وجوابه ، تقريراً له ودفعاً لما عسى يتوهم كونه مسوغاً لطردهم من أقاويل الطاعنين في دينهم ، كدأب قوم نوح حيث قالوا . (مَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِّى الرَّأْيِ) أى : ما عليك شيء من حساب إيمانهم وأعمالهم الباطنة ، حتى تتصدى له ، وتبنى على ذلك ما تراه من الأحكام ، وإنما وظيفتك ، حسبها هو شأن منصب النبوة ، اعتبار ظواهر الأعمال ، وإجراء الأحكام على موجبها . وأما بواطن الأمر فحسابها على العليم بذات الصدور ، كقوله تعالى (إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي) وذكر قوله تعالى : (وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ) مع أن الجواب قد تم بما قبله ، للبالغة في بيان انتفاء كون حسابهم عليه ﷺ ، بنظمه في سلك مالا شبهة فيه أصلاً ، وهو انتفاء كون حسابه عليه السلام ، عليهم ، على طريقة قوله تعالى : (لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ)^(٢) وأما ما قيل من أن ذلك لتزليل الجملتين منزلة

(١) [٢٦ / الشعراء / ١١١ - ١١٣] وهاكم نصها حسب الكتاب : قَالُوا اُنُؤْ مِنْ لَكَ وَاتَّبِعَكَ الْأَرْدُ لَنْ نَعْمَلَ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي ، لَوْ تَشْعُرُونَ .

(٢) [٧ / الأعراف / ٣٤] ونصها : وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ، فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ، وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ .

و [١٠ / يونس / ٤٩] ونصها : قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ، لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ، إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ، وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ .

و [١٦ / النحل / ٦١] ونصها : وَلَوْ يُوَاقِدُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهِمْ =

جملة واحدة، لتأدية معنى واحد، على نهج قوله تعالى (وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ) فغير تحقيق بجملة شأن التنزيل . انتهى .

والقول المذكور للزخشرى ، حيث ذهب إلى أن الجملتين فى معنى جملة واحدة ، تؤدى مؤدى (وَلَا تَزِرُ) الآية ، وأنه لا بد منهما .

هذا ، وقيل : الضمير للمشرىكين ، والمعنى : لا يؤخذون بحسابك ، ولا أنت بحسابهم ، حتى يهلك إيمانهم ، ويجرك الحرس عليه إلى أن تطرد المؤمنين .

وأغرب الميامى حيث قال : والهاء ، لكونهم أرباب شرف ومال ، يكرهون مجالستهم ، لقلة شرفهم ومالهم ، فقال عز وجل لأشرف الناس : (مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ) أى : ما يعود عليك من نقصهم فى الشرف والمال من شيء (وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ) أى : وما يعود عليهم من كالك فى الشرف والمال عليهم من شيء ، فإذا لم ياحققك نقصهم ، ولم يأخذوا كالك بسلبه منك ، فلاوجه لطردهم . انتهى .

وفيه بعد ، لعدم ملاقاته لآية نوح السالفة . ولا يخفى مراعاة النظائر .

وفى (العناية) : قدم خطابه ﷺ فى الموضعين ، تشريفاً له . وإلا كان الظاهر (وَمَا عَلَيْهِمْ مِنْ حِسَابِكَ مِنْ شَيْءٍ) بتقديم (عَلَى) ومجرورها ، كما فى الأول . وفى النظم رد المعجز على الصدر ، كما فى قوله : عادات السادات ، سادات والمادات .

وقوله تعالى : « فَتَطْرُدُهُمْ فَتَكُونُ مِنَ الظَّالِمِينَ » الظلم : وضع الشيء فى غير محله ، أى : فلا تهم بطردهم منك ، فتضع الشيء فى غير موضعه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٣] (وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ)

« وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ » هم الشرفاء « بِبَعْضٍ » وهم المستضعفون ، بما

= مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ، فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ، وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ .

مننا عليهم بالإيمان . وقوله : « لَيَقُولُوا » أى : الشرفاء « أَهْوَلاءٌ » أى المستضعفون ، « مَنْ اللَّهٌ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا » أى : بشرف الإيمان ، مع أن الشرفاء على زعمهم ، أولى بكل شرف ، فلو كان شرفاً لا انعكس الأمر ، فهو إنكار لأن يخص هؤلاء من بينهم بإصابة الحق ، والسبق إلى الخير ، كقولهم : (لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ)^(١) .

ثم أشار تعالى إلى أنه إنما منَّ عليهم بنعمة الإيمان ، لأنه علم أنهم يعرفون قدر هذه النعمة ، فيشكرونها حق شكرها . وأما أولئك ، فلا يعرفون قدرها ، فلا يشكرونها ، بقوله سبحانه « أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ » ؟ فهو ردُّ لقولهم ذلك ، وإبطال له ، وإشارة إلى أن مدار استحقاق الإنعام ، معرفة شأن النعمة ، والاعتراف بحق النعم . كما أن فيه من الإشارة إلى أن أولئك المستضعفين عارفون بحق نعم الله تعالى في تنزيل القرآن ، والتوفيق للإيمان ، شاكرون له تعالى على ذلك ، مع التعريض بأن القائلين بمعزل عن ذلك كله - مالا يخفى .

قال الحافظ ابن كثير : إن رسول الله ﷺ كان غالب من اتبعه في أول بعثته ضعفاء الناس ، من الرجال والنساء ، والعبيد والإماء ، ولم يتبعه من الأشراف إلا قليل . كما قال قوم نوح لنوح (وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادْيِ الرَّأْيِ ...)^(٢) الآية - وكما سأل هرقل^(٣) ملك الروم أباسفيان - حين سأله عن تلك المسائل - : (فأشراف الناس

(١) [٤٦ / الأحقاف / ١١] ونصها : وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ ، وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِنْكَ قَدِيمٌ .

(٢) [١١ / هود / ٢٧] ونصها : فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادْيِ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ .

(٣) انظر صحيح البخارى في : ١ - كتاب بدء الوحي ، ٦ - حدثنا أبو اليمان الحكم

ابن نافع ، حديث ٧ ، عن أبي سفيان لما أرسل إليه هرقل في ركب من قريش ، وكانوا تجاراً بالشام ، في المدة التي كان رسول الله ﷺ مآذ فيها أباسفيان وكفار قريش ، فاتوه =

يتبعونه أم ضعفائهم ؟ قال : بل ضعفائهم . فقال : هم أتباع الرسل) وكان مشركو مكة يسخرون
 عن آمن من ضعفائهم ، ويعذبون من يقدر عليهم منهم ، وكانوا يقولون : (أَهْوَاءُ مَنْ
 اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا) كقوله : لَوْ كَانَ خَيْرًا مَسَبَقُونَا إِلَيْهِ ^(١) . وكقوله تعالى : وَإِذَا تُتْلَىٰ
 عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ
 نَدْيًا ^(٢) ؟ قال الله تعالى في جواب ذلك : وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثْمًا
 وَرِثِيًّا ^(٣) وقال في جوابهم هنا : (أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ) ، أى : له بأقوالهم وأفعالهم
 وضائرهم ، فيوقفهم ويهديهم سبل السلام ، ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ، ويهديهم
 إلى صراط مستقيم . كما قال تعالى : وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ
 الْمُحْسِنِينَ ^(٤) .

وفي الحديث الصحيح ^(٥) : إن الله لا ينظر إلى صوركم ، ولا إلى ألوانكم ، ولكن
 ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم

= وهم بإيلياء فدعاهم في مجلسه ... وهو حديث طويل يوجه فيه هرقل إلى أبي سفيان عما يعلمه
 أبو سفيان عن رسول الله ﷺ . لا يفت مسلماً الاطلاع على هذا الحديث فإن فيه خيراً كثيراً .
 (١) [٤٦ / الأحقاف / ١١] ونصها : وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْ كَانَ
 خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ ، وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ .

(٢) [١٩ / مريم / ٧٣] .

(٣) [١٩ / مريم / ٧٤] .

(٤) [٢٩ / العنكبوت / ٦٩] .

(٥) أخرجه مسلم في : ٤٥ - كتاب البر والصلة والآداب ، حديث ٣٣ (طبعتنا) ونصه :
 عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله لا ينظر إلى أجسادكم
 ولا إلى صوركم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم » وأشار بأصابعه إلى صدره .
 وأخرجه الإمام أحمد في المسند بالصفحة رقم ٢٨٥ من الجزء الثاني (طبعة الحلبي)
 حديث رقم ٧٨١٤ (طبعة المعارف) .

وروى^(١) ابن جرير عن عكرمة قال : جاء عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، ومطعم ابن عدي ، والحريث بن نوفل ، وقرظة بن عبد عمرو بن نوفل ، في أشراف من بني عبد مناف ، من الكفار ، إلى أبي طالب فقالوا : يا أبا طالب ! لو أن ابن أخيك يطرد عنه موالينا وحلفاءنا ، فإنما هم عبيدنا وعُسَاقُونَا - كان أعظم في صدورنا ، وأطوع له عندنا ، وأدنى لاتباعنا إياه ، وتصديقنا له . فأتى أبو طالب النبي ﷺ ، فحدثه بالذي كلموه به ، فقال عمر بن الخطاب : لو فعلت ذلك ، حتى تنظر ما الذي يريدون ، وإلام يصيرون من قولهم ! فأنزل الله عز وجل هذه الآية : (وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُخْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ)^(٢) . إلى قوله (أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ) . قال : وكانوا : بلال وعمار بن ياسر وسالم مولى أبي حذيفة وصبيح مولى أسيد . ومن الحلفاء : ابن مسعود ، والقناد بن عمرو ، ومسمود بن القاري ، وواقد بن عبد الله الحنظلي ، وعمرو بن عبد عمرو ذوالشمالين ، ومرثد بن أبي مرثد = وأبو مرثد من غني ، حليف حمزة بن عبد المطلب = وأشباهم من الحلفاء . ونزلت في أئمة الكفر من قريش والموالى والحلفاء : (وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ) ... الآية - فلما نزلت أقبل عمر ، فاعتذر من مقالته ، فأنزل الله عز وجل : (وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا ...)^(٣) الآية .

تنبيهات وفوائد

قال بعض المفسرين : ثمرة الآية :

١ - أن الواجب في الدعاء بالإخلاص به ، لأنه تعالى قال : (يُرِيدُونَ وَجْهَهُ) - هكذا قال الحاكم - وهكذا جميع الطاعات ، لا تكون لغرض الدنيا . قال النفس الزكية عليه السلام :

(١) الأثر رقم ١٣٢٦٤ من التفسير .

(٢) [٦ / الأنعام / ٥١] .

(٣) [٦ / الأنعام / ٥٤] .

إذا دعا الإمام ثم وجد أفضل منه ، وجب عليه أن يسلم الأمر له . فإن لم يفعل ذلك فسق ، لأنه إن لم يفعل دل على أنه طالب للدنيا .

٢ - ودلت على أن الغداة والعشيّ لهما اختصاص بفضل العمل والدعاء ، فلذلك خصهما بالذكر .

٣ - ودلت على أن الفضل بالأعمال . وما خرج من المفاضلة من غير أمر الدين ، كالكفاءة في النكاح ، فذلك لمخصص ، نحو قوله عليه السلام ^(١) : العرب بعضها أكفاء للبعض .

٤ - ودلت على أن أحدا لا يؤخذ بذنب غيره ، وهي كقوله تعالى : وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ^(٢) . وقد تقدم ما ذكر فيما ورد أن الميت ليعذب ببكاء أهله ، على أن المراد إذا أوصاهم بذلك .

٥ - ودلت على أن حديث النفس لا يؤخذ به ، لأنه قد روى أنه ﷺ قد هم بذلك .

٦ - ودلت على أن الفقر لا يؤثر في حال المؤمن . وقد ورد في الحديث ^(٣) عنه ﷺ : يدخل فقراء المؤمنين الجنة قبل أغنيائهم بكذا سنة . وروى أن آخر من يدخل الجنة

(١) أخرجه في الجامع الصغير ، عن عائشة في السنن للبيهقي . ونصه : العرب للعرب أكفاء . والموالى أكفاء للموالى ، إلا حائك أو حجام .

(٢) [٦ / الأنعام / ١٦٤] ونصها : قُلْ أَغْيَرَ اللَّهُ ابْنِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ، وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَاقِبَتَهَا ، وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ، ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ .

(٣) أخرجه الترمذی فی : ٣٤ - كتاب الزهد ، ٣٧ - باب ما جاء أن فقراء المهاجرين

يدخلون الجنة قبل أغنيائهم ، ونصه :

عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « تدخل الفقراء الجنة قبل الأغنياء »

بخمسةائة عام ، نصف يوم » وقال : هذا حديث حسن صحيح .

من الصحابة عبد الرحمن بن عوف لكثرة ماله . وروى أن علياً عليه السلام لم يخلف شيئاً بعد وفاته - هكذا في التهذيب - انتهى .

أقول : الحديث الأول ، رواه الترمذى عن أبي هريرة وقال : حسن صحيح ، ولفظه : يدخل الفقراء الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام . وأما حديث : آخر من يدخل الجنة من الصحابة ... الخ فلم أجده بهذا اللفظ .

وقد روى البزار وأبو نعيم عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم : أول من يدخل الجنة من أغنياء أمتي عبد الرحمن بن عوف . والذي نفس محمد بيده ! لن يدخلها إلا حبواً . قال السيوطى : إسناده ضعيف - كذا في (منتخب كنز العمال) في ترجمة عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه ، في (فضائل الصحابة) .

٧ - هذا ، وقال ابن الفرس : قد يؤخذ من هذه الآية أن لا يمنع من يذكر الناس بالله وأمر الآخرة في جامع أو طريق أو غيره . قال : وقد اختلف المتأخرون في مؤذن يؤذن بالأسحار ، ويتهل بالدعاء ، يردد ذلك إلى الصباح ، وتأذى به الجيران ، هل يمنع ؟ واستدل (من قال : لا يمنع) بهذه الآية ، وبقوله : وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ ^(١) ... الآية . انتهى .

٨ - قرأ ابن عامر « بالغدوة » بالواو وضم الغين ، هنا وفي سورة الكهف ، والباقون بالألف وفتح الغين . وهي قراءة الحسن ومالك بن دينار وأبي رجاء المطاردى وغيرهم . قال أبو عبيد : قرأ ابن عامر وأبو عبد الرحمن السلمى (بالغدوة) ، وقرأ العامة (بالغداة) وزاها قرأ ذلك اتباعاً للخط ، لأنها رسمت في جميع المصاحف بالواو ، كالصلاة والزكاة ،

(١) [٢ / البقرة / ١١٤] ونصها : وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا ، أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ ، لَهُمْ فِي اللَّهِ نِيَاظٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ .

وليس ، في إثباتهم الواو في الكتابة ، دليل على أنها القراءة ، لأنهم قد كتبوا (الصلاة والزكاة) بالواو ، ولفظهما على تركها ، فكذلك (الغداة) ، على هذا وجدنا ألفاظ العرب . انتهى .

وقال أبو علي الفارسي : الوجه قراءة العامة (بالغداة) ، لأنها تستعمل نسكرة ، فأمكن تعريفها بإدخال لام التعريف عليها . فأما (غدوة) فمعرفة ، وهو علم صيغله ، وحينئذ فيمتنع دخول لام التعريف عليه ، كسائر المعارف ، وكتابتها بالواو لا تدل على قولهم . انتهى .

قال الشهاب مجيباً ومناقشاً : إن (غدوة) وإن كان المعروف فيها أنها علم جنس ، ممنوع من الصرف ، ولا تدخله الألف واللام ، ولا تصح إضافته ، فلا تقول : غدوة يوم الخميس - كما قال الفراء - ولكنه سمع اسم جنس أيضاً ، منكراً مصروفاً ، فتدخله اللام ، وقد نقله سيديويه في كتابه عن الخليل ، وذكره جم غفير من أهل اللغة والنحو ، فلا عبرة بقول أبي عبيد أن من قرأ بالواو خطأ ، وأنه اتبع رسم الخط ، لأن الغداة تكتب بالواو ، كالصلاة والزكاة ، وهو علم جنس ، لا تدخله الألف واللام ، والمُخَطَّيُّ مُخَطَّيٌّ ، لما مر . وقد ذكر المبرّد عن العرب تنكيره وصرفه ، وإدخال الألف واللام عليه ، إذا لم يرد غدوة يوم بعينه ، ومن حفظ حجة على من لم يحفظ ، وكفى بوقوعه في القراءة المتواترة حجة ، فلا حاجة إلى ما قيل : إنه علم ، لكنه نسكّر ، لأن تنكير علم الجنس لم يعهد . ولا أنه معرفة ، ودخلته اللام لمشاكلة العشي . كما في قوله : رأيت الوليد بن يزيد مباركاً ، إذ قال (اليزيد) المجاورة الوليد . ومنه تعلم أن المشاكلة قد تكون حقيقة . انتهى .

٩ - في القاموس : الغدوة بالضم ، البكرة ، أو ما بين صلاة الفجر وطلوع الشمس كالغداة . والعشي والعشية : آخر النهار .

وفي الصحاح : من صلاة المغرب إلى العتمة .

وقال الأزهرى : يقع العشي على ما بين الزوال والغروب .

١٠ - جعل الزخشرى (ذلك) إشارة إلى هذا الفتن المذكور ، حيث قال : ومثل ذلك

الفتن العظيم، فتنا بعض الناس ببعض ، أى: ابتليناهم بهم . وعبر عنه بذلك، إذاناً بتفخيمه . كقولك : ضربت زيداً ذلك الضرب . ولا يلزم منه تشبيه الشيء بنفسه ، لأن المثل ليس بمراد ، إنما جرى به مبالغة ، كما يقال (ذلك كذلك) كذا قرره العلامة . يعنى: أن التشبيه كما يحمل كناية عن الاستمرار ، لأن ما له أمثال يستمر نوعه بتجدد أمثاله ، كما أشار إليه شراح الحماسة فى قوله :

هكذا يذهبُ الزمانُ وَيَفْتَنِي اله لمُ فيه ويدرسُ الأثرُ
والاستمرار يقتضى التحقق والتقرر ويستلزمه ، فجعل فى أمثال هذا بواسطة الإشارة إلى البعيد عبارة عن تحقق أمر عظيم . وكونه عظيماً مستفاد من لفظ (ذلك) المشار به إلى هذا الفتن القريب المذكور، وليست الكاف فيه زائدة. ومن قال إنها مقحمة أراد أن التشبيه فيه غير مقصود فيه ، بل المراد لازمه الكنائى أو المجازى . والزخشرى ، لما فى هذا الوجه من البلاغة والدقة ، اختاره فيما ورد فيه كذلك - كذا فى (العناية) - .
وقال أبو السعود : (ذلك) إشارة إلى مصدر ما بعده من الفعل ، ومحلّه فى الأصل النصب على أنه نعت لمصدر مؤكّد محذوف . والتقدير : فتنا بعضهم ببعض فتوناً كائناً مثل ذلك الفتون ، والكاف مقحمة لتأكيد ما أفاده اسم الإشارة من الفخامة ، فصار نفس المصدر المؤكّد ، لا نعتاً له . والمعنى : ذلك الفتون الكامل فتناً .

قال الشهاب : هذا الإقحام للمبالغة، مطرد فى عُرْفِ العرب والعجم . انتهى .
وقيل : الكاف ليست بزائدة ، والمشار إليه هو المشبه به ، الأمر المقرر فى الذهن ، والمشبه مادل عليه الكلام من الأمر الخارجى ، والمبالغة إنما يفيدها الإبهام ذهنى والتفسير بقوله : (فتناً) ، وهو ما يعلمه كل أحد من الفتن مَنْ هو - انظر (العناية) - .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٤] (وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ، كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ، أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

وقوله تعالى «وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ، كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ، أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ» : ذهب جماعة من المفسرين إلى أن هؤلاء هم الذين سأل المشركون طردهم وإبعادهم، فأكرمهم الله تعالى بهذا الإكرام .

قال البيضاوى : وصفهم تعالى بالإيمان بالقرآن ، واتباع الحجج ، بعد ما وصفهم بالمواظبة على العبادة ، وأمره بأن يبدأهم بالتسليم ، أو يبلغ سلام الله تعالى إليهم ، ويبشرهم بسعة رحمة الله تعالى وفضله ، بعد النهى عن طردهم ، إيداناً بأنهم الجامعون لفضيلتي العلم والعمل . ومن كان كذلك ينبغي أن يقرب ولا يطرد ، ويعز ولا يُذَل ، ويبشّر من الله بالسلامة في الدنيا ، والرحمة في الآخرة . انتهى .

وسلف عن ابن جرير^(١) أنها نزلت في عمر رضى الله عنه . وأخرج الفريابي وابن أبي حاتم عن ماهان ، قال : جاء ناس إلى النبي ﷺ فقالوا : إنا أصبنا ذنوباً عظاماً ، فاردّ عليهم شيئاً ، فأنزل الله : (وَإِذَا جَاءَكَ ...) الآية . ولا يخفى أن الآية تشمل جميع ذلك ، وربما تعدد الوقائع المشتركة في حكم واحد ، فتزل الآية بياناً لكل . وتقدم لنا في مقدمة هذا التفسير ، في بحث سبب النزول ، أن قول السلف : نزلت في كذا ، قديقهصدون به أن واقعة مما شملها لفظ الآية ، لنزولها إثرها ، فتذكره ، وأجل فكرك في أطرافه ، فإنه مهم جداً . وبمعرفته يندفع إشكال الرازى الذى قرره هنا .

(١) الأثر رقم ١٣٢٦٤ من التفسير (انظر الحاشية رقم ١ ص ٢٣٢٩) .

وقوله تعالى : (كَتَبَ عَلَيَّ نَفْسِي الرَّحْمَةَ) أى : أوجبها على ذاته المقدسة ، تفضلاً منه وإحساناً وامتناناً .

وقوله : (أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ) الخ بدل من (الرَّحْمَةَ » . وقرئ بكسر الهمزة على أنه تفسير للرحمة بطريق الاستئناف .

وقوله : (بِجَهَالَةٍ) فى موضع الحال ، أى : عمله وهو جاهل ، وفيه معنيان : أحدهما - أنه فاعل فعل الجهالة ، لأن من عمل ما يؤدي إلى الضرر فى العاقبة ، وهو عالم بذلك ، أو ظان ، فهو من أهل السفه والجهل ، لا من أهل الحكمة والتدبير ، ومنه ^(١) قول قول الشاعر :

على أنها قالت عشية زُرْتُهَا جهلت على عمدٍ ولم تكُ جاهلاً

والثانى - أنه جاهل بما يتعلق به من المكروه والمضرة ، ومن حق الحكيم أن لا يقدم على شيء حتى يعلم حاله وكيفيته - كذا فى الكشف - .

(١) استشهد به الزمخشريّ فى الكشف وقال :

وفيه معنيان : أحدهما أنه فاعل فعل الجهالة . لأن من عمل ما يؤدي إلى الضرر فى العاقبة ، وهو عالم بذلك ، أو ظان ، فهو من أهل السفه والجهل ، لا من أهل الحكمة والتدبير . ومنه قول الشاعر . أى : جاهل بما يتعلق به من المكروه والمضرة . ومن حق الحكيم أن لا يقدم على شيء حتى يعلم حاله وكيفيته .

وقال شارحه : ولا يشتري اللحم بالجهل ، ولا الأناة بالطيش ، ولا الرفق بالخرق ،

كما قال :

فإن ترعيني كنت أجهل فيكم فإني شريت اللحم بعدك بالجهل

وإن لم يكن كذلك ، يصدق عليه أنه من أكبر الجهال ، والجار أفضل منه . انتهى .

فعلى الأول ، الجهل : بمعنى السفه والمخاطرة من غير نظر للعواقب ، كما فى قوله ^(١) :

* فَتَجْهَلَ فَوْقَ جَهْلِ الْجَاهِلِينَ *

وكانت العرب تتمدح به ، فلا حاجة لتقدير مفعول .

وعلى الثانى ، المراد : الجهالة بمضار ما يفعله .

وقوله تعالى (وَأَصْلَحَ) أى : العمل . كقوله (وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا) ^(٢) .

وروى الإمام أحمد والشيخان ^(٣) عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

لما قضى الله على الخلق كتب فى كتابه ، فهو عنده فوق العرش : إن رحمتى غلبت غضبى .

تنبيه :

نقل بعض المفسرين عن الحاكم أنه قال : دلت الآية على وجوب تعظيم المؤمنين .

(١) هذا البيت السادس والتسعون من معلقة عمرو بن كلثوم ، وهو آخرها . وصدره :

* أَلَا ، لَا يَجْهَلُنْ أَحَدُ عَلَيْنَا *

قال التبريزى : معناه نهلك ونعاقيه بما هو أعظم من جهله .

فنسب الجهل إلى نفسه وهو يريد الإهلاك والمعاقبة ، ليزدوج اللفظتان فتكون الثانية

على مثل لفظة الأولى ، وهى تخالفها فى المعنى ، لأن ذلك أخف على اللسان وأخصر من

اختلافهما .

ومطلع القصيدة :

أَلَا هُبِّىْ بِصَحْنِكَ فَاصْبَحِينَا وَلَا تُبْقِ خَمُورَ الْأَنْدَرِينَا

(٢) [٢٥ / الفرقان / ٧٠] ونصها : إِلَّا مَنْ تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا .

فَأُولَئِكَ يَبْدُلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ، وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا .

(٣) انظر الحاشية رقم (٢) بالصفحة ٢٢٥٥ وفيها سردنا جميع روايات هذا الحديث ،

كما جاءت فى كتابنا (جامع مسانيد صحيح البخارى) .

ودلت على أنه ينبغي إنزال المسرة بالمؤمن ، لأنه أمر بأن يقول لهم (كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ) لتطيب قلوبهم . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٥] (وَكَذَٰلِكَ نَفُصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ)

« وَكَذَٰلِكَ نَفُصِّلُ الْآيَاتِ » أى : آيات القرآن ، فى صفة المطيعين والمجرمين . ومرة قريباً الكلام على (كذلك) « وَلِتَسَتَّبِعُوا سَبِيلَ الْمُجْرِمِينَ » بتأنيث الفعل بناء على تأنيث الفاعل . وقرئ بالتذكير بناء على تذكيره ، فإن (السبيل) مما يذكر ويؤنث ، وهو عطف على علة محذوفة للفعل المذكور ، لم يقصد تعليله بها بعينها ، وإنما قصد الإشعار بأن له فوائد جمة ، من جملتها ما ذكر . أو علة لفعل مقدّر ، هو عبارة عن المذكور ، فيكون مستأنفاً . أى : ولتستبين سبيلهم فعمل ما نفع من التفصيل . وقرئ بنصب (السبيل) على أن الفعل متمم ، وتأوّه للخطاب . أى : ولتستوضح أنت ، يا محمد ! سبيل المجرمين ، فتعاملهم بما يليق بهم - أفاده أبو السعود - .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٦] (قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أُعْبَدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ، قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ)

« قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أُعْبَدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ » أى : تعبدونه أو تسمونه آلهة . ثم كرر الأمر تأكيداً لقطع أطاعهم بقوله تعالى « قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ » أى : فى عبادة الأصنام ، وطرد من ذكر .

ثم قال البيضاوى : هو إشارة إلى الموجب للنهى . وعلة الامتناع عن متابعتهم ، واستجھالهم ، وبيان لمبدأ ضلالهم ، وأن ما هم عليه هوى ، وليس بهدى . وتنبيه لمن تحرّى الحق على أن يتبع الحجة ولا يقلد . انتهى .

« قَدْ ضَلَلْتُ إِذَا » أى : إن اتبعت أهواءكم ، لمخالفة الأمر الإلهي والعقل جميعاً .
« وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ » أى : لا حق إن اتبعت ما ذكر . وفيه تعريض بأنهم كذلك .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٧] (قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ ، مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ ،
إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ، يَقْضِي الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ)

« قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي » أى : على بصيرة من شريعة الله التى أوحاها إلى ،
لا يمكن التشكيك فيها « وَكَذَّبْتُمْ بِهِ » استئناف أو حال ، والضمير للبينة . والتذكير
باعتبار المعنى المراد . أعنى : الوحي ، أو القرآن ، أو نحوها . « مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ »
أى : من العذاب .

قال أبو السعود : استئناف مبين لخطئهم فى شأن ما جعلوه منشأً لتكذيبهم بالبينة ،
وهو عدم مجيئ ما وعد فيها من العذاب الذى كانوا يستعجلونه بقولهم (مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ
إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)^(١) بطريق الاستهزاء ، أو بطريق الإلزام ، على زعمهم . أى : ليس
ما تستعجلونه من العذاب الموعود فى القرآن ، وتعملون تأخره ذريعة إلى تكذيبه ، فى حكمي
وقدرتي ، حتى أجيب به ، وأظهر لكم صدقه . أو ليس أمره بمفوض إلى .

« إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ » أى : لو كان عندى لكنت أنا الحاكم ، لكن ما الحكم فى ذلك
تمجيلاً وتأخيراً إلا لله ، وقد حَكَمَ بتأخيره ، لما له من الحكمة العظيمة ، لكنه يحقق الوقوع
لأنه « يَقْضِي الْحَقَّ » أى : يبينه بياناً شافياً ، « وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ » أى : الفاضل بين
عباده .

(١) [١٠ / يونس / ٤٨] ونصها : وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ .

لطيفة :

قرئ « يَقْضِ الْحَقَّ » ^(١) بالضاد ، وانتصاب الحق على المصدرية ، لأنه صفة مصدر محذوف قامت مقامه . أو على المفعولية ، بتضمين (يقضى) معنى (ينفذ) ، أو هو متعد من (قضى الذرع) إذا صنعها . قال الهذلي ^(٢) :

وعليهما مسرودتان قضاهما داود أوصنع السوابع تبّع

(١) قال الإمام النسفي في تفسيره (مدارك التنزيل) :
(يقص) حجازي وعاصم . أى : يتبع الحق والحكمة فيما يحكم به ويقدره . من (قص أثره) .

الباقون (يقض الحق) أى : القضاء الحق في كل ما يقضى من التأخير والتعجيل .
فالحق صفة لمصدر (يقض) . وسقوط الياء من الخط لاتباع اللفظ لالتقاء الساكنين .
(٢) قاله أبو ذؤيب الهذلي من قصيدته التي مطلعها :

أمن المنون ورَيْبها تتوجّع والدهر ليس بمُعْتَبٍ من يجزّع

قالها وقد هلك له خمسة بنين في عام واحد ، أصابهم الطاعون .
وفي رواية : وكان له سبعة بنين شربوا من لبن شربت منه حية ، ثم ماتت فيه ، فهاكوا في يوم واحد .

الضمير في (وعليهما) عائد إلى بطلين سبق وصفهما قبل هذا البيت .
(مسرودتان) أى : درعان مخروزتان أو منسوجتان . من (السرد) وهو الخرز .
وقيل : النسج ، وهو تداخل الخلق بعضها في بعض .

تبّع من ملوك حمير كانت تنسب إليه الدروع التبعية . وذكر الأصمعي ما يفيد أن أبا ذؤيب قد غلط في هذا ، فقال : إنه (أى أبا ذؤيب) سمع بالدروع التبعية فظن أن تبعاً عملها . وكان تبّع أعظم شأنًا من أن يصنع شيئاً بيده . وإنما علمت بأمره وفي ملكه .

(قضاها) أى : فرغ منهما داود النبي عليه السلام .

(الصنّع) الحاذق بالعمل ، والمرأة صنعاء .

قال الرازى : واجتج أبو عمرو على هذه القراءة بقوله : (وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ) قال : والفصل يكون فى القضاء ، لافى القصص . وأجاب أبو على الفارسى فقال : القصص ههنا بمعنى القول ، وقد جاء الفصل فى القول . قال تعالى : (إِنَّهُ لَقَوْلُ فَصْلٍ)^(١) . وقال (أَحْكَمَتْ آيَاتِهِ ثُمَّ فُصِّلَتْ)^(٢) ، وقال : (نُفَصِّلُ الْآيَاتِ)^(٣) . انتهى . قال الشهاب : معنى (يقصه) أى يبينه بياناً شافياً ، وهو عين القضاء .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٨] (قُلْ لَوْ أَنَّنِي مِمَّنْ تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقَضَى الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ)

« قُلْ لَوْ أَنَّنِي مِمَّنْ تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقَضَى الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ » أى : لو أن فى قدرتى وإمكانى العذاب الذى تستعجلونه ، بأن يكون أمره مفوضاً إلى من قبلى تعالى ، لقضى الأمر بينى وبينكم ، بأن ينزل ذلك عليكم إثر استعجالكم . وفى (العناية) : قضى الأمر بمعنى قطع . وقضاؤه كناية عن إهلاكهم .

قال أبو السعود : وفى بناء الفعل للمفعول من الإيذان بتعيين الفاعل ، الذى هو الله تعالى ، وتهويل الأمر ، ومراعاة حسن الأدب - ملا يخفى . فاقيل فى تفسيره : لأهلكتم

(١) [٨٦ / الطارق / ١٣] .

(٢) [١١ / هود / ١] ونصها : آى ، كِتَابُ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ

حَكِيمٍ خَبِيرٍ .

(٣) [٧ / الأعراف / ٣٢] ونصها : قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ

وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ، قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ .

عاجلاً ، غضباً لربي ، وافتصاصاً من تكديكم به ، ولتخلصت سريعاً - بمزل من توفية المقام حقه .

وقوله تعالى : (وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ) اعتراض مقرر لما أفادته الجملة الامتناعية ، من انتفاء كون أمر العذاب مفوضاً إليه ﷺ ، المستتبع لانتفاء قضاء الأمر ، وتعليل له . والمعنى : والله تعالى أعلم بحال الظالمين ، وبأنهم مستحقون للإمهال بطريق الاستدراج ، لتشديد العذاب ، ولذلك لم يفوض الأمر إلى ، فلم يقض الأمر بتعجيل العذاب . انتهى .
تنبيه :

قال ابن كثير : فإن قيل : فما الجمع بين هذه الآية ، وبين ما ثبت في الصحيحين ^(١) عن عائشة أنها قالت لرسول الله ﷺ يارسول الله ! هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد ؟ فقال : لقد لقيت من قومك ، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة ، إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال ، فلم يجبني إلى ما أردت ، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي ، فلم أستفق إلا بقرن ^(٢) الثعالب ، فرفعت رأسي ، فإذا أنا بسحابة قد أظلتني . فنظرت فإذا فيها جبريل ، فناداني فقال : إن الله عز وجل قد سمع قول قومك لك ، وما ردوا عليك ، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم . قال فناداني ملك الجبال ، وسلم علي ، ثم قال : يا محمد ! إن الله قد سمع قول قومك لك . وأنا ملك الجبال . وقد بعثنى ربك إليك لتأمرني بأمرك . فما شئت ؟ إن شئت أن أطبق عليهم الأخشمين ! فقال له رسول الله ﷺ : بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً .

(١) أخرجه البخاري في : ٥٩ - كتاب بدء الخلق ، ٧ - باب إذا قال أحدكم آمين في السماء ، فوافقت إحداها الأخرى ، غفر له ما تقدم من ذنبه ، الحديث رقم ١٥٢٥ .
وأخرجه مسلم في : ٣٢ - كتاب الجهاد والسير ، حديث ١١١ (طبعتنا) .

(٢) قال ياقوت في (معجم البلدان) :

وقال القاضي عياض : قرن المنازل ، وهو قرن الثعالب ، ميقات أهل نجد ، تلقاء مكة على يوم وليلة .

وهذا لفظ مسلم : فقد عرض عليه عذابهم واستئصاهم فاستأناهم ، وسأل لهم التأخير ، لعل الله أن يخرج من أصلابهم من لا يشرك به شيئاً .

فالجواب : - والله أعلم - أن هذه الآية دلت على أنه لو كان إليه وقوع العذاب الذي يطلبونه ، حال طلبهم له ، لأوقعه بهم . وأما الحديث فليس فيه أنهم سألوه وقوع العذاب بهم ، بل عرض عليه ملك الجبال ، أنه ، إن شاء أطبق عليهم الأخشبين ، وهما جبلا مكة ، يكتنفانها جنوباً وشمالاً ، فلهذا استأنى بهم ، وسأل الرفق لهم . انتهى .

ثم بين تعالى اختصاص المقدورات الغيبية به ، من حيث العلم ، إثر بيان اختصاص جميعها به تعالى من حيث القدرة ، بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٩] (وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ، وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ، وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ)

« وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ » جمع (مفتاح بكسر الميم ، وهو المفتاح) وقرئ (مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ) شبه بالأمور الجليلة التي يستوثق منها بالأفعال ، وأثبت لها المفاتيح تخيلاً .

وقوله تعالى : « لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ » تأكيد لمضمون ما قبله ، وإيدان بأن المراد الاختصاص من حيث العلم . والمعنى : ما تستعجلونه من العذاب ليس مقدوراً لي ، حتى أؤمركم بتعجيله ، ولا معلوماً لدى لأخبركم بوقت نزوله ، بل هو مما يختص به تعالى قدرة وعلماً ، فينزله حسبما تقتضيه مشيئته ، المبنية على الحكم والمصالح - أفاده أبو السعود - .
ثم لما بين تعالى تعلق علمه بالغيبات ، تأثره بالمشاهدات ، على اختلاف أنواعها ، وتكثر أفرادها بقوله : « وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ » من الخلق والعجائب . ثم بالغ في إحاطة علمه

بالجزئيات الفائتة للحصر بقوله سبحانه « وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ » أى : مكتوب ومحفوظ في العلم الإلهى .

تنبيهات

الأول - قال الحاكم : دلّ قوله تعالى : (وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ) على بطلان قول الإمامية : إن الإمام يعلم شيئاً من الغيب . انتهى .

وفى (فتح البيان) : فى هذه الآية الشريفة ما يدفع أباطيل الكهان والمنجمين والرمليين وغيرهم من مدعى الكشف والإلهام ، ما ليس من شأنهم ، ولا يدخل تحت قدرتهم ، ولا يحيط به علمهم . ولقد ابتلى الإسلام وأهله بقوم سوء من هذه الأجناس الضالة ، والأنواع الخذولة ، ولم يرجحوا من أكاذيبهم وأباطيلهم بغير خطة السوء المذكورة فى قول الصادق المصدوق عليه السلام^(١) : من أتى كاهناً أو منجماً فقد كفر بما أنزل على محمد .

قال ابن مسعود : أوتى نبيكم كل شىء إلا مفاتيح الغيب .

قال ابن عباس : إنها الأقدار والأرزاق .

وقال الضحاك : خزائن الأرض ، وعلم نزول العذاب .

وقال عطاء : هو ما غاب عنكم من الثواب والعقاب .

(١) أخرجه الإمام أحمد فى المسند بالسند بالصفحة رقم ٤٠٨ من الجزء الثانى (طبعة الحلبي) ونصه :

عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « من أتى كاهناً أو امرأة فى دبرها ، أو كاهناً فصدقه ، فقد برىء مما أنزل الله على محمد عليه الصلاة والسلام . وأخرجه ابن ماجه فى ١ - كتاب الطهارة ، ١٢٢ - باب النهى عن إتيان الخائض ، الحديث رقم ٦٣٩ (طبعنا) .

وقيل : هو انقضاء الآجل ، وعلم أحوال العباد من السعادة والشقاوة وخواتيم أعمالهم .
واللفظ أوسع من ذلك .

وعن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ^(١) : مفاتيح الغيب خمس لا يعلمها

(١) لتمدّد روايات هذا الحديث، ولاختلاف بعض ألفاظ فيها ، زانا مضطرين إلى سرد

جميعها عن كتابنا (جامع مسانيد صحيح البخاري) والحديث رقم ٥٧٩ . وهو برقم ٧٢ من
مسند عبد الله بن عمر . وهاكوه نصوص رواياته :

١٥ - كتاب الاستسقاء ، ٢٩ - باب لا يدرى متى يجيء المطر إلا الله .

حدثنا محمد بن يوسف ، قال : حدثنا سفيان عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر قال : قال
رسول الله صلى الله عليه وسلم « مفاتيح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله : لا يعلم أحد ما يكون
في غد . ولا يعلم أحد ما يكون في الأرحام . ولا تعلم نفس ماذا تسكب غدا . وما تدرى
نفس بأى أرض تموت . وما يدرى أحد متى يجيء المطر » .

٦٥ - كتاب التفسير ، ٦ - سورة الأنعام ، ١ - باب وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو .

حدثنا عبد العزيز بن عبد الله . حدثنا إبراهيم بن سعد عن ابن شهاب عن سالم بن عبد الله
عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « مفاتيح الغيب خمس : إن الله عنده علم
الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام وما تدرى نفس ماذا تسكب غدا وما
تدرى نفس بأى أرض تموت ، إن الله عليم خبير » .

٦٥ - كتاب التفسير ، ١٣ - سورة الرعد ، ١ - باب إن الله يعلم ما تحمّل كل أنثى .

حدثني إبراهيم بن المنذر . حدثنا معن قال : حدثني مالك عن عبد الله بن دينار ، عن
ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « مفاتيح الغيب خمس لا يعلمها
إلا الله : لا يعلم ما في غد إلا الله . ولا يعلم ما تفيض الأرحام إلا الله . ولا يعلم متى يأتي المطر
أحد إلا الله . ولا تدرى نفس بأى أرض تموت . ولا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله » . =

إلا الله تعالى . لا يعلم أحد ما يكون في غد إلا الله . ولا يعلم أحدا ما يكون في الأرحام إلا الله . ولا تعلم نفس ماذا تكسب غدا . ولا تدرى نفس بأى أرض تموت . ولا يدري أحد متى يحيى المطر - أخرجه البخارى - وله ألفاظ . وفي رواية : ولا يعلم أحد متى تقوم الساعة إلا الله . انتهى .

الثانى - قرىء (ولا حبة ولا رطب ولا يابس) بالرفع ، وفيه وجهان : أن يكون عطفاً على محل (من ورقة) وأن يكون رفعاً على الابتداء ، وخبره (إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ) كقولك : لا رجل منهم ولا امرأة إلا في الدار - كذا في الكشف - .

الثالث - ما أسلفناه في (الكتاب المبين) من أنه (اللوح المحفوظ) هو المتبادر من إطلاقه أيما ورد . وقيل : الكتاب المبين علم الله تعالى . والأظهر الأول .

قال الزجاج : يجوز أن يكون الله جل ثناؤه أثبت كيفية المعلومات في كتاب من قبل أن يخلق الخلق ، كما قال عز وجل : (مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا) ^(١) وفائدة هذا الكتاب أمور :

= ٦٥ - كتاب التفسير ، ٣١ - سورة لقمان ، ٢ - باب إن الله عنده علم الساعة .

حدثنا يحيى بن سليمان قال : حدثني ابن وهب قال : حدثني عمر بن محمد بن زيد بن عبد الله ابن عمر ؛ أن أباه حدثه أن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال : قال النبي ﷺ « مفاتيح الغيب خمس » ثم قرأ : **إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ** .

٩٧ - كتاب التوحيد ، ٤ - باب قول الله تعالى : **عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهَرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا** .

حدثنا خالد بن مخلد . حدثنا سليمان بن بلال . حدثني عبد الله بن دينار عن ابن عمر رضى الله عنهما ، عن النبي ﷺ قال « مفاتيح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله : لا يعلم ما تنغيض الأرحام إلا الله . ولا يعلم ما في غد إلا الله . ولا يعلم متى يأتي المطر أحد إلا الله . ولا تدرى نفس بأى أرض تموت إلا الله . ولا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله » .

(١) [٥٧ / الحديد / ٢٢] . . . إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ .

أحدها - أنه تعالى إنما كتب هذه الأحوال في اللوح المحفوظ لتقف الملائكة على نفاذ علم الله تعالى في المعلومات ، وأنه لا يغيب عنه مما في السموات والأرض شيء ، فيكون ذلك عبرة تامة كاملة للملائكة الموكلين باللوح المحفوظ ، لأنهم يقابلون به ما يحدث في صحيفة هذا العالم ، فيجدونه موافقاً له .

وثانيها - يجوز أن يقال : إنه تعالى ذكر ما ذكر ، من الورقة والحبة ، تنبيهاً للمكلفين على أمر الحساب ، وإعلاماً بأنه لا يفوته من كل ما يصنعون في الدنيا شيء ، لأنه إذا كان لا يهمل الأحوال التي ليس فيها ثواب ولا عقاب ولا تكليف ، فبأن لا يهمل الأحوال المشتملة على الثواب والعقاب أولى .

وثالثها - أنه تعالى علم أحوال جميع الموجودات ، فيمتنع تغييرها عن مقتضى ذلك العلم ، وإلا لزم الجهل ، فإذا كتب أحوال جميع الموجودات في ذلك الكتاب على التفصيل التام ، امتنع أيضاً تغييرها ، وإلا لزم الكذب ، فتصير كِتَابَةٌ جملة الأحوال في ذلك الكتاب موجباتاً تاماً ، وسبباً كاملاً في أنه يمتنع تقدم ما تأخر ، وتأخر ما تقدم ، كما قال صلوات الله عليه (١) : جف القلب بما هو كائن إلى يوم القيامة . انتهى .

الرابع - روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله تعالى (وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا لَا يَعْلَمُهَا) قال : مامن شجرة في بر ولا بحر ، إلا ملك موكل بها ، يكتب ما يسقط منها .

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند بالصفحة رقم ١٩٧ من الجزء الثاني (طبعة الحلبي) والحديث رقم ٦٨٥٤ م (طبعة المعارف) ونصه :

عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إن الله خلق خلقه ، ثم جعلهم في ظلمة ، ثم أخذ من نوره ما شاء ثم ألقاه عليهم ، فأصاب النور من شاء أن يصيبه ، وأخطأ من شاء . فمن أصابه النور يومئذ فقد اهتدى ، ومن أخطأ يومئذ ضل . فلذلك قلت : جف القلم بما هو كائن » .

وأخرج أيضاً عن عبد الله بن الحرث قال : ما في الأرض من شجرة ، ولا كغريز إبرة ، إلا عليها ملك موكل يأتي الله بعلمها . يبسها إذا يبست ورطوبتها إذا رطبت . وكذا رواه ابن جرير ^(١) .
وروى ابن أبي حاتم عن سميد بن جبير عن ابن عباس قال : خلق الله النون وهي الدواة ، وخلق الألواح ، فكتب فيها أمر الدنيا حتى تنقضي ، ما كان من خلق مخلوق ، أو رزق حلال أو حرام ، أو عمل بر أو فجور ، وقرأ هذه الآية : (وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ ...) إلى آخر الآية .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٠] (وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ، ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ)
« وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ » أي : يُنِيمُكُمْ فِيهِ . استعير (التوفي) من الموت للنوم ، لما بينهما من المشاركة في زوال الإحساس والتمييز ، فإن أصله قبض الشيء بتمامه .
« وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ » أي فيه . ويُخصيص الليل بالنوم ، والنهار بالكسب ، جرياً على المعتاد . « ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ » أي : يوقظكم . أطلق البعث ترشيحاً للتوفي « فِيهِ » أي : في النهار ، « لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى » أي ليم مقدار حياة كل أحد .
« ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ » أي : رجوعكم بالبعث بعد الموت ، « ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ » أي : في ليلكم ونهاركم ، بالمجازاة عليه ، بمبالغة في عدله .
تنبيهان :

الأول - ظاهر الخطاب في الآية على العموم . وخصه في (الكشاف) بالكفرة ، ذهاباً إلى أن قوله : (وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ) يدل على تهديد شديد ، لا يليق إلا

(١) الأثر رقم ١٣٣٠٨ من التفسير .

بالمعاندین الجاحدين ، وأن المقصود بیان حالهم المذمومة في الليل . كما أن قوله : (مَا جَرَحْتُمْ) بیان حالهم المذمومة في النهار . وحمل (البعث) لا على الإيقاظ ، بل على البعث من القبور . و (فيه) بمعنى (من أجله) كقولك : فيم دعوتني ؟ فتقول : في أمر كذا . والمعنى : أنكم ملقون كالجيف بالليل كاسبون للآثام بالنهار . وأنه تعالى مطلع على أعمالكم ، يبعثكم من القبور في شأن ما قطعتم به أعماركم ، من النوم بالليل ، وكسب الآثام بالنهار ، ليقضى الأجل الذي سماه وضربه لبعث الموتى ، وجزائهم على أعمالهم . والذي حملة على ذلك ، زعمه أن قوله (وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ) دال على حال اليقظة ، وكسبهم فيها . وكلمة (ثم) تقتضى تأخير البعث عنها .

قال شراحه : ولا يخفى مافيه من التكلف ، وأنه لا حاجة إليه ، لأن قوله : (وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ) إشارة إلى ما كسب في النهار السابق على ذلك الليل ، ولا دلالة فيه على الإيقاظ من هذا التوفى ، وأن الإيقاظ متأخر عن التوفى . وإن قولنا (يفعل ذلك التوفى لنقضى مدة الحياة المقدرة) كلام منتظم غاية الانتظام .

الثانى - قال الشريف المرتضى في (الدرر والغرر) فيما وقع من القرآن من ذكر الرجوع إلى الله نحو (إِلَيْهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ) : كيف ترجع إليه ، وهى لم تخرج من يده ؟ وأجاب : بأنه في دار التكليف قد يغير البعض ، فيضيف بعض أفعاله تعالى إلى غيره ، فإذا انكشف الغطاء ، انقطعت حبال الآمال عن غيره ، فيرجع إليه . أو أن المراد أن الأمور في يده من غير خروج ورجوع حقيقى . فـ (رجع) بمعنى (صار) . تقول العرب : رجع على من فلان مكروه ، بمعنى صار ، ولم يكن سبق . فهو بمعنى المصير إليه ، كما تشهد به اللغة . أو أنه في دار الدنيا ما يكون للعباد ظاهراً كالعبد لسيده ، فإذا أفضى الأمر إلى الآخرة ، زال ذلك ، ورجع الأمر كله إلى الله ، ظاهراً وباطناً .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦١] (وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ، وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفِرُّونَ)

« وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ » قد مرّ تفسيره ، وأنه المتصرف في أمورهم لا غيره ،

يفعل بهم ما شاء .

« وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً » أى : ملائكة تحفظ أعمالكم وتحصيها ، وهم الكرام الكاتِبُونَ^(١) ، كقوله : (وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ) وقوله : (إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ)^(٢) الآية .

لطيفة :

الحكمة في ذلك أن المكلف إذا علم أن أعماله تكتب عليه ، وتعرض على رؤوس الأشهاد ، كان أزجر عن المعاصي . وأن العبد إذا وثق بلطف سيده ، واعتمد على عفوه وستره ، لم يحتشم منه احتشامه من خدومه المطلقين عليه - أفاده القاضى - .
« حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ » أى : أسبابه ومباده « تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا » أى : ملائكة موكلون بذلك ، « وَهُمْ لَا يُفِرُّونَ » أى : بالتوانى والتأخير . وقال ابن كثير : أى : في حفظ روح المتوفى ، بل يحفظونها ويتركونها حيث شاء الله عز وجل ، إن كان من الأبرار ففى عليين ، وإن كان من الفجار فى سجين .

(١) يشير إلى قوله تعالى : [٨٢ / الانفطار / ١٠ و ١١] وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ *

كِرَامًا كَاتِبِينَ .

(٢) [٥٠ / ق / ١٧] ... عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٢] (ثُمَّ رُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ الْحَقَّ ، أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ)

« ثُمَّ رُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ الْحَقَّ » أى : الذى يتولى أمورهم . (وَالْحَقُّ) : العدل الذى لا يحكم إلا بالحق . قال ابن كثير : الضمير للملائكة . أو للخلائق المدلول عليهم (بأحد) . والإفراد أولاً ، والجمع آخرًا لوقوع التوفى على الانفراد ، والرد على الاجتماع . أى : ردوا بعد البعث ، فيحكم فيهم بعبده ، كما قال (قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ * لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ)^(١) . وقال : (وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا)^(٢) إلى قوله (وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا) ولهذا قال (مَوْلَاهُمْ الْحَقُّ) .

« أَلَا لَهُ الْحُكْمُ » يؤمئذ لا حكم فيه لغيره ، « وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ » يحاسب الخلائق في أسرع زمان .

فوائد :

الأولى - قال ابن كثير : ونذكر ههنا الحديث الذى رواه الإمام^(٣) أحمد عن سعيد ابن يسار عن أبى هريرة رضى الله عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : إن الميت تحضره

(١) [٥٦ / الواقعة / ٥٩ و ٥٠] .

(٢) [١٨ / الكهف / ٤٧ - ٤٩] ونصها : وَيَوْمَ نُسِرُّ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا * وَعَرَضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ، بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا * وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ، وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا .

(٣) رواه في المسند بالصفحة رقم ٣٦٤ من الجزء الثانى (طبعة الحلبي) .

الملائكة ، فإذا كان الرجل الصالح ، قالوا : اخرجي أيتها النفس الطيبة ، كانت في الجسد الطيب ، اخرجي حميدة وأبشري بروح وريحان ، ورب غير غضبان . فلا يزال يقال ذلك ، حتى تخرج . ثم يعرج بها إلى السماء ، فيستفتح لها ، فيقال : من هذا ؟ فيقال : فلان . فيقولون ، مرحباً بالنفس الطيبة ، كانت في الجسد الطيب ، ادخلي حميدة ، وأبشري بروح وريحان ، ورب غير غضبان . فلا يزال يقال لها ، حتى ينتهي بها إلى السماء التي فيها الله عز وجل . وإذا كان الرجل السوء ، قالوا : اخرجي أيتها النفس الخبيثة ، كانت في الجسد الخبيث . اخرجي ذميمة ، وأبشري بحميم وغساق ، وآخر من شكله أزواج . فلا يزال حتى تخرج ، ثم يعرج بها إلى السماء ، فيستفتح لها ، فيقال : من هذا ؟ فيقال : فلان ! فيقال : لا مرحباً بالنفس الخبيثة ، كانت في الجسد الخبيث . ارجعي ذميمة ، فإنه لا يفتح لك أبواب السماء ، فترسل من السماء ، ثم تصير إلى القبر . فيجلس الرجل الصالح ، فيقال له مثل ما قيل في الحديث الأول ، ويجلس الرجل السوء ، فيقال له مثل ما قيل في الحديث الأول . قال الحافظ ابن كثير : هذا حديث غريب .

الثانية - قال بعض أهل الكلام : إن لكل حاسة من هذه الحواس روحاً تقبض عند النوم ، ثم ترد إليها إذا ذهب النوم . فأما الروح التي تحيا بها النفس ، فإنها لا تقبض إلا عند انقضاء الأجل . والمراد بالأرواح ، الماني والقوى التي تقوم بالحواس ، ويكون بها السمع والبصر ، والأخذ والمشى والشم . ومعنى (ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ) أى : يوقظكم ، ويرد إليكم أرواح الحواس ، فيستدل به على منكرى البعث ، لأنه بالنوم يذهب أرواح هذه الحواس ، ثم يردّها إليها . فكذا يحيي الأنفس بعد موتها - نقله النسفي - .

الثالثة - قال الخازن : فإن قلت : قال الله تعالى في آية : (اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا) (٣)

(١) [٣٩ / الزمر / ٤٢] ونصها : اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ، فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ .

وقال في آية أخرى : (قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ)^(١) ، وقال هنا : (تَوَفَّيْتُهُ رُسُلُنَا) ، فكيف الجمع بين هذه الآيات ؟ .

قلت : وجه الجمع أن المتوفى في الحقيقة هو الله تعالى . فإذا حضر أجل العبد ، أمر الله ملك الموت بقبض روحه ، والملك الموت أعوان من الملائكة ، يأمرهم بنزع روح ذلك العبد من جسده . فإذا وصلت إلى الحلقوم ، تولى قبضها ملك الموت نفسه ، فحصل الجمع .

قال مجاهد : جعلت الأرض لملك الموت ، مثل الطشت ، يتناول من حيث شاء . وجعلت له أعوان ينزعون الأنفس ثم يقبضها منهم . انتهى .
ثم أمر تعالى أن يبيك المشركون بانحطاط شركائهم عما زعموا لها ، بأنهم يخصون الحق تعالى بالالتجاء إليه عند الشدائد بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٣] (قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ)

« قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ » أى : شدائده ، كخوف العدو ، وضلال الطريق ، « وَالْبَحْرِ » كخوف الغرق ، والضلal ، وسكون الريح . استعيرت الظلمة للشدة ، لمشاركتها في الهول ، وإبطال الأبصار ، ودهش العقول . يقال لليوم الشديد : يوم مظلم ، ويوم ذو كواكب . أى : اشتدت ظلمته حتى عاد كالليل ، وظهرت الكواكب فيه .

« تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا » أى : تذللًا إليه ، تحقيقًا للعبودية ، « وَخُفْيَةً » بضم الخاء ،

(١) [٣٢ / السجدة / ١١] ... ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ .

وقرى بكسرهما . أى : سرّاً ، تحقيقاً للإخلاص . « لَيْنْ أَنْجَيْتَنَا » حال من الفاعل بتقدير القول . أى : قائلين ، وعداً بالشكر ، لئن أنجيتنا « مِنْ هَذِهِ » أى : الشدة المبر عنها بالظلمات ، « لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ » أى : لك ، باعتقاد أنك المخصوص بالثناء الجميل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٤] (قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ)

ثم أمره تعالى بالجواب تنبيهاً على ظهوره وتعيينه عندهم ، أو إهانة لهم إذ لا يلتفتون لخطابه بقوله : « قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ » أى : من غير شفاعة أحد ولا عون ، « ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ » أى : ثم أنتم بعد ما تشاهدون من النجاة عنها ، الموعود فيها بالشكر وعدا وثيقاً بالقسم ، تشركون ، بعبادته والثناء عليه ، غيره . وتنسبون النجاة الحاصلة بعد تخصيصه بالدعوة ، إلى شفاعة الشريك ، فقد جعلتم الشرك مكان الشكر .

تنبيهات

الأول - ما قدمناه من أن ظلمات (الْبَرِّ وَالْبَحْرِ) مجاز عن مخاوفها وأهوالها ، هو ما قاله

المحققون .

قال الرازى : ومنهم من حمله على حقيقته فقال : أما ظلمات البحر ، فهى أن تجتمع ظلمة الليل ، وظلمة البحر ، وظلمة السحاب ، ويضاف الرياح الصعبة ، والأمواج الهائلة إليها ، فلم يعرفوا كيفية الخلاص ، وعظم الخوف . وأما ظلمات البر ، فهى ظلمة الليل ، وظلمة السحاب ، والخوف الشديد من هجوم الأعداء والخوف الشديد من عدم الاهتداء إلى طريق الصواب . والمقصود أن عند اجتماع هذه الأسباب الموجبة للخوف الشديد ، لا يرجع

الإنسان إلا إلى الله تعالى . وهذا الرجوع يحصل ظاهراً وباطناً ، لأن الإنسان في هذه الحالة يعظم إخلاصه في حضرة الله تعالى ، وينقطع رجأؤه عن كل ما سوى الله تعالى . وهو المراد من قوله (تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً) . فبين تعالى أنه إذا شهدت الفطرة السليمة ، والخلقة الأصلية في هذه الحالة ، بأنه لا ملجأ إلا الله ، ولا تمويل إلا على فضل الله ، وجب أن يبقى هذا الإخلاص عند كل الأحوال والأوقات . ولكنه ليس كذلك ، فإن الإنسان بعد الفوز بالسلامة والنجاة ، يحيل تلك السلامة إلى الأسباب ، ويقدم على الشرك . ومن المفسرين من يقول : المقصود من هذه الآية الطعن في إلهية الأصنام والأوثان .

ثم قال الرازي رحمه الله ، وأنا أقول : التعلق بشيء مما سوى الله في طريق العبودية ، يقرب من أن يكون تعلقاً بالوثن ، ولذلك فإن أهل التحقيق يسمونه بالشرك الخفي . انتهى .

الثاني - قال بعض المفسرين : دل قوله تعالى : (تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً) على أن دعاء السر أفضل . قيل : وكان جهر النبي ﷺ بالدعاء ليعلم غيره . انتهى . وهذا بناء على أن قوله تعالى : (تَضَرُّعًا) تذلاً ، لا جهراً . وكثير من المفسرين ذهب إلى أن المعنى جهراً وسراً ، ولمسه الصواب . فإن العيان يؤيده ، إذ لا يبالك من اشتد عليه الأمر ، وأظلم عليه طريق الخلاص ، على الافتصار على دعاء السر وحده - والله أعلم - .

وفي القاموس ومثرحه : تضرع إلى الله تعالى ، أي : ابتهل وتذلل . وقيل : أظهر الضراعة ، وهي شدة الفقر والحاجة إلى الله تعالى . ومنه قوله تعالى : (تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً) أي : مظهرين الضراعة ، وحقيقة الخشوع . انتهى .

الثالث - المراد بالكرب ما يعم ما تقدم ، ولا محذور في التعميم بعد التخصيص ، لكثرة وروده . أو ما يعتري المرء من العوارض النفسية التي لا تنهاى ، كالأمراض والأسقام ،

وما قيل : إن المراد بالأول كرب مخصوص ، أو الأولى نعمة رفع ، وهذه نعمة دفع ، وأنه من قبيل (متقلداً سيفاً ورحماً) - تكلف لا داعى له - كذا في (العناية) - .

الرابع - وضع (تشركون) ، موضع (لا تشكرون) الذي هو مقتضى الظاهر المناسب لقوله : (لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ) لأن إشرأكلهم تضمن عدم صحة عبادتهم ، وشكرهم لأنه عبادة ، بل نفيها لعدم الاعتداد بها معه . إذ التوحيد ملاك الأمر ، وأساس العبادة ، فوضعه موضعه توبيخاً لهم ، لعدم الوفاء بالعهد . ولم يذكر متعلقه لتنزيله منزلة اللازم ، تنبيهاً على استبعاد الشرك في نفسه - كذا في (العناية) - .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٥] (قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبَسَكُمْ شِيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ ، انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ)

« قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ » قال المهايى : أى : قل للمشركين بعد النجاة الموعود فيها بالشكر : إنما أشركتم لأمنكم من الشدائد ، لكن لا وجه للأمان منها ، لاستمرار منشأ الخوف ، وهو القدرة الإلهية على أنواع الشدائد من الجهات كلها . إذ هو القادر على إرسال عذاب أعظم من تلك الشدة من فوقكم ، كما مطار النار أو الحجارة ، أو إسقاط السماء .

« أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ » كالخسف والظوفان ، « أَوْ يَلْبَسَكُمْ شِيْعًا » أى : يخلطكم فرقاً خلط اضطراب ، فيجعلكم متحزبين مختلفين فى القتال ، بأن يقوى أعداءكم « وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ » أى : شدة « بَعْضٍ » يعنى : يسلط بعضكم على بعض بالقتل والتعذيب .

« انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ » أى : نحوّلها من نوع إلى آخر . « لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ »
أى : يفهمون ويعتبرون ، فيكفوا عن كفرهم وعنادهم .

تنبيهان :

الأول - روى البخارى^(١) عن جابر رضى الله عنه قال . لما نزلت هذه الآية (قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ) قال رسول الله ﷺ : أعوذ بوجهك !
(أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ) قال : أعوذ بوجهك ! (أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعًا وَيَذِيقُ بَعْضُكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ) قال : هذا أهون ، أو هذا أيسر .

قال الحافظ ابن حجر : وقد روى ابن مردويه من حديث ابن عباس ما يفسر به حديث جابر ، ولفظه : عن النبي ﷺ قال : دعوت الله أن يرفع عن أمّتي أربعاً ، فرفع عنهم ثنتين ، وأبى أن يرفع عنهم اثنتين . دعوت الله أن يرفع عنهم الرجم من السماء والخسف من الأرض ، وأن لا يلبسهم شيْعاً ، ولا يذيق بعضهم بأس بعض ؛ فرفع الله عنهم الخسف والرجم ، وأبى أن يرفع عنهم الآخرين . فيستفاد من هذه الرواية المراد بقوله (مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ) ، ويسأنس له أيضاً بقوله تعالى : (أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ)^(٢) .

وروى الإمام^(٣) مسلم عن سعد بن أبي وقاص أنه أقبل مع النبي صلى الله عليه وسلم ذات يوم من العالية ، حتى إذا مرّ بمسجد بنى معاوية ، دخل فركع فيه ركعتين ، وصلينا معه ، ودعا ربه طويلاً ، ثم انصرف إلينا فقال : سألت ربى ثلاثاً ، فأعطاني ثنتين ومنعني واحدة . سألت

- (١) أخرجه البخارى في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٦ - سورة الأنعام ، ٢ - باب قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ ... الآية . الحديث رقم ٢٠٠٢
- (٢) [١٧ / الإسراء / ٦٨] ... حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا .
- (٣) أخرجه مسلم في : ٥٢ - كتاب الفتن وأشراف الساعة ، حديث ٢٠ (طبعتنا) .

ربى أن لا يهلك أمتى بالسنة ، فأعطانيها . وسألته أن لا يهلك أمتى بالفرق ، فأعطانيها .
وسألت ربي أن لا يجعل بأسهم بينهم ، فمنعنيها .

وروى الإمام أحمد^(١) من حديث أبي بصرة نحوه ، لكن قال (بدل خصلة الإهلاك) ،
أن لا يجمعهم على ضلالة^(٢) . وكذا الطبري^(٣) من مرسل الحسن .

قال الخفاجي : فإن قلت : كيف أجبت الدعويان ، وسيكون خسف بالشرق وخسف
بجزيرة العرب ؟ أى : كما رواه الترمذي^(٤) وغيره ؟

قلت : الممنوع خسف مستأصل لهم . وأما عدم إجابته فى بأسهم ، فبذنوب منهم ،
ولأنهم بعد تبليغه ﷺ لهم ، ونصيحته لهم ، لم يعملوا بقوله . انتهى .

وقد روى أحمد والترمذي^(٥) من حديث سعد بن أبي وقاص قال : سئل رسول الله صلى
الله عليه وسلم عن هذه الآية : « قُلْ هُوَ الْقَادِرُ » ... الخ ، فقال : أما إنها كائنة ، ولم يأت
تأويلها بعد . قال الحافظ ابن حجر : وهذا يحتمل أن لا يخالف حديث جابر ، بأن المراد بتأويلها

(١) أخرجه الإمام أحمد فى المسند بالصفحة رقم ٣٩٦ من الجزء السادس (طبعة الحلبي) .

(٢) الأثر رقم ١٣٣٧٥ من التفسير .

(٣) أخرجه الترمذي فى : ٣١ - كتاب الفتن ، ٢١ - باب ما جاء فى الخسف ونصه :
عن حذيفة بن أسيد قال : أشرف علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم من غرفة ونحن
نتذاكر الساعة . فقال النبي صلى الله عليه وسلم « لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات :
طلوع الشمس من مغربها وبأجوج ومأجوج والدابة وثلاثة خسوف . خسف بالشرق
وخسف بالمغرب وخسف بجزيرة العرب . ونار تخرج من قعر عدن تسوق الناس (أو تحشر
الناس) فتيبت معهم حيث باتوا ، وتقبل معهم حيث قالوا » .

(٤) أخرجه الترمذي فى : ٤٤ - كتاب التفسير ، ٦ - سورة الأنعام ، ٣ - حدثنا

الحسن بن عرفة .

ما يتعلق بالفتن ونحوها . انتهى . أى : مما ستصدق عليها الآية ، ولما تقع بالمسلمين . فقوله : إنها كائنة ، أى : فى المسلمين ، لا أنها خطاب لهم ، ونزولها فيهم - كما وهم - إذ يدفعه السياق والسباق ، وتتمة الآية - كما لا يخفى - وسنزيده بيانا .

الثانى - ماروى عن ابن عباس من أنه كان يقول فى قوله تعالى : (عَذَابًا مِنْ قَوْكُمْ) يعنى أئمة السوء (وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ) يعنى : خدم السوء . رواه ابن جرير^(١) وابن أبى حاتم . فإن صح عنه ، فراحده أن لفظ الآية مما يصدق على ذلك . لأن العذاب كل مامر (من المارة) على النفس ، وشق عليها ، لا أن ذلك هو المراد من الآية ، لنبوّه عن مقام التهويل ، فى شديد الوعيد ، ولخفاء الكناية عن ذلك من جوهر اللفظ ، ولعدم موافقته لنظائر الآية فى هذا الباب - كما لا يخفى - .

والظاهر أن السلف كانوا يتلون بعض الآيات فى بعض المقامات ، إشعاراً بأن معناها يحاكي تلك الواقعات ، لا أنها نزلت فى تلك القضايا . ومن ذلك قول أبى بن كعب ، قال فى هذه الآية : هن أربع خلال ، كلهن واقع ، منها ثنتان بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم بخمس وعشرين (أَلْبِسُوا شَيْعًا) و (ذَاقَ بَعْضُهُمْ بَأْسَ بَعْضٍ) ، وبقيت اثنتان لا بد منهما الرجم والخسف - رواه^(٢) أحمد وغيره - وقد أعلّ هذا الأثر بأن أياً لم يدرك سنة خمس وعشرين من الوفاة النبوية ، وكأن التقييد بذلك من كلام أبى العالية ، روايه عنه . وبالجملة ، فاستشهاد السلف بالآيات فى بعض الشؤون ، للإشعار المذكور - مما لا ينسکر ، فافهم ذلك ، فإنه يتفعلك فى مواطن كثيرة .

(١) الأثر رقم ١٣٣٤٩ من التفسير .

(٢) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ١٣٥ من الجزء الخامس (طبعة الحلبي) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٦] (وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ ، قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ)

وقوله تعالى « وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ » أى بالقرآن المجيد « وَهُوَ الْحَقُّ » أى الكتاب الصادق فى كل ما نطق به . « قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ » أى : لم يفوض إلى أمركم فأنتم معكم من التكذيب ، وأجبركم على التصديق . إنما أنا منذر ، وقد بلغت . وبعضهم أرجع الضمير فى (بِهِ) للعذاب . أى : كذب بالعذاب الموعود ، قَوْمُكَ الماعندون ، وهو الواقع لا محالة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٧] (لِكُلِّ نَبَأٍ مُّسْتَقَرٌّ ، وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ)

« لِكُلِّ نَبَأٍ مُّسْتَقَرٌّ » أى : لكل خبر عظيم وقت استقرار ، لصدقه أو كذبه . « وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ » أى : مستقر هذا النبأ ومآله ، وأن العاقبة له ، كما قال تعالى (وَتَعْلَمَنَ نَبَأُهُ بَعْدَ حِينٍ) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٨] (وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ، وَإِمَّا يُنسِئَنَّ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)

« وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ » أى : بالطنن والاستهزاء ، « فِي آيَاتِنَا » أى : المنسوبة إلى مقام عظمتنا ، التى حقها أن تعظم بما يناسب عظمتنا . والموصول كناية عن مشركى مكة ، فقد كان دينهم ذلك ، « فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ » أى فلا تجالسهم ، وقم عنهم ، « حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ » أى : حتى يأخذوا فى كلام آخر ، غير ما كانوا فيه من الخوض فى آياتنا .

« وَإِنَّمَا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ » بأن يشغلك فتنسى النهى عن مجالستهم ، « فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ » أى : إن ينسينك الشيطان ، فجلست معهم ، فلا تؤاخذ به ، لكن إذا ذكرت النهى ، فلا تقعد معهم ، لأنهم ظالمون بالظمن فى الكلام المعجز ، عناداً .

وفى الحديث ^(١) : إن الله وضع عن أمتى الخطأ والنسيان ، وما استسكروها عليه - رواه الطبرانى عن ثوبان مرفوعاً . وإسناده صحيح - وهذه الآية هى المشار إليها فى قوله تعالى (وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلُهُمْ ...) الآية ، لأن فى حضور المنكر مع إمكان التباعد عنه ، مشاركة لصاحبه .

فوائد :

قال السيوطى فى (الإكليل) : فى هذه الآية وجوب اجتناب مجالس الملحدين ، وأهل اللغو ، ويستدل بها على أن الناسى غير مكلف ، وأنه إذا ذكر عاد إليه التكليف ، فيعفى عما ارتكبه فى حال نسيانه . ويندرج تحت ذلك مسائل كثيرة فى العبادات والتعليقات . انتهى وقال الرازى : ومن الحشوية من استدلت بهذه الآية فى النهى عن الاستدلال والمناظرة فى ذات الله تعالى وصفاته . قال : لأن ذلك خوض فى آيات الله ، والخوض فى آيات الله حرام بدليل هذه الآية .

والجواب عنه : أن المراد من الخوض فى الآية ، الشروع فى الطعن والاستهزاء . فسقط هذا الاستدلال - والله أعلم - .

(١) أخرجه ابن ماجة فى : ١١ - كتاب الطلاق ، ١٦ - باب طلاق المسكرة والناسى ، حديث رقم ٢٠٤٥ (طبعتنا) عن ابن عباس .

(٢) [٤ / النساء / ١٤٠] ... إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا .

وقال بعض مفسرى الزيدية : ثمرة الآية أحكام :

الأول - وجوب الإعراض عن مجالس المستهزئين بآيات الله أو بحججه أو برسله ، وأن لا يقعد معهم ، لأن في القعود إظهار عدم الكراهة ، وذلك لأن التكليف عام لنا ، ولرسول الله ﷺ . وإنما يجب الإعراض ، وترك الجلوس معهم ، إذا لم يطمع في قبولهم ، فإذا انقطع طمعه إذاً ، فلا فائدة في دعائهم . ويجب القيام عن مجالسهم إذا عرف أن قيامه يكون سبباً في ترك الخوض ، وأنهم إنما يفعلونه مغايظة للواقف ، إذا كان وقوفه يؤهم عدم الكراهة .

الحكم الثانى - جواز مجالسة الكفار ، مع عدم الخوض ، لأنه إنما أمرنا بالإعراض مع الخوض . وأيضاً فقد قال تعالى : (حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ) . قال الحاكم : والآية تدل أيضاً على المنع من مجالسة الظلمة والفسقة ، إذا أظهروا المنكرات . وتدل على إباحة الدخول عليهم لغرض ، كما يباح للتذكير . وفي الآية أيضاً دلالة على وجوب الإنكار ، لأن الإعراض إنكار . قال : وتدل على أن التقية من الأنبياء والأئمة بإظهارهم المنكر لا تجوز ، خلاف الإمامية ، وتدل على جواز النسيان على الأنبياء .

الحكم الثالث - أن الناسى مرفوع عنه الحرج . فإن قيل : النسيان فعل الله ، فلم أضيف إلى الشيطان ؟ أجيب : بأن السبب من الشيطان ، وهو الوسوسة والإعراض عن الذكر . فأضيف إليك لذلك . كما أن من ألقى غيره في النارقات ، يقال : إنه القاتل ، وإن كان الإحراق فعل الله . واختلف في النسيان ما هو ؟ فقال الحاكم : هو معنى يحذثه الله في القلب . وقال أبوهاشم وأصحابه : ليس بمعنى ، وإنما هو زوال العلم الضروري الذى جرت العادة بحصوله . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٩] (وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ ذِكْرِي لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ)

« وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ » أى : وما يلزم المتقين الذين يجالسونه من شىء عما يحاسبون عليه من خوضهم ، « وَلَكِنْ ذِكْرِي » أى : ولكن أمروا بالإعراض عنهم ، ليكون ذكرى لضعفاء المسلمين ، لئلا يقع شىء من مطاعن المستهزئين فى قلوبهم . « لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ » أى : يبلغ مبلغ التوقى من شبهاتهم ، بالجلوس مع علمائه بدلهم .

تنبيهان

الأول - ما ذكرناه فى معنى الآية ، هو ما قرره المهابمى رحمه الله تعالى . وقيل : المعنى : ولكن على المتقين أن يذكروهم ذكرى إذا سمعهم يخوضون ، بالقيام عنهم ، وإظهار الكراهة لهم وموعظتهم ، لعلهم يتقون الخوض حياء أو كراهة لمساءتهم ، فلا يمودون إليه . وجوزوا أن يكون الضمير (لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ) ، أى : يذكرونهم رجاء أن يثبتوا على تقواهم ، أو يزادوها . انتهى .

وما ذكرناه أسد وأوجه .

وروى ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبیر ، قال فى الآية : أى ما عليك أن يخوضوا فى آيات الله إذا فعلت ذلك . أى : إذا تجنبتهم ، وأعرضت عنهم . وعليه فالوصول كناية عن النبى صلى الله عليه وسلم . التفت به تعظيما وتكريما .

الثانى - قال السيوطى فى (الإكليل) : قد يستدل بقوله تعالى : (وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ ...) الخ على أن من جالس أهل النكر ، وهو غير راض بفعلهم ، فلا إثم عليه . لكن آية النساء تدل على أنه آثم ، ما لم يفارقهم ، لأنه قال : (إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلُهُمْ) ^(١) أى :

(١) [٤ / النساء / ١٤٠] ونصها : وَقَدْ نَزَلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ =

إن قعدتم فأنتم مثلهم في الإثم، وهى متأخرة . فيحتمل أن تكون ناسخة لهذه ، كما ذهب إليه قوم منهم السدى . اهـ .

أقول : المنى في الآية هو لحوق شىء من وبال الخائضين ، وإثم كفرهم لمجالسهم المتقين ، فلا ينافى ذلك لحوق وبال المجالسة على انفرادها ، وهو ما أفادته آية النساء . فالمثلثة إذن فى مطلق الإثم ، وإن تباين (ماصدقه) فيها ، إذ لا قائل بأن مطلق مجالستهم ردة وكفر . نعم ! لو قيل بأن المثلثة محمولة على ما إذا حصل الرضا بشأن مجالستهم ، فلا إشكال إذن . وبالجملة فاستدلال (الإكليل) وإيه ، ولذا عبر به (قد) ، ودعوى النسخ أوهى . فتأمل !

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٠] (وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَسَتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ، وَذَكَرَ بِهِ أَنْ تَبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعْدِلْ كُلُّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذُ مِنْهَا ، أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا ، لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ)

« وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ » أى : الذى كلفوه ودعوا إليه ، وهو دين الإسلام ، « لَعِبًا وَلَهْوًا » حيث سخرُوا به واستهزؤوا « وَغَرَسَتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا » حيث اطمأنوا بها ، وزعموا أن لا حياة بعدها أبدًا ، وأن السعادة فى لذاتها . أى : أعرض عنهم ، ودعهم ، ولا تبال بتكذيبهم ، وأهلهم قليلاً ، فإنهم صائرون إلى عذاب عظيم . « وَذَكَرَ بِهِ » أى : ذكر الناس بهذا القرآن « أَنْ تَبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ » أى : مخافة أن تسلم إلى الهلاك ، وترتهن بسوء كسبها ، وغرورها بإنكار الآخرة . يقال : أبسله لكذا : عرضه ورهنه ،

== آياتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ، إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلُهُمْ ، إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا .

أَوْ أَسْلَمَهُ لِلْهَلَكَةِ . « لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ » ينصرها بالقوة « وَلَا شَفِيعٌ » يدفع عنها بالمسألة .

« وَإِنْ تَعَدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذَ مِنْهَا » أى : وإن تفد كل نوع من أنواع الفداء ، بما يقابل العذاب ، لا يقبل منها ، لبعدهم عن مقام الفداء . والعدل : الفدية ، لأن الفادى يعدل الفدى بمثله .

« أُولَئِكَ » إشارة إلى المتخذين دينهم لعباً ولهوياً « الَّذِينَ أُبْسِلُوا » أى : سلموا للهلاك ، بحيث لا يعارضه شيء ، « بِمَا كَسَبُوا » بهذا الاغترار من إنكار الآخرة معها ، والانهماك في الشهوات المحرمة ، « لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ » أى : ماء مغلى يتجرجر في بطونهم ، وتقطع به أمعاؤهم ، « وَعَذَابٌ أَلِيمٌ » أى : بنار تشتعل بأبدانهم ، « بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ » أى : بسبب كفرهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧١] (قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانًا لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَىٰ ائْتِنَا ، قُلْ إِنَّ هُدَىٰ اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ ، وَأُمِرْنَا لِنُسَلِّمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ) « قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا » أى : أنعبد من دونه ما لا يقدر على نفعنا ، إن دعوانا ، ولا ضرنا إن تركناه ، « وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا » عطف على (ندعو) ، داخل فى حكم الإنكار والنفي . أى : وزد إلى الشرك . والتعبير عنه بالرد على الأعقاب - لزيادة تقبيحه بتصويره بصورة ما هو علم فى القبح ، مع ما فيه من الإشارة إلى كون الشرك حالة قد تركت ونبت وراء الظهر - أفاده أبو السعود .

(بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ » أى : للإسلام والتوحيد ، وأقننا من عبادة الأصنام ، فنصير

كالمستمر على الضلال ، بل « كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ » أى : استمالته عن الطريق الواضح مردة الجن ، « فِي الْأَرْضِ » القفر المهلكة ، « حَيْرَانَ » أى : تأنها ضالاً عن الجادة ، لا يدري كيف يصنع ، « لَهُ » أى : لهذا المستهوى « أَصْحَابٌ » أى : رفقة « يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى » أى : إلى الطريق المستقيم ، « اثْنَيْنَا » على إرادة القول ، أى : يقولون اثنتا . أى : وهو قد اعتسف المهمة ، تابعاً للشياطين ، لا يجيبهم ولا يأتهم . فشبه حال من خلس من الشرك ، ثم عاد له ، بحال من ذهبته المردة في مهمه بعد ما كان على الجادة ، ولا يدري مقصده الذى هو سائر إليه ، مع وجود رفقة تناديه تهديه ، وهو لا يسمع لهم . « قُلْ إِنْ هَدَى اللَّهُ » أى : الذى أرسل به رسله ، « هُوَ الْهُدَى » أى : وما وراءه ضلال وغى ، « وَأَمِرٌ نَا لِنُسَلِّمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٢] (وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ، وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ)

« وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ » أى : فى مخالفة أمره . (وَأَنْ أَقِيمُوا) عطف على (لنسلم) . ومعناه : أن نسلم . فاللام فيه رديفة (أن) ، أو عطف عليه ؛ واللام تعليلية ، أى : للإسلام ، وإقامة الصلاة . وفى ورود (أقيموا الصلاة) محكياً بصيغته ، وورود (نسلم) محكياً بمعناه ، احتمال أن يكون ﷺ حكى قول الله بمعناه ، دون لفظه . انظر (الاتصاف) .

تنبيه :

فى تخصيص الصلاة بالذكر من بين أنواع الشرائع ، وعطفها على الأمر بالإسلام ، وقرنها بالأمر بالتقوى - دليل على تفخيم أمرها ، وعظم شأنها - ذكره بعض الزيدية - . « وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٣] (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ، وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ، قَوْلُهُ الْحَقُّ، وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ، عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ)

« وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ » أى : بالحكمة ، كقوله : (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بِاطِلَالٍ)^(١) .

وقوله تعالى : « وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ » بيان لقدرته تعالى على حشرهم ، بكون مراده لا يتخلف عن أمره ، وأن قوله وأمره هو النافذ والواقع . والمراد بـ (القول) كلمة (كن) تحقيقاً أو تمثيلاً . فـ (قوله الحق) مبتدأ وخبر . و (يوم) ظرف لمضمون هذه الجملة . كقوله تعالى (إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)^(٢) وكان قوله تعالى : (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ) الخ عقب قوله : (وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ) سببق للاحتجاج على قدرته تعالى على البعث ، ردّاً على منكرى ذلك من المشركين ، الذين السياق فيهم . وما أشبه الآية بقوله تعالى : (أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ، بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ * إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا ...)^(٣) الآية .

ولا يخفى أن باستحضار النظائر القرآنية ، تنجلي الحقائق . وقد توسع المفسرون هنا في إعراب هذه الجملة ، بسرد وجوه ضاع الظاهر بينها - وقد علمته ، فاحرص عليه - .

(١) [٣٨ / ص / ٢٧] ... ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا، فَويلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ .

(٢) [٣٦ / يس / ٨٢] .

(٣) [٣٦ / يس / ٨٢ و ٨١] .

« وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ » أى: فلا بد أن يفعل بالمطيع والمعصى فعل الملوك، لمن يطيعهم أو يعصيههم . ذ (يوم) ظرف لقوله (وَلَهُ الْمُلْكُ) - قاله أبو السعود - وتقييد اختصاص الملك به تعالى، بذلك اليوم، مع عموم الاختصاص لجميع الأوقات ، لغاية ظهور ذلك، بانقطاع العلائق المجازية الكائنة فى الدنيا ، المصححة للمالكية المجازية فى الجملة ، كقوله تعالى : (لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ، لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ)^(١) . وقوله : (الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ)^(٢) .

وقد زعم بعضهم أن المراد بـ (الصور) هنا جمع صورة ، أى : يوم ينفخ فيها ، فتحيى . قال ابن كثير : والصحيح أن المراد بـ (الصور) القرن الذى ينفخ فيه إسرافيل عليه السلام ، وهكذا قال ابن جرير^(٣) : الصواب عندنا ما تظاهرت به الأخبار عن رسول الله ﷺ أنه قال^(٤) : إن إسرافيل قد التقم الصور ، وحتى جبهته ينتظر متى يؤمر فينفخ .

وروى الإمام أحمد^(٥) عن عبد الله بن عمرو قال: إن أعرابيا سأل النبي ﷺ عن الصور؟

(١) [٤٠ / غافر / ١٦] ونصها : يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ ، لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ ، لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ، لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ .

(٢) [٢٥ / الفرقان / ٢٦] ... وَكَانَ يَوْمًا عَلَى السَّكَافِرِينَ عَسِيرًا .

(٣) تفسير ابن جرير بالصفحة رقم ٤٦٣ من الجزء الحادى عشر (طبعة المعارف) .

(٤) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده بالصفحة رقم ٧٣ من الجزء الثالث (طبعة الحلبي)

ونصه : عن أبى سعيد الخدرى أن النبي ﷺ كان يقول « كيف أنعم ؟ وصاحب الصور قد التقم الصور ، وحتى جبهته وأصغى سمعه ، ينتظر متى يؤمر » .

(٥) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ١٩٢ من الجزء الثانى (طبعة الحلبي) والحديث

رقم ٦٨٠٥ (طبعة المعارف) .

وأخرجه أبو داود فى : ٣٩ - كتاب السنّة ، ٢١ - باب فى ذكر البعث والصور ، =

فقال: قرن ينفخ فيه . ورواه أبو داود والترمذى والحاكم، عنه أيضاً .
« عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ » أى هو عالمهما ، « وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ » ذو الحكمة فى
سائر أفعاله . والعلم بالأمور الجليلة والخفية .

ثم أمر تعالى نبيه ﷺ أن يذكر لمن اتخذ دينه هزوا ولعبا إنكار إبراهيم عليه الصلاة
والسلام- الذى يزعمون أنهم على دينه ، ويفتخرون به - على أبيه فى شركه بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٤] (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ أَرَزَرَأَتَّخِذُ أَصْنَامًا إِلَهَةً، إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ

فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ)

« وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ أَرَزَرَأَتَّخِذُ أَصْنَامًا » أى : صوراً مصنوعة ، « إِلَهَةً
إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ » أى : باعتقاد إلهيتها ، أو اتصافها بصفاته ، أو
استحقاقها للعبادة ، لأن الإلهية بوجوب الوجود بالذات . وهى ممكنة مصنوعة وأنى لها
الاتصاف بصفاته ، وهى عاجزة عن النفع والضرر، خالية عن الحياة والسمع والبصر، والعبادة
غاية التذلل ، فلا يستحقها من لا يخلو عن هذه الوجوه من الذلة ، وإنما يستحقها من كان
فى غاية العلو - أفاده المهايى - .

تنبيهات :

الأول - قرئ « آزَرَ » بالنصب ، عطف بيان ، لقوله : (لأبيه) وبالضم على النداء .

الثانى - الآية حجة على الشيعة فى زعمهم أنه لم يكن أحد من آباء الأنبياء كافرا ، وأن

آزر عم إبراهيم ، لا أبوه ، على ما بسطه الرازى هنا ، وذلك لأن الأصل فى الإطلاق الحقيقة ،
ومثله لا يجزم به من غير نقل .

= حديث ٤٧٤٢ . أما الترمذى فلم يروه . إنما روى الحديث السابق عن أبى سعيد الخدرى فى :

٤٤ - كتاب التفسير ، ٣٩ - سورة الزمر ، ٨ - حدثنا ابن أبى عمر .

الثالث - قال بعض مفسرى الزيدية : فى الآية دلالة على بطلان قول الإمامية : إن الإمام

لا يجوز أن يكون أبوه كافراً . لأنه إذا جاز نبى ، أبوه وزوجته كافران ، فالإمام أولى .

اشتمل كلام إبراهيم عليه الصلاة والسلام على ذكر الحجة العقلية إجمالاً على فساد قول عبدة الأصنام ، بإنكاره اتخاذها آلهة ، وهى ما هى فى عبزها . وقد جاءت مفصلة فى سورة مريم فى قوله تعالى (وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ ، إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا * يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا * يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ ، إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا * يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا * قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ إِلَهِي يَا إِبْرَاهِيمُ ، لَنْ لَمْ تَنْتَهَ لِأَرْجُمَنَّكَ ، وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ...) الآيات (١) .

قال ابن كثير : ثبت فى الصحيح (٢) عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة وعلى وجه آزر قفرة وغبرة . فيقول له إبراهيم : ألم أقل لك لا تعصى ؟ فيقول أبوه : فاليوم لا أعصيك ، فيقول إبراهيم : يارب ! إنك وعدتني أن لاتخزنى يوم يبعثون ، فأخزى أخزى من أبى الأبعد ؟ فيقول الله تعالى : إنى حرمت الجنة على الكافرين . ثم يقال : يا إبراهيم ! انظر ماتحت رجليك ، فينظر فإذا هو بذيخ متلطح ، فيؤخذ بقوائمه فليق فى النار .
الرابع - قال بعض مفسرى الزيدية : ثمرة الآية الدلالة على وجوب النصيحة فى الدين ، لا سيما للأقارب ، فإن من كان أقرب ، فهو أهم . ولهذا قال تعالى : (وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ

(١) [١٩ / مريم / ٤١-٤٦] .

(٢) أخرجه البخارى فى : ٦٠ - كتاب الأنبياء ، ٨ - باب قول الله تعالى : وَاتَّخَذَ

اللهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ، حديث ١٥٨٦ .

الْأَفْرِينَ^(١) ، وقال تعالى : (قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا)^(٢) . وقال ﷺ^(٣) :
ابداً بنفسك ثم بمن تعول . ولهذا بدأ ﷺ بعلى وخديجة وزيد ، وكانوا معه في الدار ،
فآمنوا وسبقوا ، ثم بسائر قريش ، ثم بالعرب ، ثم بالموالي . وبدأ إبراهيم بأبيه ، ثم بقومه .
وتدل هذه الآية على أن النصيحة في الدين والدم والتوبيخ لأجله ، ليس من العقوق ، كالحجرة -
هكذا في التهذيب . انتهى .

(١) [٢٦ / الشعراء / ٢١٤] .

(٢) [٦٦ / التحريم / ٦] ونصها : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ
نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ
وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ .

(٣) هذا الحديث (ابدأ بنفسك ثم بمن تعول) ملق من حديثين :

الأول (ابدأ بنفسك ثم تصدق عليها) أخرجه مسلم في : ١٢ - كتاب الزكاة ، حديث
٤١ (طبعنا) ونصه :

عن جابر قال : أعتق رجل من بني عذرة عبداً له عن دُبُر . فبلغ ذلك رسول الله ﷺ
فقال « ألك مال غيره » ؟ فقال : لا . فقال « من يشتريه مني » ؟ فاشتراه نعيم بن عبد الله
العدويّ بمائة درهم . فجاء بها رسول الله ﷺ . فدفعها إليه ، ثم قال « ابدأ بنفسك
فتصدق عليها . فإن فضل شيء فلاهلك . فإن فضل عن أهلك شيء فلاذى قرابتك . فإن
فضل عن ذى قرابتك شيء فهكذا وهكذا » .

يقول : فبين يديك وعن يمينك وعن شمالك .

والحديث الثاني (ابدأ بمن تعول) وأخرجه البخاري في : ٢٤ - كتاب الزكاة ،
١٨ - باب لا صدقة إلا عن ظهر غنى ، حديث ٧٦٣ ونصه :

عن حكيم بن حزام رضى الله عنه ، عن النبي ﷺ قال « اليد العليا خير من اليد السفلى ،
وابداً بمن تعول . وخير الصدقة عن ظهر غنى . ومن يستعفف يعفه الله ومن يستغن يغنه الله » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٥] (وَكَذَلِكَ نُرَى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَيْكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ)

« وَكَذَلِكَ نُرَى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » أى : نطلعه على حقائقهما ، ونبصره فى دلالتهما على شؤونه عز وجل ، من حيث إنهما بما فيهما ، مربوبان ومملوكان ، له تعالى . و(الملـكـوت) مصدر على زنة المبالغة ، كالرهبوت والجبروت ، ومعناه : الملك العظيم ، والسلطان القاهر . وقيل : ملكوتهما عجائبهما وبدائعهما . وقد أسلفنا الكلام فى (وكذلك) قريباً عند قوله تعالى (وَكَذَلِكَ فَتَنَّا)^(١) وأن مختار الرغشـرى كونه إشارة إلى مصدر ما بعده ، والكاف مقحمة ، والتقدير : تلك الإراءة والتبصير البديع ، تربه ونبصره . فجدّبه عهداً . « وَلَيْكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ » عطف على علة محذوفة لم تقصد بعينها ، إشعاراً بأن لتلك الإراءة فوائد جمة ، من جملتها ما ذكر .

قال المـهايمى فى الآية : (وَكَذَلِكَ نُرَى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ) ليعلم أن شيئاً من روحانيات الأفلاك والكواكب والشايع والشياطين لا يصلح للإلهية ، (وَلَيْكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ) بالتوحيد بالاستدلال بالأدلة الكثيرة . وقيل : (وَلَيْكُونَ) علة لمقدر هو عبارة عن المذكور . أى : وليكون من الموقنين بالتوحيد ، فلما مافعلنا من الإراءة والتبصير بآيات السموات والأرض .

لطائف

الأولى - قال الرازى : وههنا دقـيقة عقلية ، وهى أن نور جلال الله تعالى لأخ غير

(١) [٦ / الأنعام / ٥٣] ونصها : وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا ، أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ .

منقطع ولا زائل البتة ، والأرواح البشرية ، لا نصير محرومة عن تلك الأنوار إلا لأجل حجاب ، وذلك الحجاب ليس إلا الاشتغال بغير الله تعالى . فإذا كان الأمر كذلك ، فبقدر ما يزول ذلك الحجاب ، يحصل هذا التجلي . فقول إبراهيم عليه الصلاة والسلام : (اَتَّخِذْ أَصْنَامًا ءَالِهَةً) إشارة إلى تقبيح الاشتغال بعبادة غير الله تعالى ، لأن كل ماسوى الله فهو حجاب عن الله تعالى ، فلما زال ذلك الحجاب ، لا جرم تجلى له ملكوت السموات بالتمام . فقلوه : (وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ) معناه : وبعد زوال الاشتغال بغير الله حصل له نورٌ تجلى جلال الله تعالى ، فكان قوله (وَكَذَلِكَ) منشأ لهذه الفائدة الشريفة الروحانية .

الثانية - قال الرازى : اليقين عبارة عن علم يحصل بعد زوال الشبهة بسبب التأمل . ولهذا المعنى لا يوصف علم الله تعالى بكونه يقيناً ، لأن علمه غير مسبوق بالشبهة ، وغير مستفاد من الفكر والتأمل . واعلم أن الإنسان فى أول ما يستدل به ، فإنه لا ينفك قلبه عن شك وشبهة من بعض الوجوه ، فإذا كثرت الدلائل وتوافقت وتطابقت ، صارت سبباً لحصول اليقين . وذلك لوجوه :

الأول - أنه يحصل لكل واحد من تلك الدلائل نوع تأثر وقوة ، فلا تزال القوة تزايد حتى تنتهى إلى الجزم .

الثانى - أن كثرة الأفعال سبب لحصول الملل . فكثرة الاستدلال بالدلائل المختلفة على المدلول الواحد ، جارٍ مجرى تكرار الدرس الواحد . فكما أن كثرة التكرار تفيد الحفظ التأكّد الذى لا يزول عن القلب ، فكذا ههنا .

الثالث - أن القلب عند الاستدلال كان مظلماً جداً ، فإذا حصل فيه الاعتقاد المستفاد من الدليل الأول ، امتزج نور ذلك الاستدلال بظلمة سائر الصفات الحاصلة فى القلب ، فحصل فيه حالة شبيهة بالحالة المترتبة من النور والظلمة ، فإذا حصل الاستدلال الثانى امتزج نوره بالحالة الأولى ، فيصير الإشراق واللمعان أتم . وكما أن الشمس إذا قربت من المشرق ظهر

نورها في أول الأمر ، وهو الصبح ، فمكذلك الاستدلال الأول يكون كالصبح . ثم ، كما أن الصبح لا يزال يتزايد بسبب تزايد قرب الشمس من سمت الرأس ، فإذا وصلت إلى سمت الرأس حصل النور التام ، فمكذلك العبد كلما كان تدبره في مراتب مخلوقات الله تعالى أكثر ، كان شروق نور المعرفة والتوحيد أجلى . إلا أن الفرق بين شمس العلم ، وشمس العالم ، أن شمس العالم الجسماني لها في الارتقاء والتصاعد حد معين ، لا يمكن أن يزداد عليه في الصعود . وأما شمس المعرفة والعقل والتوحيد ، فلا نهاية لتصاعدها ، ولا غاية لازديادها . فقوله (وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ) إشارة إلى مراتب الدلائل والبيّنات . وقوله (وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) إشارة إلى درجات أنوار التجلي ، وشروق شمس المعرفة والتوحيد . انتهى .

الثالثة - ذكر تعالى الإراءة في هذه الآية مجملة ، ثم فصلها بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٦] (فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى الْكُوكَبَ ، قَالَ هَذَا رَبِّي ، فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أَحِبُّ
الْأَفْلِينَ)

« فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى الْكُوكَبَ قَالَ هَذَا رَبِّي » قال المهايي : لما رأى - يعنى إبراهيم عليه الصلاة والسلام - الملكوت ، وأيقن أن شيئاً منها لا يصلح للإلهية ، أراد الرد على قومه في اعتقاد إلهيتها لخسستها ، باعتبار افتقارها في أفعالها إلى أجسام لها دناءة الأفول ، وإن كانت علوية ، وكذا في اعتقاد إلهية تلك الأجسام . كما رد عليهم في اعتقاد إلهية الأصنام ، فَلَتَظْهَرَ ظهور الكواكب التي كانوا يعبدونها . انتهى .

وبالجملة ، فالآية بيان لكيفية استدلاله عليه الصلاة والسلام ، ووصوله إلى رتبة الإيقان . ومعنى (جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ) ستره بظلامه . و (الكوكب) قيل : الزهرة ، وقيل :

المشتري .

أقول : (الكوكب) لغةً : النجم . قال الزبيديّ في (شرح القاموس) : وكونه علمًا بالغلبة على الزهرة غير معتدّ به ، وإنما هي الكوكبة بالهاء . انتهى .

قال الزمخشريّ : كان أبوه وقومه يعبدون الأصنام والشمس والقمر والكواكب ، فأراد أن ينههم على الخطأ في دينهم ، وأن يرشدهم إلى طريق النظر والاستدلال ، ويعرفهم أن النظر الصحيح مؤد إلى أن شيئاً منها لا يصح أن يكون إلهاً ، لقيام دليل الحدوث فيها ، وأن وراءها محدثاً أحدثها ، وصانعاً صنعها ، ومدبراً دبر طلوعها وأفولها وانتقالها ومسيرها وسائر أحوالها . وقول إبراهيم لقومه : (هَذَا رَبِّي) إرخاء للنعنان معهم بإظهار موافقته لهم أولاً ، ثم إبطال قولهم بالاستدلال ، لأنه أقرب لرجوع الخصم .

قال الزمخشريّ : قول إبراهيم ذلك ، هو قول من ينصف خصمه ، مع علمه بأنه مبطل . يحكي قوله كما هو غير متعصب لمذهبه ، لأن ذلك أدعى إلى الحق ، وأنجي من الشغب . ثم يكرر عليه بعد حكايته ، فيبطله بالحجة .

« فَلَمَّا أَفْلَ » أي : غاب ، « قَالَ لَا أَحِبُّ الْآفِلِينَ » أي : لا أحب عبادة من كان كذلك ، فإن الأفول دناءة تنافي الإلهية ، بل تمنع من الميل إلى صاحبها ، فضلاً عن اتخاذه إلهاً أو معبوداً ، فضلاً عما يفتقر إليه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٧] (فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي ، فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ)

« فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا » أي : طالماً منتشر الضوء « قَالَ هَذَا رَبِّي » على الأسلوب المتقدم « فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ » فإن مآرئته لا يليق بالإلهية لدناءته بمجوه .

قال الزمخشري : وفيه تنبيه لقومه على أن من اتخذ القمر إلهاً ، وهو نظير الكواكب في الأقول ، فهو ضال . وأن الهداية إلى الحق بتوفيق الله تعالى ولطفه .
وفي (الانتصاف) : التمريض بضالهم ثانياً أصرح وأقوى من قوله أولاً (لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ) وإنما ترقى إلى ذلك ، لأن الخصوم قد أقامت عليه ، بالاستدلال الأول ، حجة فأنسوا بالقدح في معتقدهم ، ولو قيل هذا في الأول فلعلهم كانوا ينفرون ، ولا يصغون إلى الاستدلال . فاعترض صلوات الله عليه بأنهم في ضلالة ، إلا بعد أن وثق بإصغائهم إلى تمام المقصود ، واستماعهم إلى آخره . والدليل على ذلك أنه ترقى في النوبة الثالثة إلى التصريح بالبراءة منهم ، والتقريع بأنهم على شرك حين تم قيام الحجة ، وتبليج الحق ، وبلغ من الظهور غاية المقصود . كما قال تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٨] (فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسُ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ ، فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ)

« فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسُ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي » على نحو ما تقدم ، وتذكير اسم الإشارة لتذكير الخبر ، أولأنه أراد : هذا الطالع ، أو الذي أراه ، أو لصيانة الرب عن شبهة التأنيث ، ليستدرجهم . إذ لو حقر بوجه ما كان سبباً لعدم إصغائهم - وعلى الأخير اقتصر المهاييم - فقال : لم يؤنثه لثلا يعارض عظمته نقص الأنوثة ، ولو غير حقيقية ، وهي وإن كانت في الواقع لم يأت بها لفظاً ، لأنه قصد بذلك مساعدة الخصم أولاً .

وقوله تعالى : « هَذَا أَكْبَرُ » أي : أكبر الكواكب جرماً ، وأعظمها قوة ، فهو أولى بالإلهية . وفيه تأكيد لما رامه عليه الصلاة والسلام من إظهار النصفة ، مع إشارة خفية إلى فساد دينهم من جهة أخرى ، ببيان أن الأكبر أحق بالربوبية من الأصغر .

« فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ » صادعاً بالحق : « يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ » أى من الأجرام المحدثه المتغيرة من حالة إلى أخرى ، أو من إشراككم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٩] (إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ)

« إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ » أى : وجه قلبى وروحى فى المحبة والعبادة ، بل جعلته مسلماً « لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا » أى : مائلاً عن الأديان الباطلة ، والمقائد الزائفة ، « وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ » .

وفى هذا المقام :

مباحث

الأول - توسع المفسرون هنا فى قوله : (هَذَا رَبِّي) :

فن قائل بأن المتكلم بهذا آزر ، وأنه لما قال ذلك ، قال إبراهيم (لأحب الآلين) .

وقيل : إنه إبراهيم ، وكان ذلك فى حال الطفولية ، قبل استحكام النظر فى معرفة الله تعالى

لقوله : (لَيْسَ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي ...) الخ .

وقيل : بعد بلوغه وتكريمه بالرسالة ، إلا أنه أراد الاستفهام الإنكارى ، توبيخاً لقومه ،

فحذف الهمزة ، ومثله كثير .

وقيل : على إضمار القول أى : يقولون هذا ربى ، وإضمار القول كثير .

وقيل : المعنى فى زعمكم واعتقادكم .

وقيل : الإخبار على سبيل الاستهزاء ... إلى أقوال أخر .

والقصد فى ذلك تنزيه مقامه عليه الصلاة والسلام عن الشك والحيرة ، واعتقاد ربوبية

ذلك ، لمنافاته للعصمة .

وأقول : هذا مسلمٌ بلا ريب ، ولكنَّ الأوجه من جميع ذلك كله ما أسلفناه أوَّلاً من أن قوله : (هَذَا رَبِّي) من باب استعمال النصفة مع الخصوم ، على سبيل الوضع ، وهو سوق مقدمة في الدليل لا يمتقدها ، لكونها مسلمة عند غيره ، لأجل إلزامه بها . وهو مصطلح أهل الجدل . وقد اقتصر الزخشرى على هذا الوجه الفريد .

قال الناصر في (الانتصاف) : وذلك متعين . وقد ورد في الحديث الوارد في الشفاعة^(١) أنهم يأتون إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، فيلتمسون منه الشفاعة ، فيقول : نفسى ! نفسى ! ويدكر كذباته الثلاث ، ويقول : لست لها ، يريد قوله لسارة هى أختى ، وإنما عنى : فى الإسلام . وقوله : إنه سقيم ، وإنما عنى همّة بقومه وبشر كههم والمؤمن يسقمه ذلك - وقوله : (بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ) ، وقد ذكرت فيه وجوه من التعريض . فإذا عدّ صلوات الله عليه وسلامه على نفسه هذه الكلمات ، مع العلم بأنه غير مؤاخذ بها ، دلّ ذلك على أنها أعظم ما صدر منه . فلو كان الأمر على ما يقال ، من أن هذا الكلام محكى عنه على أنه نظره لنفسه ، لكان أولى أن يعمده ، وأعظم ، مما ذكرناه . لأنه حينئذ يكون شكنا ، بل جزماً . على أن الصحيح أن الأنبياء قبل النبوة معصومون من ذلك . انتهى .

وقال الحافظ ابن كثير : اختلف المفسرون فى هذا المقام ، هل هو مقام نظر أو مناظرة ؟ فروى ابن جرير^(٢) من طريق على بن أبى طلحة عن ابن عباس ما يقتضى أنه مقام نظر . واختاره ابن جرير مستدلاً عليه بقوله : (لَيْنٌ لَمْ يَهْدِنِ رَبِّي) الآية . وقال محمد بن إسحاق : قال ذلك حين خرج من السَّرْب الذى ولدته فيه أمه ، حين تخوفت عليه من نمرود بن كنعان ،

(١) حديث الشفاعة هذا أخرجه البخارى فى مواضع . ومنها فى : ٩٧ - كتاب التوحيد ، ٢٤ - باب قول الله تعالى : وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاصِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ ، حديث ٤٠ عن أنس وفيه ذكره ، عليه السلام ، كذباته الثلاث .

(٢) الأثر رقم ١٣٤٦٢ من التفسير .

لما كان قد أُخبر بوجود مولود يكون ذهاب ملكه على يديه ، فأمر بقتل الغلمان عامئذ . فلما حملت أم إبراهيم به ، وحان وضعها ، ذهبت إلى سَرَبٍ ، ظاهرَ البلدة ، فولدت فيه إبراهيم ، وتركته هناك . وذكر أشياء من خوارق العادات ، كما ذكرها غيره من المفسرين .

ثم قال ابن كثير : والحق أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام كان في هذا المقام مناظراً لقومه ، مبيناً لهم بطلان ما كانوا عليه من عبادة الهياكل والأصنام ، فبين ، في المقام الأول مع أبيه ، خطأهم في عبادة الأصنام الأرضية ، التي هي على صورة الملائكة السماوية ليشفعوا لهم إلى الخالق العظيم الذي هم عند أنفسهم أحقر من أن يعبدوه ، وإعنا يتوسلون إليه بعبادة ملائكته ، ليشفعوا لهم عنده في الرزق ، وغير ذلك مما يحتاجون إليه . وبين في هذا المقام خطأهم وضلالهم في عبادة الهياكل ، وهي الكواكب السيارة السبعة . وأشدُّهن إضاعة وأشرفهن عندهم ، الشمس ثم القمر ثم الزهرة . فبين أولاً صلوات الله وسلامه عليه أن هذه الزهرة لا تصلح للإلهية ، فإنها مسخرة مقدرة بسير معين ، لا تزيع عنه ، ولا تملك لنفسها تصرفاً ، بل هي جرم من الأجرام ، خلقها الله منيرة ، لئلا في ذلك من الحكم العظيمة ، وهي تطلع من المشرق ، ثم تسير فيما بينه وبين المغرب ، حتى تغيب عن الأبصار فيه ، ثم تبدو في الليلة القابلة على هذا النوال . وهذه لا تصلح للإلهية . ثم بين في القمر ما بين في النجم ، ثم الشمس كذلك . فلما انتفت الإلهية عن هذه الأجرام الثلاثة ، التي هي أنور ما تقع عليه الأبصار ، وتحقق ذلك بالدليل القاطع ، تبرأ من عبادتهم وموالاتهم ، وأخبر بأنه يعبد خالقهم ومسخرهم .

ثم قال ابن كثير : وكيف يجوز أن يكون ناظراً في هذا المقام ، وهو الذي قال الله في حقه (وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ)^(١) . وقال تعالى (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً

(١) [٢١ / الأنبياء / ٥٢ و ٥١] .

قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * شَاكِرًا لِلْأَنْعَمِ ، اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١) .

وقد ثبت في الصحيحين (٢) عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال : كل مولود يولد على الفطرة .

وفي صحيح مسلم (٣) عن عياض بن حمار أن رسول الله ﷺ قال : قال الله تعالى : إني خلقت عبادي حنفاء . وقال تعالى (فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ) وقال تعالى (وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى (٤) . ومعناه ، على أحد القولين ، كقوله (فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا) . فإذا كان هذا في حق سائر الخائقة ، فكيف يكون إبراهيم الخليل

(١) [١٦ / النحل / ١٢٠ و ١٢١] .

(٢) أخرجه البخاري في : ٢٣ - كتاب الجنائز ، ٨٠ - باب إذا أسلم الصبي فمات ، هل يصلى عليه ؟ حديث ٧١٦ ونصه :
أن أبا هريرة كان يحدث قال النبي ﷺ « ما من مولود إلا يولد على الفطرة . فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه . كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء . هل تحسون فيها من جدعاء ؟ » .

ثم يقول أبو هريرة رضي الله عنه : فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ... الآية .

(٣) قطعة من حديث أخرجه مسلم في : ٥١ - كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، حديث رقم ٦٣ (طبعنا) .

وانظر نصه الكامل بالصفحة (١٥٦٩) من هذا التفسير .

(٤) [٧ / الأعراف / ١٧٢] ... شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ .

الذى جعله الله (أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) ناظرًا في هذا المقام ؟
بل هو أولى الناس بالفطرة السليمة ، والسجية المستقيمة ، بعد رسول الله ﷺ ، بلا شك
ولا ريب .

ومما يؤيد أنه كان في هذا المقام مناظرًا لقومه فيما كانوا فيه من الشرك ، لا ناظرًا ،
قوله تعالى (وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ ...) الآية الآتية . انتهى .

وممن جود هذا البحث الجليل ، ويين أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام كان مناظرًا
لقومه ، العلامة الشهرستاني في كتابه (الملل والنحل) ، ونحن نسوقه عنه تأييداً لهذا
البحث المهم ، وتعرفاً بعمق قومه ، وما دفعهم إليه ، لما فيه من القوائد .

قال رحمه الله تحت ترجمة (أصحاب الهياكل والأشخاص) : هؤلاء من فرق الصابئة
(وهم المتعصبون للروحانيين) ، وقد أدرجنا مقالهم في المناظرات جملة ، ونذكرها ههنا
تفصيلاً :

اعلم أن أصحاب الروحانيات ، لما عرفوا أن لا بد للإنسان من متوسط ، ولا بد للمتوسط
من أن يُرى فيتوجه إليه ، ويتقرب به ، ويستفاد منه ، فزعوا إلى الهياكل التي هي السيارات
السبع ، فتعرفوا أولاً بيوتها ومنازلها ، وثانياً مطالعها ومغاربها ، وثالثاً اتصالاتها على أشكال
الموافقة والمخالفة ، مرتبة على طبائعها ، ورابعاً تقسيم الأيام والليالي والساعات عليها ، وخامساً
تقدير الصور والأشخاص والأقاليم والأمصار عليها ، فعملوا الخواصم ، وتعلموا العزائم
والدعوات ، وعينوا ليوم زحل مثلاً يوم السبت ، وراعوا فيه ساعته الأولى ، وتحتموا بخاتمه
المعمول على صورته وصفته ، ولبسوا اللباس الخاص به ، وبخروا بخوره الخاص ، ودعوا
بدعواته الخاصة ، وسألوا حاجتهم منه ، الحاجة التي تستدعي من زحل من أفعاله وآثاره
الخاصة به .

وكذلك رفع الحاجة التي تختص بالمشتري في يومه وساعته ، وجميع الإضافات التي

ذكرنا ، إليه . وكذلك سائر الحاجات إلى الكواكب . وكانوا يسمونها : أرباباً آلهة ، والله تعالى هو رب الأرباب ، وإله الآلهة . ومنهم من جعل الشمس إله الآلهة ورب الأرباب ، فكانوا يتقربون إلى الهياكل ، تقرباً إلى الروحانيات - يعنى الملائكة - ويتقربون إلى الروحانيات ، تقرباً إلى البارئ تعالى ، لاعتقادهم بأن لكل روحاني هيكلاً ، ولكل هيكل فلَكاً ، فلهياكل أبدان الروحانيات ، ونسبتها إلى الروحانيات نسبة أجسادنا إلى أرواحنا فهم الأحياء الناطقون بحياة الروحانيات ، وهى أربابها ومدبراتها ، تتصرف فى أبدانها تدبيراً وتصرفاً وتحريكاً ، كما يتصرف فى أبداننا . ولا شك أن من تقرب إلى شخص فقد تقرب إلى روحه . ثم استخرجوا من عجائب الحيل المرتبة على عمل الكواكب ما كان يقضى منهم العجب . وهذه الطائفة المذكورة فى السكتب والسحر والسكھانة والتختيم والتعزيم والخواتيم والصور ، كلها من علومهم . وأما أصحاب الأشخاص فقالوا : إذا كان لابد من متوسط يتوسل به ، وشفيع يتشفع إليه ، والروحانيات وإن كانت هى الوسائل ، لكننا إذا لم نرها بالأبصار ، ولم نحاط بها بالأسن ، لم يتحقق القرب إليها إلا بهيما كلها ، ولكن الهياكل قد ترى فى وقت ، ولا ترى فى وقت ، لأن لها طوعاً وأفولاً ، وظهوراً بالليل ، وخفاء بالنهار ، فلم يَصِفْ لنا التقرب بها ، والتوجه إليها ، فلا بد لنا من صور وأشخاص موجودة قائمة منصوبة نصب أعيننا ، فنعكف عليها ، ونتوسل بها إلى الهياكل ، فنتقرب بها إلى الروحانيات ، ونتقرب بالروحانيات إلى الله تعالى ، فنعبدهم ليقربونا إلى الله زلفى ، فاتخذوا أصناماً أشخاصاً على مثال الهياكل السبعة ، كل شخص فى مقابلة هيكل ، وراعوا فى ذلك جوهر الهيكل ، أعنى الجوهر الخاص به من الحديد وغيره ، وصوروه بصورته على الهيئة التى تصدر أفعاله عنه ، وراعوا فى ذلك الزمان والوقت والساعة والدرجة والدقيقة وجميع الإضافات النجومية ، من اتصال محمود يؤثر فى نجاح الطالب التى تستدعى منه ، فتقربوا إليه فى يومه وساعته ، وتبخروا بالبخور الخاص به وتحتموا بخاتمه ، ولبسوا ثيابه ، وتضرعوا بدعائه ، وعزموا

بمزاعمه ، وسألوا حاجتهم منه ، فيقولون : كان تقضى حوائجهم بعد رعاية هذه الإضافات كلها ، وذلك هو الذى أخبر التنزيل عنهم أنهم عبدة السكواكب والأوثان . فأصحاب الهياكل هم عبدة السكواكب ، إذ قالوا بإلهيتها - كما شرحنا - وأصحاب الأشخاص هم عبدة الأوثان ، إذ سموها آلهة في مقابلة آلهة أولئك السماوية ، وقالوا : (هَوَلَاءَ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ)^(١) . وقد ناظر الخليل عليه الصلاة والسلام هذين الفريقين ، فابتدأ بكسر مذهب أصحاب الأشخاص ، وذلك قوله تعالى : (وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَاءِ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ) . وتلك الحجة أن كسرهم قولاً بقوله : (أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ) . ولما كان أبوه أزر هو أعلم القوم بعمل الأشخاص والأصنام ورعاية الإضافات النجومية فيها حق الرعاية ، ولهذا كانوا يشتركون منه الأصنام ، لا من غيره ، كان أكثر الحجج معه ، وأقوى الإلزامات عليه (إذ قَالَ لِأَبِيهِ أَأَزَّرَ أَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ) وقال : (يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا)^(٢) لأنك جهدت كل الجهد ، واستعملت كل العلم ، حتى عملت أصناماً في مقابلة الأجرام السماوية فما بلغت قوتك العلمية والعملية إلى أن تحدث فيها سمعاً وبصراً ، وأن تغني عنك ، وتضر وتنفع ، وإنك بفطرتك وخلقتك أشرف درجة منها ، ، لأنك خلقت سمياً بصيراً ضاراً نافعاً . والآثار السماوية فيك أظهر منها في هذا المتخذ تسكفاً ، والمعمول تصنعاً ، فيالها من حيرة ، إذ صار المصنوع بيدك ، معبوداً لك ، والصانع أشرف من المصنوع . (يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ) (يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ

(١) [١٠ / يونس / ١٨] ونصها : وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَوَلَاءَ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ ، قُلْ أُنذِرُكُمْ أَنَّ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ .

(٢) [١٩ / مريم / ٤٢] ونصها : إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ . . .

جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ إِلَهِي
يَا إِبْرَاهِيمُ ^(١) فَلَمْ يَقْبَلْ حُجَّتَهُ الْقَوْلِيَّةَ ، فَعَدَلَ عَلَيْهِ الصَّلَاةَ وَالسَّلَامَ إِلَى الْكُسْرِ بِالْفِعْلِ ،
فَجَعَلَهُمْ جَذَاذًا ، إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ (قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ) ^(٢) (قَالَ بَلْ
فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ) * فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ
الظَّالِمُونَ * ثُمَّ نَكِسُوا عَلَى رُؤُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ ^(٣) فَأَحْمَهُم بِالْفِعْلِ
حَيْثُ أَحَالَ الْفِعْلُ عَلَى كَبِيرِهِمْ ، كَمَا أَحْمَهُم بِالْقَوْلِ ، حَيْثُ أَحَالَ الْفِعْلُ مِنْهُمْ ، وَكُلَّ ذَلِكَ عَلَى
طَرِيقِ الْإِثْرَامِ عَلَيْهِمْ ، وَإِلَّا فَمَا كَانَ الْخَلِيلُ كَاذِبًا قَطْ . ثُمَّ عَدَلَ إِلَى كُسْرِ مَذَاهِبِ أَصْحَابِ
الْهَيْكَلِ كَمَا أَرَاهُ اللَّهُ تَعَالَى الْحُجَّةَ عَلَى قَوْمِهِ ، قَالَ (وَكَذَلِكَ نُرَى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَيْكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) فَأُطْلِعَهُ عَلَى مَلَكُوتِ الْكَوْنَيْنِ وَالْعَالَمَيْنِ
تَشْرِيفًا لَهُ عَلَى الرُّوحَانِيَّاتِ وَهِيَائِ كُلِّهَا ، وَتَرْجِيحًا لِمَذْهَبِ الْخِنْفَاءِ عَلَى مَذْهَبِ الصَّابِئَةِ ، وَتَقْرِيرًا
أَنَّ السَّكَّالَ فِي الرِّجَالِ ، فَأَقْبَلَ عَلَى إِبْطَالِ مَذْهَبِ أَصْحَابِ الْهَيْكَلِ (فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ
رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي) عَلَى مِيزَانِ إِثْرَامِهِ عَلَى أَصْحَابِ الْأَصْنَامِ (بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ
هَذَا) (وَإِلَّا فَمَا كَانَ الْخَلِيلُ كَاذِبًا فِي هَذَا الْقَوْلِ ، وَلَا مُشْرَكًا فِي تِلْكَ الْإِشَارَةِ . ثُمَّ اسْتَدَلَّ
بِالْأَفْوَلِ وَالزَّوَالِ وَالتَّغْيِيرِ وَالِاتِّعَالَ ، بِأَنَّهُ لَا يَصْلَحُ أَنْ يَكُونَ رَبًّا إِلَهًا ، فَإِنَّ إِلَهَ الْقَدِيمِ لَا
يَتَغَيَّرُ ، وَإِذَا تَغَيَّرَ فَاحْتَاجَ إِلَى مَغْيَرٍ ، وَهَذَا لَوْ اعْتَقَدْتُمُوهُ رَبًّا قَدِيمًا وَإِلَهًا أَزَلِيًّا ، وَلَوْ اعْتَقَدْتُمُوهُ
وَاسِطَةً وَقَبْلَةً وَشَفِيعًا وَوَسِيلَةً ، فَلِأَفْوَلِ وَالزَّوَالِ أَيْضًا ، يَخْرُجُهُ عَنِ السَّكَّالِ . وَعَنْ هَذَا مَا

(١) هذه هي الآيات الشريفة حسب ترتيبها وبنصها الكامل في الكتاب .

[١٩ / مريم / ٤٤-٤٦] يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ ، إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ
عَصِيًّا * يَا أَبَتِ إِنَّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا *
هَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ إِلَهِي يَا إِبْرَاهِيمُ ، لَيْنَ لَمْ تَنْتَعِرْ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا .

(٢) [٢١ / الأنبياء / ٥٩] .

(٣) [٢١ / الأنبياء / ٦٣-٦٥] .

ما استدل عليهم بالطلوع ، وإن كان الطلوع أقرب إلى الحدوث من الأفول ، فإنهم إنما انتقلوا إلى عمل الأشخاص ، لما عراهم من التحير بالأفول ، فأتاهم الخليل عليه الصلاة والسلام من حيث تحيرهم ، فاستدل عليهم بما اعترفوا بصحته . وذلك أبلغ في الاحتجاج . ثم (لَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ) . فيا عجباً ! من لا يعرف رباً كيف يقول : (لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ) ؟ رؤية الهداية من الرب تعالى غاية التوحيد ، ونهاية المعرفة ، والواصل إلى الغاية والنهاية ، كيف يكون في مدارج البداية ؟ دع هذا كله خلف قاف ، وارجع بنا إلى ما هو شاف كاف . فإن الموافقة في العبارة على طريق الإلزام على الخصم من أبلغ الحجج ، وأوضح المناهج . وعن هذا قال (فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ) لا اعتقاد القوم أن الشمس ملك الفلك ، وهو رب الأرباب الذي يقتبسون منه الأنوار ، ويقبلون منه الآثار (فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ . إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ) قرر مذهب الحنفاء ، وأبطل مذهب الصابئة ، وبين أن الفطرة هي الحنيفية ، وأن الطهارة فيها ، وأن الشهادة بالتوحيد مقصورة عليها ، وأن النجاة والخلاص متعلقة بها ، وأن الشرائع والأحكام مشاريع ومناهج إليها ، وأن الأنبياء والرسل مبعوثون لتقريرها وتقديرها ، وأن الفاتحة والخاتمة ، والمبدأ والكمال ، منوطة بتأكيدها وتحريرها . ذلك الدين القيم ، والصراط المستقيم ، والمنهج الواضح ، والمسلك اللائح . انتهى كلام الشهرستاني رحمه الله تعالى . وإنما نقلت كلامه برمته ، لأنه كما قيل :

* وما محاسن شيء كله حسن *

وقد قدم رحمه الله الكلام على أصحاب الروحانيات الصابئة ، وأتبعها بمناظرة بدیعة جرت بينهم وبين الحنفاء ، بما تفيد مراجعته فائدة كبرى . فجزاه الله خيراً .

الثاني - تبين مما ذكره الشهرستاني أن سر احتجاج الخليل عليه الصلاة والسلام بالأفول دون البروغ ، مع كون كل منهما منافيا لاستحقاق معروضه للربوبية - هو إتيانهم من حيث تحيرهم ، إلزاماً لهم بما يعترفون بصحته .

وقال أبو السعود : لما كان البروغ حالة موجبة لظهور الآثار والأحكام ، ملائمة لتوهم الاستحقاق في الجملة - عدل عنه إلى الأفول ، لأنه حالة مقتضية لانطاس الآثار ، وبطلان الأحكام المنافين للاستحقاق المذكور منافاة بينة ، يكاد يعترف بها كل مكابر عنيد . انتهى . وهو لطيف ، إلا أن الأول أسد .

الثالث - لو قيل : إن الأفول ، لما كان يمنع من استحقاق معروضه لصفة الربوبية على ما ذكرنا ، وقد ثبت ذلك في أكبر الكواكب - (أعني الشمس) - فلزم ثبوته فيما دونها بالأولى - فهلا اقتصر على أفول الشمس رعاية للإيجاز والاختصار ؟ أجيب : بأن الأخذ من الأدنى فالأدنى ، إلى الأعلى فالأعلى ، له نوع تأثير في التقرير والبيان والتأكيد ، لا يحصل من غيره ، فكان سوق الاستدلال على هذا الوجه أولى - أفاده الرازي - .

الرابع - قال الرازي : تدل هذه الآية على أن الدين يجب أن يكون مبنياً على الدليل ، لا على التقليد ، وإلا لم يكن لهذا الاستدلال فائدة البتة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٠] (وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ، قَالَ أَتُحَاجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ، وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ

إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا، وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا، أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ)

وقوله تعالى : « وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ » أي جادلوه ، وأرادوا مغالبتة بالحجة ، فيما ذهب إليه من توحيد الله ، ونفى الشركاء عنه ، تارة بأدلة فاسدة ، واقفة في حضيض التقليد ، وأخرى بالتخويف ، وقد أشير إلى جواب كل منهما . « قَالَ أَتُحَاجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ » أي : أجادلونني في توحيده ، وقد هداني لإقامة الحجج ، ورفع الشبه على نفي إلهية ما سواه ،

وقد ثبت أنها ناقصة في ذواتها ، فكالاتها من غيرها ، ولا إلهية للناقص بالذات ، لأن كماله لا يكون مطلقاً . و (تحاجوني) بإدغام نون الجمع في نون الوقاية ، وقرىء بحذف الأولى .

وقوله تعالى : « وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ » أى لا أخاف معبوداتكم ، لأنها جمادات لا تضر بنفسها ولا تنفع ، وهو جواب عما خوفوه عليه الصلاة والسلام في أثناء الحاجة من إصابة مكروه من جهة أصنامهم ، كما قال لهود عليه السلام قومه : (إِنْ تَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ)^(١) . وتخويفهم ، وإن لم يسبق له ذكر ، لكنه فهم من قوله : (وَلَا أَخَافُ) .

وقال ابن كثير : أى ومن الدليل على بطلان قولكم ؛ إن هذه المعبودات لا تؤثر شيئاً ، وأنا لا أخافها ولا أباها ، فإن كان لها كيد فكيدوني بها ولا تنتظرون . انتهى .

« إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا » أى : من إصابة مكروه بى من جهتها ، وذلك إنما هو من جهته تعالى ، من غير دخل لمعبوداتكم فيه أصلاً .

وفى (الانتصاف) : غاية خوف إبراهيم منها ، المعلق على مشيئة الله تعالى لذلك ، خوف الضرر عندها بقدره الله تعالى ، لا بها ، وكأنه فى الحقيقة لم يخف إلا من الله ، لأن الخوف الذى أثبتته منها معلق بمشيئة الله وقدرته ، وهو كلا خوف منها - والله أعلم - .

وقوله تعالى : « وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا » كأنه علة الاستثناء ، أى : أحاط بكل شيء علماً . فلا يبعد أن يكون فى علمه إزال الخوف بى من جهتها ، أى : كرمه بالنجوم . لأنه إذا أحيل شيء إلى علم الله ، أشعر بجواز وقوعه . وفى الإظهار فى موضع الإضمار ، مع التعرض لعنوان الربوبية ، إظهار منه عليه الصلاة والسلام لانتقياده لحكمه سبحانه وتعالى ، واستسلام لأمره ، واعتراف بكونه تحت ملكوته وربوبيته .

(١) [١١ / هود / ٥٤] ... قَالَ إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوكَ أَنَّ بَرِيٍّ مِمَّا تُشْرِكُونَ .

هذا ، وجعل المهيمن ذلك علة لاستدراك محذوف ، لعلمه من المقام ، حيث قال في الآية : ولا أخاف الضرر على نفسى من تأثير ما تشركون به ، إلا أن يشاء ربى أن يجعل لهم شيئاً من التأثير ، لكنه لا يشاء فى شأنى ، لأنه (وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا) فعلم أنه لو أوجد التأثير فيهم بما يضرون به من بعثه لتوحيده ، صار محجوباً . انتهى - والأول أقرب - .

« أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ » أى : تمتثلون بأن هذه المعبودات جمادات ، لا تضر ولا تنفع ، وأن النافع الضار هو الذى خلق السموات والأرض .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨١] (وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا ، فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ ، إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ)

« وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ » أى : معبوداتكم ، وهى مأمونة الخوف ، « وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ » ، أى : بإشراككم « عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا » أى : حجة . إذ الإشراك لا يصح أن يكون عليه حجة . والمعنى : وما لكم تنكرون على الأمن فى موضع الأمن ، ولا تنكرون على أنفسكم الأمن فى موضع أعظم المخوفات وأهلها . « فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ » أى : فريق الموحدين والمشركين ، « أَحَقُّ بِالْأَمْنِ » أى : من لحوق الضرر ، « إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ » أى : ما يحق أن يخاف منه . أو من أحق بالأمن أو من أولى العلم ؟

وجواب الشرط محذوف . أى : فأخبرونى .

ثم بين تعالى من له الأمن ، جواباً عما استفهم عنه الخليل عليه السلام بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٢] (الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا ءِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ)

« الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا ءِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ » أى : بشرى ، كما يفعله الفريق المشركون ،

حيث يزعمون أنهم يؤمنون بالله عز وجل، وأن عبادتهم للأصنام من تمت إيمانهم وأحكامه،
لكونها لأجل التقريب والشفاعة، كما قالوا (مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى)^(١).
وهذا معنى اللبس - أفاده أبو السعود - وسيأتي زيادة لذلك .

« أَوْلَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ » يوم القيامة « وَهُمْ مُهْتَدُونَ » أى : إلى الحق ، ومن عداهم
فى ضلال .

روى البخارى ومسلم وغيرهما عن عبد الله قال : لما نزلت (وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ)
قال أصحابه : وأينا لم يظلم نفسه ؟ فنزلت (إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ)^(٢) - هذا لفظ رواية
البخارى - .

ولفظ رواية الإمام أحمد عن عبد الله قال : لما نزلت هذه الآية (الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ
يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ) شق ذلك على الناس ، فقالوا : يا رسول الله ! فأبنا لا يظلم نفسه ؟
قال : إنه ليس الذى تعنون ، ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح (يَا بَنِيَّ لَا تَشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ
الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ) ؟ إنما هو الشرك .

أقول : هذه الرواية توضح رواية البخارى السابقة - أعنى : قول ابن مسعود : فنزلت
(إِنَّ الشِّرْكَ . . .) الخ - من جهة أن النزول أريد به تفسير الآية ، لا سبب نزولها ، وهو
اصطلاح للصحابة والتابعين دقيق ، ينبغى التنبه له . وقد أشرنا له فى المقدمة . فجدد به عهداً .
ولابن أبى حاتم عن عبد الله مرفوعاً (وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ) قال : بشرك .

(١) [٣٩ / الزمر / ٣] ونصها : أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ، وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ
دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِيمَا هُمْ
فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدَى مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ .

(٢) [٣١ / لقمان / ١٣] ونصها : وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بَنِيَّ
لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ ، إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ .

قال : وروى عن أبي بكر وعمر وأبي بن كعب وسلمان وحذيفة وابن عباس وابن عمر وعمر بن شريك وأبي عبد الرحمن السلمي ومجاهد وعكرمة والنخعي والضحاك وقتادة والسدي ، وغير واحد نحو ذلك . نقله ابن كثير . وبالجملة ، فلا يعلم مخالف من الصحابة والتابعين في تفسير (الظلم) هنا بالشرك ، وقوفاً مع الحديث الصحيح في ذلك ، المبين لانظار القرآنية الموضح بعضها لما بهم في بعض . وتعرف تلك القاعدة من مثل هذا الحديث يكشف غمة أو هام كثيرة . ولو قيل : لا يلزم من قوله : (إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ) أن غير الشرك لا يكون ظملاً ، يجاب : بأن التنوين في (بظلم) للمتعمين ، فكأنه قيل : لم يلبسوا إيمانهم بظلم عظيم . ولما تبين أن الشرك ظلم عظيم علم أن المراد : لم يلبسوا إيمانهم بشرك ، أو أن المتبادر من المطلق أكل أفراد - كذا في العناية - .

قال الرازي : والدليل على أن هذا هو المراد ، أن هذه القصة من أولها إلى آخرها إنما وردت في نفي الشركاء والأضداد والأنداد ، وليس فيها ذكر الطاعات والعبادات ، فوجب حمل الظلم ههنا على ذلك .

تنبيه :

حيث علم أن الصادق المصدوق عليه السلام فسر الآية بما تقدم ، فليعض عليه بالنواجذ . وأما ما هذى به الزمخشري من قوله في تفسير الآية : أي لم يخلطوا إيمانهم بمعضية تفسقهم ، وأبى تفسير الظلم بالكفر ، لفظ (اللبس) أي : لأن لبس الإيمان بالشرك أي : خلطه به ، مما لا يتصور ، لأنهما ضدان لا يجتمعان - على زعمه - مدفوع بأنه يلبسه . لأنه إن أريد بالإيمان مطلق التصديق ، سواء كان باللسان أو غيره ، فظاهر أنه يجامع الشرك كالمنافق . وكذا إن أريد تصديق القلب ، لجواز أن يصدق بوجود الصانع ، دون وحدانيته ، لما في قوله تعالى : (وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ) ^(١) وهو ما أشير إليه قبل .

(١) [١٢ / يوسف / ١٠٦] .

ولو أريد التصديق بجميع ما يجب التصديق به بحيث يخرج عن الكفر ، فلا يلزم من لبس الإيمان بالشرك الجمع بينهما ، بحيث يصدق عليه أنه مؤمن ومشرک ، بل تغطيته بالكفر ، وجعله مغلوباً مضمحلّاً ، أو اتصافه بالإيمان ، ثم الكفر ، ثم الإيمان ثم الكفر مراراً . وبعد تسليم ما ذكر ، فاختصاص الأمن بغير العصاة لا يوجب كون العصاة معذنين البتة ، بل خائفين ذلك ، متوقعين للاحتمال ، ورجحان جانب الوقوع - كذا في (شرح الكشاف) .

وفي (الانتصاف) : إنما يروم الزخشرى بذلك تنزيله على معتقده ، في وجوب وعيد العصاة ، وأنهم لاحظ لهم في الأمن كالكفار . ويجعل هذه الآية تقتضى تخصيص الأمن بالجامعين بين الأمرين : الإيمان والبراءة من المعاصي . ونحن نسلم ذلك ، ولا يلزم أن يكون الخوف اللاحق للعصاة ، هو الخوف اللاحق للكفار ، لأن العصاة من المؤمنين إنما يخافون العذاب المؤقت ، وهم آمنون من الخلود . وأما الكفار فغير آمنين بوجه ما . انتهى .

وأما قول المعتزلة : حديث عبد الله المتقدم - إن صح - يكون خبراً واحداً ، في مقابلة الدليل القطعى ، ومثله لا يعمل به - فالجواب : بأنه صح بلا ريب ، لتخريج الشيخين له .
* وإذا جاء نهر الله ، بطل نهر معقل ^(١) *

وقولهم : في مقابلة الدليل القطعى ، بهتان عظيم . وبالله العجب من هؤلاء ، قابلوا السنة الصحيحة بكناسة الرأى ، ولم يستحيوا من الله تعالى ورسوله في هذه المخالفة ، فأين تذهب

(١) قال ياقوت في معجم البلدان : نهر معقل منسوب إلى معقل بن يسار بن عبد الله ابن معبر . . . ، صحب النبي ﷺ .

وهو نهر معروف بالبصرة ، فه عند فم نهر الإجانة .
ذكر الواقدي أن عمر أمر أبا موسى الأشعري أن يحفر نهراً بالبصرة ، وأن يُجرى على يد معقل بن يسار المزني ، فنسب إليه .

به عقولهم ؟ إلى الحق أم إلى الباطل ؟ ولكن كما قال ابن سَهْل^(١) :
* فَمَا أَضِيعَ الْبِرْهَانَ عِنْدَ الْمُقْلَدِ *

هذا ، وقد روى ابن مردويه عن سعيد بن جبیر عن ابن عباس قال : كنا مع رسول الله ﷺ في مسير ساره ، إذ عرض له أعرابي فقال : يا رسول الله ! والذي بعثك بالحق ! لقد خرجت من بلادى وتلادى ومالى ، لأهتدى بهداك ، وآخذ من قولك ، وما بلغتك حتى مالى طعام إلا من خضر الأرض ، فأعرض على . فعرض عليه رسول الله ﷺ فقبل . فازدحمنا حوله ، فدخل خفّ بَسْكَرِهِ في بيت جردان ، فتردى الأعرابي ، فأنكسرت عنقه ، فقال رسول الله ﷺ : صدق ! والذي بعثني بالحق ! لقد خرج من بلاده وتلاده وماله ليتهدى بهداى ، ويأخذ من قولى ، وما بلغتني حتى مآله من طعام إلا من خضر الأرض . أستمع بالذى عمل قليلاً وأجر كثيراً ؟ هذا منهم ! أستمع بـ (الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ) ؟ فإن هذا منهم .
وفي لفظ قال : هذا عمل قليلاً وأجر كثيراً .

وروى نحوه الإمام أحمد^(٢) عن جرير بن عبد الله مطولاً ، وفيه بيان قوله : فأعرض على ، ولفظه : ما الإيمان ؟ قال : تشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت . قال : قد أقررت .

(١) عجز مطلع قصيدة له وصدره :

* أَقْلَدَ وَجْدِي ، فَلْيَبْرَهْنْ مَفْنَدِي *

(٢) أخرجه في المسند بالصفحة ٣٥٩ من الجزء الرابع (طبعه الحلبي) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٣] (وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ ، نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَاءٍ ، إِنَّ

رَبِّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ)

وقوله تعالى « وَتِلْكَ » أى : الدلائل المشار إليها فى قوله (اَتَّخِذُوا صُنَامًا ءَالِهَةً)
إلى ههنا « حُجَّتُنَا » أى : التى لا يمكن نقضها « آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ » أى : أرشدناه إليها ،
وعلمناه إياها ، بلا واسطة معلّم « عَلَىٰ قَوْمِهِ » متعلق بـ (حُجَّتُنَا) إن جعل خبر (تِلْكَ) ،
وبمحذوف إن جعل بدله ، أى : آتيناه حجة ودليلا على قومه الكافرين ، ليغلب وحده .
« نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَاءٍ » يعنى : فى العلم والحكمة ، وقرئ بالتنوين . « إِنَّ رَبَّكَ
حَكِيمٌ عَلِيمٌ » فى رفعه وخفضه ، « عَلِيمٌ » بحال من يرفعه واستعداد له .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٤] (وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ، كُلًّا هَدَيْنَا ، وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِنْ

ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ ، وَكَذَٰلِكَ

نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ)

[٨٥] (وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِيلَاسَ ، كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ)

[٨٦] (وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ، وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ)

« وَوَهَبْنَا لَهُ » أى : لإبراهيم عوضاً عن قومه ، لما اعتزلهم وما يعبدون ، « إِسْحَاقَ
وَيَعْقُوبَ » أى ولدا ، وولد ولد ، لثقر عينه ببقاء العقب « كُلًّا هَدَيْنَا » أى : كلامهم مهاديناه
المهداة الكبرى ، بلحقوقهما بدرجة أبيهما فى النبوة ، كما قال تعالى : فَلَمَّا اعْتَرَاهُمُ وِمَا
يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ، وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا^(١) .

قال ابن كثير : يذكر تعالى أنه وهب لإبراهيم إسحاق ، وذلك بعد أن طعن في السن ، وأيس وأمراته سارة ، من الولد ، فجاءته الملائكة وهم ذاهبون إلى قوم لوط ، فبشروها بإسحاق ، فتمجبت المرأة من ذلك : قَالَتْ يَا وَيْلَتَا أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا ، إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ^(١) * قَالُوا أَنعَجِبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ، رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ ، إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ^(٢) فبشروها فتمجبت ، وبشروها مع وجوده بنبوته ، وبأن له نسلا وعقبا ، كما قال تعالى : وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ^(٣) . وهذا أكل في البشارة ، وأعظم في النعمة . وقال : فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ^(٤) . أى : ويولد لهذا المولود ولدٌ في حياتكما ، فتقر أعينكما به ، كما قررت بوالده ، وإن الفرح بولد الولد شديد ، لبقاء النسل والعقب . ولما كان ولد الشيخ والشيخة قد يتوهم أنه لا يعقب لضعفه ، وقعت البشارة به ، ويولد اسمه يعقوب ، الذى فيه اشتقاق العقب والذرية ، وكانت هذه المجازاة لإبراهيم عليه السلام حين اعتزل قومه وتركهم ، ونزع عنهم ، وهاجر من بلادهم ، ذاهبا إلى عبادة الله في الأرض ، فعوضه الله عز وجل عن قومه وعشيرته بأولاد صالحين ، من صلبه ، على دينه ، لتقر بهم عينه ، كما قال تعالى : فَلَمَّا غَشَّى لَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ ... الآية ^(٥) . « وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ » أى : من قبله ، هديناه كما هديناه . وعدّه هداه نعمة على إبراهيم ، من حيث إنه أبوه ، وشرف الوالد يتعدى إلى الولد .

(١) [١١ / هود / ٧٢] .

(٢) [١١ / هود / ٧٣] .

(٣) [٣٧ / الصافات / ١١٢] .

(٤) [١١ / هود / ٧١] ونصها : وَأَمْرَانَهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ ...

(٥) [١٩ / مريم / ٤٩] ونصها : ... مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ،

وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا .

قال ابن كثير : كل منهما له خصوصية عظيمة . أما نوح عليه السلام فإن الله تعالى لما أغرق أهل الأرض ، إلا من آمن به ، وهم الذين صلبوه في السفينة ، جعل الله ذريته هم الباقين ، فالناس كلهم من ذريته . وأما الخليل إبراهيم عليه السلام ، فلم يبعث الله عز وجل بعده نبياً إلا من ذريته ، كما قال تعالى : وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ ^(١) ... الآية . وقال تعالى : وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ ^(٢) . وقال تعالى : أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا ، إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ^(٣) .

وقوله تعالى : « وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ » الضمير لإبراهيم أو لنوح ، على ما يأتي ، « دَاوُدَ » عطف على « نُوحًا » أي : وهدينا داود ، وَسَلِّمَانَ وَآيُوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ .

وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ .

وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَهُنَسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ .

اعلم أن المقصود من هذه الآيات ، وما قبلها ، وما يلحقها ، تعديد أنواع نعم الله تعالى على إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، جزاء اعتزاله قومه وما يعبدون ، وقيامه بنصرة التوحيد ، ودحض الشرك . فذكر تعالى أولاً رفع درجته ، بإتيانه الحجة على قومه ، وتخصيصه بها ، ثم جعله عزيزاً في الدنيا ، حسباً ونسباً ، أصلاً وفرعاً ، لأنه تولد من نوح أول المرسلين

(١) [٢٩ / العنكبوت / ٢٧] وانصها : وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا

فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا ، وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لِمِنَ الصَّالِحِينَ .

(٢) [٥٧ / الحديد / ٢٦] ... فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ ، وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ .

(٣) [١٩ / مريم / ٥٨] .

رسالة عامة ، ووهبت له الذرية الطاهرة ، أنبياء البشر . ولذا ذهب الأكثرون إلى أن الضمير في (وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ) لإبراهيم ، لأن مساق النظم لبيان شؤونه العظيمة ، كأنه قيل : ولم نزل نرفع درجاته بعد ذلك إذ هدينا من ذريته داود . . . الخ ، فهو المقصود بالذكر في هذه الآيات . وذكر نوح عليه السلام ، لأن كون إبراهيم من أولاده أحد موجبات رفعتة كما تقدم . والغاية هي إلزام من ينتمى إليه من المشركين .

ولا يقال : إن لوطاً ليس من ذرية إبراهيم لأنه ابن أخيه ، لأنه يقال : إن العرب تجعل العمّ أباً ، كما أخبر تعالى عن أبناء يعقوب أنهم قالوا : نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ^(١) ، مع أن إسماعيل عم يعقوب ، ودخل في آباءه تغليباً .

وقال محي السنة رحمه الله تعالى : (وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ) أى : ذرية نوح ﷺ ، ولم يرد من ذرية إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، لأنه ذكر في جملتهم يونس ﷺ ، وكان من الأسباط ، في زمن شعيباء ، أرسله الله تعالى إلى أهل نينوى من الموصل .

وقال : إن لوطاً عليه السلام كان ابن أخى إبراهيم عليه السلام ، آمن بإبراهيم ، وشخص معه مهاجراً إلى الشام ، فأرسله الله إلى أهل سدوم .

ومن قال : الضمير لإبراهيم ﷺ ، بقدر : ومن ذرية إبراهيم وداود وسليمان هدينا . لأن إبراهيم هو المقصود بالذكر . وذكر نوح لتعظيم إبراهيم . ولذلك ختم بيونس ولوط ، وجعلهما معطوفين على (نُوحًا هَدَيْنَا) من عطف الجملة على الجملة . وصاحب (الكشف) أخرج (إلياس) ﷺ . وليس كذلك . لما في (جامع الأصول) عن الكسائي ، أنهما من ذريته . فبق لوط خارجاً . ولما كان ابن أخيه آمن به ، وهاجر معه ، أمكن أن يجعل من ذريته على سبيل التغليب - كما ذكره الطيبي - .

(١) [٢ / البقرة / ١٣٣] ونصها : أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهُهَا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ .

وبالجملة ، فالآية المذكورة من المنن على إبراهيم على كلا الوجهين ، لأن شرف الذرية ، وشرف الأقارب شرف ، لسكنه على الأول أظهر ، ويكون تطرية في مدح إبراهيم ﷺ بالعود إليه مرة بعد أخرى .

تنبيهات :

الأول - قال الحافظ ابن كثير : في ذكر عيسى عليه السلام ، في ذرية إبراهيم أو نوح (على القول الآخر) دلالة على دخول ولد البنات في ذرية الرجل ، لأن انتساب عيسى ليس إلا من جهة أمه مريم عليهما السلام . وقد روى ابن أبي حاتم أن الحجاج أرسل إلى يحيى بن عمار فقال : بلغني أنك تزعم أن الحسن والحسين من ذرية النبي ﷺ ، تجده في كتاب الله وقد قرأته من أوله إلى آخره فلم أجده ! قال : أليس تقرأ سورة الأنعام (وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ . . . حتى بلغ : وَيَحْيَىٰ وَعِيسَى) قال : بلى ! قال : أليس من ذرية إبراهيم ، وليس له أب ؟ قال : صدقت ! فلهذا إذا أوصى الرجل لذريته ، أو وقف على ذريته ، أو وهبهم دخل أولاد البنات فيهم . فأما إذا أعطى الرجل بنيه ، أو وقف عليهم ، فإنه يختص بذلك بنوه لصلبه ، وبنو بنيه ، واحتجوا بقول الشاعر :

بنونا بنو أبنائنا . وبنائنا بنوهن أبناء الرجال الأبعد

وقال آخرون : ويدخل بنو البنات فيهم ، لما ثبت في صحيح البخاري^(١) أن رسول الله ﷺ

(١) أخرجه البخاري في ٩٢ - كتاب الفتن ، ٢٠ - باب قول النبي ﷺ للحسن بن علي :

إن ابني هذا سيد ، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين من المسلمين ، حديث ١٣٠٧ ونصه : حدثنا الحسن قال : لما سار الحسن بن علي رضي الله عنهما إلى معاوية بالكتائب ، قال عمرو بن العاص لمعاوية : أرى كتيبة لا تؤلى حتى تدبر أحرها . قال معاوية : من لذرائي المسلمين ؟ قال الحسن : ولقد سمعت أبا هريرة قال : بينا النبي صلى الله عليه وسلم يخطب جاء الحسن . فقال النبي صلى الله عليه وسلم «ابني هذا سيد ، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين من المسلمين» .

قال للحسن بن عليّ : إن ابني هذا سيّد ، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين . فسماه (ابنًا) فدل على دخوله في الأبناء . وقال آخرون : هذا تجوّز . انتهى .
وفي (العناية) : أورد على الاستدلال بتناول الذرية أولاد البنت من هذه الآية ، بأن عيسى عليه السلام ليس له أب ، يصرف إضافته إلى الأم إلى نفسه ، فلا يظهر قياس غيره عليه . والمسألة مختلف فيها ، والقائل بها استدل بهذه الآية ، وآية المباهلة ، حيث دعا ﷺ الحسن والحسين رضي الله عنهما بعدما نزل : نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ^(١) . إن لم نقل إنه من خصائصه صلى الله عليه وسلم . انتهى .

الثاني - إنما لم يذكر إسماعيل عليه السلام مع إسحاق ، بل أخر ذكره عنه ، لأن المقصود بالذكر ههنا أنبياء بني إسرائيل ، وهم بأسرهم أولاد إسحاق ويعقوب ، وأما إسماعيل فلم يخرج من صلبه من الأنبياء إلا خاتمهم وأفضلهم ﷺ . ولا يقتضى المقام ذكره ﷺ لأنه أمر أن يحتج على العرب في نفي الشرك بأن إبراهيم لما ترك قومه وما يعبدون ، إلى عبادة الله وحده ، رزقه الله النعم العظيمة في الدين والدنيا ، ومنها إيتاؤه أولادا أنبياء . فإذا كان المحتج بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلا يُذكر في هذا المعرض . ولهذا السبب لم يذكر إسماعيل مع إسحاق - أفاده الرازي - .

الثالث - اعلم أنه تعالى ذكر هنا ثمانية عشر نبيًا من الأنبياء عليهم السلام من غير ترتيب ، لا بحسب الزمان ؛ ولا بحسب الفضل ، لأن الواو لا تقتضى الترتيب . ولكن هنا لطيفة في هذا الترتيب ، وهي أن الله تعالى خص كل طائفة من طوائف الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بنوع من الكرامة والفضل ، فذكر أولا نوحا وإبراهيم وإسحاق ويعقوب لأنهم أصول

(١) [٣ / آل عمران / ٦١] ونصها : فَمَنْ حَاجَبَكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ .

الأنبياء ، وإليهم ترجع أنسابهم جميعا . ثم من المراتب المعتبرة ، بعد النبوة ، الملك والقدرة والسلطان . وقد أعطى الله داود وسليمان من ذلك حظاً وافراً . ومن المراتب الصبر عند نزول البلاء والحن والشدائد ، وقد خص الله بهذه أيوب عليه السلام . ثم عطف على هاتين المرتبتين من جمع بينهما ، وهو يوسف عليه السلام ، فإنه صبر على البلاء والشدة إلى أن آتاه الله ملك مصر مع النبوة . ثم من المراتب المعتبرة في تفضيل الأنبياء عليهم السلام كثرة المعجزات ، وقوة البراهين ، وقد خص الله موسى وهرون من ذلك بالحظ الوافر . ثم من المراتب المعتبرة الزهد في الدنيا ، والإعراض عنها ، وقد خص الله بذلك زكريا ويحيى وعيسى وإلياس عليهم السلام ، ولهذا السبب وصفهم بأنهم من الصالحين . ثم ذكر الله من بعد هؤلاء الأنبياء ، من لم يبق له أتباع ولا شريعة ، وهم إسماعيل واليسع ويونس ولوط . فإذا اعتبرنا هذه اللطيفة على هذا الوجه ، كان هذا الترتيب من أحسن شيء يذكر ، والله أعلم بمراده ، وأسرار كتابه - أفاده الخازن وأصله للرازي - .

الرابع - استدل بقوله تعالى (وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ) من يرى أن الأنبياء أفضل من الملائكة . لأن العالم اسم لكل موجود سوى الله تعالى ، فيدخل فيه الملك .

الخامس - نكتة ذكر (الهداية) في قوله تعالى (كُلًّا هَدَيْنَا) هو تعدد النعم على إبراهيم صلى الله عليه وسلم بشرف الأصول والفروع - كما أسلفنا - والولد لا يُعدّ نعمة ما لم يكن مهدياً .

السادس - قال السيوطي في (الإكليل) : استدل بقوله تعالى (كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا) من أنكر إفادة التقديم الحصر .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٧] (وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ، وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

« وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ » عطف على (كُلًّا) أو (نُوحًا) أى : كلا منهم فضلنا ، وفضلنا بعض آبائهم ، أو هدينا من آبائهم ومن معهم للدين الخالص جماعات كثيرة ، فالفعول محذوف . « وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » أى : فى الاعتقادات والأخلاق والأعمال ، فجعلت لهم هذه الفضائل أيضاً ، ولحق إبراهيم ، فازداد ارتفاع درجاته .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٨] (ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

« ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ » إشارة إلى ما دانوا به ، « يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا » أى : هؤلاء مع عظمتهم « لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » من الأعمال المرضية . فكيف بمن عداهم ؟

قال ابن كثير: فيه تشديد لأمر الشرك ، وتعليظ لشأنه ، وتعظيم للملاسته ، كقوله تعالى : وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَجْبُطَنَّ عَمَلُكَ . . . الآية (١) وهذا شرط ، والشرط لا يقتضى جواز الوقوع ، كقوله : قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ (٢) . وكقوله : لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهُمْ لَآ نَتَّخِذُهُمْ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا

(١) [٣٩ / الزمر / ٦٥] ... وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ .

(٢) [٤٣ / الزخرف / ٨١] .

فَاعْلَيْنَ^(١) . وكقوله : لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْتُلِقُ مَا يَشَاءُ ، سُبْحَانَهُ ، هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ^(٢) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٩] (أُولَئِكَ الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنَّبُوءَةَ ، فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ)

« أُولَئِكَ » إشارة إلى المذكورين من الأنبياء الثمانية عشر ، والمعطوفين عليهم ، باعتبار اتصافهم بما ذكر من الهداية وغيرها . « الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ » أى : جنس الكتاب المتحقق فى ضمن أى فرد كان من أفراد الكتب السماوية . والمراد بـ (إيتائه) اتفهم التام بما فيه من الحقائق . والتمسكين من الإحاطة بالجلال والدقائق ، أعم من أن يكون ذلك بالإزال ابتداءً ، أو بالإيراث بقاءً . فإن المذكورين لم ينزل على كل واحد منهم كتاب معين - أفاده أبو السعود - .

« وَالْحُكْمَ » أى : الحكمة ، أو فصل الأمر على ما يقتضيه الحق والصواب ، « وَالنَّبُوءَةَ » قال البيضاوى وأبو السعود : أى الرسالة . قال الخفاجى : النبوة وإن كانت أعم ، إلا أن المراد بها ما يشمل الرسالة ، لأن المذكورين رسل . انتهى .

« فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا » أى : بهذه الثلاثة ، « هَؤُلَاءِ » يعنى : قريشاً ، فإنهم بكفركم برسول الله صلى الله عليه وسلم وما أنزل عليه من القرآن ، كفرون بما يصدقه جميعاً ، « فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا » أى : وفقنا للإيمان بها ، « قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ » وهم الأنبياء عليهم السلام ، المذكورون وأتباعهم . وأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم - وهو الأظهر - فى مقابلة

(١) [٢١ / الأنبياء / ١٧] .

(٢) [٣٩ / الزمر / ٤] .

كفار قريش . أى : فإن فى إيمانهم غنية عن إيمان الكفرة بها . وفى التكنية عن توفيقهم للإيمان بها ، بالتوكيل الذى أصله الحفظ للشيء ، ومراعاته - إيدان بفخامتها وعلوها ، وأنه مما ينبغى أن يقدر قدرها قياماً بحق الوكالة ، وعهد الاستحفاظ .

قال الرازى : دلت هذه الآية على أنه تعالى سينصر نبيه ، ويقوى دينه ، ويجعله مستعلماً على كل من عاداه ، قاهراً لكل من نازعه . وقد وقع هذا الذى أخبر الله تعالى عنه فى هذا الموضع . فكان جارياً مجرى الإخبار عن الغيب ، فيكون معجزاً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٠] (أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ، فَبِهْدَاهُمُ اقْتَدِهْ ، قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ، إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ)

« أُولَئِكَ » إشارة إلى الأنبياء المذكورين « الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ » أى : إلى الصراط المستقيم « فَبِهْدَاهُمُ اقْتَدِهْ » أى : بطريقهم فى الإيمان بالله وتوحيده ، والأخلاق الحميدة ، والأفعال المرضية ، والصفات الرفيعة ، اعمل .

تنبيهات

الأول - استدل بهذه الآية من قال : إن شرع من قبلنا شرع لنا ، ما لم يرد ناسخ .

الثانى - استدل بها ابن عباس رضى الله عنه على استحباب السجدة فى (ص) ، لأن داود عليه السلام سجدها ، رواه البخارى وغيره - ولفظ البخارى ^(١) : عن العوام ، قال : سألت مجاهداً عن سجدة (ص) ، فقال : سألت ابن عباس : من أين سجدت ؟ فقال : أو ماتقرأ (وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ ... أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهْدَاهُمُ اقْتَدِهْ) فكان داود

(١) أخرجه البخارى فى : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٣٨ - سورة ص ، ١ - حدثنا محمد

ابن بشار .

مَنْ أَمَرَ نَبِيَّكُمْ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَقْتَدِيَ بِهِ ، فَسَجَدَ دَاوُدُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَسَجَدَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ .

الثالث - قال الرازي : احتج العلماء بهذه الآية على أن رسولنا صلى الله عليه وسلم أفضل من جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . وتقريره : أنا بيننا أن خصال الكمال ، وصفة الشرف ، كانت مفرقة فيهم بأجمعهم ، فداود وسليمان كانا من أصحاب الشكر على النعمة ، وأيوب كان من أصحاب الصبر على البلاء ، ويوسف كان مستجماً لهاتين الحالتين ، وموسى عليه السلام كان صاحب الشربة القوية القاهرة ، والمعجزات الظاهرة ، وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس كانوا أصحاب الزهد ، وإسماعيل كان صاحب الصدق ، ويونس كان صاحب التضرع ، فثبت أنه تعالى إنما ذكر كل واحد من هؤلاء الأنبياء ، لأن الغالب عليه خصلة معينة من خصال المدح والشرف . ثم إنه تعالى لما ذكر الكل ، أمر نبينا ﷺ بأن يقتدى بهم بأسرهم ، فكأنه أمر بأن يجمع من خصال العبودية والطاعة كل الصفات التي كانت مفرقة فيهم بأجمعهم ، وهو معصوم عن مخالفة ما أمر به ، فثبت أنه اجتمع فيه جميع ما تفرق فيهم من الكمال ، وثبت أنه أفضلهم . وهو استنباط حسن .

الرابع - « اقْتَدِهِ » يُقْرَأُ بِسُكُونِ الْهَاءِ وَإِثْبَاتِهَا فِي الْوَقْفِ دُونَ الْوَصْلِ ، وَهِيَ عَلَى هَذَا هَاءُ السَّكْتِ . وَمِنْهُمْ مَنْ يَثْبِتُهَا فِي الْوَصْلِ أَيْضًا لِشَبْهِهَا بِهَاءِ الْإِضْمَارِ . وَمِنْهُمْ مَنْ يَكْسِرُهَا فِيهِ وَجْهَانِ : أَحَدُهُمَا هِيَ هَاءُ السَّكْتِ أَيْضًا ، شَبِهُتْ بِهَاءِ الضَّمِيرِ ، وَلَيْسَ بِشَيْءٍ . وَالثَّانِي هِيَ هَاءُ الضَّمِيرِ وَالْمُضْمَرِ الْمَصْدَرُ أَيْ : اقْتَدِ الْاِقْتِدَاءَ . وَمِثْلُهُ ^(١) :

هَذَا سُرَاقَةُ الْقُرْآنِ يَدْرُسُهُ وَالْمَرْءُ عِنْدَ ارْتِشَاءٍ ، إِنْ يَلْقَاهَا ذِيبٌ

(١) قال صاحب الخزانة (ج ٢ ص ٢ ، طبعة السلفية) ما نصه :

هو من شواهد سيبويه .

على أن الضمير في (يدرسه) راجع إلى مضمون يدرس . أي يدرس الدرس فيكون =

(فالحاء) ضمير (الدرس) لا مفعول ، لأن (يدرس) قد تعدى إلى (القرآن) . وقيل : مَنْ سَكَنَ الهاء جعلها هاء الضمير ، وأجرى الوصل مجرى الوقف - أفاده أبو البقاء - .
وأما قول الواحدى : الذين أثبتوا الهاء راموا موافقة المصحف ، فإن الهاء ثابتة في الخط ، فكروها مخالفة الخط في حالتى الوقف والوصل ، فأثبتوا - فقد قال الخفاجى :
إنه مما لا ينبغى ذكره ، لأنه يقتضى أن القراءة بغير نقل تقليدا للخط ، فمن قاله فقد وهم .
« قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا » أى : على القرآن أو التبليغ ، فإن مساق الكلام يدل عليهما ، وإن لم يجر ذكرهما ، « إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ » أى : عظة وتذكير لهم ليرشدوا من العمى إلى الهدى .

تنبيهان :

الأول - فيه دليل على أنه صلى الله عليه وسلم كان مبعوثا إلى جميع الخلق ، من الجن والإنس . وأن دعوته قد عمت جميع الخلائق .
الثانى - قال الخفاجى : قيل : الآية تدل على أنه يحل أخذ الأجر للتعليم وتبليغ الأحكام . قال : وللفقهاء فيه كلام . انتهى .

= راجعاً للمصدر المدلول عليه بالفعل . وإنما لم يجز عوده للقرآن ، لثلا يلزم تعدى العامل إلى الضمير وظاهره معاً .
واستشهد به أبو حيان فى (شرح التسهيل) على أن ضمير المصدر قد يجىء مراداً به التأكيد ، وأن ذلك لا يختص بالمصدر الظاهر على الصحيح .
وأورده سيبويه على أن تقديره عنده : والمرء عند الرشا ذئبٌ إن يلقها .
وتقديره عند المبرد : إن يلقها فهو ذئب .
وهذا من أبيات سيبويه الخمسين التى لم يقف على قائلها أحد .
قال الأعمى : هجا هذا الشاعر رجلا من القراء ، نسب إليه الرياء وقبول الرشا والحرص عليها .

وعكس بعض مفسرى الزيدية حيث قال : فى هذا إشارة إلى أنه لا يجوز أخذ الأجرة على تعليم العلوم ، لأن ذلك جرى مجرى تبليغ الرسالة . انتهى .

أقول : إن الآية دلت على نفي سؤاله صلى الله عليه وسلم منهم أجراً ، كى لا يثقل عليهم الامتثال . وأما استفادة الحلال والتحرير منها ، ففيه خفاء . والقائل بالأول يقول : المعنى لأسألكم جملاً تعففاً . أى : وإن حلّ لى أخذه . وبالثانى : لا أسألكم عليه أجراً لأنى حظرت من ذلك .

قال ابن القيم : أما الهدية للمفتى ، ففيها تفصيل : فإن كانت بغير سبب الفتوى ، كمن عادته يهاديه أو من لا يعرف أنه مُفتٍ ، فلا بأس بقبولها ، والأولى أن يكافأ عليها . وإن كانت بسبب الفتوى ، فإن كانت سبباً إلى أن يفتيه بما لا يفتى به غيره ممن لا يهدى له ، لم يجوز له قبول هديته . لأنها تشبه المعاوضة على الإفتاء . وأما أخذ الرزق من بيت المال ، فإن كان محتاجاً إليه ، جاز له ذلك . وإن كان غنياً عنه ، ففيه وجهان : وهذا فرع متردد بين عامل الزكاة ، وعامل اليتيم . فمن ألحقه بعامل الزكاة قال : النفع فيه عام ، فله الأخذ . ومن ألحقه بعامل اليتيم منعه من الأخذ . وحكم القاضى فى ذلك حكم المفتى ، بل القاضى أولى بالمنع . وأما أخذ الأجرة فلا يجوز ، لأن الفتيا منصب تبليغ عن الله ورسوله ، فلا يجوز المعاوضة عليه ، كما لو قال : لا أعلمك الإسلام والوضوء والصلاة إلا بأجرة . أو سئل عن حلال أو حرام ؟ فقال للسائل : لا أجيبك عنه إلا بأجرة ، فهذا حرام قطعاً ، ويلزمه ردّ العوض ، ولا يملكه . انتهى .

وفى حديث عبد الرحمن بن شبل عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : اقرؤوا القرآن ، ولا تَقُولُوا فيه ، ولا تجفوا عنه ، ولا تأكلوا به ، ولا تستكثروا به - أخرجه الإمام أحمد^(١) رجال الصحيح . وأخرجه أيضاً البزار وله شواهد .

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٤٢٨ من الجزء الثالث (طبعة الحلبي) .

وأخرج أحمد^(١) والترمذي - وحسنه - عن عمران بن حصين أن النبي ﷺ قال : من قرأ القرآن فليسأل الله تبارك وتعالى به ، فإنه سيجىء قوم يقرؤون القرآن يسألون الناس به .

وأخرج ابن ماجه^(٢) والبيهقي عن أبي بن كعب قال : علّمت رجلاً القرآن ، فأهدى لي قوساً ، فذكرت ذلك للنبي ﷺ فقال : إن أخذتها أخذت قوساً من نار . وهناك أحاديث أخر ، ومنها استدلل على حظر أخذ الأجرة على التعليم . وأما أخذ الأجرة على التلاوة ، ففي الصحيحين^(٣) عن عبدالله بن مسعود في قصة اللديغ من قوله ﷺ : إن أحق ما أخذتم عليه أجرًا ، كتاب الله ، أصبتم اقتسموا ، واضربوا لي معكم سهمًا .

(١) أخرجه في المسند بالصفحة رقم ٤٣٢ من الجزء الرابع (طبعة الحلبي) .

(٢) أخرجه ابن ماجه في : ١٢ - كتاب التجارات ، ٨ - باب الأجر على تعليم القرآن ، حديث رقم ٢١٥٨ (طبعتنا) .

(٣) هذا الحديث ليس عن عبد الله بن مسعود وإنما هو عن عبد الله بن عباس . وليس في الصحيحين بل هو من الأحاديث التي انفرد بها البخاري عن مسلم .

أخرجه البخاري في : ٧٦ - كتاب الطب ، ٣٤ - باب الشرط في الرقية بقطيع من الغنم ، حديث رقم ٢٢٦٠ ونصه :

عن ابن عباس أن نفرًا من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم صرّوا بماء فيهم لديغ (أو سليم) فعرض لهم رجل من أهل الماء . فقال : هل لديكم من راقٍ ؟ إن في الماء رجلاً لديغا (أو سليما) .

فانطلق رجل منهم فقرأ بفاتحة الكتاب على شاء . فبرأ .

فجاء بالشاء إلى أصحابه فكرهوا ذلك ، وقالوا : أخذت على كتاب الله أجرًا ؟!

قال العلامة الشوكانيّ: حديث (أحق ما أخذتم عليه أجرًا) عالمٌ يصدق على التعليم ، وأخذ الأجرة على التلاوة لمن طلب من القارئ ذلك ، وأخذ الأجرة على الرقية ، وأخذ ما يدفع إلى القارئ من العطاء ، لأجل كونه قارئًا ، ونحو ذلك . فيخص من هذا العموم تعليم المكلف ، ويبقى ما عداه داخلًا تحت العموم . وبعض أفراد العامّ فيه ، أدلة خاصة تدل على جوازه ، كما دل العامّ على ذلك . فمن تلك الأفراد أخذ الأجرة على الرقية ، وتعليم المرأة في مقابلة مهرها . قال : هكذا ينبغي تحرير الكلام في المقام ، والمصير إلى الترجيح من ضيق العطن . أى : لأنه يصار إليه عند تعذر الجمع ، وقد أمكن ، فكان الأحق - والله الموفق - . ولما بين تعالى شأن القرآن العظيم ، وأنه نعمة كبرى على العالمين ، تأثّر به بيان كفرهم بذلك ، على وجه سرى إلى الكفر بجميع الكتب المنزلة ، فقال سبحانه :

== حتى قدموا المدينة فقالوا : يا رسول الله ! أخذ على كتاب الله أجرًا !!
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن أحق ما أخذتم عليه أجرًا ، كتاب الله » .
أما الحديث الذى فيه (اضربوا لى بسهم) فهو حقيقة فى الصحيحين من رواية أبى سعيد الخدرىّ فى قصة مثل قصة الحديث السابق .
فقد أخرجه البخارىّ فى :

- ٣٧ - كتاب الإجارة ، ١٦ - باب ما يعطى فى الرقية .
- وفى : ٦٦ - كتاب فضائل القرآن ، ٩ - باب فاتحة الكتاب .
- وفى : ٧٦ - كتاب الطب ، ٣٣ - باب الرق بقاتحة الكتاب .
- وفى : ٧٦ - كتاب الطب ، ٣٩ - باب النفث فى الرقية
- والحديث رقم ١١٣٢ .
- وأخرجه مسلم فى : ٣٩ - كتاب السلام ، حديث ٦٥ و٦٦ (طبعنا) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩١] (وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ، قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ، تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا، وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنَّكُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ، قُلِ اللَّهُ، ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ)

« وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ » أى : ما عظموه حق تعظيمه . و (حَقَّ) نصب على المصدرية ، وهو فى الأصل صفة للمصدر . أى : قَدَرَهُ الحق ، فلما أضيف إلى موصوفه انتصب على ما كان ينتصب عليه موصوفه . « إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ » أى : حين اجتروا على التفوه بهذه الجملة الشنعاء ، وذلك منهم مبالغة فى إنكار إنزال القرآن على رسول الله ﷺ ، فالزموا بما لاسبيل لهم إلى إنكاره أصلاً ، حيث قيل فى جواب سلبهم العام ، بإثبات قضية جزئية بديهية التسليم :

« قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا » حال من الضمير فى (بِهِ) أو من (الْكِتَابِ) ، « وَهُدًى لِّلنَّاسِ » أى : ضياء من ظلمة الجهالة ، وبياناً يفرق بين الحق والباطل ، « تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا » : يجزئونه أوراقاً يبدونها للناس مما ينتخبونه . أى : فكيف ينسكروا إنزال شيء ، وهذا المنزل المذكور ظاهر للعيان . والعدول عن التوراة إلى ذكر الكتاب وصفته ، والحال بعده - لزيادة التقريع ، وتشديد التبكيت ، وإلزام الحجر . « وَتُخْفُونَ كَثِيرًا » معطوف على (تُبْدُونَهَا) ، والمائد محذوف . أى : كثيراً منها . أو كلام مبتدأ لا محل له من الإعراب . أى : وهم يخفون كثيراً . أى : ومع ذلك فالإلزام يكفى بما يبدونه ، المترف لديهم بحقيقته . وفيه نعى على أهل الكتاب بسوء صنيعهم المذكور ، إذ ما يريدون بإخفاء كثير منها إلا تبديل الدين .

« وَعُلِّمْتُمْ » أى : على لسان محمد ﷺ « مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنَّكُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ » من المعارف

التي لا يرتاب في أنها تنزيل رباني ، « قُلِ اللَّهُ » أى : أنزله الله ، أو الله أنزله . أَمَرَهُ بِأَنْ يَجِيبَ عَنْهُمْ ، إشعاراً بِأَنْ الْجَوَابَ مَتَمِّينَ لَا يُمْكِنُ غَيْرُهُ ، وَتَنْبِيْهًا عَلَى أَنَّهُمْ بُهَتُوا ، بِحَيْثُ لَهُمْ لَا يَقْدِرُونَ عَلَى الْجَوَابِ .

« ثُمَّ » بعد التبليغ وإلزام الحجة « ذَرَهُمْ فِي خَوْضِهِمْ » أى : فى باطلهم « يَلْعَبُونَ » أى : يفعلون فعل اللّاعب ، وهو ما لا يجرّ لهم نفماً ، ولا يدفع عنهم ضرراً ، مع تضييع الزمان .

تنبيه :

فى هذه الآية قولان :

الأول - أنها مكية النزول تبعاً للسورة ، وأن القائل ذلك هم المشركون ، وإلزامهم إنزال التوراة ، لما أنه كان عندهم من المشاهير الدائمة ، وهذا هو الظاهر .

قال ابن كثير : قال ابن عباس ^(١) ومجاهد ^(٢) وعبد بن كثير : هذه الآية نزلت فى قريش ، واختاره ابن جرير . قال ابن كثير : وهو الأصح ، لأن اليهود لا ينكرون إنزال الكتب من السماء ، وأما كفار قريش فكانوا ينكرون رسالة النبي ﷺ ، لأنه من البشر ، كما قال تعالى : أَمْ كَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ ^(٣) وكقوله تعالى : وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ^(٤) . وكذا قالوا هنا : مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ . فالزموا بإنزال

(١) الأثر رقم ١٣٥٤٢ من التفسير .

(٢) الأثر رقم ١٣٥٤١ من التفسير . وصوابه : عبد الله بن كثير أنه سمع مجاهداً .

(٣) [١٠ / يونس / ٢] . . . وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ ، قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ .

(٤) [١٧ / الإسراء / ٩٤] .

الكتاب الذى جاء به موسى ، وهو التوراة التى علموا هم وكل أحد أن الله أنزلها على موسى تكذيباً لقولهم ، وإيقافاً على عنادهم . ومعلوم ما كان بين قريش ويهود المدينة من التعارف ، وتسليم قريش أنهم أهل كتاب ، وأنهم أعلم منهم لأجله ، مما يوجب اعترافهم بحقية التوراة ، وأنها منزلة من لدنه تعالى . وعلى هذا القول ، فالقراءة بالياء التحتية ظاهرة . وعلى قراءة الخطاب ، فهو التفات من خطاب قوم إلى خطاب قوم آخرين . وهو التفات عند الأدباء - حكاة الخفاجي - وإنما جعل من الانتقال عن خطابهم إلى خطاب اليهودية ، تعريضاً لهم بأن إنكارهم إزال الله تعالى من جنس فعل هؤلاء بالتوراة فى البطلان ، وعدم الإسناد إلى برهان . ثم القول بأن الخطاب فى (عَلَّمْتُمْ) لمؤمنى قريش . لا يقتضيه السياق ولا السباق ، وفيه تفكيك للنظم الجليل ، كالقول بأنه اعتراض للامتنان على النبي ﷺ وأتباعه ، لهدايتهم للمجادلة بالتي هى أحسن . بل الخطاب فيه كسابقه ، والمراد بتعليمهم ، وهم مشركون ، ما يسمعون ويثقفونه من النبي ﷺ وصحابته ، من فرائد الوحي وفوائده ، مما لا يرتاب فى تنزيلها ، كما أوضحناه قبل .

القول الثانى - إن هذه الآية مدنية النزول . ولا يرد أن هذه السورة مكية ، ومناظرات اليهود كانت فى المدينة ، لأن كثيراً من السور المكية ألحقت بها آيات مدنية ، وحينئذ فقولهم (هذه السورة مكية) أى : إلا ما استثنى مما ألحق بها ، كما أوضحه السيوطى فى (الإتيان) وساق له شواهد . وقد أشرنا إلى ذلك أول هذه السورة ، فتذكر ! ثم القائلون بأنها مدنية ، منهم من قال : نزلت فى طائفة من اليهود ، أو فى فنخاص ، أو فى مالك بن الصيف . أخرج ابن جرير^(١) من طريق ابن أبى طلحة عن ابن عباس قال : قالت اليهود : والله ما أنزل الله من السماء كتاباً ، فأُنزلت .

(١) الأثر رقم ١٣٥٤٠ من التفسير ونصه :

عن ابن عباس قوله : وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشِيرٍ =

وأخرج ابن أبي حاتم عن سميع بن جبير - مرسلًا - قال: جاء رجل من اليهود يقال له مالك بن الصيف ، فخاصم النبي ﷺ ، فقال له النبي ﷺ : أنشدك بالذي أنزل التوراة على موسى ، هل تجد في التوراة أن الله يبغض الجبر السمين - وكان حبرًا سمينا - ؟ فغضب وقال : ما أنزل الله على بشر من شيء ! فقال له أصحابه : ويحك ! ولا على موسى ؟ فأنزل الله : (وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ...) الآية .

قال البغوي : وفي القصة أن مالك بن الصيف ، لما سمعت اليهود منه تلك المقالة ، عتبوا عليه ، وقالوا : أليس الله أنزل التوراة على موسى ، فلم قلت : ما أنزل الله من شيء ؟ فقال مالك بن الصيف : أغضبني محمد ، فقلت ذلك ! فقالوا له : وأنت إذا غضبت تقول على الله غير الحق ! فنزعه عن الجبرية . وبعد الوقوف على ذلك ، فلا معنى لاعتراض بعضهم بأن مالك بن الصيف كان مفتخرًا بكونه يهوديًا متظاهرًا بذلك ، ومع هذا المذهب لا يمكنه البتة أن يقول : ما أنزل الله على بشر من شيء ، لأنه تبين أنه قال ذلك متغيطًا ، وقد أخذ الغضب منه مأخذه عنادا ومكابرة ، توصلًا لدفع ما يريده . وقد يبلغ الحق بصاحبه إلى حدٍّ يتبرأ فيه من مذهبه ومعتقده ، إغاطة لخصمه على زعمه . وبوادر اللسان في حق المولى تعالى وتقدس ، مما لا تغتفر ، ولذا بين تعالى جهل ذاك القائل بقوله : (وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ) .

قال العلامة البقاعي : لأن من نسب ملسكا تام الملك إلى أنه لم يثأر أوامر في رعيته بما يرضيه ليفعلوه ، وما يسخطه ليجتنبوه ، فقد نسبته إلى نقص عظيم . فكيف إذا كانت تلك النسبة كذبًا ؟ وإنما أسند إلى الكل - والقائل بعضهم - لأنهم لم يردوا على قائله ، ولم

= مِنْ شَيْءٍ . يعني بنى إسرائيل . قالت اليهود : يا محمد ! أنزل الله عليك كتابًا ؟ قال : نعم ! قالوا : والله ! ما أنزل الله من السماء كتابًا .

قال : فأنزل الله : « قُلْ » يا محمد ! « مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ » إلى قوله « وَلَا ءَابَاؤُكُمْ » قال : الله أنزله .

يعاجلوه بالأخذ على يده ، تهويلاً للأمر ، وبياناً لأنه يجب على كل من سمع بآية من آيات الله أن يسعى إليها ، ويتمعرف أمورها . فمن طعن فيها أخذ على يده بما تصل إليه قدرته ، فقال مشيراً إلى أن اليهود قاتلوا ذلك ، ملزماً لهم بالاعتراف بالكذب ، أو المساواة للأمة في التمسك بالهوى دون كتاب ، موبخاً لهم ، ناعياً عليهم سوء جهلهم ، وعظيم بهتهم ، وشدة وقاحتهم ، وعدم حيائهم (قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى) ؟ أى : قل لهؤلاء السفهاء الذين تجرأوا على هذه المقالة ، غير ناظرين في عاقبتها ، وما يلزم منها ، توبيخاً لهم ، وتوقيفاً على شنيع جهلهم (مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى) الذى أنتم تزعمون التمسك بشرعه (تَجْعَلُونَهُ قَرَأَطِيسَ) أى : أوراقاً مفرقة ، لتتمكنوا بها من إخفاء ما أردتم ، (تُبْدُونَهَا) لِلنَّاسِ أى : تظهرونها للناس ، (وَتُخْفُونَ كَثِيرًا) أى : منها مما تريدون به تبديل الدين . هذا على قراءة الفوقانية . وعلى قراءة التحتانية التفات مؤذن بشدة الغضب ، مشير إلى أن ما قالوه حقيق بأن يستجى من ذكره ، فكيف بفعله . وقواه (وَعَلَّمْتُمْ) أى : أيها اليهود بالكتاب الذى أنزل على موسى (مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ) أى : أيها اليهود من أهل هذا الزمان (وَلَا أَبَاؤُكُمْ) أى : الأقدمون . انتهى كلام البقاعى رحمه الله تعالى . وفى قوله (وَإِنَّمَا أَسْنَدُ إِلَى الْكَلِّ ...) إلى آخره ، نظر . لأن إسناده ليس إليهم ، لأنهم رضوا به ، لأن القصة السالفة تدل على خلافه .

وللبقاعى رحمه الله وجه آخر فى الآية . قال : ويمكن أن تكون مكية ، ويكون قولهم هذا حين أرسلت إليهم قريش تسألهم عنه ﷺ فى أمر رسالته ، فاحتج عليهم بإرسال موسى عليه السلام ، وإنزال التوراة عليه . انتهى . وهو قريب وجيه جداً .

وبالجملة ، فالآية الكريمة متصادقة مع الأوجه المذكورة ، وتنزل فى التأويل ، على ما بينا فى كل تنزيلاً لا شائبة معه لإشكال ما . وقد استصعب الرازى تأويلها ، وأخذ يحاول أسئلة هى على طرف الثمام ، بعد النظر فيما بيننا ، فالحمد لله الذى هدانا لهذا .

لطائف

الأولى - قال أبو السعود رحمه الله : ليس المراد بالآية مجرد إلزامهم بالاعتراف بإنزال التوراة فقط ، بل بإنزال القرآن أيضاً ، فإن الاعتراف بإنزالها مستلزم للاعتراف بإنزاله قطعاً ، لما فيها من الشواهد الناطقة به .

الثانية - قال أيضاً في قوله تعالى (تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ) أى : تضعونه في قراطيس مقطعة ، وورقات مفرقة ، بحذف الجار ، بناء على تشبيه القراطيس بالظرف المبهم ، أو تجعلونه نفس القراطيس المقطعة . وفيه زيادة توبيخ لهم بسوء صنيعهم ، كأنهم أخرجوه من جنس الكتاب ، ونزلوه منزلة القراطيس الخالية عن الكتابة .

الثالثة - في قوله تعالى (يبدونها ويخفون كثيراً) دلالة على أنه لا يجوز كتم العلم الدينى عن يهتدى به . قاله بعض الزيدية .

ولما أبطل تعالى كلمتهم الشنعاء السالفة بتقرير إنزال التوراة ، بين تنزيل ما يصدقها بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٢] (وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ، وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ ، وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ)

« وَهَذَا » يعنى : القرآن ، « كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ » أى : كثير المنافع والفوائد ، لاشتراكه على منافع الدارين ، وعلوم الأولين والآخرين ، وما لا يتناهى من الفوائد .

قال الرازى : العلوم إما نظرية ، وإما عملية . فالأولى أشرفها . وأكملها معرفة ذات الله وصفاته وأفعاله وأحكامه وأسمائه . ولا ترى هذه العلوم أكمل ولا أشرف مما تجده في هذا الكتاب . وأما الثانية : فالطلوب إما أعمال الجوارح ، وإما أعمال القلوب ، وهو المسمى

بطهارة الأخلاق ، وتزكية النفس . ولا تجدهذين العلمين مثل ما تجده في هذا الكتاب . ثم جرت سنة الله تعالى بأن الباحث عنه ، والمتمسك به ، يحصل له عز الدنيا ، وسعادة الآخرة . انتهى . قال الخفاجي : وقد شوهد ذلك في كل عصر .

« مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ » ، أى : من التوراة أو من الكتب التي أنزلت قبله ، في إثبات التوحيد ، والأمر به ، ونفى الشرك ، والنهي عنه . وفي سائر أصول الشرائع التي لا تنسخ .

« وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ » . معنى : مكة . سميت بذلك لأنها مكان أول بيت وضع للناس ، ولأنها قبلة أهل القرى كلها ومحجهم ، ولأنها أعظم القرى شأنًا ، وغيرها كالتابع لها ، كما يتبع الفرع الأصل . وفي ذكرها بهذا الاسم ، النبي عما ذكر ، إشعار بأن إنذار أهلها مستتبع لإنذار أهل الأرض كافة . « وَمَنْ حَوْلَهَا » من أطراف الأرض ، شرقًا وغربًا . كما قال في الآية الأخرى : لِأَنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ ^(١) . وقوله : قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ^(٢) . وقال : تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ^(٣) . وقال تعالى : وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَسْلَمْتُمْ ، فَإِنْ

(١) [٦ / الأنعام / ١٩] ونصها : قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً ، قُلِ اللَّهُ ، شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ، وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ هَٰذَا الْقُرْآنِ لِأَنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ ، أَفُنْكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ إِلَهَةً أُخْرَىٰ ، قُلْ لَا أَشْهَدُ ، قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ .

(٢) [٧ / الأعراف / ١٥٨] ... الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ ، فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ .

(٣) [٢٥ / الفرقان / ١] .

أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا، وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ، وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ^(١) .

وثبت في الصحيحين ^(٢) أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : أعطيت خمساً لم يمطهن أحد من الأنبياء قبلي ، وذكر منهم : وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة ، وبعث إلى الناس عامة .

« وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ » فإن من صدق بالآخرة خاف العاقبة ، ولا يزال الخوف يحمله على النظر والتدبر ، حتى يؤمن بالنبي والكتاب (والضمير يحتملهما) ويحافظ على الصلاة. والمراد بها إما الطاعة مجازاً ، أو حقيقتها. وتخصيصها لكونها أشرف العبادات بعد الإيمان ، وأعظمها خطراً .

قال الرازي : ألا ترى أنه لم يقع اسم الإيمان على شيء من العبادات الظاهرة إلا على الصلاة ، كما قال تعالى : وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ ، إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَوُوفٌ رَحِيمٌ ^(٣)

(١) [٣ / آل عمران / ٢٠] ونصها : فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنَ ...

(٢) أخرجه البخاري في : ٧ - كتاب التيمم ، ١ - باب قول الله تعالى : فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ ، حديث ٢٣١ ونصه : عن جابر أن النبي ﷺ قال « أعطيت خمساً لم يمطهن أحد قبلي : نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً . فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل . وأحللت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي . وأعطيت الشفاعة . وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة ، وبعث للناس عامة » .

وأخرجه مسلم في : ٥ - كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، حديث رقم ٣ (طبعنا) .
(٣) [٢ / البقرة / ١٤٣] ونصها : وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ، وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ =

أى: صلاتكم. ولم يقع اسم الكفر على شيء من المعاصي إلا على ترك الصلاة. قال عليه الصلاة والسلام: من ترك الصلاة متممدا فقد كفر. فلما اختصت الصلاة بهذا النوع من التشريف ، لا جرم خصها الله بالذكر في هذا المقام . انتهى

أقول : الحديث المذكور رواه الطبراني في الأوسط معاجمه عن أنس وصحح . وتماه : فقد كفر جهارا - كما في الجامع الصغير - .

أخرج ابن أبي حاتم عن مسروق ، قال في هذه الآية : أى يحافظون على مواقيتها .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٣] (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ ، وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ ، الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ)

« وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا » أى : اختلق إفكا ، فجعل له شركاء أو ولدا ، أو أحكاما في الحل والحرمه ، كعمرو بن لحي وأشباهه ، ممن جعل قوله قول الله . « أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ » ممن ادعى النبوة كذبا . وهذا يزيد على الافتراء في دعوى النبوة .

قال البقاعي : هذا تهديد على سبيل الإجمال ، كمادة القرآن الجليل ، يدخل فيه كل من اتصف بشيء من ذلك ، كسيلة والأسود العنسى وغيرها . ثم قال : رأيت في كتاب (غاية المقصود في الرد على النصارى واليهود) لابن يحيى المغربي الذي كان من علمائهم في حدود

= عَلَيْهِمْ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ ، وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ، ...

سنة ٥٦٠ م هداه الله للإسلام فبين فضائهم : إن الربانيين منهم زعموا أن الله يوحى إلى جميعهم في كل يوم مرات . ثم قال : إن الربانيين أكثرهم عدداً ، يزعمون أن الله يخاطبهم في كل مسألة بالصواب . وهذه الطائفة أشد اليهود عداوة لغيرهم في الأمم . انتهى .

« وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ » أى : ومن ادعى أنه يعارض ما جاء من عند الله من الوحي مما يفتره من القول ، كالنضر بن الحارث . وهذا كقوله تعالى : « وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا » (١) الآية .

قال المهامبي : أى ومن أنكر إعجاز القرآن حتى قال : سأُنزل مثل ما أنزل الله ، مع أنه قد عرف إعجازه ، فكأنه ادعى لنفسه قدرة الله ، فكأنه ادعى الإلهية لنفسه . ولا يجترئ على هذه الوجوه من الظلم من يؤمن بالآخرة ، فيعلم بالظالمين فيها ، المبين بقوله تعالى : « وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ » . أى : شدايده وسكراته وكرباته ، « وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ » أى : بالضرب والعذاب ، كقوله تعالى : « وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَذْبارَهُمْ » (٢) .

« أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ » أى : قائلين لهم : أخرجوا إلينا أرواحكم من أجسادكم ، تغليظاً وتوبيخاً وتعنيفاً عليهم . وقد جنح بعضهم إلى أن ما ذكر من مجاز التمثيل . أى : فشبه فعل الملائكة في قبض أرواحهم ، بفعل الغريم الذى يبسط يده إلى من عليه الحق ويعنف في استيفاء حقه من غير إهمال . وفى (الكشف) أنه كناية عن ذلك ، ولا بسط ولا قول حقيقة . قال الناصر فى (الانتصاف) : ولا حاجة إلى ذلك . والظاهر أنهم يفعلون معهم هذه الأمور حقيقة ، على الصور المحكية . وإذا أمكن البقاء على الحقيقة ، فلا معدل عنها . انتهى .

(١) [٨ / الأنفال / ٣١] ... إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ .

(٢) [٨ / الأنفال / ٥٠] ... وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ .

وقال الحافظ ابن كثير : إن الكافر إذا احتضر بشرته الملائكة بالمذاب والنكال والأغلال والسلاسل والجحيم والحميم وغضب الرحمن الرحيم ، فتنفرك روحه في جسده ، وتمصى ، وتأبى الخروج ، فتضربهم الملائكة حتى تخرج أرواحهم من أجسادهم ، قائلين لهم : أخرجوا أنفسكم . انتهى .

أقول : مما يؤيد الحقيقة آية (وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى) المتقدمة ، فإنها صريحة . ومراعاة النظائر القرآنية أعظم ما يفيد في باب التأويل .

قال السيوطي في (الإكليل) : في هذه الآية حال الكافر عند القبض ، وعذاب القبر . واستدل بها محمد بن قيس على أن الملك الموت أعواناً من الملائكة - أخرجه ابن أبي حاتم - .

« الْيَوْمَ » أى : وقت الإمامة ، أو الوقت الممتد من الإمامة إلى ما لا نهاية له . « تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ » أى ، الهوان الشديد ، « بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ » كالتحريف ودعوى النبوة الكاذبة . وهو جراءة على الله متضمنة للاستهانة به - قاله المهايى - . « وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ » حتى قال بعضكم : سأنزل مثل ما أنزل الله .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٤] (وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ، وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ ، لَقَدْ نَقَطَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ)

« وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا » أى : للحساب والجزاء « فُرَادَىٰ » أى : منفردين عن الأموال والأولاد ، وما أترموه من الدنيا . أو عن الأعوان والأوثان التي زعمتم أنها شفعاءكم . و (فرادى) جمع فريد ، كأسير وأسارى .

« كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ » أى : مشبهين ابتداء خلقكم ، حفاة عراة غرلاً (بمعنى قُلُفًا) .

روى الشيخان^(١) عن ابن عباس قال : قام رسول الله صلى الله عليه وسلم بموعظة فقال : أيها الناس ! إنكم تحشرون إلى الله حفاة عراة غرلاً ، كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ .

وروي^(٢) أيضاً عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : تحشرون حفاة عراة غرلاً . قالت عائشة : فقلت : يا رسول الله ! الرجال والنساء جميعاً ينظر بعضهم إلى بعض ؟ قال : الأمر أشد من أن يهمهم ذلك .

وروى الطبري^(٣) بسنده عن عائشة أنها قرأت قول الله عز وجل : (وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ) فقالت : يا رسول الله ! واسوأناه ! إن الرجال والنساء يحشرون

(١) أخرجه البخارى في : ٦٠ - كتاب الأنبياء ، ٨ - باب قول الله تعالى : وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ، حديث ١٥٨٥ ونصه :

عن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبي ﷺ قال « إنكم محشورون حفاة عراة غرلاً » ثم قرأ : كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ .

« وأول من يكسى يوم القيامة إبراهيم . وإن أناساً من أصحابي يؤخذ بهم ذات الشمال فأقول : أصحابي ! أصحابي ! فيقول : إنهم لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم . فأقول ، كما قال العبد الصالح : وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ - إلى قوله : الْحَكِيمُ » .

وأخرجه مسلم في : ٥١ - كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، حديث ٥٨ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه البخارى في : ٨١ - كتاب الرقاق ، ٤٥ - باب كيف الحشر ،

حديث ٢٤٥١ .

وأخرجه مسلم في : ٥١ - كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، حديث ٥٦ (طبعتنا) .

(٣) الأثر رقم ١٣٥٧٠ من التفسير .

جميعاً ينظر بعضهم إلى سوءة بعض ؟ فقال رسول الله ﷺ : اسكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه . لا ينظر الرجال إلى النساء ، ولا النساء إلى الرجال ، شغل بعضهم عن بعض .

« وَتَرَكْتُمْ مَآ خَوَّلْنَاكُمْ » ما تفضلنا به عليكم في الدنيا ، فشغلتم به عن الآخرة من الأموال والأولاد والخدم والخلول « وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ » يعنى : في الدنيا ، ولم تحملوا منه نقيراً . كناية عن كونهم لم يصرفوه إلى ما يفيد في الآخرة .

وقد ثبت في الصحيح^(١) أن رسول الله ﷺ قال : يقول ابن آدم : مالى ! مالى ! وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنت ، أو لبست فأبليت ، أو تصدقت فأمضيت ؟ وزاد في رواية : وما سوى ذلك فهو ذاهب وتاركة للناس .

« وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ » أى : لله في الربوبية ، واستحقاق العبادة ، « لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ » قرئ بالرفع . أى : شملكم . فإن البين من الأضداد ، يستعمل للوصل والفصل . وبالنصب على إضمار الفاعل ، لدلالة ما قبله عليه . أى : تقطع الأمر ، أو الاشتراك ، أو وصلكم بينكم . أو على إقامته مقام موصوفه . والأصل : لقد تقطع ما بينكم ، وقد قرئ به . أى : تقطع ما بينكم من الأسباب والوصلات . « وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ » أى : ذهب عنكم ما زعتم من رجاء الأنداد والأصنام ، كقوله تعالى : إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ * وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّا كَرِهْنَا لَنَّا كَرِهْنَا فَنَتَّبِعَهُمْ كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا ، كَذَلِكَ يَرْبِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ ، وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ^(٢) . وقال تعالى : فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ^(٣) .

(١) أخرجه مسلم في : ٥٣ - كتاب الزهد والرقائق ، حديث ٤٣ و٤٤ (طبعنا) عن عبد الله بن الشخير .

(٢) [٢ / البقرة / ١٦٦ و ١٦٧] .

(٣) [٢٣ / المؤمنون / ١٠١] .

وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمُ بِبَعْضٍ وَبَلَغُنْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا^(١) . والآيات في هذا كثيرة جدًا .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٥] (إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى، يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ، ذَلِكُمُ اللَّهُ، فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ)

« إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى » شروع في بعض مبدعاته الدالة على كمال قدرته ، وعلمه وحكمته ، إثر تقرير شأن توحيده تعالى ، وذلك للتنبيه على أن المقصود الأعظم هو معرفته سبحانه وتعالى بجميع صفاته وأفعاله ، وأنه مبدع الأشياء وخالقها . ومن كان كذلك كان هو المستحق للعبادة ، لا هذه الأصنام التي كانوا يعبدونها ، ولتعريف خطئهم في الإشراك الذي كانوا عليه . والمعنى : أن الذي يستحق العبادة دون غيره ، هو الله الذي فلق الحب عن النبات ، والنواة عن النخلة .

وفي معنى (فالق) قولان :

أحدهما - أنه بمعنى خالق . وهو قول ابن عباس في رواية العوفي عنه . وبه قال الضحاك ومقاتل . قال الواحدي : ذهبوا بـ (فالق) مذهب (فاطر) . وأنكر الطبري^(٢) هذا ، وقال : لا يعرف في كلام العرب (فلق الله الشيء) ، بمعنى خلق . ونقل الأزهري عن الزجاج جوازه . وكذا المجد في القاموس .

قال الرازي : (الفطر) هو الشق ، وكذلك (انفلق) . فالشيء قبل أن دخل في الوجود كان معدوماً محضاً ، ونفياً صرفاً . والعقل يتصور من العدم ظلمة متصلة لا انفراج فيها ،

(١) [٢٩ / العنكبوت / ٢٥] . . . وَمَا أَوَّاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ .

(٢) انظر الصفحة ٥٥٢ من الجزء الحادي عشر (طبعة المعارف)

ولا انفلاق ، ولا انشقاق . فإذا أخرجه المبدع الموجد من العدم إلى الوجود ، فكأنه بحسب التخيل والتوهم شق ذلك العدم وفلقه ، وأخرج ذلك المحدث من ذلك الشق . فبهذا التأويل لا يبعد حمل الفالق على الموجد والمبدع .

والقول الثاني - وهو قول الأكثرين : أن الفلق هو الشق . وفي معناه وجهان :

أحدهما - مروى عن ابن عباس قال : فلق الحبة عن السنبله ، والنواة عن النخلة . وهو قول الحسن والسديّ وابن زيد . قال الزجاج : يشق الحبة اليابسة ، والنواة اليابسة ، فيخرج منها ورقاً أخضر .

الوجه الثاني - وهو قول مجاهد : أنه الشقان اللذان في الحب والنوى .

وضعف بأنه لا دلالة فيه على كمال القدرة .

و (الحب) : ما ليس له نوى ، كالحنطة والشعير والأرز .

و (النوى) : جمع نواة ، وهو الموجود في داخل الثمرة ، مثل نوى التمر والخوخ وغيرها . قال الإمام الرازي : إذا عرفت ذلك ، فنقول : إنه إذا وقعت الحبة أو النواة في الأرض الرطبة ، ثم مرّ به قدر من المدة ، أظهر الله تعالى في تلك الحبة والنواة من أعلاها شقاً ، ومن أسفلها شقاً آخر ، فالأول يخرج منه الشجرة الصاعدة إلى الهواء والثاني يخرج منه الشجرة الهابطة في الأرض ، المسماة بعروق الشجرة . وتصير تلك الحبة والنواة سبباً لاتصال الشجرة الصاعدة في الهواء بالشجرة الهابطة في الأرض .

ثم إن ههنا .

عجائب :

فأحداها - أن طبيعة تلك الشجرة ، إن كانت تقتضى الهوى في عمق الأرض ، فكيف تولدت منها الشجرة الصاعدة في الهواء ؟ وإن كانت تقتضى الصعود في الهواء ، فكيف تولدت منها الشجرة الهابطة في الأرض ؟ فلما تولد منها الشجرتان ، مع أن الحبس والمقل

يشهد بكون طبيعة إحدى الشجرتين مضادة لطبيعة الشجرة الأخرى - علمنا أن ذلك ليس بمقتضى الطبع والخاصية، بل بمقتضى الإيجاد والإبداع والتسكين والاختراع .

وثانيها - أن باطن الأرض جرم كثيف صلب، لا تنفذ المسئلة القوية فيه ، ولا يغوص السكين الحاد القوى فيه. ثم إنا نشاهد أطراف تلك العروق في غاية الدقة واللاطفة ، بحيث لو دخلها الإنسان بأصبعه بأدنى قوة ، لصارت كالماء ، ثم لأنها مع غاية اللطافة تقوى على النفوذ في تلك الأرض الصلبة ، والغوص في بواطن تلك الأجرام الكثيفة . فحصل هذه القوى الشديدة ، لهذه الأجرام الضعيفة التي هي في غاية اللطافة ، لا بد وأن يكون بتقدير العزيز الحكيم .

وثالثها - أنه يتولد من تلك النواة شجرة ، ويحصل في تلك الشجرة طبائع مختلفة ، فإن قشر الخشبة له طبيعة مخصوصة ، وفي داخل ذلك القشر جرم الخشبة ، وفي وسط تلك الخشبة جسم رخو ضعيف، يشبه العهن المنفوش . ثم إنه يتولد من ساق الشجرة أغصانها ، ويتولد على الأغصان الأوراق أولاً ، ثم الأزهار والأثمار ثانياً ، ثم الفاكهة ثالثاً . ثم قد يحصل للفاكهة أربعة أنواع من القشر : مثل الجوز ، فإن قشره الأعلى هو ذلك الأخضر ، وتحت ذلك القشر الذى يشبه الخشب ، وتحت ذلك القشر الذى هو كالغشاء الرقيق المحيط باللب ، وتحت ذلك اللب . وذلك اللب مشتمل على جرم كثيف ، وهو أيضاً كالقشر ، وعلى جرم لطيف ، وهو الدهن . وهو المقصود الأصلي . فتولد هذه الأجسام المختلفة في طبائعها وصفاتها وألوانها وأشكالها وطعومها ، مع تساوى تأثيرات الطبائع والنجوم والفصول الأربعة ، والطبائع الأربع - يدل على أنها إنما حدثت بتدبير الحكيم الرحيم المختار القادر ، لا بتدبير الطبائع والعناصر .

ورابعها - أنك قد تجد الطبائع الأربع حاصلة في الفاكهة الواحدة ، فالأترنج : قشره حار يابس ، ولحمه بارد رطب، وحماضه بارد يابس ، وبزره حار يابس . وكذلك العنب : قشره

وَيَجْمَعُهُ بَارِدٌ يَابِسٌ ، وَمَاؤُهُ وَلَحْمُهُ حَارٌّ رَطْبٌ . فتولدُ هذه الطبائع المتضادة ، والخواص المتنافرة عن الحبة الواحدة - لا بد وأن يكون بإيجاد الفاعل المختار .

وخامسها - أنك تجد أحوال الفواكه مختلفة ، فبعضها يكون اللب في الداخل ، والقشر في الخارج ، كما في الجوز واللوز . وبعضها يكون الفاكهة المطلوبة في الخارج ، وتكون الخشبة في الداخل ، كالخوخ والشمش . وبعضها يكون النواة لها لب ، كما في نوى الشمش والخوخ . وبعضها لا لب له ، كما في نوى التمر . وبعض الفواكه لا يكون له من الداخل والخارج قشر ، بل يكون كله مطلوباً ، كالتين . فهذه أحوال مختلفة في هذه الفواكه . وأيضاً هذه الحبوب مختلفة في الأشكال والصور ، فشكل الحنطة كأنه نصف دائرة ، وشكل الشعير كأنه مخروطان انصلا بقاعدتيهما ، وشكل العدس كأنه دائرة ، وشكل الحمص على وجه آخر . فهذه الأشكال المختلفة لا بد وأن تكون لأسرار وحكم ، عليم الخالق أن تركيبها لا يكمل إلا على ذلك الشكل . وأيضاً فقد أودع الخالق تعالى في كل نوع من أنواع الحبوب خاصية أخرى ، ومنفعة أخرى . وأيضاً فقد تكون الثمرة الواحدة غذاءً لحيوان ، وسمّاً لحيوان آخر . باختلاف هذه الصفات والأشكال والأحوال ، مع اتحاد الطبائع ، وتأثيرات الكواكب ، يدل على أن كلها إنما حصلت بتخليق الفاعل المختار الحكيم .

وسادسها - أنك إذا أخذت ورقة واحدة من أوراق الشجرة ، وجدت خطأ واحداً مستقيماً في وسطها ، كأنه بالنسبة إلى تلك الورقة كالنخاع بالنسبة إلى بدن الإنسان . وكما أنه ينفصل من النخاع أعصاب كثيرة ، يمتد ويسرة ، في بدن الإنسان ، ثم لا يزال ينفصل عن كل شعبة شعب آخر ، ولا تزال تستدق حتى تخرج عن الحس والأبصار ، بسبب الصغر - فكذلك في تلك الورقة قد ينفصل عن ذلك الخط الكبير الوسطاني خطوط منفصلة ، وعن كل واحد منها خطوط مختلفة أخرى أدق من الأولى ، ولا يزال يبقى على هذا المنهج ، حتى تخرج تلك الخطوط عن الحس والبصر . والخالق تعالى إنما فعل ذلك ، حتى إن القوى الجاذبة

المركوزة في جرم تلك الورقة ، تقوى على جذب الأجزاء اللطيفة الأرضية في تلك المجارى الضيقة . فلما وقفت على عناية الخالق في إيجاد تلك الورقة الواحدة ، علمت أن عنايته في تخليق جملة تلك الشجرة أكمل ، وعرفت أن عنايته في تكوين جملة النبات أكمل . ثم إذا عرفت أنه تعالى إنما خلق جملة النبات لمصلحة الحيوان ، علمت أن عنايته بتخليق الحيوان أكمل . ولما عرفت أن المقصود من تخليق جملة الحيوانات هو الإنسان ، علمت أن عنايته في تخليق الإنسان أكمل . ثم إنه تعالى إنما خلق النبات والحيوان في هذا العالم ليكون غذاءً ودواءً للإنسان بحسب جسده ، والمقصود من تخليق الإنسان هو المعرفة والمحبة والخدمة ، كما قال تعالى : وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ^(١) . فانظر أيها المسكين بعين رأسك في تلك الورقة الواحدة من تلك الشجرة ، واعرف كيفية خلقه تلك العروق والأوتار فيها ، ثم انتقل من مرتبة إلى ما فوقها ، حتى تعرف أن المقصود الأخير منها حصول المعرفة والمحبة في الأرواح البشرية ، فحينئذ ينفتح لك باب من المكاشفات لا آخر له ، ويظهر لك أن أنواع نعم الله في حقه غير متناهية ، كما قال : وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا^(٢) . وكل ذلك إنما ظهر من كيفية خلقه تلك الورقة من الحبة والنواة . فهذا كلام مختصر في تفسير قوله تعالى : إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى . ومتى وقف الإنسان عليه أمكنه تفريقها وتشعيبها إلى ما لا آخر له . ونسأل الله التوفيق والهداية . انتهى كلام الرازي رحمه الله تعالى .

« يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ » كالحيوان من النطفة ، والنبات الغض الطرى من الحب اليابس ، « وَخُجِرُ الْمَيِّتِ » كالنطفة والحب « مِنَ الْحَيِّ » كالحيوان والنبات .

(١) [٥١ / الذاريات / ٥٦] .

(٢) [١٤ / إبراهيم / ٣٤] ونصها : وَءَاتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ، وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ، إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ .

و [١٦ / النحل / ١٨] ونصها : وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ، إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ .

« ذَلِكُمُ اللَّهُ » أى : الفالق للحب والنوى ، والمخرج الحى من الميت وعكسه ، هو الله ، القادر العظيم الشأن ، المستحق للعبادة وحده .
« فَأَن تَوَفُّكُونَ » أى : تصرفون عنه إلى غيره .

قال الرازى : والمقصود منه أن الحى والميت متضادان متنافيان ، فحصول المثل عن المثل ، يوم أن يكون بسبب الطبيعة والخاصية . أما حصول الضد من الضد فيمتنع أن يكون بسبب الطبيعة والخاصية . بل لابد وأن يكون بتقدير القدر الحكيم ، والمدبر العليم .

تنبيه :

ذهب الرخشرى ومن تبعه إلى أن قوله تعالى : (وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ) عطف على (فَالِقُ) لا على (يُخْرِجُ الْحَيَّ) ، لأنه بيان لفالق الحب والنوى ، وهذا لا يصلح للبيان . وإن صح عطف الاسم المشتق على الفعل وعكسه ، كقوله (صَافَاتٍ وَيَقْبِضْنَ)^(١) . والصحيح أنه معطوف على (يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ) واشتماله على زيادة فيه ، لا يضر ذلك بكونه بياناً . كما أن (مُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ) بيان مع شموله للحيوان والنبات . وفيه من البديع التبدل ، كقوله تعالى (يُورِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُورِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ)^(٢) .

(١) [٦٧ / الملك / ١٩] ونصها : أَوَّلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَاتٍ وَيَقْبِضْنَ ، مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا الرِّحْمَنُ ، إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بِصِيرٌ .

(٢) [٢٢ / الحج / ٦١] ونصها : ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُورِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُورِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ .

و [٣١ / لقمان / ٢٩] ونصها : أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُورِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُورِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ .

قال في (الانتصاف) : وقد وردا جميعاً بصيغة الفعل كثيراً في قوله : (يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُخْبِئُ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ)^(١) وقوله (أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ)^(٢) فمطفأ أحد القسمين على الآخر ، كثيراً دليل على أنهما توأمان مقترنان ، وذلك يبعد قطعه عنه في آية الأنعام هذه وردّه إلى (فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَالنَّوَى) . فالوجه - والله أعلم - أن يقال : كان الأصل وروده بصيغة اسم الفاعل أسوة أمثاله من الصفات المذكورة في هذه الآية من قوله (فَالِقُ الْإِصْبَاحِ) و (فَالِقُ الْإِصْبَاحِ) و (جَاعِلُ اللَّيْلِ) و (مُخْرِجُ الْحَيِّ مِنَ الْمَيِّتِ) إلا أنه عدل عن اسم الفاعل إلى الفعل المضارع في هذا الوصف وحده ، وهو قوله (يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ) إرادة لتصوير إخراج الحي من الميت ، واستحضاره في ذهن السامع . وهذا التصوير والاستحضار إنما يتمكن في أدائهما الفعل المضارع دون اسم الفاعل .

= و [٣٥ / فاطر / ١٣] ونصها : يُورِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُورِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ، ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ ، وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ .
و [٥٧ / الحديد / ٦] ونصها : يُورِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُورِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ، وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ .

(١) [٣٠ / الروم / ٢٤] ونصها : وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُخْرِجُ بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ .
(٢) [١٠ / يونس / ٣١] ونصها : قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ، فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ ، قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ .

والماضى . وقد مضى تمثيل ذلك بقوله تعالى (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً) فمدل عن الماضى المطابق لقوله (أَنْزَلَ) لهذا المعنى ، ومنه ما فى قوله (٣) :

بَأْنَى قَدْ لَقِيتُ الْغُولَ تَهْوَى بِسَهْبٍ كَالصَّحِيفَةِ صَحَّحَانَ
فَأُضْرِبُهَا بِلَا دَهْشٍ فَخَرَّتْ صَرِيحاً لِلْيَدَيْنِ وَلِلْجِرَانِ

(١) [٢٢ / الحج / ٦٣] ... إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ .

(٢) من شواهد الكشف . قال الشارح :

فى سورة الملائكة عند قوله تعالى : وَاللَّهُ الَّذِى أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ .
حيث قال (فَتُثِيرُ) بلفظ المضارع دون ما قبله وما بعده ، ليحكى الحال التى يقع فيها إثارة
الرياح السحاب ، ويستحضر الصورة البديعة الدالة على القدرة الربانية . وهكذا يفعلون بفعل
فيه نوع تمييز وخصوصية بحال تستغرب أو تهمل المخاطب أو غير ذلك ، كما فى قول تأبط شرا :
بَأْنَى قَدْ لَقِيتُ الْغُولَ تَهْوَى ... الخ .

لأنه قصد أن يصور لقومه الحالة التى تشجع فيها ، بزعمه ، على ضرب الغول . كأنه
يبصرهم إياها ويطلعهم على كنهها ، مشاهدة للتعجب من جرأته على كل هول ، وثباته عند
كل شدة .

وكذلك سوق السحاب إلى البلد الميت وإحياء الأرض بعد موتها ، لما كان من الدلائل
على القدرة الباهرة ، قيل فسقناه فأحيينا ، معدولا بهما عن لفظ الغيبة إلى ما هو أدخل
فى الاختصاص وأدلّ عليه .

والغول السعالى . والعرب تسمى كل داهية غولا . واختلف فى وجوده . فمنهم من ينكر
وجوده أصلا ، والقائل يثبت وجوده ويقول : لقيت الغول تهوى ، أى : تهبط . بسهب
أى فضاء بعيد عن الأرض والصحيفة الكتاب . وقاع صحصحان وصمصمان أى مستوٍ .
والجران مقدّم العنق من مذبحه إلى منحره .

فعدل إلى المضارع لإرادة لتصوير شجاعته ، واستحضارها لذهن السامع . ومنه (إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبَّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ * وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً)^(٢) فعدل عن (مُسَبَّحَاتٍ) وإن كان مطابقاً (مَحْشُورَةً) لهذا السبب - والله أعلم - . ثم هذا المقصد إنما يجيء فيما يكون العناية به أقوى . ولا شك أن إخراج الحى من الميت أشهر في القدرة من عكسه . وهو أيضاً أول الحالين ، والنظر أول ما يبدأ فيه . ثم القسم الآخر وهو إخراج الميت من الحى بأن عنه ، فكان الأول جديراً بالتصديق والتأكيد في النفس ، ولذلك هو مقدم أبداً على القسم الآخر في الذكر ؛ حسب ترتيبهما في الواقع . وسهل عطف الاسم على الفعل وحسنه . أن اسم الفاعل في معنى الفعل المضارع ، فكل واحد منهما يقدر بالآخر ، فلا جناح في عطفه عليه - والله أعلم - انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٦] (فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ حُسْبَانًا ، ذَلِكَ

تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ)

وقوله تعالى « فَالِقُ الْإِصْبَاحِ » خبر آخر (إِنَّ) ، أو لمبتدأ محذوف . و (الْإِصْبَاحِ)

مصدر سمي به الصبح . قال امرؤ القيس^(٢) :

ألا أيها الليل الطويل ألا انجلى بصُبحٍ وما الإصباحُ فيك بأُمثلٍ

(١) [٣٨ / ص / ١٨ و ١٩] ... كُلُّ لَهُ أَوَّابٌ .

(٢) من معلقته التي أولها :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحو مل

قال الوزير أبو بكر عاصم بن أيوب في شرح البيت :

هذا البيت متعلق بما قبله . لأن تقديره : فقلت له : ألا أيها الليل الطويل ألا انجل . =

أى : شاقه عن ظلمة الليل « وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا » أى : صير الظلام يسكن إليه ،
ويطمئن به، استرواحاً من تعب النهار . أو يسكن فيه الخلق ، أى : يقرؤا ويهدؤا (من
السكون) - وهو الأظهر لقوله (لَتَسْكُنُوا فِيهِ) - وقرئ (وَجَاعِلُ اللَّيْلِ) .
« وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ حُسْبَانًا » أى : على أدوار مختلفة ، لتحسب بهما الأوقات التى نيط
بها العبادات والمعاملات. كما ذكره فى سورة يونس فى قوله (٢) (هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً
وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِّتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِّينَ وَالْحِسَابَ) .
« ذَلِكَ » أى التسيير بالحساب المعلوم « تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ » أى : الغالب على أمره ،
« الْعَلِيمِ » بتدبيرهما ، ومراعاة الحكمة فى شأنهما .

= أى انكشف بإقبال الصبح . ثم رجع فقال : وما الإصباح فيك بأمثل . أى إذا جاء
الصبح فأنا مغموه كما كنت فى الليل . فليس الصبح بأمثل من الليل .
وقال الأصهبانى : معنى قوله (بأمثل) أن الصبح قد يجيء والليل مظلم . يقول : ليس
الصباح بأمثل وهو فيك . أى أريد أن يجيء مجيئاً منكشفاً متجلياً ، لا سواد فيه . كما قال
البحترى ، وإلى هذا أشار فقال :

فأزرق الفجر يأتى قبل أبيضه وأول الغيث طل ثم ينسكب

قال الأصهبانى : ولو أراد أن الصباح ليس بأمثل من الليل ، لقال : منك بأمثل . اه .
(١) [١٠ / يونس / ٦٧] ونصها : هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لَتَسْكُنُوا فِيهِ
وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ .

و [٢٨ / القصص / ٧٣] ونصها : وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ
لَتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ .

(٢) [١٠ / يونس / ٥] ونصها : هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا
وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِّتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِّينَ وَالْحِسَابَ ، مَا خَاقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ ، يُفَصِّلُ
الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ .

تنبيهات

الأول - قال الرازى : قوله تعالى (فَالِقُ الْإِصْبَاحِ ...) الآية ، نوع آخر من دلائل وجود الصانع وعلمه وقدرته وحكمته . فالنوع المتقدم كان مأخوذاً من دلالة أحوال النبات والحيوان . والنوع المذكور فى هذه الآية مأخوذ من الأحوال الفلكية . وذلك لأن فلق ظلمة الليل بنور الصبح أعظم فى كمال القدرة من فلق الحب والنوى بالنبات والشجر ، ولأن من المعلوم بالضرورة أن الأحوال الفلكية أعظم فى القلوب وأكثر وقعاً من الأحوال الأرضية . ثم قرر الحجة من وجوه عديدة ، وأجاد رحمه الله .

الثانى - قرئ (الْأُصْبَاحِ) بفتح الهمزة ، على أنه جمع صُبُح ، كقفل وأقفال .

الثالث - فى (البحر الكبير) : أن السنة الشرعية قرية لاشمسية ، والشمسية مما حدث فى دواوين الخراج ، وإنما أضيف الحساب فى الآية إليهما ، لأن بطوع الشمس ومغيبيها يعرف عدد الأيام التى تتركب منها الشهور والسنون ، فمن هنا دخلت - انتهى .

الرابع - قال الحافظ ابن كثير رحمه الله : وكثيراً ما إذا ذكر الله تعالى خلق الليل والنهار والشمس والقمر يختم الكلام بالعرزة والعلم ، كما ذكر فى هذه الآية ، وكما فى قوله : (وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ * وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ)^(١) ولما ذكر خلق السموات والأرض وما فىهن فى أول سورة (حم السجدة) قال : (وَزَيْنًا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ، ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ)^(٢) . انتهى . وفى (العزة) معنى القهر ، أى : الذى قهرها بجعلهما مسخرين ، لا يتيسر لهما إلا ما أريد

(١) [٣٦ / يس / ٣٧ و ٣٨] .

(٢) [٤١ / فصلت / ١٢] ونصها : فَتَقْضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا ، وَزَيْنًا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ، ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ .

بهما ، كما قال : (وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ)^(١) ، ومعنى القدرة الكاملة أيضاً .

قال الرازى : (العزیز) إشارة إلى كمال قدرته ، و (العليم) إشارة إلى كمال علمه . ومعناه : أن تقدير أجرام الأفلاك بصفاتھا المخصوصة وهیأتھا المحدودة ، وحركاتھا المقسدة بالمقادیر المخصوصة فی البطء والسرعة ، لا يمكن تحصيله إلا بقدرة كاملة متعلقة بجميع الممكنات ، وعلم نافذ فی جميع المعلومات من السکلیات والجزئیات . وذلك تصریح بأن حصول هذه الأحوال والصفات لیس بالطبع والخاصة . وإنما هو بتخصیص الفاعل المختار - والله أعلم - .

الخامس - أخرج ابن أبی حاتم عن ابن عباس فی قوله تعالى : (حُسْبَانًا) قال : یعنی عدد الأيام والشهور والسنین . وقال قتادة : يدوران فی حساب . قال السیوطی : فالآیه أصل فی الحساب والمیقات . انتهى . ثم بین تعالى نعمته فی السکواکب ، إثر بیان نعمته فی النیرین إعلاماً بکمال قدرته وحکمته ورحمته بقوله سبحانه :

القول فی تأویل قوله تعالى :

[٩٧] (وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ، قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ)

« وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ » أى :

(١) [٧ / الأعراف / ٥٤] ونصها : إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارُ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ ، أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ، تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ .

في ظلمات الليل في طرق البر والبحر « قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ » أى : بينا الآيات على قدرته تعالى وحكمته واليوم الآخر « لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ » أى : وجه الاستدلال بها . وإنما خلقت للاستدلال المتأثر بالعمل بموجبها ، ألا وهو الاستدلال بها على معرفة الصانع الحكيم ، وكمال قدرته وعلمه واستحقاقه العبادة وحده .

تنبيهان

الأول - ذكر تعالى في غير هذه السورة كون هذه الكواكب زينة للسماء ، وكونها رجوماً للشياطين . قال بعض السلف : من اعتقد في هذه النجوم غير ثلاث فقد أخطأ وكذب على الله سبحانه : أن الله جعلها زينة للسماء ، ورجوماً للشياطين ، ويهتدى بها في ظلمات البر والبحر - قله ابن كثير - .

أقول : مراده اعتقاد منافٍ للعقد الصحيح لا اعتقاد حكمٍ وإسرار غير الثلاث فيها ، إذ فوائد المكنونات غير محصورة . وذكر حكمة في مكون لا ينفي ما عداها - فافهم !
الثاني - قال السيوطي في (الإكليل) : هذه الآية أصل في الميقات ، وأدلة العقليات - ثم بين تعالى نوعاً آخر من نعمه ، وأدلة قدرته الباهرة بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٨] (وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ، قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ)

« وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ » يعنى : آدم عليه السلام « فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ » قرىء (مُسْتَقَرٌّ) بفتح القاف وكسرها ، وأما (مُسْتَوْدَعٌ) فبفتح الدال لا غير . وهما ، على الأول ، إما مصدران ، أى : فلكم استقرار واستيداع ؛ أو اسماء مكان ، أى : موضع استقرار واستيداع . والاستقرار إما في الأصلاب ، أو فوق الأرض ، لقوله تعالى : (وَلَكُمْ

فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ^(١) أَوْ فِي الْأَرْحَامِ ، لقوله تعالى : (وَنُقَرِّ فِي الْأَرْحَامِ) ^(٢) أَوْ الْاِسْتِدَاعِ فِي الْأَرْحَامِ ، فجعل الصلب مستقرّ النطفة ، والرحم مستودعها ، لأنها تحصل في الصلب ، لا من قبل شخص آخر ، وفي الرحم من قبل الأب ، فأشبهت الوديعة ، كأن الرجل أودعها ما كان عنده ، أَوْ فِي الْأَصْلَابِ ، أَوْ تَحْتَ الْأَرْضِ ، أَوْ فَوْقَهَا ، فإنها عليها ، أَوْ وَضَعَتْ فِيهَا لِتُخْرِجَ مِنْهَا مَرَّةً أُخْرَى كقوله ^(٣) :

وَمَا لِلْمَالِ وَالْأَهْلِ إِلَّا وُدَائِعُ وَلَا بَدْيَ يَوْمًا أَنْ تَرَدَّ الْوُدَائِعُ

ونقل الرازي عن الأصم أن المستقر من خَلْقِ مِنَ النَّفْسِ الْأُولَى ، ودخل الدنيا واستقر فيها . والمستودع الذي لم يخلق بعد وسيخلق . وجعل أبو مسلم الأصفهاني (المستقر) كناية عن الذَّكْر ، و (المستودع) كناية عن الأنثى . قال : إنما عبر عن الذكر بـ (المستقر) لأن النطفة إنما تتولد في صلبه ، وإنما تستقر هناك . وعبر عن الأنثى بـ (المستودع) لأن رحمها شبيهة بالمستودع لتلك النطفة - والله أعلم - .

(١) [٢ / البقرة / ٣٦] ونصها : فَآزَلَهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ، وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ . . .

(٢) [٢٢ / الحج / ٥] ونصها : يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِّن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِّن عِلْقَةٍ ثُمَّ مِّن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ، وَنُقَرِّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ ، وَمِنْكُمْ مَّن يَتُوفَّىٰ وَمِنْكُمْ مَّن يَرُدُّ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن نَّعْمٍ عَلَيْهِمْ شَيْئًا ، وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ .

(٣) قائله لبعد من قصيدته التي مطلعها :

بَلِينَا وَمَا تَبَلَّى النُّجُومُ الطَّوَالِعُ وَتَبَقَى الْجِبَالُ بَعْدَنَا وَالْمَصَانِعُ

وعلى قراءة (مستقر) بكسر القاف اسم فاعل ، أى : فندكم قار ، ومنكم مستودع .
 ووجه كون الأول معلوماً ، والثانى مجهولاً ، كون الاستقرار صادراً منادون الاستيداع .
 قال الرازى : مقصود الآية أن الناس إنما تولدوا من شخص واحد وهو آدم عليه السلام .
 ثم اختلفوا فى المستقر والمستودع بحسب الوجوه المذكورة فنقول : الأشخاص الإنسانية
 متساوية فى الجسمية ، ومختلفة فى الصفات التى باعتبارها حصل التفاوت فى المستقر والمستودع .
 والاختلاف فى تلك الصفات لابد له من سبب ومؤثر ، وليس السبب هو الجسمية
 ولوازمها ، وإلا لامتنع حصول التفاوت فى الصفات ، فوجب أن يكون السبب هو الفاعل
 المختار الحكيم . ونظير هذه الآية فى الدلالة قوله تعالى : (وَاخْتَلَفُ السِّنَتِكُمْ
 وَأَلْوَانِكُمْ)^(١) .

« قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ إِوْمٍ يَفْقَهُونَ » قال الزمخشري : فإن قلت ، لم قيل (يعلمون)
 مع ذكر النجوم ، و (يفقهون) مع ذكر إنشاء بنى آدم ؟ قلت : كان إنشاء الإنس من نفس
 واحدة ، وتصريفهم بين أحوال مختلفة ألطف وأدق صنعة وتديرا . فكان ذكر الفقه الذى هو
 استعمال فطنة وتدقيق نظر ، مطابقاً له . انتهى - وهذا بناء على أن الفقه شدة الفهم
 والفطنة ، ومن قال : إنه الفهم مطلقاً ، وليس بأبلغ من العلم - قال : إنه تفنن ، حذرا من
 صورة التكرير .

قال الناصر فى (الانتصاف) : جواب الزمخشري صناعى ، وإلا فلا يتحقق هذا التفاوت ،
 ولا سبيل إلى الحقيقة . قال : والتحقيق أنه لما أريد فصل كليهما بفاصلة تنبيهها على استقلال
 كل واحدة منهما بالمقصود من الحجة ، كره فصلهما بفاصلتين متساويتين فى اللفظ ، لما فى
 ذلك من التكرار ، فعدل إلى فاصلة مخالفة ، تحسیناً للنظم ، واتساقاً فى البلاغة . ويحتمل

(١) [٣٠ / الروم / ٢٢] ونصها : وَمِنْ ءَايَاتِهِ خَلَقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتَلَفُ
 السِّنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ .

وجها آخر في تخصيص الأولى بالعلم ، والثانية بالفقه . وهو أنه لما كان المقصود التعريض بمن لا يتدبر آيات الله ، ولا يعتبر بمخلوقاته ، وكانت الآيات المذكورة أولاً خارجة عن أنفس الناظر ومنافية لها ، إذ النجوم والنظر فيها ، وعلم الحكمة الإلهية في تدبيره لها ، أمر خارج عن نفس الناظر . ولا كذلك النظر في إنشائهم من نفس واحدة ، وتقلباتهم في أطوار مختلفة ، وأحوال متغيرة ، فإنه نظرٌ لا يعدو نفس الناظر ، ولا يتجاوزها . فإذا تمهد ذلك ، فجهل الإنسان بنفسه وبأحواله ، وعدم النظر فيها والتفكير ، أبشعُ من جهله بالأموار الخارجة عنه ، كالنجوم والأفلاك ، ومقادير سيرها وتقلبها . فلما كان الفقه أدنى درجات العلم ، إذ هو عبارة عن الفهم ، نُفِيَ من أبشع القبيلين جهلا ، وهم الذين لا يتبصرون في أنفسهم ، ونفى الأدنى أبشع من نفي الأعلى درجة ، نخص به أسوأ الفريقين حالا . (ويفقهون) ههنا مضارع فقه الشيء - بكسر القاف - إذا فهمه ، ولو أدنى فهم . وليس من (فقهه) بضم القاف ، لأن تلك درجة عالية ، ومعناه صار فقيها - قاله الهروي في معرض الاستدلال على أن (فقهه) أنزل من (علم) - . وفي حديث سلمان ^(١) أنه قال ، وقد سأله امرأة جاءت به : فَقِهَتْ أَى : فَهِمَتْ ، كالمتعجب من فهم المرأة عنه . وإذا قيل : فلان لا يفقه شيئا كان أذم في العرف من قولك : فلان لا يعلم شيئا . وكأن معنى قولك : (لا يفقه شيئا) ليست له أهلية الفهم وإن فهم . وأما قولك (لا يعلم شيئا) فغايته نفي حصول العلم له ، وقد يكون له أهلية الفهم والعلم ، لو يعلم . والذي يدل على أن التارك للفكرة في نفسه أجهل وأسوأ حالا من التارك للفكرة في غيره قوله تعالى : (وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ) نخص التبصر

(١) هذا نصه كما جاء في اللسان :

أنه نزل على نَبِيَّةٍ بالعراق ، فقال لها : هل هنا مكان نظيف أصلي فيه ؟
فقالَتْ : طهر قلبك وصل حيث شئت .
فقال سلمان : فَقِهَتْ . أى فهمت وفطنت للحق والمعنى الذي أرادت .

في النفس بعد اندراجها فيما في الأرض من الآيات ، وأنكر على من لا يتبصر في نفسه إنكاراً مستأنفاً . وقولنا ، في أدراج الكلام : (إنه نفي العلم عن أحد الفريقين ، ونفي الفقه عن الآخر) يعني : بطريق التعريض ، حيث خص العلم بالآيات المفصلة ، والتفقه فيها بقوم . فأشعر أن قوماً غيرهم لاعلم عندهم ، ولا فقه - والله الموفق - فتأمل هذا الفصل ، وإن طال بعض الطول . فالنظر في الحسن غير مملول . انتهى . وهذا من دقة النظر في الكتاب العزيز ، وإبراز محاسنه ولطائفه .

ثم بين تعالى حجة كبرى على كمال قدرته ، ومنة أخرى من جسيم نعمته بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٩] (وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ ، انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

« وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً » أي : من السحاب ، لقوله تعالى : (أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ * أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ)^(١) وسمى السحاب سماءً ، لأن العرب تسمى كل ماعلا سماءً .

« فَأَخْرَجْنَا بِهِ » التفت إلى التسكيم لإظهاراً لكمال العناية بشأن ما أنزل الماء لأجله أي : فأخرجنا بعظمتنا بذلك الماء ، مع وحدته « نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ » أي : صنف من أصناف

(١) [٥٦ / الواقعة / ٦٨ و٦٩] .

النبات والثمار المختلفة الطعوم والألوان ، كقوله تعالى : (يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ)^(١) .

« فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ » أى : من النبات ، يعنى أصوله « خَضِرًا » أى : شيئاً غضاً أخضر .
يقال : أخضر وخضِر ، كأعور وعور ، وهو ما تشعب من أصل النبات الخارج من الحبة ،
« نُخْرِجُ مِنْهُ » صفة لـ (خضرا) وصيغة المضارع ، لاستحضار الصورة ، لما فيها من
الغربة ، أى : نخرج من ذلك الخضِر « حَبًّا مُتَرَاكِبًا » أى : متراكبا بعضه على بعض ، مثل
سنابل البر والشعير والأرز .

قال الرازى : ويحصل فوق السنبلة أجسام دقيقة حادة كأنها الإبر ، والمقصود من تخليقها
أن تمنع الطيور من التقاط تلك الحبات المتراكبة .

ثم بين تعالى ما ينشأ عن النوى من الشجر ، إثر بيان ما ينشأ عن الحب من النبات بقوله
سبحانه : « وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ » الطلع : أول ما يبدو من ثمر النخيل
كالـكيزان يكون فيه العذق ، فإذا شق عنه كيزانه سمى عذقا (بكسر العين وسكون الذال
المعجمة بعدها) - وهو القنو ، أى : العرجون ، بما فيه من الشماريح ، وجمعه قنوان - (مثلث
القاف) وهو ومثناه سواء ، لا يفرق بينهما إلا الإعراب .

قال الزمخشري : قنوان ، رفع بالابتداء ، و (من النخل) خبره ، و (من طلعمها) بدل
منه ، كأنه قيل : وحاصلة من طلع النخل قنوان . انتهى . وجوز أن يكون (من النخل)
عطفاً على (منه) ، وما بعده مبتدأ وخبر . أى : وأخرجنا من النخل نخلا من طلعمها قنوان
دانية ، أى : ملتفة ، يقرب بعضها من بعض ، أو قريبة من المتناول ، وإنما اقتصر على

(١) [١٣ / الرعد / ٤] ونصها : وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٍ وَجَنَّاتٌ مِنْ أُعْنَابٍ
وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي
الْأَكْلِ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ .

ذكرها لدلائلها على مقابلها ، أعنى البعيدة ، كقوله تعالى : (سَرَّابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ)
ولزيادة النعمة فيها « وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ » عطف على (نبات كل شيء) أى : وأخرجنا
بهجنت ، أو على (خضرا) . وقال الطيبي : الأظهر أن يكون عطماً على (حباً) لأن قوله :
(نبات كل شيء) مفصل لاشتماله على كل صنف من أصناف النامى ، كأنه قال : فأخرجنا
بالنامى نبات كل شيء ينبت كل صنف من أصناف النامى . والنامى : الحب والنوى
وشبههما .

وقوله : (فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا ...) الخ تفصيل لذلك النبات . أى : أخرجنا منه
خضرا بسبب الماء ، فيكون بدلا من (فأخرجنا) الأول ، بدل اشتمال . ومن ههنا يقع التفصيل ،
فبعض يخرج منه السنابل ذات حبوب متكاثرة ، وبعض يخرج منه ذات قنوان دانية ،
وبعض آخر جنات معروشات ... الخ .

« وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ » العطف فيه كما تقدم « مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُشْتَبِهٍ » حال من
(الزيتون) ، اكتفى به عن حال ما بعده . أو من (الرمان) لقربه . والمخدوف حال الأول .
قال الزمخشري : يقال اشتبه الشيان وتشابهها ، كقولك : استويا وتساويا . والافتعال
والتفاعل يشتركان كثيرا . وقرئ : متشابهها وغير متشابه . والمعنى : بعضه متشابهها ، وبعضه
غير متشابهه فى الهيئة والمقدار واللون والطعم ، وغير ذلك من الأوصاف الدالة على كمال قدرة
صانها ، وحكمة منشئها ومبدعها .

« انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ » أى : ثم كل واحد من ذلك إذا أخرج ثمره ، كيف
يكون ضئيلا ضعيفا ، لا يكاد ينتفع به ، « وَيَنْعَمِ » أى : وإلى حال ينعم ونضجه ، كيف
يعود شيئا جامعا لمنافع وملاذ . أى : انظروا إلى ذلك نظر اعتبار واستبصار واستدلال ، على
قدرة مقدره ومدبره وناقله ، على وفق الرحمة والحكمة ، من حال إلى حال ، فإن فيه آيات
عظيمة دالة على ذلك ، كما قال :

«إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ» أى : يصدقون بأن الذى أخرج هذا النبات وهذه الثمار هو المستحق للعبادة دون ما سواه ، أو هو القادر على أن يحيى الموتى ويبعثهم . قال بعضهم : القوم كانوا ينكرون البعث ، فاحتج عليهم بتصريف ما خلق ، ونقله من حال إلى حال ، وهو ما يعلمونه قطعاً ويشاهدونه من إحياء الأرض بعد موتها ، وإخراج أنواع النبات والثمار منها ، وأنه لا يقدر على ذلك أحد إلا الله تعالى . فبين أنه تعالى كذلك قادر على إنشائهم من نفوسهم وأبدانهم ، وعلى البعث بإنزال المطر من السماء ، ثم إنبات الأجساد كالنبات ، ثم جعلها خضرة بالحياة ، ثم تصوير الأعمال بصور كثيرة ، وإفادة أمور زائدة ، وتفريعها ، وإعطاء أطعمة مشبهة فى الصورة ، غير متشابهة فى اللذة ، جزاء عليها . والله أعلم - .

لطيفة :

قال الرازى : اعلم أنه تعالى ذكر ههنا أربعة أنواع من الأشجار : النخل والعنب والزيتون والرمان . وإنما قدم الزرع على الشجر ، لأن الزرع غذاء ، وثمار الأشجار فواكه ، والغذاء مقدم على الفاكهة . وإنما قدم النخل على سائر الفواكه ، لأن التمر يجرى مجرى الغذاء بالنسبة إلى العرب ، ولأن الحكماء بينوا أن بينه وبين الحيوان مشابهة فى خواص كثيرة ، بحيث لا توجد تلك المشابهة فى سائر أنواع النبات . ولهذا المعنى قال عليه الصلاة والسلام : فإنها خاقت من بقية طينة آدم . وإنما ذكر العنب عقيب النخل ، لأن العنب أشرف أنواع الفواكه ، وذلك لأنه من أول ما يظهر يصير منتفعاً به إلى آخر الحال . فأول ما يظهر على الشجر ، يظهر خيوط خضر دقيقة حامضة الطعم ، لذينة الطعم ، وقد يمكن اتخاذ الطبائخ منه . ثم بعده يظهر الحصرم ، وهو طعام شريف للأصحاء والمرضى ، وقد يتخذ الحصرم مشربة لطيفة المذاق ، نافعة لأصحاب الصفراء ، وقد يتخذ الطبيخ منه ، فكأنه ألد الطبائخ الحامضة . ثم إذا تم العنب فهو ألد الفواكه وأشهاها ، ويمكن ادخار العنب المعلق سنة أو أقل أو أكثر ،

وهو في الحقيقة ألد الفواكه المدخرة ، ثم يبقى منه أنواع من المتناولات وهي الزبيب والدبس والخل ، ومنافع هذه لا يمكن ذكرها إلا في المجلدات . وأحسن ما في العنب عَجْمُهُ ، والأطباء يتخذون منه (جوارشنة) عظيمة النفع للمعدة الضعيفة الرطبة . فثبت أن العنب كأنه سلطان الفواكه .

وأما الزيتون فهو أيضاً كثير النفع ، لأنه يمكن تناوله كما هو ، وينفصل أيضاً عنه دهن كثير ، عظيم النفع في الأكل ، وفي سائر وجوه الاستعمال .

وأما الرمان فخاله عجيب جداً ، وذلك لأنه جسم مركب من أربعة أقسام : قشره وشحمه وعَجْمُهُ وماءؤه . أما الأقسام الثلاثة الأولى وهي القشر والشحم والعَجْم فكلها باردة يابسة قابضة عفصة قوية في هذه الصفات . وأما ماء الرمان فبالضد من هذه الصفات ، فإنه ألد الأشربة وألطفها وأقربها إلى الاعتدال ، وأشدّها مناسبة للطباع المعتدلة ، وفيه تقوية للمزاج الضعيف ، وهو غذاء من وجه ، ودواء من وجه ، فكأنه سبحانه جمع فيه بين المتضادين المتغايرين . فكانت دلالة القدرة والرحمة فيه أكمل وأتم .

واعلم أن أنواع النبات أكثر من أن تفي بشرحها مجلدات ، فلهذا السبب ذكر الله تعالى هذه الأقسام الأربعة ، التي هي أشرف أنواع النبات ، واكتفى بذكرها تنبيهاً على البواقى . انتهى .

أقول : حديث (أكرموا عمتكم النخلة) المذكور ، رواه أبو يعلى وابن أبي حاتم والعقيلي وابن عدى وابن السني وأبو نعيم وابن مردويه عن علي رضي الله عنه ، كافي الجامع الصغير ، ورمز عليه بالضعف .

ولما ذكر تعالى هذه البراهين ، من دلائل العالم العلوي والسفلي ، على عظيم قدرته ، وباهر حكمته ، ووافر نعمته ، واستحقاقه للألوهية وحده - عقبها بتوبيخ من أشرك به والرد عليه بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٠] (وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنِّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ،
سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ)

« وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنِّ » أى : جعلوهم شركاءه فى العبادة . فإن قيل : فكيف عُبِدَتِ الجن مع أنهم إنما كانوا يعبدون الأصنام ؟ فالجواب : أنهم ما عبدوها إلا عن طاعة الجن ، وأمرهم بذلك . كقوله : (إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَانَا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا * لَعَنَهُ اللَّهُ . وَقَالَ لَا تُخْذِنَ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيغًا مَقْرُوضًا * وَلَا ضَلَمَنَّهُمْ وَلَا مُنِينَهُمْ وَلَا مَرْهَمَهُمْ فَلْيُبْتِئِكُنَّ أَذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَا مَرْهَمَهُمْ فَلْيَغْيِرَنَّ خَلْقَ اللَّهِ ، وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا)^(١) . وكقوله تعالى : (أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي ...)^(٢) الآية . وقال إبراهيم لأبيه : (يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ ، إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا)^(٣) . وكقوله : (أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ ، إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ * وَأَنْ اعْبُدُونِي ، هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ)^(٤) وتقول الملائكة يوم القيامة (سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيِّنَا مِنْ دُونِهِمْ ، بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ ، أَكْثَرَهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ)^(٥) .

(١) [٤ / النساء] ١١٧-١١٩ .

(٢) [١٨ / الكهف / ٥٠] ونصها : وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ، أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ ، بئسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا .

(٣) [١٩ / مريم / ٤٤] .

(٤) [٣٦ / يس / ٦٠ و ٦١] .

(٥) [٣٤ / سبأ / ٤١] وَقَالُوا ...

« وَخَلَقَهُمْ » حال من فاعل (جَعَلُوا) ، مؤكدة لما في جَعَلِهِمْ ، ذلك من كمال القباحة والبطلان ، باعتبار علمهم بضمومنها . أى : وقد علموا أن الله خالقهم دون الجن (وليس من يخلق كمن لا يخلق) ! وقيل : الضمير للشركاء . أى : والحال أنه تعالى خلق الجن ، فكيف يجعلون مخلوقه شريكاً له ؟ كقول إبراهيم : (أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْجِتُونَ * وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ)^(١) . أى : وإذا كان هو المستقل بالخالقية ، وجب أن يفرد بالعبادة ، وحده لا شريك له .

تنبيه :

ما ذكرناه من معنى قوله تعالى : (وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ) أنهم أطاعوا الجن في عبادة الأوثان ، هو ما قرره ابن كثير ، وأيده بالنظائر المتقدمة ، ونقل عن الحسن ، فتكون الكناية لمشركي العرب .

وقيل : المراد بالجن الملائكة ، فإنهم عبدوهم وقالوا عنهم بنات الله . وكلا الأمرين موجب للشريك . أما الأول فظاهر . وأما الثاني فلا أن الولد كفء الوالد ، فيشاركه في صفات الألوهية . وتسمية الملائكة (جنّاً) حقيقة ، لشمول لفظ الجن لهم . وقيل : استعارة . أى : عبدوا ما هو كالجن ، في كونه مخلوقاً مستتراً عن الأعين .

وذهب بعض السلف - منهم الكلبي - إلى أنها نزلت في الشنوية القائلين بأن للعالم إلهين : أحدهما خالق الخير وكل نافع . وثانيهما خالق الشر وكل ضار . ونقله ابن الجوزي عن ابن السائب . وحكاه الفخر عن ابن عباس رضى الله عنه ، وأنه قال : نزلت في الزنادقة الذين قالوا : إن الله وإبليس أخوان . فالله تعالى خالق الناس والدواب والأنعام والخيرات ؛ وإبليس خالق السباع والحيات والعقارب والشرور .

قال الرازي : وقول ابن عباس المذكور أحسن الوجوه المذكورة في هذه الآية ، وذلك ،

(١) [٣٧ / الصافات / ٩٥ و ٩٦] قَالَ ...

لأن بهذا الوجه يحصل لهذه الآية مزيد فائدة مغايرة لما سبق ذكره في الآيات المتقدمة .
وقوى ابن عباس قوله المذكور بقوله تعالى : (وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نِجَالًا)^(١) .
وإنما وصف بكونه من الجن ، لأن لفظ الجن مشتق من الاستتار ، والملائكة والروحانيون مستتر من العيون ، فلذلك أطلق لفظ الجن عليها .

قال الفخر : هذا مذهب المجوس . وإنما قال ابن عباس : هذا قول الزنادقة ، لأن المجوس يلقبون بالزنادقة ، لأن الكتاب الذي زعم زرادشت أنه نزل عليه من عند الله مسمى بـ (الزند) ، والمنسوب إليه يسمى (زندي) ، ثم عُرِّبَ فقيلاً : (زنديق) ، ثم جمع فقيلاً : (زنادقة) . واعلم أن المجوس قالوا : كل ما في هذا العالم من الخيرات فهو من (يزدان) ، وجميع ما فيه من الشرور فهو من (اهرمن) (وهو المسمى بإبليس في شرعنا) ثم اختلفوا ، فالأكثر منهم على أن (اهرمن) محدث ، ولهم في كيفية حدوثه أقوال عجيبة . والأقلون منهم قالوا : إنه قديم أزلي . وعلى القولين فقد اتفقوا على أنه شريك لله في تدبير هذا العالم ، نفيرات هذا العالم من الله تعالى ، وشروره من إبليس . فهذا شرح ما قاله ابن عباس رضى الله عنهما . وإنما جمع حينئذ في الآية ، لكونه مع أتباعه كأهمهم معبودون .

ثم قال الرازي : وقوله تعالى (وَخَلَقَهُمْ) إشارة إلى الدليل القاطع على فساد كون إبليس شريكاً ، وتقريره أنا نقلنا عن المجوس أن الأكثرين منهم معترفون بأن إبليس ليس بقديم ، بل هو محدث . إذا ثبت هذا فنقول : إن كل محدث فله خالق وموجد ، وما ذاك إلا الله سبحانه وتعالى . فهو لاء المجوس يلزمهم القطع بأن خالق إبليس هو الله تعالى . ولما كان إبليس أصلاً لجميع الشرور والآفات والمفاسد والقبائح ، والمجوس سلموا أن خالقه هو الله تعالى ، فحينئذ قد سلموا أن إله العالم هو الخالق لما هو أصل الشرور والقبائح والمفاسد . وإذا كان كذلك امتنع عليهم أن يقولوا : لا بد من إلهين ، فسقط قولهم . انتهى ملخصاً .

(١) [٣٧ / الصافات / ١٥٨] ... وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ .

وقوله تعالى : « وَخَرَقُوا لَهُ » أى : اختلقوا وافتروا له « بَيْنَ » كقول أهل الكتابين فى المسيح وعزير « وَبَنَاتٍ » كقول بعض العرب فى الملائكة .

قال الزخشرى : يقال خلق الإفك وخرقه واختلقه بمعنى . وسئل الحسن عنه فقال : كلمة عربية كانت العرب تقولها . كان الرجل إذا كذب كذبة فى نادى القوم يقول له بعضهم : قد خرقتها والله ! ويجوز أن يكون من (خَرَقَ الثَّوبَ) إذا شقه : أى اشتقوا له بنين وبنات . وقرئ (وَخَرَقُوا) بالتشديد للتكثير لقوله (بنين وبنات) .

« بَغَيْرِ عِلْمٍ » أى : من غير أن يعلموا حقيقة ما قالوه من خطأ أو صواب ، ولكن رمياً بقول عن عمى وجهالة ، من غير فكر وروية ، أو بغير علم بمرتبة ما قالوا ، وأنه من الشناعة والبطلان بحيث لا يقادَرُ قدره . وفيه ذم لهم بأنهم يقولون بمجرد الرأى والهوى . وفيه إشارة إلى أنه لا يجوز أن ينسب إليه تعالى إلا ما جزم به ، وقام عليه الدليل .

ثم نزه ذاته العلية عما نسبوه إليه بقوله : « سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ » من أوصاف الحوادث الخسيسة من المشاركة والتوليد .

ثم استدلل تعالى على بطلان ما اجتروا عليه بوجوه أربعة . بدأ منها بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠١] (بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةً وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ، وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

« بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » أى : مبدعهما بلا مثال سبق . وقيل : بمعنى عديم النظير فيهما . قال أبو السعود : والأول هو الوجه . والمعنى : أنه تعالى مبدع لقطرى العالم العلوى والسفلى ، بلا مادة ، فاعل على الإطلاق ، منزّه عن الانفعال بالمرّة . والوالد عنصر الولد منفعل بانتقال مادته عنه ، فكيف يمكن أن يكون له ولد ؟

« أَأَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةً » أى : من أين وكيف يكون له ولد - كما زعموا - والحال أنه ليس له على زعمهم أيضاً صاحبة يكون الولد منها ؟ ويستحيل ضرورة وجود الولد بلا والدة ، وإن أمكن وجوده بلا والدة . وأيضاً ، الولد لا يحصل إلا بين متجانسين ، ولا بجانس له تعالى .

وقوله تعالى : (أَأَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ) جملة مستأنفة ، لتقرير تنزهه عنه ، والحالية بعدها مؤكدة للاستحالة المذكورة .

وقوله تعالى : « وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ » جملة أخرى مستأنفة ، لتحقيق ما ذكر من الاستحالة . أو حال ثانية مقررة لها . أى : أنى يكون له ولد والحال أنه خالق كل شيء انتظمه التكوين والإيجاد من الموجودات التي من جملتها ما سموه ولداً له تعالى . فكيف يتصور أن يكون المخلوق ولداً لخالقه ؟ - أفاده أبو السعود -

« وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ » أى : مبالغ في العلم أزلاً وأبداً . جملة مستأنفة أيضاً ، مقررة لمضمون ما قبلها من الدلائل القاطعة ، بطلان مقالاتهم الشنعاء . أى : أنه سبحانه لذاته عالم بكل المعلومات ، فلو كان له ولد ، فلا بد أن يتصف بصفاته ، ومنها عموم العلم ، وهو لغيره تعالى منفى بالإجماع .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٢] (ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ، وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ)

« ذَٰلِكُمُ » أى : الموصوف بما سبق ، البعيد رتبته عن مراتب من يشارك أو ينسب إليه الولادة ، إذ هو « اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ » أى : بالإيمان به وحده ، فإن من جمع تلك الصفات استحق العبادة وحده . « وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ » أى : رقيب وحفيظ ، يدبر كل ما سواه ويرزقهم ويكأفهم بالليل والنهار .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٣] (لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ)

وقوله تعالى : « لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ » جملة مستأنفة ، إما مؤكدة لقوله (وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ) ذكرت للتخويف بأنه رقيب من حيث لا يرى فليحذر ، وإما هي مؤكدة لما تقرر قبل من تنزهه وتعالى عن إفكهم أعظم تأكيد ، ببيان أنه لا تراه الأبصار المعهودة وهي أبصار أهل الدنيا ، لجلاله وكبريائه وعظمته ، فأنى يصح أن ينسب إلى عليائه تلك العظيمة ؟ وذلك لأنه تعالى لم يخلق لأرباب هذه النشأة الدنيوية استعداداً لرؤيته المقدسة .

قال العارف الجليل الشيخ الأكبر قدس سره في (فتوحاته) : سبب عجز الناس عن رؤية ربهم في الدنيا ضعف نشأة هذه الدار ، إلا لمن أمدّه الله بالقوة ، بخلاف نشأة الآخرة لقوتها . وسبب رؤيته تعالى في المنام كون النوم أخص الموت . وفي الحديث إنكم لن تروا ربكم حتى تموتوا . فما نفى الشارع إلا رؤية الله في الدنيا يقظة . انتهى .

وقال بعضهم : إن الأبصار المعهودة في الدنيا لا تدركه تعالى ، لأن هذه الأحداق مادامت تبقى على هذه الصفات التي هي موصوفة بها في الدنيا لا تدرك الله تعالى ، وإنما تدركه إذا تبدلت صفاتها ، وتغيرت أحوالها .

وفي الصحيحين^(١) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ

(١) ليس في الصحيحين . بل هو مما انفرد به مسلم عن البخاري . أخرجه في :

١ - كتاب الإيمان ، حديث ٢٩٣ (طبعنا) وهذا نصه :

عن أبي موسى قال : قام فينا رسول الله ﷺ بخمس كلمات فقال « إن الله عز وجل لا ينام ، ولا ينبغي له أن ينام . يخفض القسط ويرفعه . يُرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار وعمل النهار قبل عمل الليل . حجابه النور ، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه » .

إن الله لا ينام ، ولا ينبغي له أن ينام ، يخفض القسطن ويرفعه ، يرفع إليه عمل النهار قبل الليل ، وعمل الليل قبل النهار ، حجاب النور أو النار ، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه .

قال ابن كثير: وفي الكتب المتقدمة؛ أن الله تعالى قال لموسى لما سأل الرؤية : يا موسى ! إنه لا يراني حتى إلا مات ، ولا يابس إلا تدهده . وقال تعالى : (فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ)^(١) .

أقول : كون المنفى من الإدراك في هذه الآية هو الإدراك الديني خاصة ، لا يحتاج إلى حجة ولا برهان . ومن فهم من بعض الفرق ، كالمعتزلة ، من هذه الآية أن المنفى هو الإدراك في الشأئين ، فقد نادى على نفسه بالجهل بما دل عليه كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ المتواترة . أما الكتاب فمثل قوله تعالى : (وَجُودُهُ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ)^(٢) . وأما السنة فما روى عن جرير بن عبد الله البجلي^(٣) قال : كنا جلوسا عند النبي ﷺ ، إذ نظر إلى القمر ليلة البدر وقال : إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر ، لا تضامون في

(١) [٧ / الأعراف / ١٤٣] ونصها : وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ ، قَالَ لَنْ تَرَاني وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَاني ، فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ، فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ .

(٢) [٧٥ / القيامة / ٢٢ و ٢٣] .

(٣) أخرجه البخاري في : ٩٧ - كتاب التوحيد ، ٢٤ - باب قول الله تعالى : وَجُودُهُ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ ، حديث رقم ٣٥٨ .

وأخرجه مسلم في : ٥ - كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، حديث ٢١١ (طبعنا) .

رؤيته، فإن استطعتم أن لا تغلبوا عن صلاة قبل طلوع الشمس، وقبل غروبها ، فافعلوا. ثم قرأ: **وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ.**

قال ابن كثير : تواترت الأخبار عن أبي سعيد وأبي هريرة وأنس وجريروصهيب وبلال وغير واحد من الصحابة عن النبي ﷺ : أن المؤمنين يرون الله في الدار الآخرة في العرصات وفي روضات الجنات . انتهى

قال الحافظ ابن حجر في (الفتح) : وأدلة السمع طائفة بوقوع ذلك في الآخرة لأهل الإيمان دون غيرهم ، ومنع ذلك في الدنيا . إلا أنه اختلف في نبينا ﷺ . انتهى.

قال ابن كثير : كانت أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها تثبت الرؤيا في الدار الآخرة ، وتنفيا في الدنيا ، وتحتج بهذه الآية . انتهى.

فمن مسروق^(١) قال : قلت لعائشة رضى الله عنها : يا أمته ! هل رأى محمد ﷺ ربه ؟ فقالت : لقد قفّ شعري مما قلت ! أين أنت من ثلاث من حدثكهنّ فقد كذب : من حدثك أن محمداً رأى ربه فقد كذب . ثم قرأت : **لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ . وَمَا كَانَ لِيَشْرَأَنَّ يَكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ**^(٢) ومن حدثك أنه يعلم ما في غد .

(١) أخرجه البخاري في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٥٣ - سورة والنجم ، ١ - باب

حدثنا يحيى حدثنا وكيع ، حديث ١٥٢٨ .

وأخرجه مسلم في : ١ - كتاب الإيمان ، حديث ٢٨٧ (طبعتنا) .

وأخرجه الترمذي بأطول من هذا السياق في : ٤٤ - كتاب التفسير ، ٦ - سورة الأنعام ،

٥ - حدثنا أحمد بن منيع .

(٢) [٤٢ / الشورى / ٥١] . . . **أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ ، إِنَّهُ**

عَلَىٰ حَكِيمٍ .

فقد كذب، ثم قرأت^(١): وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا . ومن حدثك أنه كتم فقد كذب ثم قرأت^(٢): يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ... الآية . ولكنه رأى جبريل في صورته مرتين - أخرجه الشيخان والترمذي - .

وخالفها ابن عباس . فعنه إطلاق الرؤية ، وعنه أنه رآه بفؤاده . والمسألة تذكر مبسطة في أول سورة النجم إن شاء الله تعالى .

ومن الناس من ذهب إلى أن الإدراك ليس هو مطلق الرؤية ، بل هو معرفة الكنه أو الإحاطة .

قال ابن كثير : قال آخرون : لا منافاة بين إثبات الرؤية ونفى الإدراك . فإن الإدراك أخص من الرؤية ، ولا يلزم من نفي الأخص انتفاء الأعم . ثم اختلف هؤلاء في الإدراك المنفى ما هو ؟ فقيل : معرفة الحقيقة ، فإن هذا لا يعلمه إلا هو ، وإن رآه المؤمنون ، كما أن من رأى القمر فإنه لا يدرك حقيقته وكنهه وماهيته ، فالمعظم أولى بذلك ، وله المثل الأعلى .

وقال آخرون : الإدراك أخص من الرؤية ، وهو الإحاطة . قالوا : ولا يلزم من عدم الإحاطة عدم الرؤية ، كما لا يلزم من عدم إحاطة العالم بعدم العالم . قال تعالى : وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا^(٣) .

(١) [٣١ / لقمان / ٣٤] ونصها : إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ ، وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ، وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ .

(٢) [٥ / المائدة / ٦٧] ... وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ ، وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ .

(٣) [٢٠ / طه / ١١٠] ونصها : يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا .

وفي صحيح مسلم^(١) : لا أحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك . ولا يلزم منه عدم الثناء ، فكذلك هذا . انتهى .

وقال النسفي : تشبث المعتزلة بهذه الآية لا يستتب ، لأن المنفى هو الإدراك لا الرؤية ، والإدراك هو الوقوف على جوانب المرئ وحدوده ، وما يستحيل عليه الحدود والجهاث ، يستحيل إدراكه ، لارؤيته ، فنزل الإدراك من الرؤية منزلة الإحاطة من العلم ، ونفى الإحاطة التي تقتضى الوقوف على الجوانب والحدود ، لا يقتضى نفي العلم به ، فكذا هذا . على أن مورد الآية ، وهو التمدح ، يوجب ثبوت الرؤية ، إذ نفي إدراك ما تستحيل رؤيته . لا تمدح فيه ، لأن كل ما لا يرى لا يدرك ، وإنما التمدح بنفى الإدراك مع تحقق الرؤية ، إذ انتفاؤه مع تحقق الرؤية ، دليل ارتفاع نقيصة التناهي والحدود عن الذات ، فكانت الآية حجة لنا عليهم . انتهى .

وقد جود العلامة العضد في (المواقف) البحث في هذه الآية ، ونقل شبه المنكرين فيها ، وأجاب عنها . ونحن ، لنفاسته ، ننقل كلامه مع شرحه للسيد الشريف قدس سره ، وبعض حواشيه ، ونصه :

الأولى - من شبه المنكرين للرؤية السمعية قوله تعالى : لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ :

١ - والإدراك المضاف إلى الأبصار إنما هو الرؤية . فعنى قولك : أدركته ببصرى ، معنى رأيته . لا فرق إلا في اللفظ . أوها أمران متلازمان لا يصح نفي أحدهما مع إثبات الآخر ،

(١) أخرجه مسلم في صحيحه في : ٤ - كتاب الصلاة ، حديث ٢٢٢ (طبعتنا) ونصه :

عن عائشة قالت : فقدت رسول الله ﷺ ليلة من الفرائش . فالتصته فوقعت يدي على بطن قدميه وهو في المسجد ، وهما منصوبتان ، وهو يقول « اللهم ! أعوذ برضاك من سخطك . وبمعافاتك من عقوبتك . وأعوذ بك منك . لا أحصى ثناء عليك . أنت كما أثنيت على نفسك » .

فلا يجوز : رأيته وما أدركته بصرى ولا عكسه . فالآية نفت أن تراه الأبصار وذلك يتناول جميع الأبصار بواسطة اللام الجنسية في مقام المبالغة ، في جميع الأوقات ، لأن قولك : فلان تدركه الأبصار ، لا يفيد عموم الأوقات ، فلا بد أن يفيد ما يقابله ، فلا يراه شيء من الأبصار ، لا في الدنيا ، ولا في الآخرة ، لما ذكرنا .

٢ - ولأنه تعالى تمدح بكونه لا يرى ، فإنه ذكره في أثناء المدائح . وما كان من الصفات عدمه مدحاً ، كان وجوده نقصاً ، يجب تنزيه الله عنه ، فظهر أنه يتمتع برؤيته ، وإنما قلنا : (من الصفات) احترازاً عن (الأفعال) ، كالعفو والانتقام ، فإن الأول فضل ، والثاني عدل ، وكلاهما كمال . والجواب :

أما عن الوجه الأول في الاستدلال بالآية فن وجوه :

الأول - أن الإدراك هو الرؤية ، على نعت الإحاطة بجوانب المرئى ، إذ حقيقته النيل والوصول ، و(إننا لمدركون) أى ملحقون ، و(أدركت الثمرة) أى : وصلت إلى حد النضج و(أدرك الغلام) أى بلغ . ثم نقول إلى الرؤية المحيطة ، لكونها أقرب إلى تلك الحقيقة . والرؤية المكيفة بكيفية الإحاطة ، أخص مطلقاً من الرؤية المطلقة . فلا يلزم من نفى المحيطة عن البارئ سبحانه ، لامتناع الإحاطة ، نفى المطلقة عنه . وقوله (لا يصح نفى أحدهما مع إثبات الآخر) ممنوع ، بل يصح أن يقال : رأيته وما أدركه بصرى . أى : لم يحط به من جوانبه ، وإن لم يصح عكسه .

الثانى - أن (تدركه الأبصار) موجبة كلية ، لأن موضوعها جمع محلى باللام الاستغرافية . وقد دخل عليها النفي فرفمها . ورفع الموجبة الكلية سالبة جزئية . وبالجملة فيحتمل قوله : (لا تدركه الأبصار) إسناد النفي إلى السكل ، بأن يلاحظ أولاً دخول النفي ، ثم ورود العموم عليه ، فيكون سالبة كلية . ونفى الإسناد إلى السكل بأن يعتبر العموم أولاً ، ثم ورود النفي عليه ، فيكون سالبة جزئية . ومع احتمال المعنى الثانى ، لم يبق فيه حجة لكم علينا .

لأن أبصار الكفار لا تدركه، إجماعاً . هذا ما نقوله : لو ثبت أن اللام في الجمع للعموم والاستغراق، وإلا عكسنا القضية ، فادَّعَيْنَا أن الآية حجة لنا وقلنا : (لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ) سالبة مهمة في قوة الجزئية، فالمعنى: لا تدركه بعض الأبصار، وتخصيص البعض بالنفي يدل بالمفهوم على الإثبات للبعض ، فالآية حجة لنا لا علينا . انتهى - لكن هذا إنما يستقيم إذا كانت المهمة مرادفة للجزئية . وكونها في قوتها لا يفيد المرادفة . ولهذا اعترض عليه بأن الجنس في حيز النفي يفيد العموم اتفاقاً ، نحو : ما جاءني الرجل . وإنما الاحتمال لعموم الساب ، وسلب العموم عند قصد الاستغراق ، فكيف تعكس القضية على تقدير حمل اللام على الجنس ؟ ولو ثبت المرادفة لاندفع الاعتراض ، إذ تصير الآية حينئذ حجة لنا إلزامية ، حيث يرجع قيد البعضية إلى النفي، كما أرجع المستدل قيد العموم، على تقدير الاستغراق، إليه. فتأمل ! - كذا في حواشي الحلبي والشرواني - .

الثالث - من تلك الوجوه أنها - أي الآية - وإن عمت في الأشخاص باستغراق اللام ، فإنها لاتعم في الأزمان ، فإنها سالبة مطلقة لا دأمة ، ونحن نقول بموجبه ، حيث لا يرى في الدنيا .

قال العلامة حسن الحلبي : وما استدلل به الخصم سابقاً على أنها دأمة، من أن إيجابها لا يفيد عموم الأوقات ، فلا بد أن يفيد ما يقابله - فجوابه : أنه إنما يتم إذا كان التقابل بينهما تقابل التناقض ، وهو ممنوع . فإن القضية الموجبة والسالبة ، الغير الموجهتين ، لم توضعاً في العربية لعنيتين متناقضتين ، بل لهما محامل يحملهما المستعمل حسب ما يريد .

الرابع - منها أن الآية تدل على أن الأبصار لا تراه ، ولا يلزم منه أن المبصرين لا يرونه، لجواز أن يكون ذلك النفي المذكور في الآية ، نفيّاً للرؤية بالجارحة مواجهة وانطباعاً، كما هو العادة ، فلا يلزم نفي الرؤية بالجارحة مطلقاً . وأما الجواب عن الوجه الثاني وهو قوله : تمدح البارئ بأنه لا يرى ، فنقول : هذا مدعاكم ، فأين الدليل عليه ؟ إن قلت : أشير فيما

تقدم إلى دليله بأنه ذكر في أثناء المدائح ، والمذكور بينهما يجب أن يكون مدحاً - قلت : ذلك الدليل إنما يدل على التمدح بنفى المبصرية ، لا بنفى الرؤية ، والفرق قد سبق في الجواب الأول . انتهى .

وإذا ثبت أن سياق الكلام يقتضى أنه تمدح ، لم يكن لكم فيه دليل على امتناع رؤيته ، بل لنافيه الحجة على صحة الرؤية ، لأنه لو امتنعت رؤيته لماحصل المدح بنفيها عنه ، إذ لا مدح للمعدوم بأنه لا يرى ، حيث لم يكن له ذلك ، وإنما المدح في عدم الرؤية للمتمنع المتعزز بحجاب الكبرياء ، كما في الشاهد . انتهى .

وناقش الخيال قولهم : (لا مدح للمعدوم) بأن عدم مدح المعدوم لاشتماله على معدن كل نقص أعنى : العدم ، فإن أصل المادح والكمالات هو الوجود ، وقد عرا عنه . كما أن الأصوات والروائح لا تمدح بمنع إمكان رؤيتها ، لكونها مقرونة بسمات النقص .

قال : والحق أن امتناع الشيء لا يمتنع التمدح بنفيه ، إذ قد ورد التمدح بنفى الشريك ، ونفى اتخاذ الولد في القرآن ، مع امتناعهما في حقه تعالى . انتهى .

وواقفه حسن حلبي في (حواشي شرح المواقف) ، لكنه أجاب بأن المدح بجهة لا يقتضى السكال من جهات آخر ، وكذا النقصان من جهة لا ينافي المدح بغيرها . انتهى .
وأجاب قره خليل بوجوه :

الأول - أن مراد ذلك المستدل هو الإلزام على المعتزلة ، لا تحقيق الاستدلال على جواز الرؤية .

الثاني - أن مبنى كلامه على العرف واللغة ، فإن أهلها إذا أرادوا مدح شيء يقولون هذا الشيء مما لا تدركه الأبصار ، أو مما لا تراه العيون ، مع أنها مما تدركه عادة . فهذا القول منهم يدل على إمكان رؤية ذلك الشيء عادة ، بل على وقوعها أيضاً . بخلاف الأصوات والروائح ونحوها ، فإنها ليست مما تدركه الأبصار عادة ، فلا يحسن مدحها بعدم إدراك

الأبصار ، أو بعدم رؤيتها . نعم ! إذا أرادوا مدح الأصوات يقولون : لم تسمعها أذن ، وإذا أرادوا مدح الروائح ، يقولون : لم يشمها أنف .

الثالث - إنا قلنا : إن نفي الرؤية في مقام المدح يدل على إمكان الرؤية ، ولم نقل إن نفي كل شيء في مقام المدح يدل على إمكان ذلك الشيء ، حتى يرد علينا النقض بنفي الشريك ، أو بنفي اتخاذ الولد في مقام المدح ، مع أن إمكان المنفى في صورة النقض نقص بنافي الألوهية ، وإمكان المنفى فيما نحن بصدده ليس نقصاً ، بل هو كمال . انتهى .

قال حسن حليبي : إن قيل : يلزم على ثبوت التمدح بنفي الرؤية ، تعزراً وتمنعاً ، أن لا يزول ، لأن زوال ما به التمدح نقص ، فيلزم أن لا يرى في الآخرة . والجواب : أن ذلك فيما يرجع إلى الصفات . والتمدح بنفي الرؤية يرجع إلى التمدح بخلق ضدها ، وهو من قبيل الأفعال ، كما أن خلق الرؤية أيضاً منها . انتهى .

وقد بيناه أولاً ، وسيأتى لذلك تمة شافية إن شاء الله تعالى عند قوله سبحانه (وَحُوءٌ يَوْمَئِذٍ نَاصِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ) ، مما هو أعظم حجة ، وأوضح برهاناً ، والله الموفق . وقوله تعالى « وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ » أى : يرى جميع المرئيات ، وبصير جميع البصرات ، لا يخفى عليه شيء منها . « وَهُوَ اللَّطِيفُ » أى : الذى يعامل عباده باللفظ والرافة ، « الْخَبِيرُ » أى : العالم بدقائق الأمور وجليلاتها . وجوز أن تكون الجملة تعليلًا لما قبلها ، على طريقة اللف ، أى : لا تدركه الأبصار لأنه اللطيف ، وهو يدرك الأبصار لأنه الخبير . قيل : فيكون (اللَّطِيفُ) مستعاراً من مقابل الكثيف ، فشبه به الخفى عن الإدراك . وهذا بناء على أنه في ظاهر الاستعمال من أوصاف الجسم . والتحقيق أن اللطافة المطلقة لا توجد في الجسم ، لأن الجسمية يلزمها الكثافة ، وإنما لطافتها بالإضافة ، فاللطافة المطلقة لا يبعد أن يوصف بها النور المطلق ، الذى يحلّ عن إدراك البصائر ، فضلاً عن الأبصار ، ويعز عن شعور الأسرار ، فضلاً عن الأفكار ، ويتعالى عن مشابهة الصور والأمثال ،

وينزه عن حلول الألوان والأشكال . فإن كمال اللطافة إنما يكون لمن هذا شأنه ، ووصف الغير بها لا يكون على الإطلاق ، بل بالقياس إلى ما هو دونه في اللطافة ، ويوصف بالنسبة إليه بالكثافة - كذا حققه البهائي في (شرح الأسماء الحسنى) . وقول الخفاجي : (اللطيف المشتق من اللطف بمعنى الرأفة) ، لا يظهر له مناسبة هنا - مدفوعٌ بملاحظة أن قوله تعالى (لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ) ذكر للتخويف ، كما أسلفنا ، وحينئذ يناسب أن يشفع ببيان رأفته ورحمته ، جرياً على سنن الترغيب والترهيب .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٤] (قَدْ جَاءَكُمْ بِصَارٍ مِنْ رَبِّكُمْ ، فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ ، وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا ، وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ)

وقوله تعالى « قَدْ جَاءَكُمْ بِصَارٍ مِنْ رَبِّكُمْ » أى : الآيات والدلائل التى تبصرون بها الهدى من الضلالة . جمع (بصيرة) ، وهى الدلالة التى توجب البصر بالشيء ، والعلم به . وجوز أن يكون المعنى : قد جاءكم من الوحي ما هو كالبصائر للقلوب ، جمع (بصيرة) وهى النور الذى يستبصر به القلب ، كما أن البصر نور تستبصر به العين .

« فَمَنْ أَبْصَرَ » أى : الحق بتلك البصائر وآمن به « فَلِنَفْسِهِ » أى : فلنفسه أبصر ، لأن نفعه لها ، « وَمَنْ عَمِيَ » أى : ضل عن الحق . والتعبير عنه بـ (العمى) للتقبيح له ، والتنفير عنه ، « فَعَلَيْهَا » أى : فعلى نفسه عمى ، وإياها ضر بالعمى . « وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ » أى : بريقب يرقبكم ، ويحفظكم عن الضلال ، بل أنا منذر ، والله يحفظ أعمالكم ، ويجازيكم عليها .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٥] (وَكَذَلِكَ نُنْصِرُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ)

« وَكَذَلِكَ نُنْصِرُ الْآيَاتِ » أى : نوردها على وجوه كثيرة في سائر المواضع ، لتكمل الحجة على المخالفين ، « وَلِيَقُولُوا » في ردها : « دَرَسْتَ » أى : قرأت على غيرك ، وتعلمت منه . وحفظت بالدرس أخبار من مضى . كقولهم (فِيهِ تُنْمَلِي عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا)^(١) . يقال : درس الكتاب يدرسه دراسة ، إذا أكثر قراءته وذلكه للحفظ . قال ابن عباس : (وليقولوا) معنى : أهل مكة حين تقرأ عليهم القرآن (درست) بمعنى : تعلمت من يسار وخير ، وكانا عبيد من سبي الروم ، ثم قرأت علينا تزعم أنه من عند الله ! وقال الفرءاء : معناه تعلمت من اليهود - كذا في (اللباب) - .

وقرىء (دَارَسْتَ) بالالف وفتح التاء . أى : دارست غيرك ممن يعلم الأخبار الماضية . كقولهم^(٢) (إِنَّمَا يَعْلَمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ ...) الآية .

ويقراء « دَرَسْتَ » بفتح الدال والراء والسين وسكون التاء . أى : مضت وقدمت وتكررت على الأسماع ، كما قالوا : (أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ)^(٣) . وهذه القراءات الثلاث

(١) [٢٥ / الفرقان / ٥] وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا ...

(٢) [١٦ / النحل / ١٠٣] ونصها : وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ، لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ .

(٣) [٦ / الأنعام / ٢٥] ونصها : وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ، وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ، وَإِنْ يَرَوْا كَلًّا آيَةً لَا يُوْمِنُوا بِهَا ، حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ .

و [٨ / الأنفال / ٣١] ونصها : وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ .

و [١٦ / النحل / ٢٤] ونصها : وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أُنْزِلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ . =

متواترة . وقرىء في الشواذ (دُرِسَتْ) ماضياً مجهولاً . أى : تليت وعفيت تلك الآيات . وقرىء (دَرَسَتْ) مشدداً معلوماً ، وتشديده للتكثير أو للتمدية . أى : درست غيرك الكتب . وقرىء مشدداً مجهولاً . وقرىء (دورست) بالواو مجهول دارس . ودارست بالتأنيث ، والضمير للآيات أول الجماعة : وقرىء « دُرِسَتْ » بضم الراء ، والإسناد للآيات مبالغة في محوه أو تلاوته ، لأن (فعل) المضموم للطبائع والفرائز . وقرأ أبى رضى الله عنه (درس) وفاعله ضمير النبي صلى الله عليه وسلم ، أو الكتاب ، إن كان بمعنى انمحي . و (درس) بنون الإناث مخففاً ومشدداً . وقرىء (دارسات) بمعنى قديمت ، أو بمعنى ذات درس أو دروس ، كـ (عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ) ^(١) . وارتفاعه على أنه خبر مبتدأ محذوف . أى : هي دارسات .

« وَلِنُبَيِّنَهُ » أى : القرآن ، وإن لم يجر له ذكر ، لكونه معلوماً . أو الآيات ، لأنها في معنى القرآن .

« لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ » أى : الحق فيتبعونه ، والباطل فيجتنبونه .

= و [٢٣ / المؤمنون / ٨٣] ونصها : لَقَدْ وَعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ .

و [٢٥ / الفرقان / ٥] ونصها : وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا .

و [٢٧ / النمل / ٦٨] ونصها : لَقَدْ وَعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَءَابَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ .

و [٦٨ / القلم / ١٥] ونصها : إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ .

و [٨٣ / المطففين / ١٣] ونصها : إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ .

(١) [٦٩ / الحاقة / ٢١] ونصها : فَهَوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ .

تنبيهان :

الأول - قيل : اللام الثانية حقيقة ، والأولى لام العاقبة والصيرورة . أى : لتصير عاقبة أمرهم ، إلى أن يقولوا: درست ، كهى فى قوله تعالى: (فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا) ^(١) وهم لم يلتقطوه للعداوة ، وإنما التقطوه ليصير لهم قرة عين ، ولكن صارت عاقبة أمرهم إلى العداوة . فكذلك الآيات صرّفت للتبيين، ولم تصرف ليقولوا: درست. ولكن حصل هذا القول بتصريف الآيات ، كما حصل التبيين ، فشبه به .

قال الخفاجى : وجوّز أن يكون على الحقيقة أبو البقاء وغيره، لأن نزول الآيات لإضلال الأشقياء ، وهداية السعداء. قال تعالى : (يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا) ^(٢) وقال : الرازى : حمل اللام على العاقبة بعيد . لأنه مجاز . وحمله على لام الغرض حقيقة ، والحقيقة أقوى من المجاز. وإن المراد منه عين المذكور فى قوله تعالى: يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا. قال ومما يؤكد هذا التأويل قوله (وَلَنُبَيِّنَنَّ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) ، يعنى : إنا ما بيناه إلا لهؤلاء . فأما الذين لا يعلمون ، فما بيناه هذه الآيات لهم ، وإذا لم يكن بياننا لهم ثبت جعله ضلالا لهم . انتهى .

وقيل : هذه اللام لام الأمر ، ويؤيده أنه قرئ بسكونها ، كأنه قيل : وكذلك نصرف الآيات ، وليقولوا هم ما يقولون ، فإنه لا احتفال بهم ، ولا اعتداء بقولهم . وهو أمر معناه الوعيد والتهديد وعدم الاكتراث بقولهم .

(١) [٢٨ / القصص / ٨] . . . إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ .

(٢) [٢ / البقرة / ٢٦] ونصها : إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ، فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ ، وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا . يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا ، وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ .

وفيه نظر ، لأن ما بعده يأباه ، إذ اللام في (لنبيه) نص في أنها لام كي . وأما تسكين اللام في القراءة الشاذة ، فلا دليل فيه ، لاحتمال أنها خففت لإجرائها مجرى كبد ، وكونها معترضة . و (لنبيه) متعلق بمقدر معطوف على ما قبله ، وإن صححه لا يخرج عن كونه خلاف الظاهر - كذا في (العناية) - .

الثاني - قال الشريف قدس سره : أفعاله تعالى يتفرع عليها حكم ومصالح متقنة هي ثمراتها ، وإن لم تسكن عالمًا غائبة لها ، حيث لولاها لم يقدم الفاعل عليها . ومن أهل السنة من وافق المعتزلة في التعليل والغرض الراجع منفعته إلى العباد ، وادعى أنه مذهب الفقهاء والمحدثين .

إذا عرفت هذا ، فاعلم أن حقيقة التعليل عند أهل السنة بيان ما يدل على المصلحة المترتبة على الفعل . وأما تفسيره بالباعث الذي لولاه لم يقدم الفاعل على الفعل ، أو عدم اشتراط ذلك ، فهو من تحقيقات المتكلمين ، لاتعلق له باللغة . وأما عند أهل اللغة فهو حقيقة في ذلك مطلقاً ، والفرق بينها وبين لام العاقبة ، أن لام العاقبة ما تدخل على ما يترتب على الفعل وليس مصلحة . وهل يشترط فيها أن يظنه المتكلم غير مترتب أم لا ، حتى يكون في كلامه تعالى من غير حكاية أم لا ، فيه خلاف - كذا في (العناية) - .

ولما حكى تعالى عن المشركين قدحهم في تصريف الآيات ، أتبعه بالأمر بالثبات على ما هو عليه ، تقوية لقلبه ، وإزالة لما يحزنه ، فقال سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٦] (اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، وَأَعْرِضْ

عَنِ الْمُشْرِكِينَ)

« اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ » أى : من تبليغ الرسالة ، التي هي الآيات المصرفة ، مبالغة في إلزام الحجة . وقوله « لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ » اعترض أكد به إيجاب

الاتباع ، أو حال مؤكدة من (ربك) ، بمعنى : منفرداً في الألوهية . « وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ » قال أبو مسلم : أريد بالإعراض الهجران لهم دون الإنذار ، وترك الموعظة . وقال المهايى : أى لا تحزن عليهم إذا أصروا على الشرك والعمى مع هذه البصائر . فإنه تعالى أراد بقاءهم على الشرك والعمى ، لاقتضاء استعدادهم ذلك .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٧] (وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا ، وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ، وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ

بَوَكِيلٍ)

« وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا » أى : مع استعدادهم ، ولكن جرت سنته برعاية الاستعدادات ، « وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا » أى : هم وإن كان لهم الاستعداد للإيمان فى فطرتهم ، وقد أبطوه ، فأنت وإن كنت داعياً إلى إصلاح الاستعداد الفطرى ، وما جعلناك متولياً عليهم ، تحفظ مصالحهم ، حتى تكون مصاحباً لاستعدادهم الفطرى . « وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ » تدبر عليهم أمورهم ، أو تغيرهم من استعدادهم إلى آخر ، بل هو مفوض إلى الله تعالى ، يفعل بهم بمقتضى استعدادهم الطبيعى لهم من غير تغيير له ، بل هو مفوض إلى اختيارهم - أفاده المهايى - .

تنبيهان :

الأول - فى قوله تعالى (وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا) دليل على أنه تعالى لا يريد إيمان الكافر ، لكن لا بمعنى أنه تعالى يمنعه عنه ، مع توجهه إليه ، بل بمعنى أنه تعالى لا يريد منه ، لعدم صرف اختياره الجزئى نحو الإيمان ، وإصراره على الكفر . والخشعى يفسره بمشيئة إكراه وقسر ، لأن عندهم مشيئة الاختيار حاصلة ألبتة . قال النحرير : وهذه عكازته فى دفع مذهب أهل السنة .

الثانى - قال القاشانى في تفسير قوله تعالى (وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا) : أى كل ما يقع ، فإنما يقع بمشيئة الله ، ولا شك أن استعداداتهم التى وقعوا بها فى الشرك ، وأسباب ذلك ، من تعليم الآباء والعادات وغيرها ، أيضاً واقعة بإرادة من الله ، وإلا لم تقع . فإن آمنوا بذلك فهداية الله ، وإلا فهون على نفسك ، فما جعلناك تحفظهم عن الضلال ، وما أنت بموكل عليهم بالإيمان . ولا ينافى هذا ما قال فى تمييزهم فيما بعد بقوله : (سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا) لأنهم قالوا ذلك عناداً ودفعاً للإيمان بذلك التعلل ، لا اعتقاداً . فقولهم ذلك ، وإن كان صدقاً فى نفس الأمر ، لكنهم كانوا به كاذبين ، مكذبين للرسول ، إذ لو صدقوا لعلموا أن توحيد المؤمنين أيضاً بإرادة الله ، وكذا كل دين ، فلم يعادوا أحد . ولو علموا أن كل شئ لا يقع إلا بإرادة الله لما بقوا مشركين ، بل كانوا موحدين . لكنهم قالوه لغرض التكذيب والعناد ، وإثبات أنه لا يمكنهم الانتهاء عن شركهم ، فلذلك عيّرهم به ، لا لأنه ليس كذلك فى نفس الأمر . فإنهم لم يطلعوا على مشيئة الله ، وأنه كما أراد شركهم فى الزمان السابق ، لم يرد إيمانهم الآن ، إذ ليس كل منهم مطبوع القلب ، بدليل إيمان من آمن منهم . فلم لا يجوز أن يكون بعضهم كانوا مستعدين للإيمان والتوحيد ، واحتجوا بالعادة ، وما وجدوا من آباءهم فأشركوا ، ثم إذا سمعوا الإنذار ، وشاهدوا آيات التوحيد ، اشتاقوا إلى الحق ، وارتفع حجابهم فوحدوا . فلذلك وبخهم على قولهم ، وطلب منهم الحجة على أن الله أرادهم بذلك دائماً ، وأنذرهم بوعيد من كان قبلهم ، لعل من كان فيه أدنى استعداد ، إذا انقطع عن حجته ، وسمع وعيد من قبله من المنكرين ، ارتفع حجابهم ، ولأن قلبه فآمن ، ويكون ذلك توفيقاً له ، ولطفاً فى شأنه ، فإن عالم الحكمة يبتنى على الأسباب . وأما من كان من الأشقياء

(١) [٦ / الأنعام / ١٤٨] ونصها: سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ، كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا، قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا، إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ.

المردودين ، المختوم على قلوبهم ، فلا يرفع لذلك رأساً ، ولا يلقى إليه سمّاً . انتهى .
وليكن هذا على بال منك ، فالمقام دقيق جداً ، وسيأتى بيانه في الآية الآتية إن شاء الله تعالى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٨] (وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدَوًّا بِغَيْرِ عِلْمٍ ،
كَذَلِكَ زَيْنًا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا
يَعْمَلُونَ)

« وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدَوًّا بِغَيْرِ عِلْمٍ » أى :
لا تذكروا آلهتهم ، التى يعبدونها ، بما فيها من القبائح ، لئلا يتجاوزوا إلى الجناب الرفيع .
روى عبد الرزاق عن قتادة قال : كان المسلمون يسبون أصنام الكفار ، فنهوا عنه لذلك .
وقال الزجاج : نهوا أن يلعنوا الأصنام التى كانت تعبدها المشركون . انتهى .

ف (الَّذِينَ يَدْعُونَ) عبارة عن الآلهة ، والمائد مقدر ، والتعبير بـ (الَّذِينَ) على زعمهم
أنهم من أولى العلم ، أو بناء على أن سب آلهتهم سب لهم ، كما يقال : ضرب الدابة صفع
لراكبها . فإن قيل : إنهم كانوا يقرّون بالله وعظمته ، وأن آلهتهم إنما عبدوها لتكون
شفعاء عنده ، فكيف يسبونهم ؟ قلنا : لا يفعلون ذلك صريحاً ، بل يفضى كلامهم إلى ذلك ،
كشتمهم له ولأن يأمره بذلك مثلاً . وقد فسر (بِغَيْرِ عِلْمٍ) بهذا ، وهو حسن جداً .
أو أن الغيظ والغضب ربما حملهم على سب الله صريحاً . ألا ترى المسلم قد تحمله شدة غضبه
على التكلم بالكفر ؟!

و (عَدَوًّا) مصدر ، أى : ظلاماً وعدواناً . يقال : عدا عليه عدواً ، كـ (ضرباً) ،
و (عدواً) كـ (عتوّ) ، و (عداء) كـ (عزاء) ، و (عدواناً) كـ (سبحان) إذا تعدى

وتجاوز ، وهو مفعول مطلق لـ (تسبوا) من معناه ، لأن السب عدوان . أو مفعول له ، أو حال مؤكدة مثل (بَغَيْرِ عِلْمٍ) - كذا في العناية - .

تنبيه :

قال ابن الفرس في الآية : إنه متى خيف من سب الكفار وأصنامهم، أن يسبوا الله أو رسوله أو القرآن ، لم يجوز أن يُسبوا ولا دينهم . قال : وهى أصل فى قاعدة سد الذرائع . قال السيوطى : وقد يستدل بها على سقوط وجوب الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، إذا خيف من ذلك مفسدة أقوى . وكذا كل فعل مطلوب ترتب على فعله مفسدة أقوى من مفسدة تركه .

وقال بعض مفسرى الزيدية : ثمرة الآية أن الحَسَنَ يصير قبيحاً إذا كان يحصل بفعله مفسدة .

قال الحاكم : نهوا عن سب الأصنام لوجهين :

أحدهما : أنها جماد لا ذنب لها .

والثانى : أن ذلك يؤدى إلى المعصية بسبب الله تعالى .

قال : والذى يجب علينا بيان بغضها ، وأنه لا تجوز عبادتها ، وأنها لا تضر ولا تنفع ، وأنها لا تستحق العبادة ، وهذا ليس بسبب . ولهذا قال أمير المؤمنين (يوم صفين) : لا تسبوهم ، ولكن اذكروا قبيح أفعالهم . انتهى .

وقال الزخشرى : فإن قلت : سب الآلهة حق وطاعة ، فكيف صح النهى عنه ، وإنما يصح النهى عن المعاصى ؟ قلت : رب طاعة عُلِمَ أنها تكون مفسدة ، فتخرج عن أن تكون طاعة ، فيجب النهى عنها لأنها معصية ، لأنها طاعة . كالنهي عن المنكر ، هو من أجل الطاعات ، فإذا علم أنه يؤدى إلى زيادة الشر انقلب إلى معصية ، ووجب النهى عن ذلك ، كما يجب النهى عن المنكر . فإن قلت : فقد روى عن الحسن وابن سيرين أنهما حضرا

جنازة ، فرأى محمد نساءً ، فرجع . فقال الحسن : لو تركنا الطاعة لأجل المعصية ، لأسرع ذلك في ديننا . قلت : ليس هذا مما نحن بصدده ، لأن حضور الرجال الجنازة طاعة ، وليس بسبب حضور النساء ، فإنهن يحضرنها ، حضر الرجال أو لم يحضروا . بخلاف سبب الآلهة . وإنما خيل إلى ابن سيرين أنه مثله ، حتى نبه عليه الحسن . انتهى .

ومنه قال بعض مفسري الزيدية : واعلم أن المعصية إن كانت حاصلة لاحتمال ، سواء فعل الحسن أم لا ، لم يسقط الواجب ، ولا يقبح الحسن . انتهى .

وكذا قال الخفاجي : إن الطاعة إذا أدت إلى معصية راجحة ، وكانت سبباً لها ، وجب تركها . بخلاف الطاعة في موضع فيه معصية ، لا يمكن دفعها . وكثيراً ما يشتبهان . ولذا لم يحضر ابن سيرين جنازة اجتمع فيها الرجل والنساء ، وخالفه الحسن للفرق بينهما . انتهى . قال الرازي : وفي الآية تأديب لمن يدعو إلى الدين ، لئلا يتشاغل بما لا فائدة له في المطلوب ، لأن وصف الأوثان بأنها جمادات لا تضر ولا تنفع ، يكفي في القدح في إلهيتها ، فلا حاجة ، مع ذلك ، إلى شتمها .

كَذَلِكَ زَيْنًا لِّكُلِّ أُمَّةٍ « من الأمم الماضية على الضلال » عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ « أى : بالبعث بعد الموت ، » فَيُنَبِّئُهُمْ « أى : يخبرهم » بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ « في الدنيا . وذلك بالحاسبة والمجازاة عليه .

تنبيهات :

الأول - ذهب أهل السنة إلى ظاهر الآية ، من أن المزيّن للكافر الكفر ، وللمؤمن الإيمان ، هو الله تعالى . وذلك لأن صدور الفعل من العبد يتوقف على حصول الداعي ، ولا بد أن يكون ذلك الداعي بخاق الله تعالى . وقد بسط الرازي ذلك ، وساق تأويلات المعتزلة الركيكة ، فانظره !

الثاني - في قوله تعالى : (فَيُنَبِّئُهُمْ) الخ وعيد بالجزاء والعذاب . كقول الرجل لمن يتوعدّه : سأخبرك بما فعلت .

الثالث - فيه نكتة سرية ، مبنية على حكمة أبيّة ، وهى أن كل ما يظهر فى هذه النشأة من الأعيان والأعراض ، فإنما يظهر بصورة مستعارة مخالفة لصورته الحقيقية التى بها يظهر فى النشأة الآخرة . فإن المعاصى سموم قاتلة ، قد برزت فى الدنيا بصورة تستحسنها نفوس العصاة ، كأنطقت بهذه الآية الكريمة ، وكذا الطاعات ، فإنها مع كونها أحسن الأحسن ، قد ظهرت عندهم بصورة مكروهة ، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام ^(١) : خُفَّتْ الجنة بالكاره ، وحفت النار بالشهوات . فأعمال الكفرة قد برزت لهم فى هذه النشأة بصورة مزينة تستحسنها الغواة وتستحبها الطغاة . وستظهر فى النشأة الآخرة بصورتها الحقيقية المنكرة الهائلة ، فعند ذلك يعرفون أن أعمالهم ماذا ؟ فعبر عن إظهارها بصورها الحقيقية بالإخبار بها ، لما أن كلا منهما سبب للعلم بحقيقتها كما هى . فليتدبر ! - أفاده أبو السعود .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٩] (وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ، قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ ، وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ)

« وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ » مصدر فى موقع الحال . أى : أقسموا به تعالى جاهدين فى أيمانهم ، باذلين فى توثيقها طاقتهم « لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ » أى : خارق كما اقترحوا ، « لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ » أى : أمرها فى حكمه وقضائه خاصة ، يتصرف بها حسب مشيئته المبنية على الحكم البالغة ، لاتتعلق بها قدرة أحد ولا مشيئته ، حتى يمكننى أن أنصدى لاستنزائها بالاستدعاء . وهذا سد باب الاقتراح على أبلغ وجه وأحسنه ، ببيان صعوبة منالها ، وعلو شأنها - أفاده أبو السعود -

(١) أخرجه مسلم فى : ٥١ - كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، حديث رقم ١ (طبعنا) رواه أنس بن مالك .

« وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ » قرىء (أَنَّهَا) بالكسر على الاستئناف ، والمفعول الثانى محذوف ، كأنه قيل : وما يدريك إيمانهم ؟ ثم أخبرهم بما علم منهم إخباراً ابتدائياً . أو هو جواب سؤال ، كأنه قيل : لم وُبِّخُوا ؟ فقيل : لأنها إذا جاءت لا يؤمنون ! أو هو مبنى على قوله : (وَمَا يُشْعِرُكُمْ) فإنه أبرز في معرض المحتمل ، كأنه سأل عنه سؤال شاك ، ثم علل بقوله (أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ) جزماً بالطرف المخالف ، وبياناً لكون الاستفهام غير جار على الحقيقة . وفيه إنكار لتصديق المؤمنين على وجه يتضمن إنكار صدق المشركين في القسم عليه . وهذا نوع من السحر البياني ، لطيف المسلك . هذا على أن الخطاب للمؤمنين ، إذ كانوا يتمنون بحجى الآية طمعاً في إيمانهم . وقيل : هو للمشركين ، لقراءة : (لَا يُؤْمِنُونَ) ، فيكون فيه التفات . وقرىء (أَنَّهَا) بالفتح ، وعليه فقيل : مقتضى حسن ظن المؤمنين بهؤلاء المعاندين ، حذف (لا) . وتوضيح ذلك بالمثال أنه إذا قيل لك : أكرم زيداً يكافئك ، قلت في إنكاره : ما أدراك أنى إذا أكرمته يكافئنى ؟! فإن قيل : لا تكرمه فإنه لا يكافئك ، قلت في إنكاره : ما أدراك أنه لا يكافئنى ؟! تريد : وأنا أعلم منه المكافأة . فمقتضى حسن ظن المؤمنين بالمشركين أن يقال : وما يدريك أنها إذا جاءت يؤمنون ، فإثبات (لا) يعكس المعنى ، إلى أن المعلوم لك الثبوت ، وأنت تنكر على من نفى .

وقد وجه الفتح بستة وجوه :

منها - جعل (لا) صلة ، كقوله : (مَا مَنَعَكَ أَنْ لَا تَسْجُدَ)^(١) ، وقوله تعالى : (وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ)^(٢) أى : يرجعون . وضعف الزجاج هذا الوجه ، بأن ما كان لغواً يكون كذلك على جميع التقديرات ، وليس كذلك هنا ، فإن (لا)

(١) [٧ / الأعراف / ١٢] ونصها : قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ، قَالَ

أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ .

(٢) [٢١ / الأنبياء / ٩٥] .

على قراءة الكسر ليست بصلة . وأجاب الفارسيّ بأنه لم لا يجوز أن يكون لغواً على أحد التقديرين ، ومفيداً على التقدير الثاني ؟ انتهى .

ومنها - جمل (أن) بمعنى (لعل) . قال الخليل : تقول العرب : ائت السوق أنك تشتري لنا شيئاً ، أى لملك . فكأنه تعالى قال : لعلها إذا جاءت لا يؤمنون . قال الواحدى : « أن » بمعنى « لعل » كثير في كلامهم ، قال ^(١) الشاعر :

أَرَبْنِي جَوَادًا مَاتَ هَزَلًا لِأَنِّي أَرَى مَا تَرَبَّنَ أَوْ بَحِيلًا مَخْلَدًا
وقال عدى بن ^(٢) حاتم :

أَعَاذَلْ مَا يُدْرِيكَ أَنْ مَنِيَّتِي إِلَى سَاعَةٍ فِي الْيَوْمِ أَوْ فِي ضُحَى الْغَدِ
ويؤيده أن (يشمر كم) و (يدريكم) بمعنى . وكثيراً ما تأتي (لعل) بعد فعل الدراية ، نحو (وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَكِّي) ^(٣) . وفي مصحف أبيّ (وَمَا أَدْرَاكَ لَعَلَّهَا إِذَا جَاءَتْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ) .

ومنها - جمل (أن) بمعنى هل .
ومنها - جعل الكلام جواب قسم محذوف بناء على أن (إن) في جواب القسم يجوز فتحها . والذي ارتضاه الزمخشريّ وتبعه المحققون حمل الكلام على ظاهره ، وأن الاستفهام

(١) استشهد به الطبري في التفسير ، (ج ٣ ص ٧٨ طبعة المعارف) .

قال : يعني بقوله « أَرَبْنِي » دليلى عليه وعرفيى مكانه ، ولم يعن به رؤية العين .
واستشهد به مرة أخرى (ج ١٢ ص ٤٢ طبعة المعارف) قال : (لِأَنِّي) بمعنى لعلنى .
كما استشهد به المؤلف هنا .

(٢) استشهد به الطبري في التفسير (ج ١٢ ص ٤١ طبعة المعارف) قال : بمعنى (لعلّ منيتى) .

(٣) [٨٠ / عبس / ٣] .

في معنى النفي ، والإخبار عنهم بعدم العلم لا إنكار عليهم . والمعنى : وما يدريككم أن الآية التي يقترحونها إذا جاءت لا يؤمنون بها . يعني : أنا أعلم أنها إذا جاءت لا يؤمنون بها ، وأنتم لا تدرّون ذلك .

قال في (الانتصاف) : لما جاءت الآية تفهم ، بباديء الرأي ، أن الله تعالى علم الإيمان منهم ، وأنكر على المؤمنين نفهم له ، والواقع على خلاف ذلك . اختلف العلماء (وساق نحو ما قدمنا في الوجوه) ثم قال : وأما الزمخشريّ فتفطن لبقاء الآية على ظاهرها وقرارها في نصابها ، من غير حذف ولا تأويل . فقال قوله السالف . ونحن نوضح اطرادها في المثال المتقدم ، ليتضح بوجهيه في الآية ، فنقول : إذا حرمت زيدا لعلكم بعدم مكافأته ، فأشير عليك بالإكرام بناء على أن المشير يظن المكافأة ، فلك معه حالتان : حالة تنكر عليه ادعاء العلم بما يعلم خلافه ، وحالة تعذره في عدم العلم بما أحطت به علما . فإن أنكرت عليه قلت : وما يدريك أنه يكافئ ؟ وإن عذرت في عدم علمه بأنه لا يكافئ قلت : وما يدريك أنه لا يكافئ ؟ يعني : ومن أين تعلم أنت ما علمته أنا من عدم مكافأته ، وأنت لا تخبر أمره خبري . فكذلك الآية إنما ورد فيها الكلام إقامة عذر للمؤمنين في عدم علمهم بالمغيّب في علم الله تعالى ، وهو عدم إيمان هؤلاء . فاستقام دخول (لا) وتمين ، وتبين أن سبب الاضطراب التباس الإنكار بإقامة الأعذار . انتهى

وفي نفي السبب ، وهو الإشعار ، مبالغة في نفي السبب ، وهو الشعور .

قال الخفاجي : وفي نفي السبب بهذا الطريق مبالغة ليست في نفيها بدونها ، لأن في الكناية إثبات الشيء ببيّنة . وفيه تعريض بأن الله عالم بعدم إيمانهم ، على تقدير مجيء الآية المقترحة لهم ، وتنبيه على أنه تعالى لم ينزلها لعلمه بأنها إذا جاءت لا يؤمنون . فعدم الإنزال لعدم الإيمان . و (يشعركم وينصركم) ونحوه ، قرىء بضم خالص وسكون واختلاس .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١٠] (وَتُكَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ)

« وَتُكَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ » عطف على (لا يؤمنون) ، داخل في حكم (ما يشعركم) ، مقيد بما قيد به . أى : وما يشعركم أنا قلب أفئدتهم عن إدراك الحق فلا يفقهونه . وأبصارهم عن اجتلائه فلا يبصرونه ، لكن لامع توجهها إليه ، واستعدادها لقبوله ، بل لكمال نبوتها عنه ، وإعراضها بالكلية . ولذلك أخر ذكره عن ذكر عدم إيمانهم ، إشعارا بأصالتهم في الكفر ، وحسما لتوهم أن عدم إيمانهم ناشئ من تقلبيه تعالى مشاعرهم بطريق الإجبار - أفاده أبو السعود .

« كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ » أى : بما جاء من الآيات « أَوَّلَ مَرَّةٍ » أى : قبل سؤالهم الآيات التي افترحوها ، « وَنَذَرُهُمْ » أى : ندعهم « فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ » أى : يترددون متحيرين ، لا نهديهم هداية المؤمنين .

قال أبو السعود (ونذرهم) عطف على (لا يؤمنون) ، داخل في حكم الاستفهام الإنكارى ، مقيد بما قيد به ، مبين لما هو المراد بتقليب الأفئدة والأبصار ، ومعرب عن حقيقته بأنه ليس على ظاهره ، بأن يقلب الله سبحانه مشاعرهم عن الحق ، مع توجههم إليه ، واستعدادهم له بطريق الإجبار ، بل بأن يخليهم وشأنهم ، بعد ما علم فساد استعدادهم ، وفرط نفورهم عن الحق ، وعدم تأثير اللطف فيهم أصلا ، ويطبع على قلوبهم حسبا يقتضيه استعدادهم ، كما أشرنا إليه . انتهى

وفى (الباب) : فى الآية دليل على أن الله تعالى يهدى من يشاء ، ويضل من يشاء ، وأن

القلوب والأبصار بيده وفي تصريفه ، فيقيم ما شاء منها ، ويزيغ ما أراد منها . ومنه قوله ﷺ^(١) : يا مقلب القلوب ! ثبت قلبي على دينك . انتهى .

ثم بين تعالى كذبهم في أيمانهم الفاجرة على أبلغ وجه وآكده بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١١] (وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ)

« وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ » أى : ولو أننا لم نقتصر على إيتاء ما اقترحوه هنا من آية واحدة ، بل نزلنا إليهم الملائكة ، كما قالوا (لَوْ لَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ)^(٢) .

« وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى » كما قالوا (فَأَنُؤَا بِأَبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)^(٣) ، « وَحَشَرْنَا » أى : جمعنا « عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ » من الحيوانات والنباتات والجمادات ، « قُبُلًا » أى : كفلاء بصحة ما بشروا به وأنذروا « مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا » لغوهم فى التمرد والظفیان ، « إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ » أى : إيمانهم فىؤمنوا ، « وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ » أى :

(١) أخرجه الترمذى فى : ٣٠ - كتاب القدر ، ٧ - باب ما جاء أن القلوب بين

إصبعى الرحمن ، ونصه :

عن أنس قال : كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول « يا مقلب القلوب ! ثبت قلبي على دينك » فقلت : يا رسول الله ! آمنا بك وبما جئت به ، فهل تخاف علينا ؟ قال « نعم . إن القلوب بين إصبعين من أصابع الله ، يقلبها كيف يشاء » .

(٢) [٢٥ / الفرقان / ٢١] ونصها : وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْ لَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا ، لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا .

(٣) [٤٤ / الدخان / ٣٦] .

لأنهم لو أوتوا كل آية لم يؤمنوا ، فيقسمون بالله جهد أيمانهم على ما لا يكاد يكون .
أو يجهلون أن الإيمان بمشيئة الله لا بخوارق العادات .

قال القاشاني : وفي الحقيقة لا اعتبار بالإيمان المرتب على مشاهدة خوارق العادات ، فإنه ربما كان مجرد إذعان لأمر محسوس ، وإقرار باللسان ، وليس في القلب من معناه شيء ، كما يمان أصحاب السامري . والإيمان لا يكون إلا بالجنان ، كما قال تعالى (قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ، قُلْ لَمْ تُوْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ)^(١) .

تنبيهان :

الأول - يقرأ (قُبْلًا) بضم القاف والباء ، وفيه وجهان : أحدهما : هو جمع قبيل بمعنى السكفيل ، مثل قليب وقُلب ؛ والآخر : أنه مفرد ، كقبيل الإنسان ودُبره . وعلى كلا الوجهين هو حال من كل . ويقرأ بالضم وسكون الباء على تخفيف الضمة . ويقرأ بكسر القاف وفتح الباء ، وانتصابه على الظرفية . كقولهم : لي قبل فلان حق . أو على الحالية ، وهو مصدر ، أي عياناً ومشاهدة .

الثاني - في قوله تعالى : (إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ) حجة واضحة على المعتزلة ، لدلالته على أن جميع الأشياء بمشيئة الله تعالى ، حتى الإيمان والكفر . وقد اتفق سلف هذه الأمة ، وحمله شريعتها على أنه ما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن . وللمعتزلة تحيل في المدافعة بحمل المشيئة المنفية ، على مشيئة القسر والاضطرار . وإنما يتم لهم ذلك أن لو كان القرآن يتبع الآراء . وأما وهو القدوة والتبوع ، فما خالفه حيثئذ وتزحزح عنه ، فإلى النار ، وما بعد الحق إلا الضلال . ثم سأل تعالى نبيه عما كان يقاسيه من قومه ، بتأسيه بمن سبقه من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، فقال سبحانه :

(١) [٤٩ / الحجرات / ١٤] ... وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١٢] (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ، وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ، فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ)

« وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ » أى : مثل ذلك الجمل الذى جعلناه فى حقك ، حيث جعلنا لك عدوًا يضادونك ولا يؤمنون ، جعلنا لكل نبيٍّ تقدمك عدوًا من مَرَدَّةِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ ، فعلوا بهم ما فعل بك أعداؤك ، كما قال تعالى : (مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدَرْنَا قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ) ^(١) . وقال ورقة بن نوفل للنبي ﷺ ^(٢) : لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودى .

« يُوحِي » أى : يلتقى ويوسوس « بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ » أى : المموه منه ، المزين ظاهره ، الباطل باطنه ، « غُرُورًا » أى : للضمفاء ، لأن الله تعالى جعلهم أهل الحجاب ، وكذا الغارين ، ليقهرهم بمقتضى استعدادهم . وفى الآية دليل على أن عداوة الكفرة للأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، بفعل الله سبحانه وتعالى ، وخلقه .

قال المهيبي : لتظهر الحجج بمجادلتهم ، وترتفع شبهاتهم ، ولئلا يقال إنه شخص ساعده الكل ليأكلوا أموال الناس ، أو يتواسوا عليهم .

« وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ » أى : ما فعلوا ذلك ، يعنى : معاداة الأنبياء ، وإيحاء الزخارف . وهو أيضاً دليل على المعتزلة . « فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ » أى : من الكفر ، فسوف يعلمون . ثم عطف على قوله (غُرُورًا) علة ثانية للإيحاء بقوله تعالى :

(١) [٤١ / فصلت / ٤٣] . . . إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ .

(٢) هذه قطعة من الحديث الطويل الذى أخرجه البخارى فى : ١ - كتاب بدء الوحي ،

١ - حدثنا عبد الله بن يوسف . روته سيدتنا عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٣] (وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ)

« وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ » أى : يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول ، ليغترهم به ، ولتميل إليه « أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ » لمساعدته لهم على أهوائهم ، « وَلِيَرْضَوْهُ » أى : لأنفسهم بعد ما مالت إليه قلوبهم ، « وَلِيَقْتَرِفُوا » أى : وليكتسبوا بموجب ارتضاؤهم له ، « مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ » أى : من الآثام .

قال القاشانى : فتقوى غوايتهم ، ويتظاهرون ، ويخرج ما فيهم من الشرور إلى الفعل ، ويزدادوا طغياناً وتعدياً على النبىؐ ، فتزداد قوة كماله ، وتهيج أيضاً بسببه دواعى المؤمنين ، والذين فى استعدادهم مناسبة للنبىؐ ، فتنبعث حميتهم ، وتزداد محبتهم للنبىؐ ، ونصرهم إياه ، فتظهر عليهم كمالاتهم .

لطيفة :

إنما خص بالذكر عدم إيمانهم بالآخرة ، دون ما عداها من الأمور التى يجب الإيمان بها ، وهم بها كفرون ، إشعاراً بما هو المدار فى صفو أفئدتهم إلى ما يلقى إليهم ، فإن لذات الآخرة محفوفة فى هذه النشأة بالمكاره ، وآلامها مزينة بالشهوات ، فالذين لا يؤمنون بها ، وبأحوال ما فيها ، لا يدرون أن وراء تلك المكاره لذات ، ودون هذه الشهوات آلاماً ، وإنما ينظرون إلى ما بدا لهم فى الدنيا بادى الرأى ، فهم مضطرون إلى حب الشهوات ، التى من جملتها مزخرفات الأفاويل ، ومموهات الأباطيل . وأما المؤمنون بها ، فحيث كانوا واقفين على حقيقة الحال ، ناظرين إلى عواقب الأمور ، لم يتصور منهم الميل إلى تلك المزخرفات ، لعالمهم ببطالانها ، ووخامة عاقبتها - أفاده أبو السعود - .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١٤] (أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا ،
وَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِمْ يُكْفِّرُهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ ، فَلَا تَكُونَنَّ
مِنَ الْمُفْتَرِينَ)

وقوله تعالى « أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا » على تقدير القول ، كما في نظائره ، أى : قل
لهم : أغير الله أطلب من يحكم بيني وبينكم ، ويفصل الحق منا من البطل . والمعنى : أطلب
معبودًا ، لأنهم كانوا يتحاكمون إلى طواغيتهم - وهذا عندى أظهر - ثم رأيت في (تنوير
المقباس) الاختصار عليه ، حيث قال (أَبْتَغِي حَكَمًا) أعبد ربًّا . وأما كون الآية واردة
على قولهم (اجعل بيننا وبينك حكمًا) فلا يصح ، لأنهم بمنزل عن الانصياع لذلك .
« وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ » أى : القرآن المجز ، « مُفَصَّلًا » أى : مبينًا
فيه الفصل بين الحق والباطل ، والحلال والحرام ، وأنتم أمة أمية ، لا تدرون ما تأتون
وما تزدرون .
وفي الآية .

مسائل :

الأولى - قال في (الإكليل) : استدلل الخوارج بقوله تعالى (أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا)
على إنكارهم التحكيم . قال : وهو مردود ، فإن التحكيم المنكر أن يريد حكمًا يحكم بغير
ما حكم الله تعالى . انتهى .

قلت : هذا مبنى على الوجه الأول ، وقد عرفت أن الأظهر الوجه الثانى ، فلا استدلال ،
ولا رد .

الثانية - قالوا : الحكم أبلغ من الحاكم ، وأدل على الرسوخ ، لما أنه لا يطلق إلا على
العادل ، وعلى من تكرر منه الحكم ، بخلاف الحاكم .

الثالثة - في الآية تنبيه على أن القرآن الكريم كافٍ في أمر الدين، مغنٍ عن غيره، ببيانه وتفصيله .

« وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ » لما عندهم من البشارات بك من الأنبياء المتقدمين ، ولتصديقه ما عندهم ، مع أنه عليه الصلاة والسلام لم يمارس كتبهم ، ولم يخالط علماءهم . وهذا تقرير لكونه منزلاً من عند الله ببيان أن الذين وثق بهم المشركون من علماء أهل الكتاب عالمون بحقيقته ونزوله من عنده تعالى .

« فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُفْتَرِينَ » أى : في أنه منزل من ربك بالحق ، بسبب جحد أكثرهم وكفرهم به ، فيكون من باب التهيج والإلهاب ، كقوله تعالى (وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُفْتَرِينَ)^(١) .

قال ابن كثير : هذا كقوله تعالى (فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ ، لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُفْتَرِينَ)^(٢) . قال : وهذا شرط ، والشرط لا يقتضى وقوعه . ولهذا جاء عن رسول الله ﷺ أنه قال : لا أشك ولا أسأل . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١٥] (وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ، لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ ، وَهُوَ السَّمِيعُ

الْعَلِيمُ)

« وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ » وقرئ (كلمات ربك) أى : بلغت الغاية أخباره وأحكامه ومواعيده « صِدْقًا » في الأخبار والمواعيد « وَعَدْلًا » في الأقضية والأحكام .

(١) [٦ / الأنعام / ١٤] ونصها : قُلْ أَغْيَرَ اللَّهُ اتَّخَذُ وَلِيًّا فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ، قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ . . .

(٢) [١٠ / يونس / ٩٤] .

وقال القاشاني : أى تم قضاؤه تعالى فى الأزل بما قضى وقدر من إسلام من أسلم ، وكفر من كفر ، ومحبة من أحب ، وعداوة من عادى ، قضاءً مبرماً ، وحكماً صادقاً ، مطابقاً لما يقع ، عادلاً بمناسبة كل قول وكل كمال وحال ، لاستعداد من يصدر عنه واقتضائه له . انتهى .

« لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ » أى : لا أحد يبدل شيئاً منها بما هو أصدق وأعدل . أو لا أحد يقدر أن يحرّفها شيئاً دائماً ، كما فعل بالتوراة . على أن المراد بها القرآن ، فيكون ضماناً لها منه تعالى بالحفظ ، كقوله (وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)^(١) .

وقال القاشاني : أى لا مبدل لأحكامه الأزلية . انتهى .

قال السيوطى فى (الإكمال) : يستدل به من قال إن اليهود والنصارى لم يبدلوا لفظ التوراة والإنجيل ، وإنما بدلوا المعنى ، لأن كلمات الله لا تبدل . انتهى - وهو رواية^(٢) عن ابن عباس - أخرجها البخارى فى آخر صحيحه . وبسط المقام فى ذلك الحافظ ابن حجر فى (فتح البارى) . وتقدم لنا فى سورة البقرة شذرة من هذا البحث ، فجدد به عهداً .

« وَهُوَ السَّمِيعُ » لما يظهرون من الأقوال « الْعَلِيمُ » أى بما يخفون .

ثم حذر تعالى من الركون إليهم والعمل بآرائهم بقوله :

(١) [١٥ / الحجر / ٩] ونصها : إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ .

(٢) أخرج البخارى فى : ٩٧ - كتاب التوحيد ، ٥٥ - باب قوله الله تعالى : بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ .

وانظر فى ذلك ، وفى مثله ، كتابنا (معجم غريب القرآن ، مستخرجاً من صحيح البخارى) فففيه كل ما صح عن ابن عباس . ونصه : يحرّفون ، يزيلون . وليس أحد يزيل لفظ كتاب من كتب الله عز وجل ، ولكنهم يحرّفونه يتأولونه على غير تأويله .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١٦] (وَإِنْ تُطِيعُوا أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ لِيُضِلُّوكُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ، إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ)

« وَإِنْ تُطِيعُوا أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ » أى : من الناس ، وهم الكفار « يُضِلُّوكُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ » أى : عن الطريق الموصل إليه ، بتزيينهم زخارفهم عليك ، ودعوتهم إليك إلى ما هم فيه من اتباع الهوى ، كما قال « إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ » وهو ظنهم أن آباءهم كانوا على الحق ، فهم يقلدونهم ، « وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ » يكذبون على الله تعالى فيما ينسبون إليه ، كاتخاذ الولد ، وجعل عبادة الأوثان وصلة إليه ، وتحليل الميتة ، وتحريم البحائر . و (إِنْ) فيه وفيما قبله نافية . والخرص : الحزر والتخمين ، وقد يعبر به عن الكذب والافتراء ، وأصله القول بالظن ، وقول ما لا يستيقن ويتحقق - قاله الأزهري - .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١٧] (إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ)

« إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ » تقرير لمضمون الشرطية ، وما بعدها . وتأكيده لما يفيد من التحذير . أى : هو أعلم بالفريقين ، فاحذر أن تكون من الأولين . - أفاده أبو السعود -

تنبية :

قال الرازي : تمسك نفاة القياس بهذه الآية فقالوا : رأينا أن الله تعالى بالغ في ذم الكفار في كثير من آيات القرآن ، بسبب كونهم متبعين للظن . والشئ الذي يجعله الله تعالى موجبا لذم الكفار ، لابد وأن يكون في المعنى في أقصى مراتب الذم . والعمل بالقياس يوجب اتباع الظن ، فوجب كونه مذموماً محرماً . لا يقال : لما ورد الدليل القاطع بكونه حجة ، كان العمل به عملاً بدليل مقطوع ، لا بدليل مظنون . لأننا نقول : هذا مدفوع من وجوه :

الأول - أن ذلك الدليل القاطع إما أن يكون عقلياً ، وإما أن يكون سمعياً ، والأول باطل ، لأن العقل لا مجال له في أن العمل بالقياس جائز أو غير جائز ، لاسيما عند من ينكر تحسين العقل وتقييحه . والثاني أيضاً باطل ، لأن الدليل السمعي إنما يكون قاطعاً لو كان متواتراً ، أو كانت ألفاظه غير محتملة لوجه آخر ، سوى هذا المعنى الواحد . ولو حصل مثل هذا الدليل لعلم الناس بالضرورة كون القياس حجة ، ولارتفع الخلاف فيه بين الأمة . فحيث لم يوجد ذلك ، علمنا أن الدليل القاطع على صحة القياس مفقود .

الثاني - هب أنه وجد الدليل القاطع على أن القياس حجة ، إلا أن مع ذلك لا يتم العمل بالقياس إلا مع اتباع الظن . وبيانه أن التمسك بالقياس مبنى على مقامين : الأول : أن الحكم في محل الوفاق معلل بكذا . والثاني : أن ذلك المعنى حاصل في محل الخلاف . فهذان المقامان ، إن كانا معلومين على سبيل القطع واليقين ، فهذا مما لا خلاف فيه بين العقلاء في صحته . وإن كان مجموعهما ، أو كان أحدهما ظنياً ، فحينئذ لا يتم العمل بهذا القياس إلا بمتابعة الظن ، وحينئذ يندرج تحت النص الدال على أن متابعة الظن مذمومة . والجواب لم لا يجوز أن يقال : الظن عبارة عن الاعتقاد الراجح إذا لم يستند إلى أمانة ، وهو مثل اعتقاد الكفار . أما إذا كان الاعتقاد الراجح مستنداً إلى أمانة ، فهذا الاعتقاد لا يسمى ظناً ، وبهذا الطريق سقط هذا الاستدلال . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١٨] (فَكُلُّوا مِمَّا ذُكِّرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ)

وقوله تعالى : « فَكُلُّوا مِمَّا ذُكِّرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ » أمر مرتب على النهي عن اتباع المضلين الذين من جملة إضلالهم تحليل الحرام وتحريم الحلال . وذلك أنهم خاصموا المسلمين فقالوا : ما ذبح الله لنا كونه ، وما ذبحتم أتم أكلتموه - أخرجه النسائي^(٣) عن ابن عباس -

(١) أخرجه النسائي في : ٤٣ - كتاب الضحايا ، ٤٠ - باب تأويل قول الله عز وجل : وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ .

فنزلات الآية . والمعنى : كلوا مما ذكر اسم الله على ذبحه ، لرفعه تنجيس الموت إياه المانع من الأكل ، لا مما ذكر عليه اسم غيره ، أو مات حتف أنفه .

« إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ » فَإِنَّ الْإِيمَانَ بِهَا يَقْتَضِي اسْتِبَاحَةَ مَا أَحْلَاهُ سُبْحَانَهُ ، واجتناب ما حرمه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١٩] (وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرُّرْتُمْ إِلَيْهِ، وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَاءِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ، إِنْ رَبُّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ)

وقوله تعالى : « وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ » إنكار لأن يكون لهم شيء يدعوهم إلى الاجتناب عن أكل ما ذكر عليه اسم الله تعالى من البحار والسواحب . أى : وأى غرض لكم فى أن تتخرجوا من أكله ، وما يمنعكم عنه ؟ « وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ » أى : بينه ووضحه .

قال بعض المفسرين : يعنى فى آية المائدة فى قوله تعالى : (حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ) ... الآية^(١) . ورد بأن المائدة من آخر ما نزل بالمدينة ، والأنعام مكية . فالصواب أن التفصيل إما

(١) [٥ / المائدة / ٣] ونصها : حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخَيْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ، ذَلِكُمْ فِسْقٌ ، الْيَوْمَ يَكْفُرُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ ، الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا ، فَمَنْ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمِهِ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

في قوله تعالى بعد هذه الآية (قُلْ لَا أَجِدُ فِيمَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا ...)^(١) الآية ، فإنه ذكر بعدُ بيسير ، وهذا القدر من التأخر لا يمنع أن يكون هو المراد ؛ وإما على لسان الرسول ، ثم أنزل بعد ذلك في القرآن . و (فصل) و (حرم) قرىء كل منهما معلوماً ومجهولاً . ومعنى الآية : لا مانع لكم من أكل ما ذكر ، وقد بين لكم المحرم أكله ، وهذا ليس منه .

« إِلَّا مَا اضْطُرُّرْتُمْ إِلَيْهِ » أى : مما حرم عليكم . أى : إلا أن تدعوكم الضرورة إلى أكله بسبب شدة الحاجة ، فيباح لكم .
« وَإِنْ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ » قرىء بفتح الياء وضمها « بِأَهْوَائِهِمْ بَغَيْرِ عِلْمٍ » أى : يضلون فيحرمون ويحللون بأهوائهم وشهواتهم ، من غير تعلق بشريعة .
« إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ » أى : المتجاوزين لحدود الحق إلى الباطل ، والحلال إلى الحرام .

تنبيه :

قال الرازى : دلت هذه الآية على أن القول في الدين بمجرد التقليد حرام ، لأن القول بالتقليد قول بمحض الهوى والشهوة ، والآية دلت على أن ذلك حرام . انتهى .
وقال بعض الزيدية : فى الآية دلالة على تحريم الفتوى والحكم بغير دلالة ، ولكن اتباع الهوى .

ولما بين تعالى أنه فصل المحرمات ، أتبعه بما يوجب تركها بالكلية ، فقال سبحانه :

(١) [٦ / الأنعام / ١٤٥] ونصها : قُلْ لَا أَجِدُ فِيمَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خَنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهْلًا لِّغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ، فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢٠] (وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ، إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ)

«وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ» أى : سيئات الأعمال والأقوال الظاهرة على الجوارح «وَبَاطِنَهُ»

أى : ما يستر منه بالقلب كالمقائد الفاسدة ، والعزائم الباطلة . أو ما يملن من الذنوب وما يستر منها ، ويستتر فيه .

قال السدى : ظاهره الزنا مع البغايا ذوات الرايات ، وباطنه مع الخيلة والصدائق والأخذان . ولا يخفى أن اللفظ عام في كل محرم ، ولذا قال قتادة : أى سره وعلايته ، قليله وكثيره ، وصغيره وكبيره . كقوله تعالى ^(١) : (قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ) .

«إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ» أى : يكتسبون .

قال الشهاب : الاعتراف في اللغة الاكتساب ، وأكثر ما يقال في الشر والذنوب . ولذا قيل : الاعتراف يزيل الاعتراف . وقد ورد في الخير كقوله تعالى ^(٢) : (وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا) انتهى .

وقد روى ^(٣) مسلم وغيره عن نؤاس بن سمان قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(١) [٧ / الأعراف / ٣٣] ... وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ .

(٢) [٤٢ / الشورى / ٢٣] ونصها : ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ، قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى ، وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ .

(٣) أخرجه مسلم في : ٤٥ - كتاب البر والصلة والآداب ، حديث رقم ١٥ (طبعتنا) .

البر حسن الخلق ، والإثم ما حاك في نفسك ، وكرهت أن يطلع عليه الناس .
قال الحاكم : في الآية دلالة على أن العبد يؤاخذ بأفعال القلب ، كما يؤاخذ بأفعال الجوارح . اهـ .
أى : على التفسير الأول فيها .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢١] (وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ، وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ، وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ)

« وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ » أى : عند ذبحه . أى : بأن ذكر عليه اسم غيره ، يعنى : ذبح لغيره تعالى . « وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ » والفسق ما أهل لغير الله به ، كما في الآية الآتية آخر السورة . قال المهايى . « (وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ) » أى : خروج عن الحسن إلى القبح ، بتناول ما تنجس بالموت بلا مانع عن تأثيره . « وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ » أى : يوسوسون « إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ » أى : من الكفار ، « لِيُجَادِلُوكُمْ » أى : فى تحليل الميتة ، « وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ » أى : فى تحليل ما حرم الله ، أو تحريم ما أحل ، « إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ » أى : لهم مع الله ، فيما يختص به من التحليل والتحرير .

تنبيهات

الأول - روى فى سبب نزول هذه الآيات عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : أتى ناس إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقالوا : يا رسول الله ! إنا نأكل ما نقتل ، ولا نأكل ما يقتل الله تعالى ، فأنزل الله تعالى : (فَكُلُوا مِمَّا ذُكِّرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ) إلى قوله : « وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ » . أخرجه أصحاب السنن (٢) .

وفى رواية لأبى داود فى قوله تعالى : (وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ

(١) [٦ / الأنعام / ١١٨ - ١٢١] .

(٢) أخرجه أبوداود فى : ١٦ - كتاب الأضاحى ، ١٢ - باب فى ذبائح أهل الكتاب ،

لِيَجَادِلُوكُمْ) قال : يقولون ما ذبح الله - فلا تأكلوا ، وما ذبحتم أنتم فاكلوا ؟ فأنزل الله تعالى : (وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ) وفي أخرى : (فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ) ، فنسخ ، واستثنى من ذلك فقال : (وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ) (١) .

وعند النسائي (٢) قال : خاصهم المشركون ، فقالوا : ما ذبح الله لنا كونه ، وما ذبحتم أنتم أكلتموه ؟ - كذا في تيسير الوصول .

الثاني - دلت الآية على مشروعية التسمية عند الذبح ف قيل : باسم الله ، بهذا اللفظ الكريم . وقيل : بكل قول فيه تعظيم له كالحمن ، وسائر أسمائه الحسنى ، لقوله تعالى : (قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ) (٣) ولقوله تعالى : (وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا) (٤) .

الثالث - ما قدمناه من حمل الآية على ما ذبح لغير الله تعالى هو الأظهر في تأويلها ، لقوله تعالى بعد : « أَوْ فِسْقًا أَهْلًا لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ » ومراعاة النظائر في القرآن أولى ما يلتزم به المراد .

وقد روى ابن أبي حاتم عن عطاء قال : نزلت في ذبائح كانت تذبحها قريش على الأوثان ،

(١) في الباب السابق ، حديث ٢٨١٨ و ٢٨١٧

(٢) أخرجه النسائي في : ٤٣ - كتاب الضحايا ، ٤٠ - باب تأويل قوله عز وجل : وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ .

(٣) [١٧ / الإسراء / ١١٠] . . . أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ، وَلَا تَجْهَرُوا بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا .

(٤) [٧ / الأعراف / ١٨٠] . . . وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ، سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ .

وذبائح الجوس . وقد حاول بعضهم أن يقويه فجعل الواو في قوله : (وَإِنَّهُ لَفَسِقٌ) حالية ، لقبح عطف الخبر على الإنشاء . قال : والمعنى : لا تأكلوه حال كونه فسقاً . والفسق مجمل يفسره قوله : (أَهْلٌ لِّغَيْرِ اللَّهِ بِهِ) ، فيكون النهي مخصوصاً بما أهل لغير الله به ، فيبقى ما عداه حلالاً ، إما بالمفهوم ، أو بعموم دليل الحل ، أو بحكم الأصل . واعترض على هذا الحل بأنه يقتضى أن لا يتناول النهي أكل الميتة ، مع أنه سبب النزول ، وبأن التأكيـد بـ (إن) و (اللام) ينفي كون الجملة حالية ، لأنه إنما يحسن فيما قصد الإعلام بتحقيقه ألبتة ، والرد على منكر تحقيقاً أو تقديرًا (على ما بين في المعاني) ، والحال الواقع في الأمر والنهي مبناه على التقدير ، كأنه قيل : لا تأكلوا منه إن كان فسقاً ، فلا يحسن (وإنه لفسق) بل (وهو فسق) وأجيب عن الأول بأنه دخل بقوله : (وَإِنَّهُ لَفَسِقٌ) (مَا أَهْلٌ لِّغَيْرِ اللَّهِ بِهِ) وبقوله : (وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ . . .) إلخ الميتة ، فيتحقق أن هذا النهي مخصوص بما ذبح على النصب ، أو مات حتف أنفه . وعن الثانى بأنه لما كان المراد بالفسق ههنا الإهلال لغير الله ، كان التأكيـد مناسباً ، كأنه قيل : لا تأكلوا منه إذا كان هذا النوع من الفسق الذى الحكم به متحقق ، والمشركون ينكرونه - كذا في العناية .

ومما يقويه أيضاً قوله تعالى : (وَإِنَّهُ لَفَسِقٌ) على أن المراد به الخروج عن طاعة الله تعالى ، وهو وجه ثان فيه ، وقوله تعالى : (إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ) فإن من أكل الميتة ، أو ما ذبح على النصب فسق ، ومع الاستحلال يكفر ، بخلاف ما ذبحه المسلم ولم يسم عليه ، فإن آكله لا يفسق ولا يكفر إجماعاً - أشار له الرازى - وحينئذ فلا دلالة في الآية على تحريم ذبيحة المسلم التى تركت التسمية عليها ، عمداً أو سهواً .

وقد روى أبو داود فى (مراسيله) عن الصلت السدوسى قال : قال رسول الله ﷺ : ذبيحة المسلم حلال ، ذكر اسم الله أولم يذكره ، إنه إن ذكر لم يذكر إلا اسم الله . قال الحافظ ابن كثير : وهذا مرسل يعضد بما رواه الدارقطنى عن ابن عباس أنه قال : إذا ذبح المسلم ولم يذكر اسم الله ، فليأكل ، فإن المسلم فيه اسم من أسماء الله تعالى .

واحتج البهقي أيضاً بحديث عائشة رضی الله عنها أن قوماً قالوا للنبي ﷺ : إن قوماً يأتوننا باللحم لا ندرى أذكر اسم الله عليه أم لا ، فقال : سموا عليه أنتم وكلوه . قالت : وكانوا حديثي عهد بكفر - رواه البخاري^(١) والنسائي - قال : فلو كان وجود التسمية شرطاً لم يرخص لهم إلا مع تحققها . وكذا قال الخطابي : فيه دليل على أن التسمية غير شرط على الذبيحة ، لأنها لو كانت شرطاً لم تستبح الذبيحة بالأمر المشكوك فيه ، كما لو عرض الشك في نفس الذبيحة ، فلم يعلم هل وقعت الذكاة المعتبرة أم لا ؟ وهذا هو التبادر من سياق الحديث ، حيث وقع الجواب فيه : (سموا أنتم) ، كأنه قيل لهم : لا تهتموا بذلك ، بل الذي يهمكم أنتم أن تذكروا اسم الله وتأكلا . وهذا من الأسلوب الحكيم . وما يدل أيضاً قوله تعالى : (وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ)^(٢) فأباح الأكل من ذبائحهم ، مع وجود الشك في أنهم سموا أم لا . هذا ، وقد تمسك بظاهر الآية قوم فذهبوا إلى أن الذبيحة لا تحل إذا لم يذكر اسم الله عليها ، وإن كان الذابح مسلماً ، عمداً تركت التسمية أو نسياناً . واحتجوا أيضاً بقوله تعالى في آية الصيد : (فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ)^(٣) ، وبالأحاديث الواردة في الأمر بالتسمية عند الذبيحة والصيد ،

(١) أخرجه البخاري في : ٧٢ - كتاب الذبائح والصيد ، ٢١ - باب ذبيحة الأعراب

ونحوهم ، حديث ١٠٣٨ .

(٢) [٥ / المائة / ٥] ونصها : الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ ، وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ ، وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ ، وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنْ الْخَاسِرِينَ .

(٣) [٥ / المائة / ٤] ونصها : يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ ، قُلْ أُحِلَّ لَكُمْ =

كحديثي عدى^(١) بن حاتم وأبي ثعلبة^(٢) : إذا أرسلت كلبك المعلم ، وذكرت اسم الله فكل ، وما في الصحيحين .

= الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ ، فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ ، إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ .
(١) أخرجه البخاري في : ٧٢ - كتاب الذبائح والصيد ، ١٠ - باب ما جاء في التصيد ، حديث ١٤١ ونصه :

عن عدى بن حاتم رضي الله عنه قال : سألت رسول الله ﷺ فقلت : إنا قوم نتصيد بهذه الكلاب ؟ فقال « إذا أرسلت كلابك المعلمة ، وذكرت اسم الله فكل مما أمسكن عليك ، إلا أن يأكل الكلب فلا تأكل ، فإني أخاف أن يكون إنما أمسك على نفسه . وإن خالطها كلب من غيرها فلا تأكل » .

وأخرجه مسلم في : ٣٤ - كتاب الصيد والذبائح ، حديث رقم ٢ (طبعنا) .
(٢) أخرجه البخاري في : ٧٢ - كتاب الذبائح والصيد ، ١٠ - باب ما جاء في التصيد ، حديث رقم ٢١٩٨ ونصه :

عن أبي إدريس عائذ الله قال : سمعت أبا ثعلبة الخشني رضي الله عنه يقول : أتيت رسول الله ﷺ فقلت : يا رسول الله ! إنا بأرض قوم أهل الكتاب ، نأكل في آيتهم . وأرض صيد أصيد بقوسى وأصيد بكلبي المعلم والذي ليس معلماً . فأخبرني ما الذي يحل لنا من ذلك . فقال « أما ما ذكرت أنك بأرض قوم أهل الكتاب تأكل في آيتهم ، فإن وجدتم غير آيتهم فلا تأكلوا فيها . وإن لم تجدوا فاعسلوها ثم كلوا فيها . وأما ما ذكرت أنك بأرض صيد ، فما صدت بقوسك فاذكر اسم الله ثم كل . وما صدت بكلبك المعلم فاذكر اسم الله ثم كل . وما صدت بكلبك الذي ليس معلماً ، فأدركت ذكاته ، فكل » .
وأخرجه مسلم في : ٣٤ - كتاب الصيد والذبائح ، حديث رقم ٨ (طبعنا) .

وحديث رافع بن خديج^(١) : ما أنهر الدمَ وذُكر اسمُ الله فكلوه - في الصحيحين أيضاً - .
وحديث ابن مسعود^(٢) أن رسول الله ﷺ قال للجن : لكم كل عظم ذكر اسم الله عليه - رواه مسلم - .

(١) أخرجه البخاريّ في : ٧٢ - كتاب الذبائح والصيد ، ١٥ - باب التسمية على الذبيحة ، ومن ترك متعمداً ، حديث ١٢٣٠ .

عن عَبَّادَةَ بْنِ رِفَاعَةَ بْنِ رَافِعٍ عَنْ جَدِّهِ رَافِعِ بْنِ خَدِيجٍ قَالَ : كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ بِذِي الْحُلَيْفَةِ . فَأَصَابَ النَّاسَ جُوعٌ . فَأَصْبْنَا إِبِلًا وَغَنًا . وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ فِي أَخْرِيَاتِ النَّاسِ ، فَعَجَلُوا فَنَصَبُوا الْقُدُورَ ، فَدَفَعَ إِلَيْهِمُ النَّبِيُّ ﷺ . فَأَمَرَ بِالْقُدُورِ فَأُكْفِتَتْ . ثُمَّ قَسَمَ فَعَدَلَ عَشْرَةَ مِنَ الْغَنَمِ بِبَعِيرٍ . فَدَنَّا مِنْهَا بِبَعِيرٍ . وَكَانَ فِي الْقَوْمِ خَيْلٌ يَسِيرَةٌ فَطَلَبُوهَا فَأَعْيَاهُمْ . فَأَهْوَى إِلَيْهِ رَجُلٌ بِسَهْمٍ فَخَبَسَهُ اللَّهُ .

فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ « إِنْ لِهَذِهِ الْبَهَائِمِ أَوَابِدٌ وَأَوَابِدُ الْوَحْشِ . فَمَا نَدَّ عَلَيْكُمْ فَاصْنَعُوا بِهِ هَكَذَا » .
قَالَ ، وَقَالَ جَدِّي : إِنَّا لَنَرَجُو (أَوْ نَخَافُ) أَنْ نَلْقَى الْعَدُوَّ غَدًا . وَلَيْسَ مَعَنَا مُدَى ، أَفَنَذِجُ بِالْقَصَبِ ؟ فَقَالَ « مَا أَنَهَرَ الدَّمَ وَذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ ، فَكُلْ . لَيْسَ السِّنُّ وَالظَّفَرُ . وَسَأُخْبِرُكُمْ عَنْهُ . أَمَّا السِّنُّ فَعَظْمٌ ، وَأَمَّا الظَّفَرُ فَمُدَى الْحَبْشَةِ » .

وأخرجه مسلم في : ٣٥ - كتاب الأضاحي ، حديث ٢٠-٢٣ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه مسلم في : ٤ - كتاب الصلاة ، حديث ١٥٠ (طبعتنا) ونصه :

عَنْ عَامِرٍ قَالَ : سَأَلْتُ عُلُقَمَةَ : هَلْ كَانَ ابْنُ مَسْعُودٍ شَهِدَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَيْلَةَ الْجَنِّ ؟
قَالَ فَقَالَ عُلُقَمَةُ : أَنَا سَأَلْتُ ابْنَ مَسْعُودٍ فَقُلْتُ : هَلْ شَهِدَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَيْلَةَ الْجَنِّ ؟ قَالَ : لَا . وَلَكِنَّا كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ لَيْلَةٍ . فَفَقَدْنَاهُ . فَالْتَمَسْنَاهُ فِي الْأَوْدِيَةِ وَالشُّعَابِ . فَقُلْنَا : اسْتَطِيرَ أَوْ اغْتِيلَ (مَعْنَى اسْتَطِيرَ : طَارَتْ بِهِ الْجَنُّ . وَمَعْنَى اغْتِيلَ : قُتِلَ سِرًّا . وَالْغِيلَةُ هِيَ الْقَتْلُ خَفِيَّةٌ) .

وحدث جندب بن سفيان البجلي^(١) قال : قال رسول الله ﷺ : من ذبح قبل أن يصلي ، فليذبح مكانها أخرى ، ومن لم يكن ذبح حتى صلينا ، فليذبح باسم الله - أخرجاه - .
قالوا : ففى هذه الأحاديث إيقاف الإذن في الأكل على التسمية ، والمعلق بالوصف ينتفى عند انتفائه ، عند من يقول بالمفهوم . والشرط أقوى من الوصف .

واحتجوا أيضاً بحديث عائشة المتقدم (سموا عليه أنتم وكلوا) . قالوا : إن القوم فهموا أن التسمية لا بد منها ، وخشوا أن لا تكون وجدت من أولئك ، لحدائث إسلامهم ، فأمرهم بالاحتياط بالتسمية عند الأكل ، لتكون كالمعوض عن المتروكة عند الذبح ، إن لم تكن وجدت . أى : قسميتكم الآن تستبيحون بها كل ما لم تعلموا أذكركموا اسم الله عليه

= قال فبتنا بشر ليلة بات بها قوم . فلما أصبحنا إذا هو جاء من قبل حراء . قال فقلنا : يا رسول الله ! فقدناك فطلبناك فلم نجدك فبتنا بشر ليلة بات بها قوم .
فقال « أمانى داعى الجن فذهبت معه . فقرأت عليهم القرآن » .
قال فانطلق بنا فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم . وسألوه الزاد فقال « لكم كل عظم ذكر اسم الله عليه يقع في أيديكم ، أوفر ما يكون لحماً . وكل بكرة علف لدوابكم » .
فقال رسول الله ﷺ « فلا تستنجوا بهما فإنهما طعام إخوانكم » .

(١) أخرجه البخارى في : ٧٢ - كتاب الذبائح والصيد ، ١٧ - باب قول النبي ﷺ :

فليذبح على اسم الله ، حديث رقم ٥٦٢ ونصه :

عن جندب بن سفيان البجلي^(١) قال : ضحينا مع رسول الله ﷺ أنحية ذات يوم . فإذا أناس قد ذبحوا ضحاياهم قبل الصلاة . فلما انصرف رأيهم النبي ﷺ أنهم قد ذبحوا قبل الصلاة فقال « من ذبح قبل الصلاة فليذبح مكانها أخرى . ومن كان لم يذبح حتى صلينا ، فليذبح على اسم الله » .

وأخرجه مسلم في : ٣٥ - كتاب الأضاحي ، حديث ١-٣ (طبعنا) .

أم لا ، إذا كان الذابح ممن تصح ذبيحته إذا سمي . قالوا : وبستفاد منه أن كل ما يوجد في أسواق المسلمين محمول على الصحة ، وكذا ما ذبحه أعراب المسلمين ، لأن الغالب أنهم عرفوا التسمية . انتهى .

وأجاب من حمل الآية على الوجه الأول ؛ بأن الأمر في حديث عدى وأبي ثعلبة محمول على التنزيه ، من أجل أنهما كانا يصيدان على مذهب الجاهلية ، فعلمهما النبي ﷺ أمر الصيد والذبح ، فرضه ومندوبه ، لئلا يوافقا شبهة في ذلك ، وليأخذوا بكامل الأمور . وأما الذين سألوا عن تلك الذبائح ، فإنهم سألوا عن أمر قد وقع لغيرهم ، فمرفهم بأصل الحل فيه . وقال ابن التين : يحتمل أن يراد التسمية هنا عند الأكل ، وبذلك جزم النووي .

وأما التسمية على ذبح تولاة غيرهم ، فلا تكلف عليهم فيه ، وإنما يحمل على غير الصحة إذا تبين خلافها .

وقال الملب : هذا الحديث أصل في أن التسمية ليست فرضاً . فلما نابت تسميتهم عن التسمية على الذبح ، دل على أنها سنة ، لأن السنة لا تنوب عن فرض . انتهى .

وذهب بعض من اشترط التسمية في الحل إلى جواز أكل ما تركت عليه سهواً لا عمداً . واحتج بما رواه البيهقي عن ابن عباس مرفوعاً : المسلم يكفيه اسمه ، إن نسي أن يسمى حين يذبح ، فلينكر اسم الله وليأكله . قال الحافظ ابن كثير : ورفعه خطأ . والصواب وقفه على ابن عباس ، من قوله . نص عليه البيهقي . واحتج أيضاً بالحديث المروي من طرق عند ابن ماجه عن ابن عباس ^(١) وأبي هريرة ^(٢) وأبي ذر ^(٣) وعقبة بن عامر وعبد الله بن عمرو

(١) أخرجه ابن ماجه في : ١٠ - كتاب الطلاق ، ١٦ - باب طلاق المكره والناسي ، حديث ٢٠٤٥ (طبعنا) .

(٢) أخرجه ابن ماجه في : ١٠ - كتاب الطلاق ، ١٦ - باب طلاق المكره والناسي ، حديث ٢٠٤٤ (طبعنا) .

(٣) أخرجه ابن ماجه في : ١٠ - كتاب الطلاق ، ١٦ - باب طلاق المكره والناسي ، حديث ٢٠٤٣ (طبعنا) .

عن النبي ﷺ: إن الله وضع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه .
ورواه الطبراني عن ثوبان مرفوعاً بلفظ : رفع عن أمتي الخطأ . . . الحديث .
وروى ابن عدي عن أبي هريرة قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله !
أرأيت الرجل منا يذبح وينسى أن يسمى ! فقال النبي ﷺ : اسم الله على كل مسلم .
قال ابن كثير : وإسناده ضعيف .

وقد علمت الأظهر في تأويل الآية أولاً - والله أعلم - .

الرابع - قال ابن جرير^(١) : اختلف أهل العلم في هذه الآية : هل نسخ من حكمها
شيء أم لا ؟ فقال بعضهم : لم ينسخ منها شيء ، وهي محكمة فيما عُنيَتْ به . وعلى هذا
قول مجاهد وعامة أهل العلم .

وروى عن الحسن البصري وعكرمة أنه تعالى نسخ من هذه الآية واستثنى قوله :
(وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ) . وروى ابن أبي حاتم عن مكحول أيضاً أنه
تعالى نسخها بذلك وأحل طعام أهل الكتاب .

قال ابن جرير : والصواب أنه لا تعارض بين حل طعام أهل الكتاب ، وبين تحريم
ما لم يذكر اسم الله عليه .

قال ابن كثير : وهذا الذي قاله صحيح . ومن أطلق من السلف النسخ ههنا ، فإنما أراد
التخصيص . انتهى .

وقد قدمنا في المقدمة أنه علم من استقراء كلام الصحابة والتابعين أنهم كانوا يستعملون
النسخ بإزاء المعنى اللغوي ، الذي هو إزالة شيء بشيء ، لا بإزاء مصطلح الأصوليين . فمعنى
النسخ عندهم إزالة بوض الأوصاف من الآية بآية أخرى . إما بانتهاء مدة العمل ، أو بصرف
الكلام عن المعنى المتبادر إلى غيره ، أو بيان كون قيد من القيود اتفاقياً ، أو تخصيص عام ،
وغير ذلك مما أسلفنا ، فتذكر !

(١) انظر الصفحة رقم ٨٧ من الجزء الثاني عشر من التفسير (طبعة المعارف) .

الخامس - قال الزجاج : في قوله تعالى : (وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ) دليل على أن كل من أحل شيئاً مما حرم الله تعالى ، أو حرم شيئاً مما أحل الله تعالى ، فهو مشرك. وإنما سمي مشركاً لأنه أثبت حاكماً سوى الله تعالى . وهذا هو الشرك . انتهى .

وقال ابن كثير : (إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ) أى : حيث عدلتم عن أمر الله لكم وشرعه إلى قول غيره ، فقد متم عليه غيره ، فهذا هو الشرك . كقوله تعالى : (اتَّخَذُوا أَخْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ . . .) (١) الآية . وقد روى الترمذى (٢) في تفسيرها عن عدى بن حاتم أنه قال : يا رسول الله ! ما عبدوهم . قال : إنهم أحلوا لهم الحرام ، وحرّموا عليهم الحلال فاتبعوهم . فذاك عبادتهم إياهم . انتهى .

السادس - قال السكعي : الآية حجة على أن (الإيمان) اسم لجميع الطاعات ، وإن كان معناه في اللغة التصديق ، كما جعل تعالى (الشرك) اسماً لكل ما كان مخالفاً لله تعالى ، وإن كان في اللغة مختصاً بمن يعتقد أن لله شريكاً ، بدليل أنه تعالى سمي طاعة المؤمنين للمشركين ، في إباحة الميتة ، شركاً .

(١) [٩ / التوبة / ٣١] . . . وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ .

(٢) أخرجه الترمذى في : ٤٤ - كتاب التفسير ، ٩ - سورة التوبة ، ١٠ - حدثنا الحسين بن مرثد الكوفي . ونصه :

عن عدى بن حاتم قال : أتيت النبي ﷺ وفي عنقي صليب من ذهب . فقال « يا عدى ! اطرَحْ عَنْكَ هَذَا الْوَثْنُ » .

وسمعه يقرأ في سورة براءة : اتَّخَذُوا أَخْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ . قال « أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم ، ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئاً استحلوه . وإذا حرّموا عليهم شيئاً حرّموه » .

وتعقبه الرازي؛ بأنه لم لا يجوز أن يكون المراد من الشرك ههنا اعتقاد أن لله شريكاً في الحكم والتكليف؟ وبهذا التقدير يرجع معنى هذا الشرك إلى الاعتقاد فقط . انتهى .
ثم ضرب تعالى مثلاً للمؤمن والكافر ، لتنفير المسلمين عن طاعة المشركين ، إثر تحذيرهم عنها ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢٢] (أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا ، كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)
« أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا » مثل به من هداه الله بعد الضلالة ، وبصره بنور الحجج والآيات ، يتأمل بها في الأشياء ، فيميز بين الحق والباطل ، والمهتدى والضال ، بمن كان ميتاً فأعطاء الحياة ، وما يتبعها من القوى المدركة والحركة . ومن بقي على الضلالة ، بالخابط في الظلمات ، لا ينفك منها ، ولا يتخلص ، فهو متحير على الدوام . « كَذَلِكَ » أى : مثل ذلك التزيين البليغ « زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » أى : من فنون الكفر والمعاصي ، ولذا جادلوا بها الحق ، وأصرروا عليها .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢٣] (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَرًا مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا ، وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ)

وقوله تعالى : « وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَرًا مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا » تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم . أى : كما جعلنا بمكة كبراء ليمكروا على أتباعهم في تزيين الباطل ، وستر الحق - جعلنا في كل قرية ، أرسلنا إليها الرسل ، أكبرها المجرمين ، متصفين بصفات

الذكورين ، مزيناً لهم أعمالهم ، مصرين على الباطل ، مجادلين به الحق ، ليفعلوا المكر فيها على أتباعهم بالتلبيس ، ليتركوا متابعة الرسل .

قال ابن كثير : المراد بـ (المكر) ههنا دعاؤهم إلى الضلالة بزخرف المقال والفعال ، كقوله تعالى إخباراً عن قوم نوح : (وَمَكَرُوا مَكْرًا كَبِيرًا)^(١) ، وكقوله تعالى : (وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ * قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ ، بَلْ كُنتُمْ مُجْرِمِينَ * وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا ...)^(٢) الآية .

وقال الزمخشري : خص الأكارب لأنهم هم الحاملون على الضلال ، والمالكرون بالناس ، كقوله : (أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا)^(٣) .

« وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ » أي : ما يضررون بمكرهم إلا أنفسهم ، لأن وباله يحيق بهم ، كما قال تعالى : (وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ)^(٤) . وقال :

(١) [٧١ / نوح / ٢٢] .

(٢) [٣٤ / سبأ / ٣١-٣٣] ونصها : وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ .

(٣) [١٧ / الإسراء / ١٦] ونصها : وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا .

(٤) [٢٩ / المنكبات / ١٣] . . . وَلَيُسْئَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ .

(وَمِنَ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ، أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ) ^(١) . قال الزمخشري :
هذه تسليية لرسول الله ﷺ ، وتقديم موعد بالنصرة عليهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢٤] (وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ .
اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ، سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ
شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ)

« وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ » أى : برهان وحجة قاطعة « قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَىٰ مِثْلَ
مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ » أى : من الوحي والمعجزات المصدقة له . كقوله تعالى : (وَقَالَ الَّذِينَ
لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ...) ^(٢) الآية . وقوله سبحانه :
(بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُنشَرَةً) ^(٣) .

« اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ » كلام مستأنف للإنكار عليهم ، وأن لا يصطفي
للنبوة إلا من علم أنه يصلح لها ، فيليق للاستشراق بأنوار علمه ، والأمانة على مكنون سره ،
مما لو انكشف لغيره انكشافه له ، لفاضت له نفسه ، أو ذهبت بعقله جلالته وعظمته ،
فهو أعلم بالمكان الذى يضعها فيه منهم .

وقد روى الإمام ^(٤) أحمد عن وائلة بن الأسقع رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه
وسلم : إن الله عز وجل اصطفى من ولد إبراهيم ، إسماعيل . واصطفى من بنى إسماعيل ، بنى

(١) [١٦ / النحل / ٢٥] لِيَجْزِيَ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ . . .

(٢) [٢٥ / الفرقان / ٢١] . . . لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا .

(٣) [٧٤ / المدثر / ٥٢] .

(٤) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ١٠٧ من الجزء الرابع (طبعة الحلبي) .

كفانة . واصطفى من بنى كنانة ، قريشاً ، واصطفى من قريش ، بنى هاشم . واصطفانى من بنى هاشم . وانفراد بإخراجه مسلم ^(١) أيضاً .

وروى الإمام أحمد ^(٢) عن المطلب بن أبي وداعة عن العباس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن الله خلق الخلق فجعلنى فى خير خلقه ، وجعلهم فريقين ، فجعلنى فى خير فرقة ، وخلق القبائل ، فجعلنى فى خير قبيلة ، وجعلهم بيوتاً ، فجعلنى فى خيرهم بيتاً ، فأنا خيركم بيتاً ، وخيركم نفساً .

« سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ » أى : ذلة وهوان بعد كبرهم وعظمتهم «عِنْدَ اللَّهِ» أى : يوم القيامة ، جزاء على منازعتهم له تعالى فى كبره برد آياته ورسالته ، واعتراضهم عليه فى تخصيصه بالرسالة غيرهم ، « وَعَذَابٌ شَدِيدٌ » يعنى : فى الآخرة . « بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ » فى الدنيا إضراراً بالأنبياء .

قال ابن كثير : لما كان المكسر غالباً ، إنما يكون خفياً ، وهو التلطف فى التحيل والخديعة ، قبولوا بالعذاب الشديد من الله يوم القيامة ، جزاء وفاً . ولا يظلم ربك أحداً . وجاء فى الصحيحين ^(٣) عن رسول الله ﷺ أنه قال : ينصب لكل غادر لواء عند استه يوم القيامة ، فيقال : هذه غدرة فلان بن فلان .

(١) وأخرجه مسلم فى : ٤٣ - كتاب الفضائل ، حديث رقم ١ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٢١٠ من الجزء الأول (طبعة الحلبي) والحديث

رقم ١٧٨٨ (طبعة المعارف) ونصه :

قال العباس : بلغه ﷺ بعض ما يقول الناس . قال فصعد المنبر فقال « مَنْ أَنَا ؟ قالوا :

أنت رسول الله . فقال : أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب . إن الله خلق الخلق فجعلنى فى خير خلقه ، وجعلهم فرقتين ، فجعلنى فى خير فرقة . وخلق القبائل ، فجعلنى فى خير قبيلة .

وجعلهم بيوتاً ، فجعلنى فى خيرهم بيتاً . فأنا خيركم بيتاً وخيركم نفساً » .

(٣) هذا الحديث أخرجه البخارى :

والحكمة في هذا، أنه لما كان الغدر خفيًا لا يطلع عليه الناس ، فيوم القيامة يصير علمًا مذمورًا على صاحبه بما فعل . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢٥] (فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ، وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَعُدُ فِي السَّمَاءِ ، كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ)

« فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ » أى : للتوحيد « يَشْرَحْ » أى : يوسع « صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ » بتصقيله بنور الهداية ، فيقبل نور الحق ، كما قال تعالى : (وَ لَكِنَّ اللَّهَ حَبِيبٌ إِلَيْكُمْ) الأيمان وَزَيْنَتُهُ فِي قُلُوبِكُمْ ^(١) .

= عن ابن مسعود وأنس في : ٥٨ - كتاب الجزية والموادعة ، ٢٢ - باب إثم الغادر للبر والفاجر ، حديث رقم ١٥٠٣ و ١٥٠٤ .

وأخرجه عن ابن عمر في هذا الباب ، حديث رقم ١٥٠٥ .

وعن ابن عمر أيضاً في : ٧٨ - كتاب الأدب ، ٩٩ - باب ما يدعى الناس بأبائهم ، من طريقين .

وفي : ٩٠ - كتاب الحيل ، ٩ - باب إذا غصب جارية فزعم أنها ماتت .

وفي : ٩٢ - كتاب الفتن ، ٢١ - باب إذا قال عند قوم شيئاً ، ثم خرج فقال بخلافه .

وأخرجها مسلم في : ٣٢ - كتاب الجهاد ، حديث ٩-١٤ (طبعتنا) .

وفي هذه الأحاديث كلهن لم ترد (عند استه) .

أما الحديث الذي وردت به ، فهو ما انفرد به مسلم وأخرجه في : ٣٢ - كتاب الجهاد ،

حديث ١٥ (طبعتنا) عن أبي سعيد الخدري .

(١) [٤٩ / الحجرات / ٧] وانصها : وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ ، لَوْ

روى عبد الرزاق أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن هذه الآية : كيف يشرح صدره؟ قال : نور يقذف فيه فينشرح له وينفسح . قالوا : فهل لذلك من أمانة يعرف بها ؟ قال : الإنابة إلى دار الخلود ، والتجافي عن دار الغرور ، والاستعداد للموت قبل لقاء الموت . ورواه ابن جرير^(١) وابن أبي حاتم . قال ابن كثير : وللتحديث طرق مرسلة ومتصلة يشد بعضها بعضاً .

« وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا » أى : شديد الضيق ، فلا يتسع للاعتقادات الصائبة في الله ، والأمور الأخروية .

قال أبوالبقاء : حرجاً (بكسر الراء) صفة لـ (ضيقاً) ، أو مفعول ثالث ، كما جاز في المبتدأ أن تخبر عنه بعدة أخبار . أو يكون الجميع في موضع خبر واحد ، كـ (حلوحامض) . وعلى كل تقدير ، هو مؤكد للمعنى . ويقرأ بفتح الراء ، على أنه مصدر . أى : ذا حرج . وقيل : هو جمع حرجة ، مثل قسبة وقصب ، والهاء فيه للمبالغة . انتهى .

وقوله تعالى « كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ » أى : يتكلف الصعود في جهة السماء ، وطبعه يهبط إلى الأرض ، فشبهه ، للمبالغة في ضيق صدره ، بمن يزاول أمراً غير ممكن . لأن صعود السماء مثل ما يتمنع ويبعد من الاستطاعة ، وتضيق عنه القدرة . وقيل : معناه كأنما يتصاعد إلى السماء نبواً عن الحق ، وتباعدًا في الحرب منه . وأصل (يَصْعَدُ) يتصعد من (الصعود) . « كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرَّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ » في الاعتقادات والأخلاق . والرجس ما استقذر من العمل ، وسمى بذلك لمبالغة في ذمه .

= يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ ، أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ .

(١) الأثر رقم ١٣٨٥٣ من التفسير .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢٦] (وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ، قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ)

« وَهَذَا » أى : البيان الذى جاء به القرآن ، أو طريق التوحيد ، وإسلام الوجه إلى الله « صِرَاطُ رَبِّكَ » أى : طريقه الذى ارتضاه « مُسْتَقِيمًا » لا ميل فيه إلى إفراط وتفریط فى الاعتقادات والأخلاق والأعمال . أو لا اعوجاج فيه إلى النظر إلى الغير والشرك به . « قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ » أى : المعارف والحقائق التى هى مسكوزة فى استعدادهم ، فيهدوا بها .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢٧] (لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ ، وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

« لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ » أى : السلامة من المكاره ، وهى الجنة ، لكونهم فى مقام القرب ، « عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ » يتولاهم بحبته ، ويجمعهم فى أمانه ، « بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » أى : بسبب أعمالهم الصالحة فى سلوكهم صراطه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢٨] (وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْبَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ ، وَقَالَ

أُولِيَاءُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا أَجَلَنَا الَّذِى أَجَلْتَنَا ،

قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ، إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ)

« وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا » أى : اذكربا محمد فيما تقصه عليهم ، وتنذرهم به ، يوم نحشرهم جميعاً ، يعنى : الجن وأولياءهم من الإنس الذين كانوا يعبدونهم فى الدنيا ، ويعوذون بهم ، ويطيعونهم ، ويوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً .

« يَا مَعْشَرَ الْجِنَّ » أى : تقول : يا معشر الجن ! يعنى : الشياطين . قال المهايمى : خصهم بالنداء لأنهم الأصل فى المسكر . « قَدْ اسْتَكْرَثْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ » أى : من إغوائهم وإضلالهم . أو منهم ، بأن جعلتموهم أتباعكم ، وأهل طاعتكم ، وتسويلكم وتزيينكم الحطام الدنيوية ، واللذات الجسمانية عليهم ، ووسوستكم لهم بالمعاصى ، فحشروا معكم . وهذا بطريق التوبيخ والتقريع .

« وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ » أى : الذين أطاعوهم وتولواهم « مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ » قال الحسن : ما كان استمتاع بعضهم ببعض إلا أن الجن أمرت ، وعملت الإنس . أى : فالجن نالت التعظيم منهم فعبدت ، والإنس بوسوستهم تمتعوا بإثارة الشهوات الحاضرة ، على اللذات الغائبة « وَبَلَّغْنَا أَجَلَنَا الَّذِى أَجَلْتُمْ لَنَا » أى : بالوت ، أو بالمعاد الجسمانى على أفتح صورة ، وأسوأ عيش .

قال أبو السعود : قالوه اعترافاً بما فعلوا من طاعة الشياطين ، واتباع الهوى ، وتكذيب البعث ، وإظهاراً للندامة عليها ، وتحسراً على حالهم ، واستسلاماً لربهم . ولعل الاختصار على حكاية كلام الضالين ، للإيدان بأن المضلين قد أخطوا بالمرّة فلم يقدرُوا على التكلم أصلاً . « قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ » أى : منزلكم ، كما أن دار السلام مثنوى المؤمنين .

« خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ » قال القاشانى : أى إلا وقت مشيئته أن تخفف ، أو ينجى منكم من لا يكون سبب تعذيبه شركاً راسخاً فى اعتقاده . وقال المهايمى : أى إلا وقت مشيئته أن ينقلكم منها إلى الزمهرير ، انتقالكم من شهوة إلى أخرى .

وقال الزمخشري : أى يخلدون فى عذاب النار ، الأبد كلّهُ ، إلا الأوقات التى ينقلون فيها من عذاب النار ، إلى عذاب الزمهرير . فقد روى أنهم يدخلون وادياً فيه من الزمهرير ما يميز بعض أوصالهم من بعض ، فيتعاونون ويطلبون الرد إلى الجحيم . أو يكون من قول

الموتور الذى ظفر بواتره ، ولم يزل يحرق عليه أنيابه ، وقد طلب إليه أن ينفس عن خناقته : أهلكنى الله إن نفست عنك إلا إذا شئت . وقد علم أنه لا يشاء إلا التشفى منه بأقصى ما يقدر عليه من التعنيف والتشديد . فيكون قوله (إلا إذا شئت) من أشد الوعيد ، مع تهكم بالموعد ، لخروجه فى صورة الاستثناء الذى فيه إطاع . انتهى .

قال الخفاجى : لما كان الخطاب للكفرة ، وهم لا يخرجون من النار ، لأن ما قبله بيان حالهم ، فيبعد جعله شاملاً للعصاة ، ليصح الاستثناء باعتباره ، مع أن استعمال (ما) للعقلاء قليل - وَجَّهُوهُ بأن المراد النقل من النار إلى الزمهرير ، أو المبالغة فى الخلود ، بمعنى أنه لا ينتفى إلا وقت مشيئة الله ، وهو مما لا يكون مع إبرازه فى صورة الخروج وإطاعهم فى ذلك تهكماً وتشديداً للأمر عليهم . و (ما) مصدرية وقتية . أو إن المستثنى زمان إمهالهم قبل الدخول . ورد الأول بأن فيه صرف النار من معناها العلمى ، وهو دار العذاب ، إلى اللغوى . وأجيب عنه بأنه لا بأس بالصرف إذا دعت إليه ضرورة . وقيل عليه : إن المعارض لا يسلم الضرورة ، لإمكان غير ذلك التأويل . مع أن قوله (مَثْوَاكُمْ) يقتضى ماذهب إليه المعارض بحسب الظاهر . ورد الأخير أبوحيان بأنه فى الاستثناء يشترط اتحاد زمان المخرج ، والمخرج منه ، فإذا قلت : قام القوم إلا زیداً ، فعناه : إلا زیداً ما قام . ولا يصح أن يكون المعنى : إلا زیداً ما يقوم فى المستقبل . وكذلك سأضرب القوم إلا زیداً ، معناه : إلا زیداً فإنى لا أضربه فى المستقبل ، ولا يصح أن يكون المعنى : إلا زیداً فإنى ما ضربته قبل ، إلا إذا كان استثناء منقطعاً ، فإنه يسوغ ، كقوله : لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى . فإنهم ذاقوها . ولك أن تقول : إن القائل به ياتزم انقطاعه ، كما فى الآية التى ذكرها ، ولا محذور فيه ، مع ورود مثله فى القرآن ، وفيه نظر . وقيل : إنه غفلة عن تأويل الخلود بالأبد ، والأبد لا يقتضى الدخول . انتهى .

وقال الناصر فى (الانتصاف) : قد ثبت خلود الكفار فى العذاب ثبوتاً قطعياً ، فمن ثم

اعتنى العلماء بالكلام على الاستثناء في هذه الآية ، وفي أختها في سورة هود . فذهب بعضهم إلى أنها شاملة لعصاة الموحدين والكفار ، والمستثنى العصاة ، لأنهم لا يخلدون - وقد علمت بُعدُه - .

ثم قال : وذهب بعضهم إلى أن هذا الاستثناء محدود بمشيئة رفع العذاب ، أى : يخلدون إلا أن يشاء الله لو شاء . وفائدته إظهار القدرة ، والإعلان بأن خلودهم إنما كان لأن الله تعالى قد شاءه ، وكان من الجأز العقل في مشيئته أن لا يعذبهم ، ولو عذبهم لا يخلدhem ، وإن ذلك ليس بأمر واجب عليه ، وإنما هو مقتضى مشيئته وإرادته عز وجل . وفيها على هذا الوجه دفع في صدر المعتزلة الذين يزعمون أن تخليد الكفار واجب على الله تعالى بمقتضى الحكمة ، وأنه لا يجوز في العقل أن يشاء خلاف ذلك .

وذهب الزجاج إلى وجه لطيف ، إنما يظهر بالبسط فقال : المراد - والله أعلم - إلا ما يشاء من زيادة العذاب . ولم يبين وجه الاستثناء . والمستثنى على هذا التأويل لم يغير المستثنى منه في الحكم ، ونحن نبينه فنقول : العذاب - والعياذ بالله - على درجات متفاوتة ، كأن المراد أنهم يخلدون في جنس العذاب إلا ما شاء ربك من زيادة تبلغ الغاية ، وتنتهى إلى أقصى النهاية ، حتى تسكاد لبلوغها الغاية ، ومباينتها لأنواع العذاب في الشدة ، تعدد ليس من جنس العذاب ، وخارجة عنه . والشئ إذا بلغ الغاية عندهم عبروا عنه بالصد ، كما تقدم في النعير عن كثرة الفعل بـ (رُبَّ) و (قَدْ) ، وهما موضوعان لصد الكثرة من القلة ، وذلك أمر يعتاد في لغة العرب . وقد حام أبو الطيب^(١) حوله فقال :

لقد جدت حتى كاد يبخل حاتم للمنتهى ومن السرور بكاء

(١) نص البيت في ديوانه ، شرح اليازجى والبرقوق هكذا :

وَلَجَدْتُ حَتَّى كَادَ يَبْخُلُ حَاتِمًا لِّلْمُنْتَهَى ، وَمِنَ السَّرُورِ بَكَاءٌ =

فَسَكَنَ هَؤُلَاءِ إِذَا نَقَلُوا إِلَى غَايَةِ الْعَذَابِ ، وَنَهَايَةِ الشَّدَةِ ، فَقَدْ وَصَلُوا إِلَى الْحَدِّ الَّذِي يَكَادُ أَنْ يُخْرَجَ مِنْ اسْمِ الْعَذَابِ الْمَطْلُوقِ ، حَتَّى يَسُوْغَ مُعَامَلَتَهُ فِي التَّعْبِيرِ بِمُعَامَلَةِ الْمَغَايِرِ . وَهُوَ وَجْهٌ حَسَنٌ لَا يَكَادُ يَفْهَمُ مِنْ كَلَامِ الزَّجَاجِ إِلَّا بَعْدَ هَذَا الْبَسْطِ .
وَفِي تَفْسِيرِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَا يُؤَيِّدُهُ . انْتَهَى .
وَفِي الْآيَةِ تَأْوِيلَاتٌ أُخَرُ :

مِنْهَا : مَا نَقَلَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمَا أَنَّهُ تَعَالَى اسْتَثْنَى قَوْمًا قَدْ سَبَقَ عَلَيْهِمْ أَنَّهُمْ يُسْلَمُونَ وَيُصَدِّقُونَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . وَهَذَا مَبْنَى عَلَى أَنَّ الِاسْتِثْنَاءَ لَيْسَ مِنَ الْحَكْمِيِّ ، وَأَنَّ (مَا) بِمَعْنَى (مَنْ) .

وقال اليازجى في شرحه :
حائلاً أى متغيراً . والمنتهى مصدر بمعنى الانتهاء واللام متعلقة بـ (كدت) وقوله :
ومن السرور بكاءً ، مبتدأ وخبر .
يقول : قد جدت حتى لم تترك في الجود غاية إلا انتهيت إليها . وحينئذ كدت تحول إلى البخل لأنك قد بلغت منتهى الجود ، كما يحول السرور عند اشتداده إلى البكاء .
وقال البرقوقى :

حائلاً متحولاً . وللمنتهى أى لأجل الانتهاء ، ومن السرور خبر ، وبكاء مبتدأ . والجملة استثنائية . يقول : ولقد بلغت من الجود أقصاه حتى كدت تتحول عن آخره حين تناهيت إليه . إذ ليس من شأنك أن تقف في الكرم عند غاية . وليس هناك جود بعد أن بلغت نهايته . ومثل ذلك السرور ، إذا اشتد تحول إلى بكاء .
والبيت من قصيدة مطلعها :

أَمِنْ أَرْذِيَارِكَ فِي الدُّجَى الرَّقَبَاءُ إِذْ حَيْثُ أَنْتِ مِنَ الظَّلَامِ ضِيَاءُ
يَمْدَحُ بِهَا أَبَا عَلِيٍّ هَرُونَ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الْأَوْرَاجِيُّ السَّكَاتِبِ . وَكَانَ يَذْهَبُ إِلَى التَّصَوُّفِ .
فَأَيْنَ هَذَا مِنْ نَصِّهِ الَّذِي سَاقَهُ الزَّجَاجُ ، عَلَى مَا فِيهِ ؟؟

ومنها : أنهم يفتح لهم أبواب الجنة ، ويخرجون من النار ، فإذا توجهوا للدخول أغلقت في وجوههم استهزاء بهم . وهو معنى قوله ^(١) : (فَالْيَوْمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ) . قال الشريف المرتضى في (الدر) : فإن قيل : أى فائدة في هذا الفعل ، وما وجه الحكمة فيه ؟ قلنا : وجه الحكمة فيه ظاهر ، لأن ذلك أغلظ على نفوسهم ، وأعظم في مكروهمهم ، وهو ضرب من العقاب الذى يستحقونه بأفعالهم القبيحة . لأن من طمع في النجاة والخلاص من المكروه ، واشتد حرصه على ذلك ، ثم حيل بينه وبين الفرج ، وردّ إلى المكروه ، يكون عذابه أصعب وأغلظ من عذاب من لا طريق للطمع عليه - كذا في العناية - .
ومنها : أن هذا الاستثناء إشارة إلى فناء النار . أى : إلا وقت مشيئته فناءها ، وزوال عذابها .

قال السيوطى في (الدر المنثور) : أخرج ابن المنذر عن الحسن قال : قال عمر رضى الله عنه : لو لبث أهل النار في النار ، كقدر رمل عالج ، لكان لهم يوم على ذلك يخرجون فيه . وأخرجه عبد بن حميد عن حميد بن الحسن أيضاً .
قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى : ونقل هذا عن عمر وابن مسعود وأبي هريرة وأبي سعيد وغيرهم . انتهى .

وقد انتصر لهذا القول جماعة . قالوا : وما ورد من الخلود فيها والتأبيد وعدم الخروج ، وأن عذابها مقيم ، كله حق مسلم لا نزاع فيه . وذلك يقتضى الخلود في دار العذاب مادامت باقية ، وإنما يخرج منها في حال بقائها أهل التوحيد ، ففرق بين من يخرج من الحبس ، وهو حبس على حاله ، وبين من يبطل حبسه بخراب الحبس وانتقاضه . وقد بسط البحث في ذلك وجوده الإمام ابن القيم في كتابه (هادى الأرواح) ، ومع كونه انتصر لهذا القول انتصاراً عظيماً ، وذكر له خمسة وعشرين دليلاً ، لم يصححه ، حيث قال : أما أبدية الجنة ، وأنها لا تنفى ولا

(١) [٨٣ / المطففين / ٣٤] .

تبيد ، فما يعلم بالاضطرار ، ولم يقل بفنائها أحد . ومن قال به - كالجهمية - فهو ضال مبتدع منحرف عن الصواب ، وليس له في ذلك سلف . وأما أبدية النار ففيها قولان معروفان عن السلف والخلف ، والأصح عدم فنائها أيضاً . انتهى .
وسياتي إن شاء الله تعالى بسط هذا المقام في آية هود .

وقد روى ابن جرير^(١) وابن أبي حاتم عن ابن عباس في هذه الآية أنه قال : لا ينبغي لأحد أن يحكم على الله في خلقه . لا ينزلهم جنة ولا ناراً .
« إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ » فلا يمتدب إلا على ما تقتضيه الحكمة ، « عَلِيمٌ » أى : بمن يعذب بكفره ، فيدوم عذابه . أو بسيات أعماله ، فيعذب على حسبها ، ثم ينجو منه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢٩] (وَكَذَلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

« وَكَذَلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ الظَّالِمِينَ » أى : من الإنس « بَعْضًا » أى : نجعلهم بحيث يتولونهم بالإغواء والإضلال ، كما فعل الشياطين وغواة الإنس ، « بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ » أى : بسبب ما كانوا مستمرين على كسبه من الكفر والمعاصي .

قال الرازى : لأن الجنسية علة الضم . فالأرواح الخبيثة تنضم إلى ما يشاكلها في الخبيث . وكذا القول في الأرواح الطاهرة ، فكل أحد يهتم بشأن من يشاكله في النصرة والمعونة والتقوية .

(١) الأثر رقم ١٣٨٩٢ من التفسير ، ونصه :

عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس (قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ) قال : إن هذه الآية آية لا ينبغي لأحد أن يحكم على الله في خلقه . لا ينزلهم جنة ولا ناراً .

تنبيه :

قال السيوطي في (الإكليل) : الآية معنى حديث (كما تكونون يوئى عليكم) أخرجه ابن قانع في معجم الصحابة من حديث أبي بكرة . انتهى .

وأُسند في (الجامع الصغير) تخريجه إلى الديلمي في (الفردوس) عن أبي بكرة ، وإلى البيهقي ، عن أبي إسحاق السبيعي مرسلاً - ورمز له بالضعف - .

وأُسند في (الدر المنثور) عن منصور بن الأسود قال : سألت الأعمش عن قوله تعالى : (وَكَذَلِكَ نُؤَيِّ بِغُضِّ الظَّالِمِينَ بَعْضًا) ما سمعتمهم يقولون فيه ؟ قال : سمعتمهم يقولون : إذا فسَدَ الناسُ أُمِرَ عليهم شرارهم .

وأخرج نحوه عن مالك بن دينار وكعب والحسن .

قال أبو الليث السمرقندي في (تفسيره) : ويقال في معنى الآية : نسلط على بعض الظالمين بعضاً فيهلكه أو يذله . قال : وهذا كلام تهديد الظالم ، لكي يمتنع عن ظلمه . ويدخل في الآية جميع من يظلم : من راع في رعيته ، وتاجر في تجارته ، وسارق ، وغيرهم .

قال الفضيل بن عياض : إذا رأيت ظالماً ينتقم من ظالم ، قف وانظر فيه متعجباً . انتهى . وقال ابن كثير : معنى الآية الكريمة : كما ولينا هؤلاء الخاسرين من الإنس تلك الطائفة التي أغوتهم من الجن ، كذلك نفعل بالظالمين ، نسلط بعضهم على بعض ، ونهلك بعضهم ببعض ، وننتقم من بعضهم ببعض ، جزاء على ظلمهم وبغيهم .

ثم بين تعالى ما سيكون من توبيخ الكفار من الفريقين يوم القيامة ، إثر بيان توبيخ الجن بإغواء الإنس وإضلالهم ، وأعلم أنه لا يكون لهم إلى الجحود سبيل ، فيشهدون على أنفسهم بالكفر ، وأنهم لم يعذبوا إلا بالحجة ، فقال تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣٠] (يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا، قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا، وَغَرَّبَهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ)

« يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ » أى : فى الدنيا « رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي » بالأمر والنهى « وَيُنذِرُونَكُمْ » يخوفونكم « لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا » وهو يوم الحشر الذى قد عاينوا فيه أفانين الأحوال . « قَالُوا » يعنى الجن والإنس . « شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا » أى : أقررنا بإتيان الرسل وإنذارهم ، وبتكذيب دعوتهم ، كما فصل فى قوله تعالى ^(١) : « قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ » .

« وَغَرَّبَهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا » أى : ما فيها من الزهرة والنعيم ، وهو بيان لما أدأهم فى الدنيا إلى الكفر « وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ » أى : فى الآخرة . قال المهايى : بعد شهادة جوارحهم « أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ » أى : فى الدنيا بما جاءتهم الرسل .

تنبيهات

الأول - استدلل بقوله تعالى : (أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ) مَنْ قَالَ إِنَّ اللَّهَ بَعَثَ إِلَى الْجِنِّ رُسُلًا مِنْهُمْ . وحكاه ابن جرير ^(٢) عن الضحاك بن مزاحم ، والأكثرون على أنه لم يكن من الجن رسول ، وإنما كانت الرسل من الإنس فقط . نص على ذلك مجاهد وابن جرير وغير واحد من الأئمة ، من السلف والخلف .

قال ابن عباس : الرسل من بنى آدم ، ومن الجن نُذِرُوا . وأحابوا عن ظاهر الآية بأن فيها

(١) [٦٧ / الملك / ٩] .

(٢) الأثر رقم ١٣٨٩٦ من التفسير .

مضافاً . أى : من أحدكم ، وهم الإنس . أو من إضافة ما للبعض للسكل ، كقوله تعالى : (يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ) ^(١) وإنما يخرجان من أحدهما ، وهو الملح دون العذب . وإنما جاز ذلك لأن ذكرهما قد جمع في قوله : (مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ) ^(٢) وهو جائز في كل ما اتفق في أصله . فلذلك لما اتفق ذكر الجن مع الإنس جاز ، مخاطبتهما بما ينصرف إلى أحد الفريقين ، وهم الإنس . وهذا قول الفراء والزجاج .

وقال أبو السعود : المعنى : ألم يأتكم رسل من جملتكم ، لكن لا على أنهم من جنس الفريقين معاً ، بل من الإنس خاصة . وإنما جعلوا منهما ، إلتئاماً أكيد وجوب اتباعهم ، والإيدان بتقاربهما ذاتاً ، واتحادهما تكليفاً وخطاباً ، كأنهما من جنس واحد . ولذلك تمكن أحدهما من إضلال الآخر . وإما لأن المراد بالرسول ما يعم رسل الرسل . وقد ثبت أن الجن استمعوا القرآن ، وأنذروا به قومهم ، حيث نطق به قوله تعالى : (وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ ...) ^(٣) إلى قوله تعالى : (وَلَوْ إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ) ^(٤) . انتهى .

وهكذا في عهد كل رسول لا يبعد أنه تعالى كان يلقي الداعية في قلوب قوم من جن عصره فيسمعون كلامهم ، ويأتون قومهم من الجن ، ويخبرونهم بما سمعوه من الرسل ، وينذرونهم به . وقد سمي تعالى رسل عيسى رسل نفسه فقال : (إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ) ^(٥) وتحقيق القول فيه : أنه تعالى إنما بكّت الكفار بهذه الآية ، لأنه تعالى أزال العذر ، وأزاح العلة ، بسبب أنه أرسل الرسل إلى السكل مبشرين ومنذرين . فإذا وصلت البشارة والنذارة إلى السكل بهذا

(١) [٥٥ / الرحمن / ٢٢] .

(٢) [٥٥ / الرحمن / ١٩] ونصها : مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ .

(٣) [٤٦ / الأحقاف / ٢٩] ... فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا

إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ .

(٤) [٣٦ / يس / ١٤] ... فَكَذَّبُوهُمَا فَكَرَزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُّرْسَلُونَ .

الطريق ، فقد حصل ما هو المقصود من إزاحة العذر ، وإزالة العلة ، فكان المقصود حاصلًا -
كذا قرره الرازي - .

قال الحافظ ابن كثير : والدليل على أن الرسل من الإنس قوله تعالى : (إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ ...)^(١) إلى قوله تعالى : (رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِّئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ)^(٢) . وقوله تعالى عن إبراهيم : (وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ)^(٣) فخصر النبوة والكتاب بعد إبراهيم في ذريته . ولم يقل أحد : إن النبوة كانت في الجن قبل إبراهيم ، ثم انقطعت عنهم بيعته . وقال تعالى : (وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ)^(٤) . وقال تعالى : (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى)^(٥) . ومعلوم أن الجن تتبع للإنس في هذا الباب . انتهى .

الثاني - إن قيل : ما السبب في أنهم أقرأوا في هذه الآية بالكفر ، وجحدوه في قوله :

(١) [٤ / النساء / ١٦٣] . . . وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ ، وَءَاتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا .

(٢) [٤ / النساء / ١٦٥] . . . وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا .

(٣) [٢٩ / المنكبات / ٢٧] ونصها : وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَءَاتَيْنَاهُ أُجْرَهُ فِي الدُّنْيَا ، وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ .

(٤) [٢٥ / لقمان / ٢٠] . . . وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَنْتَصِرُونَ ، وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا .

(٥) [١٢ / يوسف / ١٠٩] . . . أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا ، أَفَلَا تَعْلَمُونَ .

(وَاللّٰهُ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ)^(١) قلنا: يوم القيامة يوم طويل ، والأحوال فيه مختلفة ، فتارة يقرّون ، وأخرى يجحدون . وذلك يدل على شدة خوفهم ، واضطراب أحوالهم ، فإن من عظم خوفه ، كثر الاضطراب في كلامه - أفاده الرازي - .

زاد الرخشي : أو أريد شهادة أيديهم وأرجلهم وجلودهم حين يختم على أفواههم .
الثالث - إن قيل : لم كرر ذكر شهادتهم على أنفسهم؟ أجيب : بأن الأولى حكاية لقولهم كيف يقولون ويعترفون ؛ والثانية ذم لهم ، وتخطئة لرأيهم ، ووصف لقلّة نظرهم لأنفسهم ، وأنهم قوم غرّتهم الحياة الدنيا ، واللذات الحاضرة ، وكان عاقبة أمرهم أن اضطروا إلى الشهادة على أنفسهم بالكفر والاستسلام لربهم ، واستيجاب عذابه . وإنما قال ذلك تحذيراً للسامعين من مثل حالهم - كذا في (الكشاف) - .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣١] (ذَٰلِكَ أَنْ لَّمْ يَكُنْ رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ)

وقوله تعالى « ذَٰلِكَ أَنْ لَّمْ يَكُنْ رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ » إعلام بأنه تعالى أعذر إلى الثقلين بإرسال الرسل ، وإزالة الكتب ، وتبيين الآيات ، وإلزام الحجة بالإلذار والتهديد . وأنه تعالى لا يؤاخذ القرى بظلم أهلها بالشرك ونحوه ، وهم لم تبلغهم دعوة رسول ينهاهم عنه ، وينبهم على بطلانه ، لأنه ينافي الحكمة . وجوز في ذلك أن يكون خبراً المحذوف . أي : الأمر ذلك . أو مبتدأ وخبره محذوف . أي : كما ذكر . أو خبره (أَنْ لَّمْ يَكُنْ . . .) الخ . والمشار إليه إتيان الرسل ، أو ما قص من أمرهم ، أو السؤال المفهوم من قوله (أَلَمْ يَأْتِكُمْ) . واستظهر أبو السعود أن الإشارة إلى شهادتهم على أنفسهم بالكفر ، واستيجاب العذاب ، وأنه مبتدأ خبره ما بعده ، وأن (أَنْ) مصدرية ، و (اللام)

(١) [٦ / الأنعام / ٢٣] ونصها : ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فَتَنْتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللّٰهُ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ .

مقدرة قبلها . أو مخففة ، واسمها ضمير الشأن ، و (يَظْلُمُ) متعلق بـ (مُهْلِكٌ) . أى : بسبب ظلم ، أو بمحذوف حالاً من (الْقُرَى) ، أى متلبسة بظلم . والمعنى : ذلك ثابت لا انتفاء كون ربك ، أو لأن الشأن لم يكن ربك مهلك القرى بسبب ظلم فعلوه قبل أن ينهوا على بطلانه برسول .

تنبيه :

في الآية دليل على أنه لا تكليف قبل البعثة ، ولا حكم للعقل . كقوله ^(١) (وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣٢] (وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِّمَّا عَمِلُوا ، وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ)

« وَلِكُلِّ » أى : من المكلفين « دَرَجَاتٍ » أى : مراتب « مِّمَّا عَمِلُوا » أى : من أعمالهم ، يبلغونها ويثابون بها ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر . واستدل بها ، على هذا التأويل ، بأن الجن يدخلون الجنة ويثابون .

قال ابن كثير : ويحتمل أن يعود قوله (وَلِكُلِّ) لكافرى الجن والإنس . أى : ولكل درجة في النار بحسبه ، كقوله (الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ) ^(٢) .
« وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣٣] (وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ ، إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ)

« وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ » عن جميع خلقه من جميع الوجوه ، وهم الفقراء إليه في جميع أحوالهم

(١) [١٧ / الإسراء / ١٥] .

(٢) [٦ / الأنعام / ١٤]

« ذُو الرِّحْمَةِ » أى : يترحم عليهم بالتكليف ، تكميلاً لهم ، ويمهلهم على المعاصى . وفيه تنبيه على أن ما سبق ذكره من الإرسال ليس لنفعه سبحانه ، بل لترحمه على العباد ، وتمهيد لقوله « إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ » أى : من الخلق يعملون بطاعته « كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ » ذهب بهم ثم بذريتهم ، لكنه أبقاكم ترحمًا عليكم . وهذا كقوله تعالى (وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ ، وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ)^(١) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣٤] (إِنْ مَا تَوْعَدُونَ لَأْتِ ، وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ)

« إِنْ مَا تَوْعَدُونَ » أى : من البعث وأحواله « لَأْتِ » أى : لكائن لا محالة « وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ » أى : بفائتين بعمجز عنكم . وهذا رد لقولهم : من مات فقد فات . أى : هو قادر على إعادتكم ، وإن صرتم رفاتاً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣٥] (قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَاتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ ، فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ ، إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ)

« قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَاتِكُمْ » أى : على غاية تمكنكم واستطاعتكم . يقال : مكن مكانة ، إذا تمكن أبلغ التمكن . أو على جهتم وحالتكم ، من قولهم : مكان ومكانة ، كقام ومقامة . والمعنى : اثبتوا على كفركم . « إِنِّي عَامِلٌ » أى : ما أمرت به من الثبات على الإسلام . « فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ » أى : التى

(١) [٤٧ / محمد ﷺ / ٣٨] هَا أَنْتُمْ هَوْلَاءُ تَدْعُونَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ

فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخُلُ ، وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلْ عَنْ نَفْسِهِ ، وَ ...

بنيت لعبادته تعالى وحده ، دون غيرهم ، هل تكون للعدل الذى يضع العبادة فى موضعها ، أو للظالم بوضعها فى غير موضعها . والمراد بالدار ، الدنيا . وبالعاقبة ، العاقبة الحسنى . أى : عاقبة الخير ، لأنها الأصل ، فإنه تعالى جعل الدنيا مزرعة الآخرة ، وقنطرة المجاز إليها .
« إِنَّهُ لَا يَفْلَحُ الظَّالِمُونَ » أى : الكافرون . ووضع الظلم موضع الكفر ، إيذاناً بأن امتناع الفلاح يترتب على أى فرد كان من أفراد الظلم ، فما ظنك بالكفر الذى هو أعظم أفرادة ؟

لطائف

فى إيراد التهديد بصيغة الأمر ، أعنى : قوله (اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ) مبالغة فى الوعيد ، كأن المهدد يريد تعذيبه ، مجعاً عليه ، فيحمله بالأمر على ما يؤدى إليه . وتسجيل بأن المهدد لا يتأتى منه إلا الشر ، كالأمر به الذى لا يقدر أن يتفصى عنه .
وفى قوله تعالى : (فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ) مع الإنذار ، إنصاف فى المقال ، وحسن الأدب ، حيث لم يقل (العاقبة لنا) وفوض الأمر إلى الله . وهذا من الكلام النصف ، كقوله تعالى : (وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ)^(١) .
وفيه تنبيه على وثوق المنذر بأنه محق .
وفيه تبشير بأن العاقبة له .

قال ابن كثير : وقد أنجز الله موعوده لرسوله صلوات الله عليه ، فمكن له فى البلاد ، وحكمه فى نواصى مخالفيه من العباد ، وفتح له مكة ، وأظهره على من كذبه من قومه وعاداه ونواؤه ، واستقر أمره على سائر جزيرة العرب ، وكذلك اليمن والبحرين ، وكل ذلك فى حياته . ثم فتحت الأمصار والأقاليم والرساتيق بعد وفاته ، فى أيام خلفائه رضى الله عنهم أجمعين . كما

(١) [٣٤ / سبأ / ٢٤] قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، قُلِ اللهُ ، ...

قال تعالى : (كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلَبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي ، إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ)^(١) . وقال : (إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ * يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ ، وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ)^(٢) وقال تعالى : (فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ * وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ، ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ)^(٣) وقال تعالى : (وَعد الله الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ، يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا)^(٤) . وقد فعل تعالى ذلك بهذه الأمة ، وله الحمد والمنة .

ثم بين تعالى نوعاً من جهالات مشركي مكة وضلالاتهم ، وهو ترجيحهم جانب الأصنام على جانبه سبحانه ، بعد تشريكهم إياه فيما اختص بخلقه ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣٦] (وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا ، فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ ، وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ ، سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)

« وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ » أى : خلق « مِنَ الْحَرْثِ » أى : الزرع « وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا »

(١) [٥٨ / المجادلة / ٢١] .

(٢) [٤٠ / غافر / ٥١ و ٥٢] .

(٣) [١٤ / إبراهيم / ١٣ و ١٤] وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا ...

(٤) [٢٤ / النور / ٥٥] ... وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ .

يصرفونه إلى الضيفان والمساكين . أى : ولأصنامهم نصيباً يصرفونه إلى التنسك والسدنة . وإنما لم يذكر اكتفاء بما بعده .

« فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ » بالفتح والضم (وقال الشهاب : الزعم مثلث كالود) . أى : هذا مستقر له الآن ، من غير استقرار له في المستقبل لعارض . « وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا » وهو مستقر لهم ، بل يستقر لهم ما ليس لهم أيضاً ، فكانوا إذا سقط في نصيب الله شيء من نصيبها التقطوه ، أوفى نصيبها شيء من نصيبه تركوه ، كما قال تعالى : « فَمَا كَانَ لَشُرِكِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ » أى : عند نمائه أو سقوطه فيما هو لله . أو هلاك ما هو لله لا يصل إلى الوجوه التي كانوا يصرفونه إليها من قرى الضيفان والتصدق على المساكين . « وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ » أى : عند نمائه أو سقوطه فيما هو للأصنام ، أو هلاك ما لها ، فينفقون عليها ، بذبح نساءك عندها ، والإجراء على سدتها ، ونحو ذلك . وعلموا ذلك بأن الله غنى ، وهى محتاجة « سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ » أى : ما يقسمون ، لأنهم أولاً عملوا ما لم يشرع لهم ، وضلوا في القسم . لأنه تعالى رب كل شيء ومليكه وخالقه ، لا إله غيره ، ولا رب سواه . ثم لما قسموا فيما زعموا القسمة الفاسدة ، لم يحفظوها ، بل جاروا فيها ، إذ رجحوا جانب الأصنام في الحفظ والرعاية سفهاً .

وقال المهايى : « سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ » أى : من ترجيح جانب الأصنام على جانب الله ، بعملة تقتضى ترجيح جانب الله لإلهيته ، وعدم صلاحيتها للإلهية مع الحاجة . وما ذكرناه في الآية هو الذى قاله أئمة التفسير .

فقد روى على بن أبى طلحة والوفى عن ابن عباس أنه قال في تفسير هذه الآية : إن أعداء الله كانوا إذا حرثوا حرثاً ، أو كانت لهم ثمرة ، جعلوا لله منه جزءاً ، وللوثن جزءاً ، فما كان من حرث أو ثمرة أو شيء من نصيب الأوثان حفظوه وأحصوه . وإن سقط منه شيء فيما سمي للصمد ، ردّوه إلى ما جعلوه للوثن ، وإن سبقهم الماء الذى جعلوه للوثن ، فسقى شيئاً

جعلوه لله، جعلوا ذلك للوثن . وإن سقط شيء من الحرت والثرة الذي جعلوه لله ، فاختلط بالذي جعلوه للوثن قالوا : هذا فقير ، ولم يردوه إلى ما جعلوه لله ، وإن سبقهم الماء الذي جعلوه لله ، فسقى ماسمى للوثن تركوه للوثن، وكانوا يحرمون من أموالهم البحيرة والسائبة والوصيلة والحام. فيجعلونه للأوثان، ويزعمون أنهم يحرمونه قربة لله تعالى ، فقال تعالى: (وَجَعَلُوا اللَّهَ مِمَّا ذَرَأَ ...) الآية. قال ابن كثير : وهكذا قال مجاهد وقتادة والسدي وغير واحد .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣٧] (وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَائِهِمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ، فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ) « وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَائِهِمْ » أى : مثل ذلك التزيين ، وهو تزيين الشرك فى القسمة المتقدمة ، زين لهم أولياؤهم من الشياطين ما هو أشد منه قبحاً فى باب القربان ، وهو قتل أولادهم خشية الإملاق، ووأد البنات خشية العار، وإنما سميت الشياطين شركاء ، لأنهم أطاعوهم فيما أمروهم به من قتل أولادهم ، فأشركوهم مع الله فى وجوب طاعتهم ، « لِيُرْدُوهُمْ » أى : يهلكوهم بالشرك وقتل الولد . من (الإرداء . وهو ، لغة ، الإهلاك) ، « وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ » أى : ليخلطوا عليهم ما هم عليه ، بدین إبراهيم فى ذبح إسماعيل عليهما السلام. أو ما وجب عليهم أن يتدينوا به ، لأنهم كانوا على دين إسماعيل . فهذا الذى أتاهم بهذه الأوضاع الفاسدة أراد أن يزيلهم عن ذلك الدين الحق . « وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ » أى : فلا تحزن على هلاكهم بما يفعلونه ، لأنه بعشيئة الله ، « فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ » أى : لأن له فيما شاء حكماً بالغة^(١) (إِنَّمَا نُنْمِلِي لَهُمْ لِيُرْدَوْا أُولَئِكَ ، وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ) وفيه من شدة الوعيد ما لا يخفى .

تنبيه :

(شُرَكَائِهِمْ) فاعل (زَيَّنَ) أخر عن الظرف والمفعول اعتناء بالمقدم ، واهتماماً به ،

(١) [٣ / آل عمران / ١٧٨]

لأنه موضع التعجب ، لأنهم يقدمون الأهم ، والذين هم بشأنه أُعْتِيَ . وقرأ ابن عامر (وَحْدَهُ) (زَيْن) على البناء للمفعول الذى هو القتل ، ونصب الأولاد ، وجر الشركاء بإضافة القتل إليه ، مفصلاً بينهما بمفعوله . وقد زيف الزخشرى ، عفا الله عنه ، هذه القراءة ، وعد ذلك من كبار كشفه حيث قال : وأما قراءة ابن عامر ، فشىء لو كان فى مكان الضرورات ، وهو الشعر ، لكان سمجاً مردوداً ، كما سمج ورد^(١) :

* زَجَّ الْقُلُوصَ أَبَى مَزَادَةَ *

(١) وصدر البيت :

* فَزَجَّجَتْهَا بِمَزَجَةٍ *

زججتها أى ضربتها بالزج . والزج كعب الرمح . والمزجة رمح قصير يسمى الزراق . والقلوص الشابة من الإبل كالفتى من الرجال . وأبو مزادة كنية رجل .

زججتها فعل وفاعل ومفعول . و (بمزجة) متعلق به . وزج منصوب بنزع الخافض . أى زججتها زجاً كزج . والقلوص منصوب على أنه مفعول المصدر ، فصل به بين المتضايقين . وأبى مزادة ، جُرَّ بإضافة (زج) إليه .

والشاهد فى الفصل بين المتضايقين بغير الظرف والجار والمجرور ، وهو المفعول . وهو جائز عند الكوفيين .

والبصريون منعوا هذا . وقالوا : إن المتضايقين فى قوة شىء واحد فلا يجوز الفصل بينهما . إلا أن العرب توسعت فى الظروف والجار والمجرور ، ما لم تتوسع فى غيرها . وأجابوا عن الشواهد الشعرية بأنها لم يعرف لها قائل ، فلا يصح الاحتجاج بها . وقال شارح شواهد الفصل : لم يسم أحد قائله ولا ذكر له سابقاً ولا لاحقاً .

وجاء فى خزنة الأدب : وهذا البيت لم يعتمد عليه متقنو كتاب سيبويه . حتى قال السيرافى : لم يثبت أحد من أهل الرواية ، وهو من زيادات أبى الحسن الأخفش فى حواشى كتاب سيبويه ، فأدخله بعض النساخ فى بعض النسخ .

فكيف به في الكلام المنشور ؟ فكيف به في القرآن المعجز بحسن نظمه وجزالته ؟
قال : والذي حمله على ذلك أنه رأى في بعض المصاحف (شُرَكَائِهِمْ) مكتوباً بالياء ،
ولو قرأ بجر الأولاد والشركاء - لأن الأولاد شركاؤهم في أموالهم - لوجد في ذلك مندوحة
عن هذا الارتكاب . انتهى .

قال الناصر في (الانتصاف) : لقد ركب الزخشرى متن عمياء ، وتاه في تيهاء ، وأنا أقرأ
إلى الله ، وأبرئ حملة كتابه ، وحفظه كلامه ، مما رماه به ، فإنه تخيل أن القراء أئمة الوجوه
السبعة ، اختار كل منهم حرفاً قرأ به اجتهداً ، لا نقلاً وسماعاً ، فلذلك غلط ابن عامر
في قراءته هذه ، وأخذ يبين أن وجه غلطه رؤيته الياء ثابتة في (شركائهم) ، فاستدل بذلك
على أنه مجرور ، وتعين عنده نصب (أولادهم) بالقياس ، إذ لا يضاف المصدر إلى أمرين معاً ،
فقرأه منصوباً . قال : وكانت له مندوحة عن نصبه إلى جره بالإضافة ، وإبدال الشركاء منه ،
وكان ذلك أولى مما ارتكبه . فهذا كله كما ترى ظناً من الزخشرى أن ابن عامر قرأ قراءته
هذه رأياً منه ، وكان الصواب خلافه ، والفصيح سواء . ولم يعلم الزخشرى أن هذه القراءة
بنصب الأولاد ، والفصل بين المضاف والمضاف إليه بها ، يعلم ضرورة أن النبي ﷺ قرأها
على جبريل ، كما أنزلها عليه ، ثم تلاها النبي ﷺ على عدد التواتر من الأئمة ، ولم يزل عدد التواتر

= قال الزخشرى في (مفصله) : وما يقع في بعض نسخ (الكتاب) من قوله :

فَرَجَجْتَهَا بِمِزْجَةٍ زَجَّ الْقُلُوصَ أَبِي مَزَادَةَ

فسيبويه يرى من عهده .

وقال صاحب الخزانة معقّباً على قول الزخشرى :

أراد أن سيبويه لم يورد هذا البيت في كتابه ، بل زاده غيره في كتابه ، وإنما برأ سيبويه
من هذا ، لأن سيبويه لا يرى الفصل بغير الظرف . وإذا كان هذا مذهبه ، فكيف يورد
بيتاً على خلاف مذهبه ؟

يتناقضونها، ويقرؤون بها، خلفاً عن سلف، إلى أن انتهت إلى ابن عامر، فقرأها أيضاً كما سمعها. فهذا معتقد أهل الحق في جميع الوجوه السبعة أنها متواترة جملة وتفصيلاً عن أفصح من نطق بالضاد عليه السلام . فإذا علمت العقيدة الصحيحة ، فلا مبالاة بعدها بقول الزخشرى ، ولا بقول أمثاله ممن لحن ابن عامر، فإن المنكر عليه إنما أنكر ما ثبت أنه براء منه قطعاً وضرورة. ولولا عذر أن المنكر ليس من أهل الشائين : أعنى علم القراءة وعلم الأصول، ولا يبعد من ذوى الفنين المذكورين ، خفيف عليه الخروج من رتبة الدين . وإنه على هذا العذر لفي عهدة خطرة ، وزلة منكرة ، تزيد على زلة من ظن أن تفاصيل الوجوه السبعة ، فيها ما ليس متواتراً ، فإن هذا القائل لم يثبتها بغير النقل . وغايته أنه ادعى أن نقلها لا يشترط فيه التواتر. وأما الزخشرى فظن أنها ثبتت بالرأى ، غير موقوفة على النقل ، وهذا لم يقل به أحد من المسلمين . وما حمله على هذا الخيال إلا التغالى في اعتقاد اطراد الأقيسة النحوية ، فظنها قطعية، حتى يرد ما خالفها. ثم إذا تنزل معه على اطراد القياس الذى ادعاه مطردا ، فقراءة ابن عامر هذه لا تخالفه . وذلك أن الفصل بين المضاف والمضاف إليه ، وإن كان عسراً ، إلا أن المصدر إذا أضيف إلى معموله ، فهو مقدر بالفعل ، وبهذا التقدير عمل . وهو وإن لم تكن إضافته غير محضة ، إلا أنه شبه بما إضافته غير محضة . حتى قال بعض النحاة : إن إضافته ليست محضة ، لذلك . فالحاصل أن اتصاله بالمضاف إليه ليس كاتصال غيره ، وقد جاء الفصل بين المضاف غير المصدر، وبين المضاف إليه بالظرف ، فلا أقل من أن يتميز المصدر على غيره، لما بيناه من انفكاكه في التقدير ، وعدم توغله في الاتصال ، بأن يفصل بينه وبين المضاف إليه ، بما ليس أجنبياً عنه ، وكأنه بالتقدير : فكّه بالفعل ، ثم قدم المفعول على الفاعل ، وأضافه إلى الفاعل ، وبقي المفعول مكانه حين الفك . وبسهل ذلك أيضاً تغاير حال المصدر ، إذ تارة يضاف إلى الفاعل ، وتارة يضاف إلى المفعول . وقد ائتم بعضهم اختصاص الجواز بالفصل بالمفعول بينه وبين الفاعل ، لوقوعه في غير مرتبته، إذ ينوب به التأخير ، فكأنه لم يفصل . كما جاز تقدم المضمرة على الظاهر إذا حلّ في غير مرتبته ، لأن النية به التأخير، وأنشد أبو عبيدة :

فَدَاسَهُمْ دَوَسَ الْحَصَادَ الدَّائِسَ

وَأُنْشَدَ أَيْضاً^(١) :

يَفْرُكُنْ حَبَّ السُّنْبُلِ الْكُنَافِجِ بِالْقَاعِ فَرَكَ الْقُطْنُ الْمَحَالِجِ
ففصل كما ترى بين المصدر وبين الفاعل بالمفعول . ومما يقوّى عدم توغله في الإضافة جواز العطف على موضع مخفوضه رفعاً ونصباً . فهذه كلها نكت مؤيدة بقواعد ، منظره بشواهد من أقيسة العربية ، تجمع شمل القوانين النحوية ، لهذه القراءة . وليس غرضنا تصحيح القراءة بقواعد العربية ، بل تصحيح قواعد العربية بالقراءة . وهذا قدر كاف إن شاء الله في الجمع بينهما - والله موفق - وما أجريناه في أدراج الكلام من تقريب إضافة المصدر من غير المحضة ، إنما أردنا انضمامه إلى غيره من الوجوه التي يدل بإجتماعها على أن الفصل غير منكر في إضافته ، ولا مستبعد من القياس ، ولم نفرد في الدلالة المذكورة . إذ المتفق على عدم تمحّضها لايسوغ فيها الفصل ، فلا يمكن استقلال الوجه المذكور بالدلالة - والله موفق - انتهى كلام الناصر رحمه الله تعالى^(٢) .

ثم بين تعالى نوعاً آخر من مفترياتهم بقوله :

(١) في اللسان : قال جندل بن المنبّي :

* يَفْرُكُ حَبَّ السُّنْبُلِ الْكُنَافِجِ *

وقال : الكنافج السمين الممتلئ . وسنبُل كنافجٌ مكتنز . وقال ابن سيده : وقيل هو

الغليظ الناعم .

(٢) ويمجد بنا في هذا المقام أن نطلع القارئ الحصيف على رأى كبير المفسرين ، الإمام

محمد بن جرير الطبري ، قال رضى الله عنه :

وقرأ بعض قرأة الشام (وكذلك زَيْن) بضم الزاى (لكثير من المشرّكين قَتْلُ)

بالرفع (أولادهم) بالنصب (شركائهم) بالخفض بمعنى : وكذلك زَيْن لكثير من المشرّكين =

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣٨] (وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْتُ حِجْرَهُ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءٌ عَلَيْهِ ، سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ)

« وَقَالُوا هَذِهِ » إشارة إلى ما جعلوه لأهلهم ، والتأنيث للخبر « أَنْعَامٌ وَحَرْتُ حِجْرَهُ » أى : حرام (والجمهور على كسر الحاء وسكون الجيم) فعل بمعنى مفعول ، كالذبح والطحن ، يستوى فى الوصف به المذكر والمؤنث والواحد والجمع ، لأن حكمه حكم الأسماء غير الصفات .
أى : محرمة علينا ، أو محرمة علينا فى أموالنا للأوثان . ويقرأ بضم الحاء .

= قتل شركائهم أولادهم ، ففرقوا بين الخافض والمخفوض بما عمل فيه من الاسم .
وذلك فى كلام العرب قبيح غير فصيح .

وقد روى عن بعض أهل الحجاز بيت من الشعر يؤيد قراءة من قرأ بما ذكرت من قراءة أهل الشام ، رأيت رواة الشعر وأهل العلم بالعربية من أهل العراق ينكرونه .

وذلك قول قائلهم :

فزججته متمكنا زجَّ القُلُوصَ أبى مَزَادَه

قال أبو جعفر : والقراءة التى لا أستجيز غيرها (وكذلك زَيْنَ لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم) بفتح الزاى من (زين) ونصب (القتل) بوقوع (زين) عليه .
وخفض (أولادهم) بإضافة (القتل) إليهم ، ورفع (الشركاء) بفعلهم . لأنهم هم الذين زينوا للمشركين قتل أولادهم ، على ما ذكرت من التأويل .

وإنما قلتُ : (لا أستجيز القراءة بغيرها) لإجماع الحجة من القراءة عليه . وأن تأويل أهل التأويل بذلك ورد . فى ذلك أوضح بيان على فساد ما خالفها من القراءة .

« لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ » قال في (المدارك) : كانوا إذا عينوا أشياء من حرثهم وأنعامهم لآلتهم قالوا : لا يطعمها إلا من نشاء . يعنون : خدام الأوثان ، والرجال دون النساء .
« بِرِغْمِهِمْ » حال من فاعل (قالوا) أى : متلبسين بزعمهم الباطل من غير حجة .

قال ابن كثير : وهذه الآية السكينة كقوله تعالى (قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ ءَاللهُ أَذِنَ لَكُمْ ، أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ) (١) .
« وَأَنْعَامٌ » أى : وقالوا مشيرين إلى طائفة أخرى من أنعامهم : هذه أنعام « حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا » يعنون بها البحار والسواحب والحوامى « وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ أَسْمَاءَ اللَّهِ عَلَيْهَا » أى : حالة الذبح ، وإنما يذكرون عليها أسماء الأصنام « افْتَرَاءً عَلَيْهِ » أى : على الله ، وكذباً منهم فى إسنادهم ذلك إلى دين الله وشرعه ، فإنه لم يأذن لهم فى ذلك ، ولا رضيه منهم .
« سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ » أى : عليه ، ويسندون إليه . وفيه وعيد وتهديد .

ثم بين تعالى فناً آخر من ضلالهم بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣٩] (وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِلَّذِينَ كُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ ، سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ، إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ)
« وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ » يعنون أجنة البحار والسواحب « خَالِصَةٌ لِلَّذِينَ كُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا » يعنون أنه حلال للذكور دون الإناث ، وإن ولد حيّاً لقوله سبحانه : « وَإِنْ يَكُنْ » أى : ما فى بطونها « مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ » فالذكور والإناث فيه سواء .

وفى رواية العوفى عن ابن عباس أن المعنى بـ (مَا فِي بُطُونِهَا) هو اللبن . كانوا يحرمونه

(١) [١٠ / يونس / ٥٩] .

على إنسانهم ، ويشربه ذكراهم . وكانت الشاة إذا ولدت ذكراً ذبحوه . وكان للرجال دون النساء . وإن كانت أنثى تركت فلم تذبح ، وإن كانت ميتة فهم فيه شركاء .

وقال الشعبي : البهيرة ، لا يأكل من لبنها إلا الرجال ، وإن مات منها شيء أكله الرجال والنساء . وكذا قال عكرمة وقتادة وابن أسلم .

« سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ » أى : بالتجليل والتحريم على سبيل التحكم ونسبته إلى الله تعالى « إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ » أى : حكيم فى أفعاله وأقواله وشرعه ، عليم بأعمال عباده من خير أو شر ، وسيجزئهم عليها .

تنبيه :

قال السيوطى فى (الإكليل) : استدل مالك بقوله (خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا) على أنه لا يجوز الوقف على أولاده الذكور دون البنات ، وأن ذلك الوقف يفسخ ، ولو بعد موت الواقف ، لأن ذلك من فعل الجاهلية . واستدل به بعض المالكية على مثل ذلك فى الهبة . انتهى .

لطائف

(التاء) فى (خَالِصَةٌ) إما للنقل إلى الاسمية ، أو للمبالغة ، أو لأن (الخالصة) مصدر كالمافية ، وقع موقع (الخالص) مبالغة ، أو بحذف المضاف . أى : ذو خالصة ، أو للتأنيث بناءً على أن (ما) عبارة عن الأجنة . والتذكير فى (محرم) باعتبار اللفظ . وقرئ (خَالِصَةً) بالنصب على أنه مصدر مؤكد ، والخبر (لِذُكُورِنَا) . ووصفهم واقع موقع مصدر (سَيَجْزِيهِمْ) بتقدير مضاف . أى : جزاء وصفهم بالكذب عليه تعالى فى التحريم والتجليل من قوله تعالى : (وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ)^(١) .

(١) [١٦ / النحل / ٦٢] وانصها : وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى ، لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ .

قال الشهاب : وهذا من بليغ الكلام وبديعه ، فإنهم يقولون : وصف كلامه الكذب ، إذا كذب ، وعينه تصف السحر ، أى : ساحرة ، وقدّه يصف الرشاقة ، بمعنى رشيق ، مبالغة . حتى كأن من سمعه أو رآه وصف له ذلك بما يشرحه له . قال المرحى ^(١) :

سَرَى بَرْقُ الْمَرْةِ بَعْدَ وَهْنٍ فَبَاتَ بِرَامَةٍ يَصِفُ الْكَلَالَا

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤٠] (قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ ، قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ)

« قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ » يعنى : وأد بناتهم خشية السبى أو الفقر « سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ » خلفه أحلامهم وجهالهم بأن الله هو رازق أولادهم ، لا هم « وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ » من البحائر والسوائب ونحوها « افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا » عن الصراط المستقيم . « وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ » أى : إلى الحق والصواب .

قال الشهاب : وفى قوله (وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ) بعد قوله (قَدْ ضَلُّوا) مبالغة فى نفى الهداية عنهم ، لأن صيغة الفعل تقتضى حدوث الضلال ، بعد أن لم يكن . فلذا أورد بهذه الحال ، لبيان عراقتهم فى الضلال ، وإنما ضلّاهم الحادث ظلمات بعضها فوق بعض .

(١) من قصيدته فى سقط زند . ومطلعها :

أَعْنُ وَخَدِ الْقِلَاصِ كَشَفْتِ حَالَا وَمِنْ عِنْدِ الظَّلَامِ طَلَبْتَ مَالَا

قال شارح البيت :

بعد وهن أى بعد طائفة من الليل . ومعرة النعمان بلد بالشام . ورامة موضع بعينه . يقول : لما حللنا برامة مغرباً نظرنا إلى برق سرى من جانب الشام ، من صوب معرفة النعمان ، حتى إذا بلغ رامة بات بها يصف الكلال . أى يشكو ضعفه لأنه قطع شقة بعيدة ومسافة شاسعة .

تنبيه :

حمل كثير من المفسرين (الخسران) على ما يشمل الدارين . أما الدنيا فخسروا منافع أولادهم ، وثمرة ما خلقوا له . وكذا منافع أنعامهم بما ضيقوا وحجروا فيها ابتداءً . وأما الآخرة فيصيرون إلى أسوأ المنازل . وهذا التعميم ، وإن كان حقاً ، إلا أن الأظهر محله على الآخرة ، توفيقاً بين النظائر ، كقوله ^(١) تعالى : (قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ * مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نَذِقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ) .

روى الحافظ ابن مردويه عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : إذا سرك أن تعلم جهل العرب ، فافراً ما فوق الثلاثين والمائة من سورة الأنعام : (قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ ...) الآية - وهكذا رواه ^(٢) البخاري في مناقب قريش من (صحيحه) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٤١] (وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكْلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ ، كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ، وَلَا تُسْرِفُوا ، إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ)

وقوله تعالى : « وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ » تمهيد لما سيأتى من تفصيل أحوال الأنعام . أى : هو الذى أنعم عليكم بأنواع النعم ، لتعبدوه وحده ، فخلق لكم بساتين من السكروم وغيرها معروشات ، أى : مسموكات بما عملتم لها من الأعمدة . يقال : عرشت السكروم إذا جعلت له دعائم وسمكاً تعطف عليه القضبان . (وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ) متروكات على وجه الأرض لم تعرش . « وَ » أنشأ « النَّخْلَ » المثمر لما هو فاكهة وقوت ،

(١) [١٠ / بونس / ٦٩ و ٧٠]

(٢) أخرجه البخاري في : ٦١ - كتاب المناقب ، ١٢ - باب قصة زمزم وجهل العرب .

« وَالزَّرْعَ » المحصل لأنواع القوت « مُخْتَلَفًا أَكُلُهُ » أى : ثمره وحبّه فى اللون والطعم والحجم والرائحة . « وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا » فى اللون والشكل ، ورقهما « وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ » فى الطعم « كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ » أى : كلوا من ثمر كل واحد مما ذكر ، إذا أدرك .

قال الرازى : لما ذكر تعالى كيفية خلقه لهذه الأشياء ، ذكر ما هو المقصود الأصلي من خلقها ، وهو انتفاع المكافين بها ، فقال : (كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ) واختلفوا ما الفائدة منه ؟ فقال بعضهم : الإباحة . وقال آخرون : بل المقصود منه إباحة الأكل قبل إخراج الحق ، لأنه تعالى لما أوجب الحق فيه كان يجوز أن يحرم على المالك تناوله ، لكان شركة المساكين فيه ، بل هذا هو الظاهر . فأباح تعالى هذا الأكل ، وأخرج وجوب الحق فيه من أن يكون مانعاً من هذا التصرف . وقال بعضهم : بل أباح تعالى ذلك ليبين أن المقصد بخلق هذه النعم إما الأكل ، وإما التصدق ، وإنما قدم ذكر الأكل على التصدق ، لأن رعاية النفس مقدمة على رعاية الغير . قال تعالى^(١) : (وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ) . انتهى .

« وَءَاتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ » قرئ بفتح الحاء وكسرها . وهذا أمر بإيتاء من حضر يومئذ ما تيسر ، وليس بالزكاة المفروضة - هكذا قال عطاء - أى : لأن السورة مكية ، والزكاة إنما فرضت بالمدينة . وكذا قال مجاهد : إذا حضرك المساكين طرحت لهم منه . وفى رواية عنه : عند الحصاد يعطى القبضة ، وعند الصرام يعطى القبضة . ويتركهم يتبعون آثار الصرام . وهكذا روى عن نافع وإبراهيم النخعي وغيرهم . وعند هؤلاء أن هذا الحق

(١) [٢٨ / القصص / ٧٧] ونصها : وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ، وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ، وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ، وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ .

باقٍ لم ينسخ بالزكاة ، فيوجبون إطعام من يحضر الحصاد لهذه الآية . ومما يؤيده تعالى ذم الذي يصرمون ولا يتصدقون ، حيث قصّ علينا سوء فعلهم وانتقامه منهم . قال تعالى في سورة (ن) : (إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ * وَلَا يَسْتَنْوُونَ * فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ * فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ)^(١) أى : كالليل المدهم ، سوداء محترقة . (فَتَنَادُوا مُصْبِحِينَ * أَنْ أَغْدُوا عَلَى حَرِّئِكُمْ * إِنَّكُمْ صَارِمِينَ * فَاَنْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَفَتُونَ * أَنْ لَا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ ...)^(٢) الآيات .

وذهب بعضهم إلى أن هذا الحق نسخ بآية الزكاة ، حكاه ابن جرير^(٣) عن ابن عباس وثلة من التابعين .

قال ابن كثير : في تسمية هذا نسخاً نظر ، لأنه قد كان شيئاً واجباً . ثم إنه فسر بيانه وبين مقدار المخرج وكميته . انتهى .

ولا نظر ، لما عرفت في المقدمة من تسمية مثل ذلك نسخاً عند السلف ، ومرراً قريباً أيضاً ، فتذكر !

وذهب بعضهم إلى أن الآية مدنية ، ضمت إلى هذه السورة في نظائرهما ، بينها أول السورة ، وأن الحق هو الزكاة المفروضة . روى عن أنس وابن عباس وابن المسيب .

والأمر بإيتائها يوم الحصاد ، للمبالغة في العزم على المبادرة إليه . والمعنى : اعزموا على إيتاء الحق واقصدوه ، واهتموا به يوم الحصاد ، حتى لا تؤخروه عن أول وقت يمكن فيه الإيتاء . قال الحاكم : وقيل : إنما ذكر وقت الحصاد تخفيفاً على الأرباب ، فلا يحسب عليهم ما أكل قبله .

(١) [٦٨ / القلم / ١٧ - ٢٠] ونصها : إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ ...

(٢) [٦٨ / القلم / ٢١ - ٢٤] .

(٣) الأثران رقم ١٤٠٢٠ و ١٤٠٢١ من التفسير .

وقد روى العوفي عن ابن عباس قال : كان الرجل إذا زرع فسكر يوم حصاده ، لم يخرج مما حصد شيئاً ، فقال تعالى : (وَءَاتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ) وذلك أن يعلم ما كيله وحقه من كل عشرة واحد ، وما يلقط الناس من سنبله .

وقد روى الإمام أحمد^(١) وأبو داود^(٢) عن جابر بن عبد الله قال : أمر رسول الله ﷺ من كل جادّة عشرة أوسق من التمر ، بقنوي يعلق في المسجد للمسكين . قال ابن كثير : إسناده جيد قوى .

تنبيه :

قال في (الإكليل) : استدل بالآية من أوجب الزكاة في كل زرع وثمر ، خصوصاً الزيتون والرمان المنصوص عليهما . ومن خصها بالحبوب ، قال : إن الحصاد لا يطلق حقيقة إلا عليها . وفيها دليل على أن الزكاة لا يجب أدائها قبل الحصاد . واستدل بها أيضاً على أن الاقتران لا يفيد التسوية في الأحكام ، لأنه تعالى قرن الأكل ، وهو ليس بواجب اتفاقاً ، بالإيتاء ، وهو واجب اتفاقاً . انتهى .

وقوله تعالى : « وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ » النهي عن الإسراف ، إما في التصدق ، أي : لا تعطوا فوق المعروف . قال أبو العالية : كانوا يعطون يوم الحصاد شيئاً ، ثم تبادروا فيه وأسرفوا ، فنزلت (وَلَا تُسْرِفُوا) . وقال ابن جريح : نزلت في ثابت بن قيس بن شماس . جدّ نخلاله فقال : لا يأتيني اليوم أحد إلا أطعمته ، فأطعم حتى أمسى وليست له ثمرة ، فنزلت . ولذا قال السدي : أي : لا تعطوا أموالكم فتقعّدوا فقراء . وإما في الأكل قبل الحصاد ، وهذا عن أبي مسلم قال : ولا تسرفوا في الأكل قبل الحصاد كيلا يؤدي إلى بحس حق الفقراء . وإما في كل شيء ، قال عطاء : نهوا عن السرف في كل شيء .

(١) أخرجه في المسند بالصفحة ٣٥٩ و ٣٦٠ من الجزء الثالث (طبعة الحلبي) .

(٢) أخرجه أبو داود في : ٩ - كتاب الزكاة ، ٣٢ - باب في حقوق المال ، حديث ١٦٦٢

وقال إياس بن معاوية : ما جاوزت به أمر الله ، فهو سرف . واختار ابن جرير ^(١) قول عطاء . قال ابن كثير : ولا شك أنه صحيح ، لكن الظاهر - والله أعلم - من سياق الآية ، حيث قال تعالى (كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ) أن يكون عائداً على الأكل . أى : لا تسرفوا في الأكل ، أما فيه من مضرة العقل والبدن ، كقوله تعالى (كُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا ...) ^(٢) الآية .

وفي صحيح البخارى ^(٣) تعليقا : كلوا واشربوا ولبسوا وتصدقوا من غير إسراف ولا مخيلة . وهذا من هذا - والله أعلم - انتهى .

وقد جنح إلى هذا الميأى في تفسيره حيث قال : ولا تسرفوا في أكلها لئلا يبطل ، باستيفاء الشهوات ، معنى المزرعة .

ثم بين تعالى حال الأنعام ، وأبطل ما تقولوا عليه في شأنها بالتحريم والتحليل ، بقوله :

(١) الأثر رقم ١٤٠٤١ من التفسير ونصه :

عن ابن جريج قال : قلت لعطاء : « وَلَا تُسْرِفُوا » يقول : لا تسرفوا فيما يأتي يوم الحصاد ، أم كل شيء ؟ قال : بلى ! في كل شيء ، ينهى عن السرف .

قال : ثم عاودته بعد حين فقلت : ما قوله « وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ » ؟ قال : ينهى عن السرف في كل شيء . ثم تلا « لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا » [٢٥ / الفرقان / ٦٧] .
(٢) [٧ / الأعراف / ٣١] ونصها : يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا ، إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ .

(٣) أخرجه البخارى في : ٧٧ - كتاب اللباس ، ١ باب قول الله تعالى : قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٤٢] (وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ، كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطَانِ ، إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ)

« وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا » أى : وأنشأ لكم من الأنعام ما يحمل الأثقال ، وما يفرش للذبح (أى : يضجع) أو ينسج من وبره وصفه وشعره الفرش .
وعن ابن عباس : الحمولة الكبار التي تصلح للحمل ، والفرش الصغير كالفصلان والمجاجيل والنعم ؛ لأنها دانية من الأرض ، للطافة أجرامها ، مثل الفرش المفروش عليها .
فعلى الوجهين الأولين : الفرش بمعنى المفروش ، وعلى الثالث : الكلام على التشبيه .
« كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ » أى : من الثمار والزروع والأنعام ، لحفظ الروح ، واستزادة القوة .

« وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطَانِ » أى : أوامره فى التحليل والتحريم ، كما اتبعها أهل الجاهلية ، فخرموا ما رزقهم الله افتراء عليه - كما مر - .
« إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ » أى : ظاهر المداوة ، يمنعكم مما يحفظ روحكم ، ويزيد قوتكم ، ويدعوكم إلى الافتراء على الله إن نسبتموه إلى أمره ، أو إلى دعوى الإلهية لكم إن استقلتم به .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٤٣] (مِمَّا نَبَتْ أَرْوَاجُ ، مِنَ الضَّانِّ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ ، قُلْ ءِذْكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ ، نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

وقوله تعالى « مِمَّا نَبَتْ أَرْوَاجُ » بدل من (حَمُولَةً وَفَرْشًا) أو مفعول (كُلُوا) .

(وَلَا تَتَّبِعُوا) معترض بينهما ، أو فعل دل عليه ، أو حال من (ما) بمعنى مختلفة أو متعددة. والزوج مامعه آخر من جنسه يزاوجه . قال تعالى ^(١) (وَأَنَّهُ خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ). وقد يقال لمجموعهما ، والمراد الأول .

« مِنْ الضَّانِّ » زوجين « اثْنَيْنِ » السكس والنمجة « وَمِنْ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ » التيس والمعز . « قُلْ » أى : تبكيتهما لهم ، وإظهاراً لانقطاعهم عن الجواب « الذَّكَرَيْنِ » من الضأن والمعز « حَرَّمَ » الله عليكم أيها المشركون « أَمْ الْأُنثِيَّاتِ » منهما « أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثِيَّاتِ » أى : أم ما حملت إناث الجنسين ذكرًا كان أو أنثى ، كما قالوا : (مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ ...) الآية ^(٢) .

« نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ » أى بدليل نقل من كتب أوائل الرسل ، أو عقل في الفرق بين هذين النوعين ، والنوعين الآتين - قاله المهايى - .

« إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » أى : فى دعوى التحريم .

وفى قوله تعالى (نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ ...) تكرر للإلزام ، وتثنية للتبكي والإخام .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤٤] (وَمِنْ الْأَبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنْ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ ، قُلْ الذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمْ الْأُنثِيَّاتِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثِيَّاتِ ، أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمْ اللَّهُ بِهَذَا ، فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)

« وَمِنْ الْأَبِلِ اثْنَيْنِ » عطف على قوله تعالى (مِنْ الضَّانِّ اثْنَيْنِ) أى : وأنشأ من

(١) [٥٣ / النجم / ٤٥]

(٢) [٦ / الأنعام / ١٣٩] ونصها : وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ

لِدُكُورِنَا وَمُحَرَّمَ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ ، سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ، إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ .

الإبل اثنين هما الجمل والناقة . « وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ » ذكرّا وأنثى . « قُلْ » أى : إلهاماً لهم أيضاً فى هذين النوعين « آلدَّ كَرَيْنَ » منهما « حَرَّمَ أُمَّ الْإِثْنَيْنِ أَمَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْإِثْنَيْنِ » أى من ذينك النوعين . والمعنى إنكار أن الله سبحانه وتعالى حرم عليهم شيئاً من الأنواع الأربعة ، وإظهار كذبهم فى ذلك . وتفصيل ما ذكر من الذكور والإناث وما فى بطونها - للمبالغة فى الرد عليهم بإيراد الإنكار على كل مادة من مواد افتراءهم . فإنهم كانوا يحرمون ذكور الأنعام تارة وإناثها تارة وأولادها كيفما كانت تارة أخرى . مسندين ذلك كله إلى الله سبحانه . وإنما عقب تفصيل كل واحد من نوعى الصغار ونوعى الكبار بما ذكر من الأمر بالاستفهام والإنكار مع حصول التبيكيت بإيراد الأمر عقيب تفصيل الأنواع الأربعة بأن يقال : قل آلدَّ كور حرم أم الإناث أم ما اشتملت عليه أرحام الإناث - لما فى التثنية والتكرير من المبالغة فى التبيكيت والإلزام . أفاده أبو السمود . ثم كرر الإلهام بقوله تعالى « أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ » حاضرين « إِذْ وَصَّاكُمْ اللَّهُ بِهَذَا » أى حين وصاكم بتحريم بعض وتحليله . وهذا من باب التهمك « فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا » أى فنسب إليه تحريم مالم يحرم « لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ » أى دليل « إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ » قال ابن كثير : أول من دخل فى هذه الآية عمرو ابن لحي بن قعدة . لأنه أول من غير دين الأنبياء وأول من سبب السوائب ووصل الوصيلة وحى الحامى . كما ثبت ذلك فى الصحيح (١) .

(١) أخرجه البخارى فى : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٥ - سورة المائدة ، ١٣ - باب مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ ، حديث ١٦٥٧ ونصه : قال أبو هريرة : قال رسول الله ﷺ « رأيت عمرو بن عامر الخزاعى يجرّ قُصْبَهُ فى النار . كان أول من سبب السوائب . والوصيلة الناقة البكر تبكّر فى أول نتاج الإبل ، ثم تُثنى بعدُ بأنثى . وكانوا يستبونها لطواغيتهم ، إن وصلت إحداها بالأخرى ، ليس بينهما ذكر . =

وقال أبو السعود : المراد كبارؤهم المقرّون لذلك . أو عمرو بن لحيّ وهو المؤسس لهذا الشر . أو الكل لاشتراكهم في الافتراء عليه ، سبحانه وتعالى .

لطيفة :

قال الزخشريّ : « فَإِنْ قُلْتَ : كيف فصل بين بعض الممدود وبعضه ولم يوال بينه ؟ قلت : قد وقع الفاصل بينهما اعتراضاً غير أجنبيّ من الممدود . وذلك أن الله عز وجل منّ على عباده بإنشاء الأنعام لمنافعهم وبإباحتها لهم . فاعترض بالاحتجاج على من حرّمها . والاحتجاج على من حرّمها تأكيد وتسديد للتحليل . والاعتراضات في الكلام لا تساق إلا للتوكيد . انتهى .

تنبيه :

دلت الآية على إباحة لحوم أكل الأنعام . وذلك معلوم من الدين ضرورة . وكذلك الانتفاع بالركوب فيما يركب ، والافتراش للأصواف والأوبار والجلود . وعلى ردّ ما كانت الجاهلية تحرّمه بغير علم .

قال المؤيد بالله : ويدخل الإنسيّ والوحشيّ في قوله : (مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ) . وردّ بأن قوله تعالى (ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ) بيان للأنعام . والأنعام لا تطلق على الوحشيّ . أفاده بعض مفسري الزيدية .

ثم أمر تعالى رسول الله ﷺ - بعد إلزام المشركين وتبسكيتهم وبيان أن ما يتقوّنونه في أمر التحريم افتراء بحتٌ - بأن يبين لهم ما حرّمه عليهم ، فقال سبحانه :

= والحامِ فحل الإبل يضرب الضراب الممدود فإذا قضى ضرابه ودَعَّوه للطواغيت ، وأَعَفَّوه من الحمل ، فلم يحمل عليه شيء ، وسموه الحامى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٤٥] (قُلْ لَا أَجِدُ فِيمَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهْلًا لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ، فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

« قُلْ لَا أَجِدُ فِيمَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا » أى طعاما محرما من المطاعم « عَلَى طَاعِمٍ » أى : أى طاعم كان من ذكر أو أنثى . ردّا على قولهم (مُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا) وقوله « يَطْعَمُهُ » لزيادة التقرير « إِلَّا أَنْ يَكُونَ » أى ذلك الطعام « مَيْتَةً » . قال الهامى : والموت سبب الفساد . فهو منجس ، إلا أن يمنع من تأثيره مانع من ذكر اسم الله ، أو كونه من الماء ، أو غيرها « أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا » أى سائلا لا كبدا أو طحالا « أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ » لتعوده أكل النجاسات « أَوْ فِسْقًا » أى : خروجا عن الدين الذى هو كالحياة المطهرة « أَهْلٌ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ » أى ذبح على اسم الأصنام ورفع الصوت على ذبحه باسم غير الله . وإنما سى (مَا أَهْلٌ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ) فسقا ، لتوغله فى باب الفسق ومنه قوله تعالى (وَلَا تَأْكُلُوا مما لَمْ يُدْكِرِ اللَّهُ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ) . « فَمَنِ اضْطُرَّ » أى : أصابته الضرورة الداعية إلى تناول شيء مما ذكر « غَيْرَ بَاغٍ » أى : على مضطر مثله ، تارك لمواساته « وَلَا عَادٍ » متجاوز قدر حاجته من تناوله « فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ » لا يؤاخذه . وقد تقدم تفسير هذه الآية فى سورة البقرة والمائدة بما فيه كفاية .

تنبيهات :

الأول - قال ابن كثير : الغرض من سياق هذه الآية الكريمة الرد على المشركين الذين ابتدعوا ما ابتدعوه من تحريم البحيرة والسائبة والوصيلة والحام ونحو ذلك . فأمر تعالى رسوله أن يخبرهم أنه لا يجد فيما أوحاه إليه أن ذلك محرم . وأن الذى حرمه هو الميتة وما ذكر معها .

وما عدا ذلك فلم يحرم . وإنما هو عفو مسكوت عنه . فكيف تزعمون أنه حرام ؟ ومن أين حرمتوه ولم يحرمه تعالى ؟ وعلى هذا ، فلا ينفى تحريم أشياء أخر فيما بعد هذا . كما جاء النهي عن لحوم الجر الأهلية ولحوم السباع وكل ذى مخلب من الطير - انتهى - وبالجملة فالآية تدل على أنه ﷺ لم يجد فيما أوحى إليه إلى تلك الغاية غيره . ولا ينافيه ورود التحريم بعد ذلك في شيء آخر ، كالموقوذة والمنخنقة والمتردية والنطيحة وغيرها . وذلك لأن هذه السورة مكية . فما عدا ما ذكر تحريمه فيها مما حرم أيضاً ، طارىء . قيل : إذا حرم غير ما ذكر كان نسخاً لما اقتضته هذه الآية من تحليله . وجوابه أن ذلك زيادة تحريم وليس بنسخ لما في الآية . فصحّ تحريم كل ذى ناب من السبع ومخلب من الطير . ومن الناس من يسمي هذا نسخاً بالمعنى السلبي . وقد بيناه مراراً .

قال بعض الزيدية : وقد تعلق ابن عباس بالآية في تحليل لحم الجر الأهلية . وعائشة في لحوم السباع . وعكرمة في إباحة كل شيء سوى ما في الآية . وعن الشعبي ؛ أنه كان يبيح لحم الفيل ويتلو هذه الآية .

ولا تعلق لجميعهم بالآية . لأنه تعالى بين ما يحرم في تلك الأحوال . انتهى .

وقال السيوطي في (الإكليل) : احتج بها كثير من السلف في إباحة ما عدا المذكور فيها . فمن ذلك الجر الأهلية . أخرجه البخاري^(١) عن عمرو بن دينار قال : قلت لجابر بن زيد : يزعمون أن رسول الله ﷺ نهى عن مَحْرُ الأهلية . فقال : قد كان يقول ذلك الحكم بن عمرو الغفاري عندنا بالبصرة . ولكن أبي ذلك البحر (ابن عباس) وقرأ : (قُلْ لَا أَجِدُ فِيمَا أُوحِيَ إِلَيَّ) الآية . وأخرج أبو داود^(٢) عن ابن عمر أنه سئل عن أكل القنفذ؟ فقرأ :

(١) أخرجه البخاري في : ٧٢ - كتاب الذبائح والصيد ، ٢٨ - باب لحوم الجر

الإنسية ، حديث ٢٢٠٧ .

(٢) أخرجه أبو داود في : ٢٦ - كتاب الأطعمة ، ٢٩ - باب في أكل حشرات =

قُلْ لَا أَجِدُ ... الآية . وأخرج ابن أبي حاتم وغيره ، بسند صحيح عن عائشة أنها كانت إذا سئلت عن كل ذى ناب من السباع ومخلب من الطير؟ تلت : قُلْ لَا أَجِدُ ... الآية . وأخرج عن ابن عباس أنه قال : ليس من الدواب شيء حرام إلا ما حرم الله في كتابه : قُلْ لَا أَجِدُ الآية . انتهى .

وأخرج أبو داود عن ابن عباس قال : كان أهل الجاهلية يأكلون أشياء ويتركون أشياء تقدراً . فبعث الله نبيه ﷺ وأزل كتابه وأحل حلاله وحرم حرامه . فما أحل فهو حلال وما حرم فهو حرام . وما سكت عنه فهو معفو . وتلا : قُلْ لَا أَجِدُ ... الآية .
وذكرنا ضعف التعلق بهذه الآية على ما ذهبوا إليه .

قال في (فتح البيان) : معنى الآية أنه تعالى أمره ﷺ بأن يخبرهم أنه لا يجد في شيء مما أوحى إليه محرماً غير هذه المذكورات . فدل ذلك على انحصار المحرمات فيها ، لولا أنها مكية . وقد نزل بعدها بالمدينة سورة المائدة وزيد فيها على هذه المحرمات : المنخنة والموقودة والمتردة والنطيحة . وصحّ عن رسول الله ﷺ تحريم كل ذى ناب من السباع^(٢)

= الأرض ، حديث ٣٧٩٩ ونصه :

عن عيسى بن نميلة عن أبيه قال : كنت عند ابن عمر فسئل عن أكل القنفذ؟ فتلا (قُلْ لَا أَجِدُ فِيمَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا ...) الآية . قال قال شيخ عنده : سمعت أبا هريرة يقول : ذكر عند النبي ﷺ فقال « خبيثة من الخبائث » .

فقال ابن عمر : إن كان قال رسول الله ﷺ هذا ، فهو كما قال [مَا لَمْ نَدْرِ] .
(١) أخرجه أبو داود في : ٢٦ - كتاب الطعام ، ٣٠ - باب ما لم يذكر تحريمه ، حديث ٣٨٠٠ .

(٢) أخرجه البخاري في : ٧٦ - كتاب الطب ، ٥٧ - باب ألبان الأتن ، حديث ٢٢٠٨ ونصه :
عن أبي ثعلبة الخشني رضي الله عنه ، قال : نهى النبي ﷺ عن أكل كل ذى ناب من السباع .
وأخرجه مسلم في : ٣٤ - كتاب الصيد والذبائح ، حديث رقم ١٢ (طبعنا) .

وكل ذى غلب من الطير^(١) وتحريم الحر الأهلية^(٢) والسكالب، ونحو ذلك .
وبالجملة ، فهذا العموم إن كان بالنسبة إلى ما يؤكل من الحيوانات، كما يدل عليه السياق
ويفيده الاستثناء، فيضم إليه كل ما ورد بعده في الكتاب أو السنة مما يدل على تحريم شيء
من الحيوانات . وإن كان هذا العموم هو بالنسبة إلى كل شيء حرمه الله من حيوان وغيره ،
فإنه يضم إليه كل ما ورد بعده مما فيه تحريم شيء من الأشياء . وقد روى عن ابن عباس
وابن عمر وعائشة؛ أنه لا حرام إلا ما ذكره الله في هذه الآية . وروى ذلك عن مالك . وهو
قول ساقط ومذهب في غاية الضعف لا ستلزامه لإهال غيرها ، مما نزل بعدها من القرآن ،
وإهال ما صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال بعد نزول هذه الآية . بلا سبب يقتضي
ذلك ولا موجب يوجب . وقول جابر (لكن أبي ذلك البحر ابن عباس) في رواية البخاري
المتقدمة، أقول : وإن أبي ذلك البحر ، فقد صح عن رسول الله ﷺ . والتمسك بقول صحابي
في مقابلة قول النبي ﷺ من سوء الاختيار وعدم الانصاف . انتهى كلام الفتح .
وفي (نيل الأوطار) : الاستدلال بهذه الآية إنما يتم في الأشياء التي لم يرد النص
بتحريمها . وأما الحر الأنسية فقد توارت النصوص على ذلك . والتنصيص على التحريم مقدم
على عموم التحليل وعلى القياس . وأيضا الآية مكية . انتهى .
وقد ثبت عن ابن عمر رجوعه عن التعلق بعمومها .

روى سميد بن منصور والإمام أحمد^(٣) وأبو داود^(٤) عن نائلة الفزاري قال : كنت

(١) أخرجه مسلم في : ٣٤ - كتاب الصيد والذبائح ، حديث ١٦ (طبعنا) عن ابن عباس .

(٢) أخرجه البخاري في : ٧٢ - كتاب الذبائح والصيد ، ٢٨ - باب لحوم الحر

الأنسية ، حديث ٥٠٦ ونصه :

عن ابن عمر رضي الله عنهما : نهى النبي ﷺ عن لحوم الحر الأهلية ، يوم خير .

(٣) أخرجه في المسند بالصفحة رقم ٣٨١ من الجزء الثاني (طبعة الحلبي) .

(٤) انظر الحاشية رقم ٢ ص ٢٥٣٤ .

عند ابن عمر ، وإنه سئل عن أكل القنفذ فقرأ عليه : قل لا أجد... الآية . فقال شيخ عنده : سمعت أبا هريرة يقول : ذُكرَ عند النبي ﷺ فقال : خبيث من الخبائث . فقال ابن عمر : إن كان النبي ﷺ قاله فهو كما قال .

أى والخبائث محرمة بنص القرآن ، فهو مخصص لمعوم هذه الآية .
وعن القدام بن معدى كرب قال : قال رسول الله ﷺ : ألا هل عسى رجل يبلغه الحديث عني وهو متكئ على أريكته فيقول : بيننا وبينكم كتاب الله . فواجدنا فيه حلالا استحلتناه . وما وجدنا فيه حراما حرمانه . وإن ما حرم رسول الله ﷺ كما حرم الله تعالى . أخرجه الترمذى^(١) وقال : حديث حسن غريب .

ولأبي داود^(٢) قال : قال رسول الله ﷺ : ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه . لا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول : عليكم بهذا القرآن ، فواجدتم فيه من حلال فأحلوه . وما وجدتم فيه من حرام فحرموه . ألا لا يحل لكم (لحم) الحمار الأهلى ولا كل ذى ناب من السبع ولا لُقْطَةً معاهد ألا أن يستغنى عنها صاحبها . ومن نزل بقوم فعليهم أن يقرؤوه . فإن لم يقرؤوه فله أن يعقبهم بمثل قراه . (أى يأخذ منهم عوضا عما حرّموه من القرى) .

هذا والزخشرى فسر محرما بـ (طعاما محرما من المطاعم التى حرمتها) وجعل الاستثناء منقطعا . أى لا أجد ما حرمتوه لكن أجد الأربعة محرمة . وهذا لا دلالة فيه على الحصر حتى ترد المحرمات الأخر . إذ الاستثناء المنقطع ليس كالتصل فى الحصر . وغير الزخشرى لم يقيده بما ذكر . لأن الأصل الاتصال وعدم التقييد . وأوتوها بما قدمنا قبل . وحينئذ يكون الاستثناء من أعم الأوقات أو أعم الأحوال مفرغا . بمعنى : لا أجد

(١) أخرجه الترمذى فى : ٣٩ - كتاب العلم ، ١٠ - باب ما نهى عنه أن يقال عند حديث النبي ﷺ .

(٢) أخرجه أبو داود فى : ٣٩ - كتاب السنة ، ٥ - باب فى لزوم السنة ، حديث ٤٦٠٤

شيئاً من المطاعم المحرمات في وقت من الأوقات ، أو حال من الأحوال ، إلا في وقت أو حال كون الطعام أحد الأربعة . فإنني أجد حينئذ محرماً . فالمصدر للزمان أو الهيئة . وفيه أن المصدر المؤول من (أن والفعل) لا ينصب على الظرفية . ولا يقع حالا ، لأنه معرفة . والله أعلم .

الثاني - في قوله تعالى (قُلْ لَا أَجِدُ فِيمَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا) إيدان بأن التحريم إنما يعلم بالوحي لا بالهوى . قال الشهاب : كنى بعدم الوجدان عن عدم الوجود . ومبنى هذه الكناية على أن طريق التحريم التنصيص منه تعالى . وتفسيره بمطلق الوحي استظهره . ولذا قال : أوحى ولم يقل : أنزل .

الثالث - قال السيوطي في (الإكمال) : استدلل النبي ﷺ بقوله (عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ) على أنه إنما حرم من الميتة أكلها . وأن جلدها يطهر بالدبغ . فأخرج أحمد^(١) وغيره عن ابن عباس قال : ماتت شاة لسودة بنت زمعة فقالت : يا رسول الله ! ماتت فلانة (يعني الشاة) فقال : فلو لا أخذتم مسكها؟ فقالت : نأخذ مسك شاة قد ماتت؟ فقال لها رسول الله ﷺ : إنما قال الله عز وجل : قُلْ لَا أَجِدُ فِيمَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خنزير . فإنكم لا تطعمونه . إن تدبغوه تنتفعوا به . فأرسلت إليها فسلخت مسكها فدبغته ، فاتخذت منه قرربة ، حتى تخرقت عندها .

الرابع - استدلل بقوله تعالى (مَسْفُوحًا) على إباحة غيره . وذلك لأن الدم المسفوح هو ما سال من الحيوان في حال الحياة ، أو عند الذبح - لا كالسكبد والطحال - وكذا ما اختلط باللحم من الدم لأنه غير سائل . قال عمران بن جدير : سألت أبا مجلز عما يختلط باللحم من الدم ، وعن القدر يرى فيها حمرة الدم فقال : لا بأس بذلك ! إنما نهى عن الدم المسفوح .

(١) أخرجه في المسند بالصفحة ٣٢٧ من الجزء الأول (طبعة الحلبي) والحديث رقم ٣٠٢٧ (طبعة المارف) .

وقال إبراهيم النخعي : لا بأس بالدم في عرقٍ أو مخٍّ ، إلا السفوح .
وقال عكرمة : لولا هذه الآية لتبعض المسلمون الدم من العروق ما تبعض اليهود .
ثم بين تعالى أنه حرم على اليهود أشياء أخرى غير هذه الأربعة ، تحقيقاً لافتراء المشركين
فيما حرّموه ، إذ لم يوافق شيئاً مما أنزله تعالى ، فقال سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٤٦] (وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ ، وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ، ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ ، وَإِنَّا لَصَادِقُونَ)

« وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا » أى : اليهود خاصة « حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ » قال سعيد بن جبير : هو الذى ليس منفرج الأصابع - كالجل والوبر والأرنب - فإنها من ذوات الأظفار الغير المشقوقة - أى المنفرجة - وأما ذو الظفر المشقوق وهو يجتر من البهائم ، فلم يحرم عليهم .
« وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا » لا لحومهما « إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا »
يعنى : ما علق بالظهر من الشحوم « أَوِ الْحَوَايَا » أى : الأمعاء والمصارين - أى : ما حملته من الشحوم - « أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ » كالخ والمصعص « ذَلِكَ » أى : تحريم تلك الأطايب عليهم « جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ » بسبب ظلمهم ، وهو قتلهم الأنبياء بنسب حق ، وأكلهم الربا - وقد نهوا عنه - وأكلهم أموال الناس بالباطل ، كقوله تعالى ^(١) « فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا » .
قال المهايى : أى : ولم يكن لغيرهم ذلك البنى ، فلا وجه لتحريمها عليهم مع كونها أطايب فى أنفسها .

« وَإِنَّا لَصَادِقُونَ » أى : فى جميع أخبارنا التى من جملتها هذا الخبر ؛ وهو تخصيص

التحريم بهم ، لبغيتهم .

(١) [٤ / النساء / ١٦٠] .

قال ابن جرير^(١) : لا كما زعموا من أن إسرائيل هو الذي حرّمه على نفسه .

قال أبو السعود : ولقد ألقمهم الحجر قوله تعالى (كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِّبَنِي إِسْرَآئِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَآئِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ) ، قُلْ فَأَتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ^(٢) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٤٧] (فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ)

« فَإِنْ كَذَّبُوكَ » الضمير إما لليهود لأنهم أقرب ذكرًا، ولِذِكْرِ المشركين بعد ذلك بعنوان الإشراك؛ وإما للمشركين، وإما للفريقين. أى: فإن كذبتك اليهود في التخصيص وزعموا أن تحريم الله لا يفسخ، وأصرّوا على ادعاء قدم التحريم؛ أو المشركون فيما فصل من أحكام التحليل والتحريم، أو هما فيما ادعيا « فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ » يمهلكم على التكذيب فلا تغفروا بإمهاله فإنه لا يهمل « وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ » أى: ومع رحمته فهو ذو بأس شديد. وفيه ترغيب لهم في ابتغاء رحمة الله الواسعة، وذلك في اتباع رضوانه، وتهيّب من المخالفة .

وليعلم أن المشركين لما لزمهم الحجة - ييطان ما كانوا عليه من الشرك بالله وتحريم ما لم يحرمه الله - أخبر تعالى عنهم بما سيقولونه من شبهة يتشبثون بها لشركهم وتحريم ما حرّموا . وفائدة الإخبار بما سوف يقولونه ، توطين النفس على الجواب ، ومكافئتهم بالردة ، وإعداد الحجة قبل أوانها ، فقال تعالى :

(١) انظر الصفحة رقم ٢٠٦ من الجزء الثاني عشر من التفسير (طبعة المعارف) .

(٢) [٣ / آل عمران / ٩٣] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٤٨] (سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ ، كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا ، قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا ، إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ)
 « سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا » يعنى مشركى قريش والعرب « لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ » يعنى ما حرموه من البحار والسواحب وغيرها « كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا » أى : حتى أنزلنا عليهم العذاب « قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا » أى : أمر معلوم يصح الاحتجاج به فيما قلتم فتظهِروه لنا « إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ » أى : فيما أنتم عليه من الشرك وتحريم ما حرّمتم « وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ » تكذبون .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٤٩] (قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ)

« قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ » البينة الواضحة التى بلغت غاية المتانة والقوة على الإثبات . ومنه : (أيمان بالغة) أى : مؤكدة . أو (البالغة) التى بلغ بها صاحبها صحة دعواه فهى (كعيشة راضية) . « فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ » أى : ولكنه لم يشأ ذلك . بل شاء هداية بعض صرفوا اختيارهم إلى سلوك طريق الحق ، وضلال آخرين صرفوا كسبهم إلى خلاف ذلك ، من غير صارف يلوهم ولا عاطف يثنيهم ، فوقع ذلك على الوجه الذى شاءه . قال الإمام أبو منصور المتريدى فى (تأويلاته) : قيل : الآية فى مشركى العرب . قالوا ذلك حين لزمهم المناقضة وانقطع حجاجهم فى تحريم ما حرّموا من الأشياء . وأضافوا

ذلك إلى الله ، وهو صلة قوله (ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ... - إلى قوله - أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمْ اللَّهُ بِهَذَا) ^(١) ، فلما لزمهم المناقضة وانقطع حجاجهم فزعوا إلى هذا القول (لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا ...) ^(٢) الآية ! انتهى .

والقصد : الاعتذار عن كل ما يقدمون عليه من الإشراك وتحريم الحلال . أى : ولكنه لم يشأ الترك وشاء الفعل ، ففعلنا طوع مشيئته ، وهو لا يشاء إلا الحق ، لأنه قادر . فلو لم يكن حقاً يرضاه لمنعنا منه . وهو لم يمنعنا منه فهو حق . وفي حكاية هذه المناظرة والمجادلة بيان لنوع من كفرهم شنيع جداً !

تنبيه :

هذه الآية تكرر نظيرها في التنزيل الكريم في عدة سور ، وهى من الآيات الجديرة بالتدبر لتمحيص الحق في المراد منها .

فقد زعم المعتزلة أن فيها دلالة واضحة لمذهبهم من أن الله لا يشاء المعاصي والكفر ، كما تبجح بذلك منهم الطبرسى الشيعى فى (تفسيره) وقال : إن فيها تكذيباً ظاهراً لمن أضاف مشيئة ذلك إلى الله سبحانه ؛ وكذا الزمخشرى فى (تفسيره) .

(١) [٦ / الأنعام / ١٤٣ و ١٤٤] ونصهما : ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ، مِّنَ الصَّانِّ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْرِ اثْنَيْنِ ، قُلْ الذِّكْرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ ، نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ * وَمِنَ الْأَيْلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقْرِ اثْنَيْنِ ، قُلْ الذِّكْرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ ، أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمْ اللَّهُ بِهَذَا ، فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ .

(٢) [٦ / الأنعام / ١٤٨] ونصها : سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ ، كَذَلِكَ كَذَبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا ، قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا ، إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ .

ومعلوم أن عقيدة الفرقة الناجية، الإيمان بأن : ما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن ، وأنه ما في السموات والأرض من حركة ولا سكون إلا بمشيئة الله سبحانه ، لا يكون في ملكه إلا ما يريد ، وهو خالق لأفعال العباد .. !

وقد خالف في ذلك عامة القدرية - الذين ستمّاهم النبي صلى الله عليه وسلم مجوس هذه الأمة - فقالوا : لا إرادة إلا بمعنى المشيئة ، وهو لم يرد إلا ما أمر به ، ولم يخلق شيئاً من أفعال العباد. فعندهم أكثر ما يقع من أفعال العباد على خلاف إرادته تعالى. ولما كان قولهم هذا في غاية الشناعة، تبرأ منهم الصحابة. وأصل بدعتهم - كما قال ابن تيمية - كانت من عجزعقولهم عن الإيمان بقدر الله والإيمان بأمره ونهيهِ . وسنبيّن تحقيق ذلك بعد أن نورد شبهتهم في هذه الآية وندمغها - بمونه تعالى - بعدة وجوه فنقول :

(قالوا) : إن الله تعالى حكى عن المشركين أنهم قالوا : أشركنا بإرادة الله تعالى. ولو أراد عدم إشراكنا لما أشركنا، ولما صدر عنا تحريم المحلات فقد أسندوا كفرهم وعصيانهم إلى إرادته تعالى كما تزعمون أنتم . ثم إنه تعالى ردّ عليهم مقالهم وبين بطلانها وذمهم عليها وأوعدهم عليها وعيداً شديداً . فلو كان يجوز إضافة المشيئة إلى الله تعالى في ذلك ، على ما تضيفون أنتم ، لم يكن يردّ ذلك عليهم ويتوعدهم !

(قلنا) : إن المشيئة في الآية تتخرّج على وجوه :

أحدها : ما قال الحسن والأصم - إن المشيئة ههنا الرضا - فرادهم : أن الله رضى بفعالنا وصنيعنا - حيث فعل آبائنا مثل ما فعلنا - فلم يحلّ الله بينهم وبين ذلك ، ولا أخذ على أيديهم ، ولا منعه عن ذلك ؛ فلو لم يرض بذلك عنهم لكان يمنعهم عنه !

قال أبو منصور : وإنما استدلوا بالرضا من الله والإذن فيما كانوا فيه ، أنهم كانوا يخوفون بالهلاك والمذاب على صنيعهم ، ثم رأوا آباءهم ماتوا على ذلك ولم يأتهم العذاب ، فاستدلوا بتأخير نزول العذاب عليهم على أن الله رضى بذلك .

وبالجملة ، أرادوا بقولهم ذلك ، أنهم على الحق المشروع المرضي عند الله . ولما كانت حججهم داحضةً باطلة - لأنها لو كانت صحيحة لما أذاقهم الله بأسه ودمر عليهم وأدال عليهم رسله الكرام - قال تعالى : (قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا) أى : بأن الله راضٍ عليكم فيما أنتم فيه ! وهذا من التهمك والشهادة بأن مثل قولهم محال أن يكون له حجة . وفى (الوجيز) : الحاصل أن المشركين اعتقدوا عدم التفرقة بين المأمور المرضي والمشيئة ، كما اعتقدت المعتزلة ، فاحتجوا على حقيقة الإشراك . وينادى على ذلك قوله (كَذَلِكَ كَذَبَ ...) فإنه لو كان المراد أن ذلك ليس بمشيئة الله تعالى لقال (كَذَلِكَ كَذَبَ) بالتخفيف لا التشديد . وهذه الآية - عند من له أذن واعية - تصيح على المعتزلة بالويل والثبور ، لكن فى آذانهم وقر ، ومن لم يهده الله فلا هادى له . انتهى .

الوجه الثانى : إن المشيئة فى الآية بمعنى الأمر والدعاء إلى ذلك . أى : يقولون : إن الله أمرهم بذلك ودعاهم إليه ، كما أخبر عنهم فى سورة الأعراف بقوله : (وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا بَاءً نَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا) فردّ تعالى عليهم بقوله : (قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ) .

الوجه الثالث : إن قولهم ذلك كان على سبيل الاستهزاء والسخرية دفماً لدعوته ﷺ ، وتعللاً لعدم إجابته وانقياده ، لا تفويضاً للكائنات إلى مشيئة الله تعالى . فما صدر عنهم ، كلمة حقّ أريد بها باطل . ولذلك ذمهم الله بالكذب لأنهم قصدوا به تكذيب النبي ﷺ فى وجوب اتباعه والتابعة ، فقال : (كَذَلِكَ كَذَبَ) بالتشديد ، ولم يذمهم بالكذب فى قولهم ذلك ، وإلا لقال (كَذَلِكَ كَذَبَ) بالتخفيف ، إشارة إلى أن ذلك الكلام فى نفسه حق وصدق .

وقال آخراً : (قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ) فأشار إلى صدق مقالهم وفساد غرضهم . فالعتاب الذى لحقهم والوعيد الذى أوعدهم ، إنما كان لاستهزائهم ،

كما ذكر في قوله تعالى ^(١) (وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَئِذَا مَا مِيتٌ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا) هي كلمة حق . لكن قالها استهزاءً فلحقه الذم .

وهذا الوجه اقتصر عليه المضد في (المواقف) وقرره أيضاً أبو منصور في (تأويلاته). قال الحسن بن الفضل : لو قالوا هذه المقالة تعظيماً لله وإجلالاً له ومعرفةً بحقه وبما يقولون ، لمّا عابهم بذلك . ولكنهم قالوا هذه المقالة تكذيباً وجَدَلًا من غير معرفة بالله وبما يقولون .

الوجه الرابع : ما يستفاد من قول الإمام : إن في كلام المشركين مقدمتين : (إحداها) : أن الكفر بمشيئة الله تعالى . و (الثانية) : أنه يلزم منه اندفاع دعوة النبي ﷺ . وما ورد من الذم والتوبيخ إنما هو على الثانية ، إذ الله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ، فله أن يشاء من الكافر الكفر ويأمره بالإيمان ويعذبه على خلافه ويبعث الأنبياء عليهم الصلاة والسلام دعاءً إلى دار السلام ، وإن كان لا يهدي إلا من يشاء .

الوجه الخامس : إن قولهم ذلك كان على سبيل العناد والتعوت .

قال البقاعي في قوله تعالى (كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ) : أى : بما أوقعوا من نحو هذه المجادلة في قولهم : إذا كان الكل بمشيئة الله كان التكليف عبثاً ، فكانت دعوى الأنبياء باطلة . وهذا القول من المشركين عناد بعد ثبوت الرسالات بالمعجزات وإخبار الرسل بأنه يشاء الشيء ويعاقب عليه لأن ملكه تام ، لا يسأل عما يفعل .

وقال الإمام القاشاني قدس سره ، في قوله تعالى (كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ) : أى : كذب المنكرون الرسل من قبلهم بتعليق كفرهم بمشيئة الله ، عناداً وعتواً ، فعذبوا بكفرهم .

ثم قال في قوله تعالى (قُلْ هَلْ عِندَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا) : أى : إن كان لكم

علم بذلك وحجة ، فبينوا . وإنما قال ذلك ، إشارة إلى قولهم : (لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا)
لأنهم لو قالوا ذلك عن علم ، لعلموا أن إيمان الموحدين وكل شيء ، لا يقع إلا بإرادة الله .
فلم يعادوهم ولم ينكروهم بل وَالَّوْهَم ، ولم يبق بينهم وبين المؤمنين خلاف . ولعمري إنهم
لو قالوا ذلك عن علم ، لما كانوا مشركين بل كانوا موحدين . ولكنهم اتبعوا الظن في ذلك ،
وبنوا على التقدير والتخمين لغرض التكذيب والعناد ، وعلى ما سمعوا من الرسل إلزاماً لهم
وإثباتاً لعدم امتناعهم عن الرسل . لأنهم محجوبون في مقام النفس . وأنى لهم اليقين ؟ ومن
أين لهم الاطلاع على مشيئة الله ؟ وقوله تعالى (قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ) أى : إن كان
ظنكم صدقاً في تعليق شرككم بمشيئة الله ، فليس لكم حجة على المؤمنين وعلى غيركم من
أهل دين ، لكون كل دين حينئذ بمشيئة الله ، فيجب أن توافقهم وتصدقوهم ، بل لله
الحجة عليكم في وجوب تصديقهم وإقراركم بأنكم أشركتم ، بمن لا يقع أمره إلا بإرادته ،
ما لا أثر لإرادته أصلاً . فأنتم أشقياء في الأزل مستحقون للبعد والعقاب . وقوله تعالى
(فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ) أى : بلى ، صدقتم . ولكن كما شاء كفركم لو شاء لهداكم
كلكم ، فبأى شيء علمتم أنه لم يشأ هدايتكم حتى أصررتم ؟ وهذا تهيج لمن عسى أن
يكون له استعداد منهم فيقمع ويهتدى فيرجع عن الشرك ويؤمن . انتهى .

الوجه السادس : ما في (لباب التأويل) من أنه قيل في معنى الآية : أنهم كانوا يقولون
الحق بهذه الكلمة - وهو قولهم (لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا) - إلا أنهم كانوا يعدونه
عذراً لأنفسهم ، ويجعلونه حجة لهم في ترك الإيمان . والرد عليهم في ذلك : أن أمر الله
بمعزل عن مشيئته وإرادته ؛ فإن الله تعالى مرید لجميع الكائنات غير أمرٍ بجميع ما يريد ،
فعلَى العبد أن يتبع أمره وليس له أن يتعلق بمشيئته ، فإن مشيئته لا تكون عذراً لأحدٍ
عليه في فعله ، فهو تعالى يشاء الكفر من الكافر ولا يرضى به ولا يأمر به ، ومع هذا فيبعث
الرسل إلى العبد ويأمره بالإيمان . وورود الأمر على خلاف الإرادة غير ممتنع . فالحاصل : أنه

تعالى حكى عن الكفار أنهم يتمسكون بمشيئة الله تعالى في شركهم وكفرهم ، فأخبر الله تعالى أن هذا التمسك فاسدٌ باطل ، فإنه لا يلزم من ثبوت المشيئة لله تعالى في كل الأمور دفع دعوة الأنبياء عليهم السلام . انتهى .

الوجه السابع : ما قرره الناصر في (الانتصاف) : إن الرد عليهم إنما كان لاعتقادهم أنهم مسلوبون اختيارهم وقدرتهم ، وإن إثمهم إنما صدر منهم على وجه الاضطرار ، وزعموا أنهم يقيمون الحجة على الله ورسوله بذلك . فرد الله قولهم وكذبهم في دعوائهم - عدم الاختيار لأنفسهم - وشبههم بمن اغترّ قبلهم بهذا الخيال . فكذب الرسل ، وأشرك بالله ، واعتمد على أنه إنما يفعل ذلك كله بمشيئة الله ، ورام إخماد الرسل بهذه الشبهة . ثم بين الله تعالى أنهم لا حجة لهم في ذلك ، وأن الحجة البالغة لا لهم ، بقوله (فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ) . ثم أوضح تعالى أن كل واقع بمشيئته ، وإنه لم يشأ منهم إلا ما صدر عنهم ، وأنه لو شاء منهم الهداية لاهتدوا أجمعون بقوله (فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ) . والمقصود من ذلك : أن يتمحض وجه الرد عليهم ، ويتخلص عقيدة نفوذ المشيئة ، وعموم تعلقها بكل كائن عن الرد ؛ وينصرف الرد إلى دعوائهم بسلب الاختيار لأنفسهم ، وإلى إقامتهم الحجة بذلك خاصة . وإذا تدبرّت هذه وجدها كافية في الرد على من زعم من أهل القبلة أن العبد لا اختيار له ولا قدرة ثابتة . بل هو مجبور على أفعاله مقهور عليها . وهم الفرقة المعروفون بـ (المجبرة) . والرخشري يغالط في الحقائق فيسمى أهل السنة مجبرة وإن أثبتوا للعبد اختياراً وقدرة ، لأنهم يسلبون تأثير قدرة العبد ويجعلونها مقارنة لأفعاله الاختيارية مميزة بينها وبين أفعاله القسرية . فمن هذه الجهة سوى بينهم وبين المجبرة ، ويجعله لقباً عاماً لأهل السنة . وجماع الرد على المجبرة - الذين ميزناهم عن أهل السنة - في قوله تعالى (سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا ... - إلى قوله - قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ) . وتتممة الآية ردُّ صراح على (طائفة الاعتزال) القائلين بأن الله تعالى شاء الهداية منهم أجمعين . فلم تقع من أكثرهم ! ووجه الرد : أن (لو) إذا دخلت على فعل

مثبت نفته ؛ فيقتضى ذلك أن الله تعالى لما قال (فَلَوْ شَاءَ) لم يكن الواقع أنه شاء هدايتهم . ولو شاءها لوقعت . فهذا تصريح بيطلاق زعمهم وعمل عقدهم . فإذا ثبت اشتغال الآية على ردّ عقيدة الطائفتين المذكورتين - المجبرة في أولها والمعتزلة في آخرها - فاعلم أنها جامعة لمقيدة السنة منطبقة عليها . فإن أولها - كما بينا - يثبت للعبد اختياراً وقدرةً على وجه يقطع حجته وعذره في المخالفة والمصيان ، وآخرها يثبت نفوذ مشيئة الله في العبد ، وأن جميع أفعاله على وفق المشيئة الإلهية ، خيراً أو غيره . وذلك عين عقيدتهم . فإنهم - كما يثبتون للعبد مشيئةً وقدرة - يسلبون تأثيرها ، ويعتقدون أن ثبوتها قاطع لحجته ، ملزم له بالطاعة على وفق اختياره . ويثبتون نفوذ مشيئة الله أيضاً وقدرته في أفعال عباده . فهم - كما رأيت - تبعٌ للكتاب العزيز : يثبتون ما أثبت ، وينفون ما نفى ، مؤيدون بالعقل والنقل ، والله الوفي . انتهى .

وقد أخرج الحاكم عن ابن عباس أنه قيل له : إن ناساً يقولون : ليس الشرّ بقدر . فقال ابن عباس : بيننا وبين أهل القدر هذه الآية : سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا ... - إلى قوله - فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ (١) .

وبتحقيق هذه الوجوه يسقط قول الطبرسيّ "المعتزلي" : لو كان الأمر على ما قاله أهل الجبر - من أن الله تعالى شاء منهم الكفر - لكانت الحجة للكفار على الله ، من حيث فعلوا ما شاء الله ، ولكانوا بذلك مطيعين له . لأن الطاعة هي امتثال الأمر المراد ، ولا تكون الحجة لله عليهم على قولهم ، من حيث إنه خلق فيهم الكفر وأراد منهم الكفر . فأى حجة له عليهم مع ذلك ؟ انتهى .

وكذا قول الزنجشريّ : ما حكى عن المشركين كذهب المجبرة بعينه . ولذا قال النحرير : نعم ! هو كذهبهم في كون كلّ كائن بمشيئة الله . لكن الكفرة يحتجون بذلك على حقيقة

الإشراك وتحريم الحلال وسائر ما يرتكبون من القبائح . وكونها ليست بمعصية لكونها موافقة لمشيئة التي تساوى معنى الأمر ، على ما هو مذهب القدرية : من عدم التفرقة بين المأمور والمراد ، وأنّ كلّ ما هو مرادّ لله فهو ليس بمعصية منهيّ عنها . والمجبرة - وإن اعتقدوا أنّ الكلّ بمشيئة الله - لكنهم يعتقدون أنّ الشرك وجميع القبائح معصية ومخالفة للأمر يلحقها العذاب بحكم الوعيد ، ويعفو عن بعضها بحكم الوعد . فهم - في ذلك - يصدّقون الله فيما دلّ عليه العقل والشرع من امتناع أن يكون أكثر ما يجري في ملكه على خلاف ما يشاء . والكفرة يكذبونه في حقوق الوعيد على ما هو بمشيئته تعالى . انتهى .

فصل

قال الإمام شمس الدين ابن القيم الدمشقيّ رحمه الله تعالى في كتابه (طريق الهجرتين) بعد أن أطال في سرد أحداث القدر وآثاره ، ما نصّه :

فالجواب أنّ ههنا مقامين : مقام إيمانٍ وهدى ونجاة ، ومقام ضلالٍ وردى وهلاك ، زلّت فيه أقدام فهوت بأصحابها إلى دار الشقاء .

فأما مقام الإيمان والهدى والنجاة ، فمقام إثبات القدر والإيمان به ، وإسناد جميع الكائنات إلى مشيئة ربها وبارئها وفاطرها ، وأنّ ما شاء كان وإنّ لم يشأ الناس . وما لم يشأ لم يكن ، وإنّ شاء الناس . وهذه الآثار - التي كلّها تحقق هذا المقام - تبين أنّ من لم يؤمن بالقدر فقد انسلخ من التوحيد ، ولبس جلباب الشرك ، بل لم يؤمن بالله ولم يعرفه . وهذا في كل كتاب أنزله الله على رسوله .

وأما المقام الثانى وهو مقام الضلال والردى والهلاك فهو الاحتجاج به على الله ، وحمل العبد ذنبه على ربه ، وتنزيه نفسه الجاهلة الظالمة الأمّارة بالسوء ، حتى يقول قائل هؤلاء :

ألقاه في اليمّ مكتوفاً وقال له : إياك ! إياك ! أن تبتلّ بالماء

ويقول قائلهم :

دعاني وسدّ الباب دوني . فهل إلى دخولي سبيلٌ ؟ يَبْنُوا لِي قِصَّتِي
ثم ساق - رحمه الله - قصصاً غريبة في ذلك ، ثم قال :
وسمّعه - يعني شيخ الإسلام ابن تيمية - يقول :

القدرية المذمومون في السنة وعلى لسان السلف هم هؤلاء الفرق الثلاثة : نفاة القدر
وهم (القدرية الجوسية) . والمعارضون به للشريعة الذين قالوا : لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا
وهم (القدرية المشركية) . والمحاصمون به للرب سبحانه وهم أعداء الله وخصومه وهم (القدرية
الإبليسية) وشيخهم إبليس ، وهو أول من احتج على الله بالقدر فقال : بِمَا أَعُوذُ بِكَ
ولم يعترف بالذنب ويَبُوءُ بِهِ كما اعترف به آدم . فمن أقرّ بالذنب وبَاءَ بِهِ ونَزَّهَ رَبَّهُ فَقَدْ أَشْبَهَ أَبَاهُ
آدَمَ . ومن أشبه أباه فظالم . ومن برأ نفسه واحتجّ على ربه بالقدر فقد أشبه إبليس . ولا ريب
أن هؤلاء القدرية الإبليسية والمشركية شرٌّ من القدرية النفاة . لأن النفاة إنما نفَوْه تَنْزِيهاً لِلرَّبِّ
وتعظيماً لَهُ أن يَقْدَرَ الذنب ثم يلوم عليه وبماقِب . ونَزَّهَهُ أن يعاقب العبد على ما لا صنع للعبد
فيه البتة . بل هو بمنزلة طوله وقصره وسواده وبياضه .. ونحو ذلك . كما يحكي عن بعض الجبرية
إنه حضر مجلس بعض الولاة . فأتى بطرّار (هو الذي يقطع الهامين أو الأكم ويستلّ مافيهما)
أحوّل . فقال له الوالي : ما ترى فيه ؟ فقال : اضربه خمسة عشر - يعني سوطاً - فقال له
بعض الحاضرين - ممن ينفي الجبر - بل ينبغي أن يضرب ثلاثين سوطاً : خمسة عشر لطرّه
ومثلها لحوّل . فقال الجبري : كيف يضرب على الحوّل ولا صنع له فيه ؟ فقال : كما يضرب
على الطرّ ولا صنع له فيه ، عندك ... فُبِهُتَ الجبري .

(١) [٧ / الأعراف / ١٦] ونصها : قَالَ فَبِمَا أَعُوذُ بِكَ لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ
الْمُسْتَقِيمَ .

و [١٥ / الحجر / ٣٩] ونصها : قَالَ رَبِّ بِمَا أَعُوذُ بِكَ لَأَزِيدَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ
وَلَأَعُوذَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ .

وأما (القدرية الإبليسية والمشركية) فكثير منهم منسلخ عن الشرع، عدو لله ورسوله، لا يقرّ بأمر ولا نهى، وتلك وراثته عن شيوخه الذين قال الله فيهم: سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ... (١) الآية، وقال (٢) تعالى: وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبْدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ، كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ، فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ، وقال تعالى (٣): وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاَهُمْ، مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ، إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ، وقال (٤): وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَتِ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْطَعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ . فهذه أربعة مواضع في القرآن، بين سبحانه فيها أن الاحتجاج بالقدر من فعل المشركين المكذبين للرسول .

وقد افترق الناس في الكلام على هذه الآيات أربع فرق:

الفرقة الأولى: جعلت هذه الحجة حجة صحيحة، وأن للمحتج بها الحجة على الله . ثم افترق هؤلاء فرقتين: (فرقة) كذبت بالأمر والوعد والوعيد، وزعمت أن الأمر والنهي والوعد والوعيد، بعد هذا، يكون ظلماً، والله لا يظلم من خلقه أحداً! و(فرقة) صدقت بالأمر والنهي والوعد والوعيد وقالت: ليس ذلك بظلم، والله يتصرف في ملكه كيف يشاء ويعذب العبد على ما لا صنع له فيه، بل يعذبه على فعله هو سبحانه لا على فعل عبده. إذ العبد لا فعل له، والملك ملكه ولا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون . فإن هؤلاء الكفار إنما قالوا

(١) [٦ / الأنعام / ١٤٨] .

(٢) [١٦ / النحل / ٣٥] .

(٣) [٤٣ / الزخرف / ٢٠] .

(٤) [٣٦ / يس / ٤٧] .

هذه المقالة - التي حكاها الله عنهم - استهزاء منهم ، ولو قالوا - اعتقاداً للقضاء والقدر ، وإسناداً لجميع الكائنات إلى مشيئته وقدرته - لم ينكر عليهم . ومضمون قول هذه الفرقة إن هذه حجة صحيحة إذا قالوها على وجه الاعتقاد - لا على جهة الاستهزاء - فيكون للمشركين على الله الحجة ؛ وكفى بهذا القول فساداً وبطلاناً .

الفرقة الثانية : جمعت هذه الآيات حجة لها في إبطال القضاء والقدر والمشيئة العامة . إذ لو صحت المشيئة العامة - وكان الله قد شاء منهم الشرك والكفر وعبادة الأوثان - لكانوا قد قالوا الحق ، وكان الله يصدقهم عليه ولم ينكر عليهم . فحيث وصفهم بالخرص - الذي هو الكذب - ونفى عنهم العلم ، دلّ على أن هذا الذي قالوه ليس بصحيح ، وأنهم كاذبون فيه ؛ إذ لو كان علماً لكانوا صادقين في الإخبار به ، ولم يقل لهم : هل عندكم من علم .

وجعلت هذه الفرقة هذه الآيات حجة لها على التكذيب بالقضاء والقدر ، وزعمت بها أن يكون في ملكه مالا يشاء ، ويشاء مالا يكون ، وإنه لا قدرة له على أفعال عباده من الإنس والجن والملائكة ، ولا على أفعال الحيوانات . وإنه لا يقدر أن يضلّ أحداً ، ولا يهديه ، ولا يوقه أكثر مما فعل به ، ولا يعصمه من الذنوب والكفر ، ولا يلهمه رشد ، ولا يجعل في قلبه الإيمان ، ولا هو الذي جعل المصلّي مصلياً والبرّ برّاً والفاجر فاجراً والمؤمن مؤمناً والكافر كافراً . بل هم جعلوا أنفسهم كذلك .

فهذه الفرقة شاركت الفرقة التي قبلها في إلقاء الحرب والمداوة بين الشرع والقدر . فالأولى تميزت إلى القدر وحاربت الشرع . والثانية تميزت إلى الشرع ، وكذبت القدر . والطائفتان ضالتان ، وإحادهما أضلّ من الأخرى .

و (الفرقة الثالثة) : آمنت بالقضاء والقدر وأقرت بالأمر والنهي . ونزلوا كل واحد منزله : فالقضاء والقدر يؤمن به ولا يُحتجّ به ، والأمر والنهي يُمتثل ويُطاع . فالإيمان بالقضاء والقدر - عندهم - من تمام التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله . والقيام بالأمر

واللهى موجب شهادة أن محمداً رسول الله . وقالوا : من لم يقرّ بالقضاء والقدر ، ويقم بالأمر واللهى فقد كذب بالشهادتين وإن نطق بهما بلسانه . ثم افترقوا في وجه هذه الآيات فرقتين : (فرقة) قالت : إنما أنكر عليهم استدلالهم بالمشيئة العامة والقضاء والقدر على رضاه ومحبته لذلك . فجعلوا مشيئته له وتقديره له ، دليلاً على رضاه به ومحبته له . إذ لو كرهه وأبغضه لحال بينه وبينهم . فإن الحكيم إذا كان قادراً على دفع ما يكرهه ويبغضه ، دفعه ومنع من وقوعه . وإذا لم يمنع من وقوعه ، لزم إما عدم قدرته وإما عدم حكمته . وكلاهما ممتنع في حق الله . فلم محبته لما نحن عليه من عبادة غيره ومن الشرك به .

وقد وافق هؤلاء من قال : إن الله يحب الكفر والفسوق والعصيان ويرضى بها . ولكن خالفهم في أنه نهى عنها وأمر بأضدادها ويعاقب عليها ، فوافقهم في نصف قولهم وخالفهم في الشطر الآخر .

وهذه الآيات من أكبر الحجج على بطلان قول الطائفتين ، وأن مشيئة الله تعالى العامة وقضائه وقدره لا تستلزم محبته ورضاه لكل ما شاء وقدره .

وهؤلاء الشركون - لما استدلوا بمشيئته على محبته ورضاه - كذبهم وأنكر عليهم ، وأخبر أنه لا علم لهم بذلك ، وأنهم خارصون مفترون . فإن محبة الله للشيء ورضاه به ، إنما يعلم بأمره به على لسان رسوله ، لا بمجرد خلقه . فإنه خلق إبليس وجنوده - وهم أعداؤه - وهو سبحانه يبيغضهم ويلعنهم وهم خلقه ... فهكذا في الأفعال . خلق خيراً وشراً وهو يحب خيراً ويأمر به ويثيب عليه . ويبغض شراً وينهى عنه ويعاقب عليه . وكلاهما خلقه . والله الحكمة البالغة التامة في خلقه ما يبيغضه ويكرهه ، من الذوات والصفات والأفعال ، كل صادر عن حكمته وعلمه ، كما هو صادر عن قدرته ومشيئته ...

وقالت الفرقة الثانية : إنما أنكر عليهم معارضة الشرع بالقدر ، ودفع الأمر بالمشيئة . فلما قامت عليهم حجة الله ولزمهم أمره ونهيه دفعوه بقضائه وقدره . فجعلوا القضاء والقدر

إبطالاً لدعوة الرسل ، ودفعاً لما جاءوا به . وشاركهم في ذلك إخوانهم وذريتهم الذين يحتجون بالقضاء والقدر على المعاصي والذنوب في نصف أقوالهم ، وخالفوهم في النصف الآخر وهو إقرارهم بالأمر والنهي .

فانظر كيف انقسمت هذه الموارث على هذه السهام ، وورث كل قوم أئمتهم وأسلافهم ، إما في جميع تركتهم ، وإما في كثير منها ، وإما في جزء منها . وهدى الله بفضلهم ورثة أنبيائه ورسله ليراث نبيهم وأصحابه ، فلم يؤمنوا ببعض الكتاب ويكفروا ببعض ، بل آمنوا بقضاء الله وقدره ومشيتته العامة النافذة ، وأنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، وأنه مقلب القلوب ومصرفها كيف أراد ، وأنه هو الذي جعل المؤمن مؤمناً والمصلئ مصلئاً والمتقى متقياً ، وجعل أئمة الهدى يهتدون بأمره ، وأئمة الضلالة يدعون إلى النار ، وأنه ألهم كل نفس فجورها وتقواها ، وأنه يهدي من يشاء بقضله ورحمته ، ويضل من يشاء بعدله وحكمته ، وأنه هو الذي وفق أهل الطاعة لطاعته فأطاعوه ولو شاء لخلدناهم فعصوه ، وأنه حال بين الكفار وقلوبهم - فإنه يحول بين المرء وقلبه - فكفروا به . ولو شاء لوفقهم فآمنوا به وأطاعوه ، وأنه من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له ، وأنه لو شاء لآمن من في الأرض كلهم جميعاً . إيماناً يثابون عليه ويقبل منهم ويرضى به عنهم ، وأنه لو شاء ما اقتتلوا ولكن الله يفعل ما يريد . ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون .

و (القضاء والقدر) عندهم أربع مراتب جاء بها نبيهم وأخبر بها عن ربه تعالى :

الأولى - علمه السابق بما هم عاملوه قبل إيجادهم .

الثانية - كتابة ذلك في الذكر عنده قبل خلق السموات والأرض .

الثالثة - مشيئته المتناولة لكل موجود ، فلا خروج لكائن عن مشيئته ، كما لا خروج

له عن علمه .

الرابعة - خلقه له وإيجاده وتكوينه . فإنه لا خالق إلا الله ، والله خالق كل شيء .

فالخالق - عندهم - واحد وما سواه فخالق . ولا واسطة - عندهم - بين الخالق والمخلوق .
ويؤمنون - مع ذلك - بحكمته ، وأنه حكيم فى كل ما فعله وخلقه ، وأن مصدر ذلك جميعه
عن حكمة تامة هى التى اقتضت صدور ذلك وخلقه . وأن حكمته حكمة حق عائدة إليه قائمة
به كسائر صفاته ، وليست عبارة عن مطابقة علمه لمعلومه وقدرته لمقدوره - كما تقوله نفاة
الحكمة الذين يقرّون بلفظها دون حقيقتها - بل هى أمر وراء ذلك ، وهى الغاية المحبوبة له
المطلوبة التى هى متعلق محبته وحمده ، ولأجلها خلق فسوى ، وقدّر فهدى ، وأمات وأحيى ،
وأشقى وأصلّ وهدى ، ومنع وأعطى . وهذه الحكمة هى الغاية والفعل وسيلة إليها ، فإثبات
الفعل مع نفيها لإثبات للوسائل ونفى للغايات ، وهو محال ، إذ نفى الغاية مستلزم لنفى الوسيلة .
فنفى الوسيلة - وهى الفعل - لازم لنفى الغاية وهى الحكمة . ونفى قيام الفعل والحكمة به
نفى لهما فى الحقيقة ؛ إذ فعل لا يقوم بفاعله ، وحكمة لا تقوم بالحكيم - شىء لا يعقل . وذلك
يستلزم إنكار ربوبيته وإلهيته . وهذا لازم لمن نفى ذلك ولا يحيد له عنه ، وإن أبى
التزامه . وأما من أثبت حكمته وأفعاله على الوجه المطابق للعقل والفطرة وما جاءت به الرسل ،
لم يلزم من قوله محذور البتة ، بل قوله حق ، ولازم الحق حق ، كائنًا ما كان .

والمقصود : أن ورثة الرسل وخلفاءهم - لسكمال ميراثهم لنبيهم - آمنوا بالقضاء والقدر
والحكيم والغايات المحمودة فى أفعال الرب وأوامره ، وقاموا - مع ذلك - بالأمر والنهى ،
وصدّقوا بالوعد والوعيد : فأمنوا بالخلق الذى من تمام الإيمان به إثبات القدر والحكمة .
وبالأمر الذى من تمام الإيمان به الإيمان بالوعد والوعيد وحشر الأجساد والثواب والعقاب ؛
فصدّقوا بالخلق والأمر ولم ينفوها بنفى لوازمهما - كما فعلت القدرية المجوسية والقدرية
المعارضة للأمر بالقدر - وكانوا أسعد الناس بالخلق وأقربهم عصبة فى هذا الميراث النبوى ،
وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

واعلم أن الإيمان بحقيقة القدر والشرع والحكمة ، لا يجتمع إلا فى قلوب خواص الخلق

ولبّ العالم ، وليس الشأن في الإيمان بالآفاظ هذه المسميات وجحد حقائنها كما يفعل كثير من طوائف الضلال... فإن القدرية تؤمن بلفظ (القدر) ، ومنهم من يرده إلى العلم ، ومنهم من يرده إلى الأمر الدينيّ ويجعل قضاءه وقدره هو نفس أمره ونهيه ونفس مشيئة الله لأفعال عبادته بأمره لهم بها ، وهذا حقيقة إنكار القضاء والقدر . وكذلك (الحكمة) فإن الجبرية تؤمن بلفظها ويجحدون حقيقتها ، فإنهم يحملونها مطابقة علمه تعالى لمعلومه تعالى وإرادته لمراده تعالى ، فهي - عندهم - وقوع الكائنات على وفق علمه وإرادته ... والقدرية النفاة لا يرضون بهذا ، بل يرتفعون عنه طبقة ، ويثبتون حكمة زائدة على ذلك ، لكنهم ينفون قيامها بالفاعل الحكيم ، ويحملونها مخلوقاً من مخلوقاته، كما قالوا في كلامه وإرادته . فهؤلاء كلهم أقرؤا بلفظ (الحكمة) وجحدوا معناها وحقيقتها . وكذلك (الأمر) و (الشرع) فإن من أنكر كلام الله وقال : إن الله لم يتكلم ولا يتكلم ، ولا قال ولا يقول ، ولا يحب شيئاً ولا يبغض شيئاً ، وجميع الكائنات محبوبة له ، ومالم يكن فهو مكروه له ، ولا يحب ولا يرضى ولا يعضب . ولا فرق في نفس الأمر بين الصدق والكذب والفجور والسجود للأصنام والشمس والقمر . ولا ريب أن هذا يرفع الشرائع والأمر والنهي بالكلية . ولولا تناقض القائلين به لكانوا منسلخين من دين الرسل ، ولكن مشى الحال بعض المشى بتناقضهم ، وهو خير لهم من طرد أصولهم والقول بموجها .

والمقصود : أنه لم يؤمن بالقضاء والقدر والحكمة والأمر والنهي والوعد والوعيد ، حقيقة الإيمان ، إلا أتباع الرسل وورثتهم .

والقضاء والقدر منشؤه عن علم الرب وقدرته . ولهذا قال الإمام أحمد : القدر قدرة الله . واستحسن ابن عقيل هذا الكلام من أحمد غاية الاستحسان وقال : إنه شفى بهذه الكلمة وأفصح بها عن حقيقة القدر .

ولهذا ، كان المنكرون للقدر فرقتين : فرقة كذبت بالعلم السابق ونفقه ، وهم غلاتهم

الذين كفرهم السلف والأئمة وتبرأ منهم الصحابة . وفرقة جحدت كمال القدرة ، وأنكرت أن تكون أفعال العباد مقدورة لله تعالى ، وصرحت بأن الله لا يقدر عليها . فأنكر هؤلاء كمال قدرة الرب ، وأنكرت الأخرى كمال علمه . وقابلهم الجبرية : فجاءت على إثبات القدرة والعلم ، وأنكرت الحكمة والرحمة .

ولهذا ، كان مصدر الخلق والأمر والقضاء والشرع عن علم الرب وعزته وحكمته . ولهذا يقرن تعالى بين الاسمين والصفتين من هذه الثلاثة كثيرًا ، كقوله : وَإِنَّكَ لَتَلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ أَدْنَى حَكِيمٍ عَلِيمٍ^(١) ، وقال : تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ^(٢) ، وقال : حَمْدٌ * تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ^(٣) ، وقال في (حَمْدُ فَصَلَتْ ، بعد ذكر تخليق العالم) : ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ^(٤) ، وذكر نظير هذا في (الأنعام) فقال : فَأَلْقُ الْأُصْبَاحَ وَجَمَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ، ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ^(٥) . فارتباط الخلق بقدرته التامة يقتضى أن لا يخرج موجود عن قدرته . وارتباطه بعلمه التام يقتضى إحاطته به وتقدمه عليه . وارتباطه بحكمته يقتضى وقوعه على أكل الوجوه وأحسنها ، واشتماله على الغاية المحمودة المطلوبة للرب سبحانه . وكذلك أمره بعلمه وحكمته وعزته ، فهو عليم بخلقهم وأمره ، حكيم في خلقه وأمره . ولهذا ، كان (الحكيم) من أسمائه الحسنى . فالحكمة من صفاته العلى ، والشرعية الصادرة عن أمره مبناها على الحكمة ، والرسول

(١) [٢٧ / النمل / ٦] .

(٢) [٤٠ / غافر / ٢] .

(٣) [٤٥ / الجاثية / ٢] .

(٤) [٤١ / فصلت / ١٢] ونصها : فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا ، وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَافِيحَ وَحِفْظًا ، ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ .

(٥) [٦ / الأنعام / ٩٦] .

المبعوث بها مبعوث بالكتاب والحكمة . والحكمة هي سنة الرسول ، وهي تتضمن العلم بالحق والعمل به والخبر عنه والأمر به . فكلّ هذا يسمّى حكمة . وفي الأثر ^(١) : الحكمة ضالة المؤمن . وفي الحديث ^(٢) : إنّ من الشمر حكمة . فكما لا يخرج مقدور عن علمه وقدرته ومشيتته ، فكذلك لا يخرج عن حكمته وحجده . وهو محمود على جميع ما في السكون من خيرٍ وشرٍّ حمداً استحققه لذاته ، وصدر عنه خلقه وأمره . فصدر ذلك كله عن الحكمة . فإنكار الحكمة إنكار لحجده في الحقيقة ، والله أعلم . انتهى .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ، في خلال بعض فتاويه ، في حقيقة الاحتجاج بالقضاء والقدر ، ما نصّه :

وإن هؤلاء القدرية الجبرية الجهمية أهل الفناء في توحيد الربوبية . حقيقة قولهم من جنس قول المشركين الذين قالوا : لو شاء الله ما أشركنا ... الآية ؛ فإن هؤلاء المشركين لما أنكروا ما بعث به الرسل من الأمر والنهي ، وأنكروا التوحيد - الذي هو عبادة الله وحده لا شريك له - وهم يقرّون بتوحيد الربوبية وأن الله خالق كل شيء ، ما بقي عندهم من فرق ، من جهة الله تعالى ، بين مأمور ومحظور فقالوا : لو شاء الله ما أشركنا ولا آباءنا ولا حرمنا من شيء ، وهذا حق . فإن الله لو شاء أن لا يكون هذا لم يكن . ولكن أئّ فائدة لهم في هذا ؟ غايته أن هذا الشرك والتحريم بقدر ، ولا يلزم إذا كان مقدرًا أن يكون

(١) أخرجه الترمذی فی : ٣٩ - کتاب العلم ، ١٩ - باب ما جاء فی فضل الفقه علی العبادة ، ونصه : عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « الحكمة ضالة المؤمن . فحيث وجدها ، فهو أحقّ بها » .

(٢) أخرجه البخاری فی : ٧٨ - کتاب الأدب ، ٩٠ - باب ما يجوز من الشعر والرجز والحداء وما يكره منه ، حديث ٢٣٥٣ ، عن أبي بن كعب أن رسول الله ﷺ قال « إن من الشمر حكمة » .

محبوباً مرضياً لله . ولا علم عندهم بأن الله أمر به ولا أحبه ولا رضىه ، بل ليسوا في ذلك إلا على ظنٍّ وخرص . انتهى .

وقال بعض المحققين في حقيقة العقيدة :

ثبت بالبرهان أنّ قدرة الله تعالى متصرفة في الممكنات عن إرادة واختيار . وأن الإرادة لا تخرج عما ينكشف بالعلم من مواقع الحكمة ، ووجوه النظام . وأنه خالق كل شيء وإليه يرجع الأمر كله . ومن الممكنات التي اقتضتها الحكمة والنظام وجود مخلوق ذي قدرة وإرادة وعلم ، يعمل بقدرته ما تنبث إليه إرادته بمقتضى علمه بوجوه المصلحة والمنفعة لنفسه ، وهو الإنسان . وهذا - عند البعض - هو معنى كونه خليفة الله في الأرض بعمرها وبظهر حكمة الله وبدائع أسرارها فيها ، وقيم سننه الحكمية حتى يعرف كماله بمعرفة كمال صنعه . ولا يزال الإنسان يظهر الآيات من هذه المكونات آنأ بعد آن ، ولا يعلم مبلغه من ذلك إلا الله تعالى . والشهور أن الخلافة خاصة بأفراد من الإنسان وهم الأنبياء عليهم السلام . ولا يستلزم واحد من القولين أن الله تعالى استخلفهم لحاجة به إلى ذلك . حاشاه .

قال البيضاوى (في بيان أن كل نبي خليفة) : استخلفهم في عمارة الأرض ، وسياسة الناس ، وتكميل نفوسهم ، وتنفيذ أمره فيهم - لا الحاجة به تعالى إلى من ينوبه - بل لقصور المستخلف عليه من قبول فيضه وتلقى أمره بغير وسط . ولذلك لم يستنبيء ملكاً كما قال :
وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا (١) . انتهى .

وكذلك إذا قلنا : إن كل النوع خليفة في العوالم الأرضية .

فلم من كل من القولين ؛ أن في الإنسان معنى ليس في غيره . فإذا كانت خلقه الملك لا تساعد على إرشاد الناس ، لأنه ليس من جنسهم ولا يمكن لكل واحد التلقى منه ، فكذلك لا تساعد خلقته . وليس من وظيفتها ، إظهار خواص الأجسام وقواها ووجوه الانتفاع

(١) [٦ / الأنعام / ٩] ... وَلَلْبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يُلَبْسُونَ .

بها . ولو كان إيجاد مخلوقٍ - على ما ذكرنا في خلق الإنسان - غير ممكنٍ لما وجد . ولا ينكر كونه على ما ذكرنا إلا من ينكر الحسّ والوجدان ، وهما أصل كلِّ برهان . ومثل هذا لا يخاطب ولا يطالب منه التصديق بشيءٍ ما .

إذن ، معنا قضيتان قطعيتا الثبوت :

(إحداهما) : كون الإنسان يعمل بقدرته وإرادة يبعثها علمه على الفعل أو الترك والكف ،

وهي بديهية .

و (الثانية) : هي أن الله هو الخالق الذي بيده ملكوت كل شيء ، وهي نظرية .

ويتولد من هاتين القضيتين القطعيتين مسألتان نظريتان :

الأولى : ما الفرق بين علم الله تعالى وإرادته وقدرته ، وبين علم الإنسان وإرادته وقدرته ؟

والجواب من وجوه :

(أحدها) : أن صفات الله قديمة بقدمه فهي ثابتة له لذاته . وصفات الإنسان حادثة

بحدوثه وهي موهوبة له من الله تعالى كذاته .

(ثانيها) : أن علم الله محيط بكل شيء ^(١) يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون

بشيء من علمه إلا بما شاء . وأما الإنسان فما أوتي من العلم ^(٢) إلا قليلا ! وإرادة الله تعالى

لا تتغير ولا تقبل الفسخ لأنها عن علم تام . بخلاف إرادة الإنسان فإنها تتردد لتردده

في العلم بالشيء . وتفسخ لظهور الخطأ في العلم الذي بنيت عليه . وتتجدد لتجدد علم لم

لم يكن له من قبل . وقدره الله تعالى متصرف في كل ممكن . فيفعل كل ما يعلم أن فيه

الحكمة . وقدره الإنسان لا تصرف لها ولا كسب إلا في أقل القليل من الممكنات .

(١) [٢ / البقرة / ٢٥٥] .

(٤) يشير إلى قوله تعالى [١٧ / الإسراء / ٨٥] وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ ، قُلِ الرُّوحُ

مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا .

فكم من أمرٍ يعلم أن فيه مصلحته ومنفعة له وهو لا يقدر على القيام به .
(نألهما) : أن صفات الإنسان عرضة للضعف والزوال ، وصفات الله تعالى أبدية كما أنها أزلية .

وبالجملة : إن المشاركة بين صفات الله تعالى وصفات عباده إنما هي في الاسم ، لافي الجنس كما زعم بعضهم ، فبطل زعم من قال : إن إثبات كون الأفعال التي تصدر من الإنسان هي بقدرته وإرادته - يقتضى أن يكون شريكاً لله تعالى ^(١) . سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ .

المسألة الثانية : - وهي عضلة العقد ومحك المنتقد - أن القضاء عبارة عن تعلق علم الله تعالى بأوامره في الأزل ؛ بأن الشيء يكون على الوجه المخصوص من الوجوه الممكنة ، والقدر وقوع الأشياء فيما لا يزال على وفق ما سبق في الأزل .

ومن الأشياء التي يتعلق بها القضاء والقدر أفعال العباد الاختيارية . فإذا كان قد سبق القضاء المبرم - بأن زيداً يعيش كافراً ويموت كافراً - فما معنى مطالبته بالإيمان وهو ليس في طاقته ؟ ولا يمكن في الواقع ونفس الأمر أن يصدر منه . لأنه في الحقيقة مجبور على الكفر في صورة مختار له ؟ كما قال بعضهم .

والجواب عن هذا : أن تعلق العلم والإرادة بأن فلاناً يفعل كذا ، لا ينافي أن يفعله باختيار ، إلا إذا تعلق العلم بأن يفعله مضطراً بحركة المرتعش مثلاً . ولكن أفعال العباد الاختيارية قد سبق في القضاء بأنها تقع اختيارية ، أي : بإرادة فاعليها لا رغماً عنهم . وبهذا صح التكليف ولم يكن التشريع عبثاً ولا لغواً .

وتم وجه آخر في الجواب ، وهو : لو كان سبق العلم أو الإرادة بأن فاعلاً يفعل كذا ، يستلزم أن يكون ذلك الفاعل مجبوراً على فعله ، لكان الواجب ، تعالى وتقدس ، مجبوراً على

أفعاله كلها . لأن العلم الأزليّ قد تعلق بذلك ، وكل ما تعلق به العلم الصحيح لا بد من وقوعه .

فتبين - بهذا - أن الجبرية ومن تلا تلوههم قد غفلوا عن معنى الاختيار ، واشتبهت عليهم الأنظار ، فكابروا الحسّ والوجدان ، ودابروا الدليل والبرهان ، وعطلوا الشرائع والأديان ، وتوهموا أنهم يعظمون الله وليكنهم ما قدروه حقّ قدره ، ولا فقهوا سرّ نبيه وأمره ، حيث جرّوا الجهال على التنصل من تبعة الذنوب والأوزار ، وادعاء البراءة لأنفسهم والإحالة باللوم على القضاء والقدر ، وذلك تنزيه لأنفسهم من دون الله ولا حول ولا قوة إلا بالله . بل ذلك إغراء للإنسان بالانغماس في الفسوق والعصيان . فيأعجبهم كيف جعلوا أعظم الزواجر من الإغراء ، وهو الاعتقاد بإحاطة علم الله بالأشياء ! أليس من شأن من لم يفسد الجبر فطرته ، ويظلم الجهل بصيرته ، أن يكون أعظم مهذب لنفسه ، ومؤدب لعقله وحسه ، اعتقاده بأن الله عليم بما يسر ويعلن ، ويظهر ويبطن ، وأنه ناظر إليه ومطلع عليه . ؟ بلى ^(٢) ! إن الإحسان هو أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك . وأما الذين ضلوا السبيل ،

(١) أخرجه البخاريّ في : ٢ - كتاب الإيمان ، ٣٧ - باب سؤال جبريل النبيّ ﷺ

عن الإيمان والإسلام والإحسان ، الحديث رقم ٤٦ ونصه :

عن أبي هريرة قال : كان النبيّ صلى الله عليه وسلم بارزاً يوماً للناس . فأتاه جبريل

فقال : ما الإيمان ؟

قال « الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وبلقائه ورسله وتؤمن بالبعث » .

قال : ما الإسلام ؟

قال « الإسلام أن تعبد الله ولا تشرك به وتقيم الصلاة وتؤدى الزكاة المفروضة وتصوم

رمضان » .

قال : ما الإحسان ؟

واتبعوا فاسد التأويل ، فيقولون كما قال من قبلهم وقص الله علينا ذلك بقوله عز وجل .
سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا ... الآية . فانظر كيف رماهم العليم
الحكيم بالجهل ، وجعل احتجاجهم بالقدر من أسباب وقوع البأس والبلاء بهم .
وفي هذا القدر كفاية لمن لم ينطمس نور الفطرة من قلبه ، والله عليم حكيم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥٠] (قُلْ هَلْ سَأَدَاءُكُمْ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا، فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا
تَشْهَدُ مَعَهُمْ، وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ
وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ)

وقوله تعالى « قُلْ هَلْ سَأَدَاءُكُمْ » أى : أحضروهم « الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ
هَذَا » يعنى ماتقولون من الأنعام والحرث . والمراد (شهادتهم) قدوتهم الذين ينصرون قولهم .
وإنما أمروا باستحضارهم ليلزمهم الحجة ، ويظهر بانقطاعهم ضلالتهم ، وأنه لا متمسك لهم ،

= قال « أن تعبد الله كأنك تراه . فإن لم تكن تراه فإنه يراك » .

قال : متى الساعة ؟

قال « ما المسئول عنها بأعلم من السائل . وسأخبرك عن أشراتها : إذا ولدت الأمانة
رَبِّهَا . وإذا تطاول رعاة الإبل البهْمُ في البنيان . في خمس لا يعلمهنَّ إلا الله » .
ثم تلا النبي صلى الله عليه وسلم : إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ ... الآية .
ثم أدبر .

فقال « ردوه » .

فلم يروا شيئاً .

فقال « هذا جبريل جاء يعلم الناس دينهم » .

كمن يقدم فيحق الحق ويبطل الباطل « فَإِنْ شَهِدُوا » أى : بعد حضورهم بأن الله حرم هذا « فَلَا تَشْهَدُ مَعَهُمْ » أى : فلا تسلم لهم ما شهدوا به ولا تصدقهم ، لما علمت من اقترانهم على الله ومشيتهم مع أهويتهم .

وفى (العناية) : (فَلَا تَشْهَدُ) استعارة تسمية . وقيل مجاز مرسل ، من ذكر اللزوم وإرادة اللزوم . لأن الشهادة من لوازم التسليم . وقيل كناية . وقيل مشاكلة . « وَلَا تَتَّبِعِ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ » من وضع المظهر موضع المضمير ، للدلالة على أن من كذب بآيات الله وعدل به غيره ، أى سوى به الأصنام ، فهو متبع للهوى لا غير . لأنه لو اتبع الدليل لم يكن إلا مصدقاً بالآيات ، موحداً لله تعالى .

ولما بين تعالى فساد ما ادعوا من أن إشرائهم وإشراك آبائهم وتحريم ما حرموه ، بأمر الله ومشيتهم ، بظهور عجزهم عن إبراز ما يتمسك به في ذلك ، وإحضار شهداء يشهدون بذلك ، بعد ما كلفوه مراراً - أمر الرسول بأن يبين لهم من المحرمات ما يقتضى الحال بيانه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥١] (قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْكُمْ ، أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ، وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ، وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ ، نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ، وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ، وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ، ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ)

فقال تعالى « قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْكُمْ أَنْ لَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا » من الأوثان « وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا » أى : وأحسنوا بالوالدين إحساناً . قال الحاكم :

والإحسان ما يخرج عن حد العقوق ، ومثل هذا فوله تعالى : وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا^(١) . ولما كان إيجاب الإحسان تحريمًا لترك الإحسان ، ذكر في المحرمات . وكذا حكم ما بعده من الأوامر . فإن الأمر بالشيء مستلزم للنهي عن ضده . بل هو عينه عند البعض . كأن الأوامر ذكرت وقُصِدَ لوازمها ، ومن سر ذلك هنا - أعنى وضع (وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا) موضع (النهي عن الإساءة إليهما) - المبالغة والدلالة على أن ترك الإساءة في شأنهما غير كاف في قضاء حقوقهما ، بخلاف غيرها . « وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ » أى من أجل فقر ، ومن خشيته . والمراد بالقتل : وأد البنات وهن أحياء ، وكانت العرب تفعل ذلك في الجاهلية . فهاهم الله عن ذلك وحرمه عليهم « نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ » لأن رزق العبيد على مولاهم « وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ » يعنى : الزنى لقوله : وَلَا تَقْرَبُوا الزَّنى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً^(٢) ؛ وإنما جئ بصيغة الجمع قصدًا إلى النهي عن أنواعه أو مبالغة أو باعتبار تعدد من يصدر منه « مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ » يعنى : علانيته وسره « وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ » أى قتلها لإيمانها أو أمانها « إِلَّا بِالْحَقِّ » أى بالعدل . يعنى بالقود والرجم والارتداد « ذَلِكَمْ وَصَّاكُمْ بِهِ » تلطفاً ورأفة « لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ » يعنى : لتعقلوا عظماء عند الله تعالى فتسكفوا عن مباشرتها .

قال (المهايى) : فالشرك وعقوق الوالدين وقتل الأولاد للفقر ، منشؤه الجهل بما في الشرك من استهانة المنعم بالإيجاد ، وبما في الإساءة إلى الأبوين من مقابلة الإحسان بالإساءة ، وقربان الفواحش من متابعة الهوى ، والقتل من متابعة الغضب ؛ وكلها أضداد العقل .

(١) [٣١ / لقمان / ١٥] ونصها : وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ، وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ، ثُمَّ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ .

(٢) [١٧ / الإسراء / ٣٢] ونصها : وَلَا تَقْرَبُوا الزَّنى ، إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا .

تنبيه :

قال بعض (الزيدية) : قوله تعالى (مِنْ إِمْلَاقٍ) خرج على العادة . وإلا فهو محرم ، خشى الفقر أم لا . وقد دلت على تحريم قتل الأولاد .

قال (الحاكم) : فيدخل في ذلك شرب الدواء لقتل الجنين . قال الإمام (يحيى) : إذا نفخ فيه الروح دون إفساد النطفة والعلقة والمضغة قبل أن ينفخ فيها الروح . وفي (الأحكام) يجب على من انقطع حيضها أن توق من الأدوية ما يخاف على الجنين منها ، إذا كانت من ذوات البعول . وفي قوله تعالى (ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ) تأكيد للزوم ما تقدم . انتهى .

لطيفة :

قال القاشاني : لما كان الكلام مع المشركين في تحريم الطيبات ، عدّد المحرمات ليستدل بها على الحملات . فحصر جميع أنواع الفضائل بالنهي عن أجناس الرذائل . وابتدأ بالنهي عن رذيلة القوة النطقية التي هي أشرفها . فإن رذائلها أكبر الكبائر مستلزمة لجميع الرذائل . بخلاف رذيلة أخوها من القوتين البهيمية والسبعية . فقال (أَلَّا تَشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا) إذ الشرك من خطئها في النظر ، وقصورها عن استعمال العقل ودرك البرهان . وعقبه بإحسان الوالدين . إذ معرفة حقوقهما تنلو معرفة الله في الإيجاد والربوبية . لأنهما سببان قريبان في الوجود والتربية . وواسطتان جعلهما الله تعالى مظهرين لصفتي إيجاده وربوبيته . ولهذا قال (من أطاع الوالدين فقد أطاع الله ورسوله) فمقوقهما يلي الشرك ولا يقع الجهل بحقوقهما إلا عن الجهل بحقوق الله تعالى ومعرفة صفاته . ثم بالنهي عن قتل الأولاد خشية الفقر . فإن ارتكاب ذلك لا يكون إلا عن الجهل والعمى عن تسببه تعالى الرزق لكل مخلوق ، وأن أرزاق العباد بيده ، يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر . والاحتجاب عن سر القدر ، فلا يعلم أن الأرزاق مقدرة بإزاء الأعمار كتقدير الآجل . فأولاهها لا تقع إلا من خطئها في معرفة ذات الله تعالى . والثانية من خطئها في معرفة صفاته . والثالثة من معرفة أفعاله . فلا

يرتكب هذه الرذائل الثلاث إلا منكوس محجوب عن ذات الله تعالى وصفاته وأفعاله ؛ وهذه الحجب أم الرذائل وأساسها . ثم بين رذيلة القوة البهيمية لأن رذيلتها أظهر وأقدم فقال : (وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ) ، ثم أشار إلى رذيلة القوة السبعية بقوله : (وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ) . الآية .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥٢] (وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ، وَأَوْفُوا بِالْكَيْلِ وَالْمِيزَانِ بِالْقِسْطِ ، لَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ، وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ، وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ، ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) وقوله تعالى : « وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ » أى : بوجه من الوجوه « إِلَّا بِالَّتِي » أى : بالخصلة التى « هِيَ أَحْسَنُ » يعنى أنفع له . كتمثيره أو حفظه أو أخذه قرضاً . لا بأكله ، وإنفاقه فى مآربكم وإتلافه ، فإنه أخش . وقد ذكرنا طرفاً فيما رخص فيه لولى اليتيم أو وصيه فى قوله تعالى فى سورة النساء (وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ)^(١) وقد روى (أبو داود)^(٢) عن ابن عباس قال : لما أنزل الله : وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ . الآية ، وإن

(١) [٤ / النساء / ٦] ونصها : وَابْتَكَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ، وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا ، وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ، وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ ، فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ ، وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا .

(٢) أخرجه أبو داود فى : ١٧ - كتاب الوصايا ، ٧ - باب مخالطة اليتيم فى الطعام ،

حديث ٢٨٧١ .

الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى... (١) الآية، انطلق من كان عنده يتيم فعزل طعامه من طعامه وشرابه من شرابه . فجعل يفضل من طعامه فيحبس له حتى يأكله ، أو يفسد . فاشتد ذلك عليهم . فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فَأَنْزَلَ اللَّهُ : (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ) (٢) فخالطوا طعامهم بطعامه وشرابهم بشرابه . قيل : إنما خص تعالى مال اليتيم بالذكر ، لكونه لا يدفع عن نفسه ولا عن ماله هو ولا غيره . فكانت الأطماع في ماله أشد . فعزم في النهي عنه لأنه حماء ومقدمته ، وأمر بتنميته . « حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ » أى قوته التى يقدر بها على حفظه واستمائه ، وهذا غاية لما يفهم من الاستثناء لا للنهي ، كأنه قيل : احفظوه حتى يصير بالغاً رشيداً . فحينئذ سلموه إليه كما فى قوله تعالى : فَإِنْ عَانَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ . والأشد جمع (شدة) كنعمة وأنعم ، أو شد ككلب وأكلب ، أو شد كصر وأصر . وقيل هو مفرد كأنك « وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ » أى بالعدل والتسوية فى الأخذ والإعطاء . وقد تواعد تعالى على تركه فى قوله (٣) : وَيَلِلْ الْمُطْفَفِينَ * الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ * أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ * لِيَوْمٍ عَظِيمٍ * يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ . قال ابن كثير : وقد أهلك الله أمة من الأمم كانوا يبخسون المكيال . روى الترمذى (٤)

عن ابن عباس ؛ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (لأصحاب الكيل والميزان) : إنكم

(١) [٤ / النساء / ١٠] ونصها : إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا

يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا ، وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا .

(٢) [٢ / البقرة / ٢٢٠] ونصها : فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، . . . وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ

مِنَ الْمُصْلِحِ ، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ، إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ .

(٣) [٨٣ / المطففين / ١-٦] .

(٤) أخرجه الترمذى فى : ١٢ - كتاب البيوع ، ٩ - باب ما جاء فى المكيال والميزان .

وليتم أمرين هلكت فيه الأمم السالفة قبلكم . ثم ضعفه وصحح وقفه على ابن عباس . وروى نحوه ابن مردويه مرفوعاً ، ولفظه : إنكم معشر الموالي قد بشركم الله بخصلتين ، بهما هلكت القرون المتقدمة : المكيال والميزان .

« لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا » أى : عند الكيل والوزن « إِلَّا وُسْعَهَا » أى : جهدها بالعدل . وهذا الاعتراض جىء به عقيب الأمر بالعدل ، لبيان أن مراعاة الحد من القسط ، الذى لازيادة فيه ولا نقصان ، مما يجرى فيه الحرج ، لصعوبة رعايته . فأمر ببلوغ الوسع ، وأن الذى ما وراءه معفو عنه . وقد روى ابن مردويه عن سعيد بن المسيب قال : قال رسول الله ﷺ : (أوفوا الكيل والميزان بالقسط لا تكلف نفساً إلا وسعها) : من أوفى على يده فى الكيل والميزان ، والله أعلم بصحة نيته بالوفاء فيهما ، لم يؤخذ .

قال ابن المسيب : وذلك تأويل (وسعها) .

قال ابن كثير : هذا مرسل غريب .

وفى (النهاية) : يحتمل رجوع قوله تعالى (لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا) إلى ما تقدم .

أى جميع ما كلفناكم ممكن ، ونحن لا نكلف ما لا يطاق . انتهى . والأول أولى .

« وَإِذَا قُلْتُمْ » أى : فى حكومة أو شهادة ونحوها « فَأَعْدِلُوا » أى : فيها . أى : لا تقولوا إلا الحق « وَلَوْ كَانَ » أى : المقول له أو عليه « ذَا قُرْبَى » أى : ذا قرابة منكم . فلا تميلوا فى القول له أو عليه ، إلى زيادة أو نقصان .

قال بعض الزيدية : معنى قوله تعالى : (وَإِذَا قُلْتُمْ فَأَعْدِلُوا) أى اصدقوا فى مقاتلتكم .

قال : وهذه اللفظة من الأمور المجيبة فى عذوبة لفظها وقلة حروفها وجمعها لأمر كثيرة من

الإقرار والشهادة والوصايا والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والفتاوى والأحكام والمذاهب .

ثم إنه تعالى أكد ذلك ، وبين أنه يلزم العدل فى القول ، ولو كان المقول له ذا قربى .

كقوله تعالى ^(١) : (وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ) .

(١) [٤ / النساء / ١٣٥] ونصها : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ =

«وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا» أى: معاہدہ الیکم من الأمور المدودۃ، أو ائى عہد کان. فیدخل فیہ ما ذکر دخولاً اولیاً . أو معاہدتہم اللہ علیہ من الأیمان والنذور «ذَلِکُمْ» إشارة إلى ما ذکر فی ہذہ الآیات «وَصَّاكُمْ بِهِ» أى أمرکم بالعمل بہ فی الکتاب «لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ» أى تمعظون . وفی قولہ تعالیٰ (ذَلِکُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ) تأکید آخر .

القول فی تأویل قولہ تعالیٰ :

[١٥٣] (وَأَنْ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ، وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ، ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)

«وَأَنْ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ» یقرأ یفتح حمزة (أَنْ) والتشديد. وعملها مع ما فی حیزھا الجرّ بحذف لام العلة . أى: ولأن هذا الذى وصیتکم بہ من الأمر والنہی طریق ودینی الذى ارتضیتہ لعبادى قویماً لا اعوجاج فیہ، فاعملوا بہ. وجوز أن یکون محلها مع ما فی حیزھا النصب علی (ما حرم) أى: وأتلو علیکم أن هذا صراطی . وقرئ بکسر الهمزة علی الاستثناف . «وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ» یعنى الأديان المختلفة أو طرق البدع والضلالات «فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ» أى: فتفرقکم عن صراطہ المستقیم وهو دین الإسلام الذى ارتضاه لعباده . روى الإمام (أحمد)^(١) عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : خطبنا رسول الله ﷺ خطباً ثم قال: هذا سبيل الله ثم خط خطوطاً عن يمينه وعن شماله ثم قال: هذه

= شُهداءُ الله وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ ، إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ، فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا ، وَإِنْ تَلَوْا أَوْ نَعَرَضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا .

(١) أخرجه فی المسند بالصفحة رقم ٤٣٥ من الجزء الأول (طبعة الحلبي) والحديث رقم ٤١٤٢ (طبعة المعارف) .

سبل، على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه . ثم قرأ : وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا... الآية .
ورواه (الحاكم) وصححه .

لطائف

قال السكيا المراسي : في الآية دليل على منع النظر والرأى ، مع وجود النص .
قال ابن كثير : إنما وحّد (سبيله) لأن الحق واحد ولهذا جمع (السبل) لتفرقها
وتشعبها . كما قال تعالى ^(١) : اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ
كَفَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ .
قال ابن عطية : وهذه السبل تعم اليهودية والنصرانية والمجوسية ، وسائر أهل الملل وأهل
البدع والضلالات ، من أهل الأهواء والشذوذ في الفروع ، وغير ذلك من أهل التعمق في الجدل
والخوض في الكلام . وهذه كلها عرضة للزلل ومظنة لسوء المعتقد .
قال قتادة : اعلّموا أن السبيل سبيل واحد . جماعة الهدى ، ومصيره الجنة . وأن إبليس
استبدع سبلا متفرقة . جماعة الضلالة ، ومصيرها إلى النار . وروى ^(٢) عليّ بن أبي طلحة عن
ابن عباس في هذه الآية وفي قوله : (أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ) ونحو هذا في القرآن ،
قال : أمر الله المؤمنين بالجماعة ونهاهم عن الاختلاف والفرقة . وأخبرهم أنه إنما هلك من كان
قبلهم بالمراء والخصومات في دين الله .

« ذَلِكُمْ » إشارة إلى ما ذكر من اتباع سبيله تعالى وترك اتباع سائر السبل « وَصَّاكُمْ
بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ » أى اتباع سبل الكفر والضلالة . وفيه تأكيد أيضا . روى ^(٣)
الترمذى وحسنه ، عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : من أراد أن ينظر إلى وصية رسول

(١) [٢ / البقرة / ٢٥٧] .

(٢) الأثر رقم ١٤١٦٦ من تفسير ابن جرير .

(٣) أخرجه الترمذى في : ٤٤ - كتاب التفسير ، ٦ - سورة الأنعام ، ٧ - حدثنا

الفضل بن الصباح البغدادى .

الله ﷻ التي عليها خاتمته، فليقرأ هؤلاء الآيات : قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا - إِلَى قَوْلِهِ - لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ .

وروى الحاكم ، وصححه عن ابن عباس قال : في الأنعام آيات محكمات هن أم الكتاب . ثم قرأ : قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ... الآيات .

وروى الحاكم وصححه، وابن أبي حاتم عن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ: أياكم يبأي معنى على هؤلاء الآيات الثلاث؟ ثم تلا قوله تعالى: (قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ) حتى فرغ من ثلاث آيات. ثم قال: ومن وفي بهن فأجره على الله. ومن انتقص منهن شيئاً، فأدركه الله في الدنيا، كانت عقوبته. ومن أخره إلى الآخرة، كان أمره إلى الله. إن شاء أخذه وإن شاء عفا عنه .

لطيفة :

قال النسفي : ذكر أولاً (تَعْقِلُونَ) ثم (تَذَكَّرُونَ) ثم (تَتَّقُونَ) لأنهم إذا عقلوا تفكروا ، ثم تذكروا ، أي اتعظوا ، فاتقوا المحارم . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥٤] (ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ)

« ثُمَّ آتَيْنَا » أي : أعطينا « مُوسَى الْكِتَابَ » يعني التوراة « تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ » يقرأ بفتح النون على أنه فعل ماض وفاعله إما ضمير (الَّذِي) أي : تماماً للكرامة والنعمة على الذي أحسن . أي : على من كان محسناً صالحاً . يريد جنس المحسنين . وتدل عليه قراءة عبد الله (على الذين أحسنوا) وإما ضمير موسى عليه السلام ومفعوله محذوف . أي : تنمة للكرامة على العبد الذي أحسن الطاعة في التبليغ وفي كل ما أمر به . أو تماماً على الذي أحسن موسى من العلم والشرائع . من (أحسن الشيء) إذا أجاد معرفته ، أي زيادة على علمه على وجه التتميم .

وعلى الأول ، ذ(تماماً) في موقع المفعول له . وجاز حذف اللام لكونه في معنى (إتماماً) أو مصدر لقوله (ءَاتَيْنَا) من معناه . لأن إيتاء الكتاب إتمام للنعمة . كأنه قيل : أئتمنا النعمة إتماماً . ذ(تمام) بمعنى (إتمام) كنبات في قوله تعالى : وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا . أو(أصله إيتاء تمام) . وعلى الوجه الثاني هو حال من الكتاب . وقرأ يحيى بن يعمر (عَلَى الَّذِي أَحْسَنُ) بالرفع أى : على الذى هو أحسن ، أو على الوجه الذى هو أحسن ما يكون عليه الكتب . ذ(تماماً) حال من الكتاب بمعنى (تماماً) أى حال كون الكتاب تاماً كائناً على أحسن ما يكون .

قال ابن جرير : هذه قراءة لا أستجيز القراءة بها . وإن كان في العربية لها وجه صحيح . « وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ » أى : وبياناً مفصلاً لكل ما يحتاج إليه بنو إسرائيل في الدين « وَهَدًى » لهم إلى ربهم في سلوك سبيله « وَرَحْمَةً » عليهم بإفاضة الفوائد « لَعَلَّهُمْ » أى : أهل الكتاب « بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ » يصدقون بلىقائه للجزاء .

لطيفة :

قال السيوطى في (الإكليل) : استدلل بقوله تعالى (ثُمَّ ءَاتَيْنَا) مَنْ قَالَ إِنْ (ثُمَّ) لا تفيد الترتيب . انتهى .

قال ابن كثير و (ثُمَّ) ههنا لعطف الخبر بعد الخبر ، لا للترتيب كما قال الشاعر :

قُلْ لِمَنْ سَادَ ثُمَّ سَادَ أَبُوهُ ثُمَّ سَادَ قَبْلَ ذَلِكَ جَدُّهُ

وقال (أبو السعود) : و (ثُمَّ) للتراخي في الأخبار كما في قولك : بلغنى ما صنعت اليوم ، ثم ما صنعت أمس أعجب . أو لل تفاوت في الرتبة كأنه قيل : ذلكم وصاكم به قديماً وحديثاً . ثم أعظم من ذلك أنا آتينا موسى التوراة . فإن إيتاءها مشتملة على الوصية المذكورة وغيرها ، أعظم من التوصية بها فقط . انتهى .

ثم أشار إلى أن التوراة ، وإن كانت تماماً على النهج الأحسن ، فالقرآن أتم منه وأزيد حسناً . فهو أولى بالمطابقة ، فقال :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥٥] (وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ)

« وَهَذَا » أى : القرآن « كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ » أكثر نفعا من التوراة ديناً ودنيا « فَاتَّبِعُوهُ » أى : اعملوا بما فيه من الأوامر والنواهي والأحكام « وَاتَّقُوا » يعنى مخالفته واتباع غيره لكونه منسوخاً به « لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ » أى : لترحموا بواسطة اتباعه، وهو العمل بما فيه . وفيه إشارة إلى أنه لا رحمة بمتابعة المنسوخ وإن آمن صاحبها ببقاء ربه .

قال بعض الزيدية : وفي قوله تعالى (فَاتَّبِعُوهُ) دلالة على وجوب تعلم القرآن ليتمكن الاتباع له . لكن هو كسائر العلوم فرض كفاية إلا ما يتعين على كل مكلف ، كتعلم ما لا تصح الصلاة إلا به ، فإنه يجب عليه . انتهى .

لطيفة :

قال ابن كثير : إنه تعالى كثيراً ما يقرن بين الكتابين كقوله : وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانِ عَزِيٍّ^(١) ، وقوله أول السورة : قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى^(٢) ، ثم قال : وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ ... الآية^(٣) ،

(١) [١١ / هود / ١٧] ونصها : أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً ، أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ، وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَلَإِنَّ أَمْرَهُمْ مُوعَدٌ ، فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ ، إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ .

(٢) [٦ / الأنعام / ٩١] ونصها : وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ

عَلَىٰ بَشِيرٍ مِنْ شَيْءٍ ، قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ ، تَجْمَلُونَهُ قَرِاطِيسَ يُبَدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ، وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ ، قُلِ اللَّهُ ، ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ .

(٣) [٦ / الأنعام / ٩٢] ونصها : وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي =

وقوله تعالى مخبراً عن المشركين : فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى (١) . وقوله تعالى مخبراً عن الجن أنهم قالوا : يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ... الآية (٢) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥٦] (أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ)

« أَنْ تَقُولُوا » علة لـ (أُنْزِلْنَا) . أى : كراهة أن تقولوا يوم القيامة . أو لثلاث قولوا « إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا » اليهود والنصارى « وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ » عن تلاوة كتابهم « لَغَافِلِينَ » لا علم لنا بشيء منها لأنها ليست بلفتنا . قال أبو السعود : ومرادهم بذلك دفع ما يرد عليهم من أن نزوله عليهما لا ينافي عموم أحكامه . فلم لم تعملوا بأحكامه العامة ؟ والمعنى : وإن كنا لا ندري ما في كتابهم ، إذ لم يكن على لفتنا حتى نتلق منه تلك الأحكام العامة ونحافظ عليها ، وإن لم يكن منزلاً علينا . وبهذا تبين أن معذرتهم هذه ، مع أنهم غير مأمورين بما في الكتابين لاشتغالهما على الأحكام المذكورة المتناولة لكافة الأمم ، كما أن قطع تلك المعذرة بإنزال القرآن لاشتغاله أيضاً عليها ، لا على سائر الشرائع والأحكام فقط . انتهى .

= بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا ، وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ ، وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ .

(١) [٢٨ / القصص / ٤٨] ... أَوْ لَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ ، قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَافِرُونَ .

(٢) [٤٦ / الأحقاف / ٣٠] ... يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥٧] (أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ، فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ، فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بَيِّنَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا، سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ)

« أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ » أى : كما أنزل عليهم « لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ »

أى : إلى الحق وأسرع منهم إجابة للرسول لمزيد ذكائنا وجدنا في العمل « فَقَدْ جَاءَكُمْ » .

قال أبو السعود : متعلق بمحذوف بنيء عنه الفاء الفصيحة ، إما ملل به ، أى :

لا تعتذروا بذلك فقد جاءكم . وإما شرط له . أى : إن صدقتم فيما كنتم تعدون من أنفسكم

من كونكم أهدى من الطائفتين على تقدير نزول الكتاب عليكم ، فقد حصل ما فرضتم وجاءكم .

« بَيِّنَةٌ » أى : كتاب حجة واضحة « مِنْ رَبِّكُمْ » متعلق بـ (جَاءَكُمْ) أو بمحذوف

صفة لـ (بَيِّنَةٌ) أى : بينة كائنة منه تعالى ، لا يتوهم فيه السحر « وَهُدًى » بإقامة الدلائل

ورفع الشبه « وَرَحْمَةٌ » بإفاضة الفوائد وتسهيل طريقكم وتيسيرها إلى أشرف الكالات

« فَمَنْ أَظْلَمُ » . قال أبو السعود : الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها . فإن مجيء القرآن المشتمل على

الهدى والرحمة موجب لغاية أظلمية من يكذبه . أى : وإذا كان الأمر كذلك فَمَنْ أَظْلَمُ « مِمَّنْ كَذَبَ

بَيِّنَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا » أى : صَرَفَ الناس وصدّهم عنها . فجمع بين الضلال والإضلال .

والمعنى إنكار أن يكون أحد أظلم منه أو مساوياً له « سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ » الناس

« عَنْ آيَاتِنَا » أى : التي لو لم يصدفوا عنها لعرفوا إعجازها « سُوءَ الْعَذَابِ » أى : العذاب

السيء « بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ » وهذا كقوله تعالى : الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدَّوْا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ

زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ^(١) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥٨] (هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ ، يَوْمَ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيْمَانِهَا خَيْرًا ، قُلِ انْتَضِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ)

« هَلْ يَنْظُرُونَ » يعنى قد أقمنا حجج الوحداية وثبوت الرسالة وأبطلنا ما كانوا يمتقدون من الضلالة . فما ينتظر هؤلاء بعد تكذيبهم الرسل وإنكارهم القرآن وصدّهم عن آيات الله ؟

قال البيضاوى : يعنى أهل مكة . وهم ما كانوا منتظرين لذلك . ولكن لما كان يلحقهم لحوق المنتظر ، شبهوا بالمنتظرين . « إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ » يعنى للحكم وفصل القضاء بين الخلق يوم القيامة .

قال ابن كثير : وذلك كائن يوم القيامة . وقد تقدم الكلام فى معنى الآية فى سورة البقرة عند قوله تعالى^(١) : هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ ، بِمَافِيهِ كفاية . ومذهب السلف : إمرار ذلك بلا كيف ، كما مرّ مراراً .

قيل : إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ . أى : ملائكة الموت لقبض أرواحهم « أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ » وذلك قبل يوم القيامة ، كائن من أمارات الساعة وأشراطها حين يرون شيئاً من ذلك . كما روى البخارى^(٢) فى تفسير هذه الآية عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها . فإذا رآها الناس آمن

(١) [٢ / البقرة / ٢١٠] .

(٢) أخرجه البخارى فى : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٦ - سورة الأنعام ، ٩ - باب قوله : هَلْ يَنْظُرُونَ .

من عليها . فذاك حين لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل . ورواه مسلم أيضاً^(١) ،
ولمسلم^(٢) والترمذى عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : ثلاث إذا خرجن لا ينفع نفساً
إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً : طلوع الشمس من مغربها ،
والدجال ، ودابة الأرض . « يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ
ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ » صفة (نفساً) « أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا » عطف على (ءَامَنَتْ)
والعنى أن بعض أشراف الساعة إذا جاء ، وهى آية ملجئة مضطرة ، ذهب أوان التكليف
عندها ، فلم ينفع الإيمان حينئذ نفساً غير مقدّمة إيمانها من قبل ظهور الآيات . أو مقدّمة الإيمان
غير كاسبة في إيمانها خيراً لفسقها . فتوبتها حينئذ لا تجدى .

قال الطبرى : معنى الآية لا ينفع كافراً لم يكن آمناً قبل الطلوع ، إيماناً بعد الطلوع .
ولا ينفع مؤمناً لم يكن عملاً صالحاً قبل الطلوع ، عملاً صالحاً بعد الطلوع . لأن حكم الإيمان
والعمل الصالح حينئذ ، حكم من آمن أو عمل عند الغرّة . وذلك لا يفيد شيئاً . كما قال تعالى :
فَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ لِمَا رَأَوْا بَأْسًا^(٣) . وكما ثبت في الحديث الصحيح^(٤) : إن الله
يقبل توبة العبد ما لم يفرغر . انتهى .

وبالجملة : فالعنى أنه لا ينفع من كان مشركاً بإيمانه . ولا تقبل توبة فاسق عند ظهور
هذه الآية العظيمة التى تضطرهم إلى الإيمان والتوبة . وذلك لذهاب زمن التكليف .

(١) أخرجه مسلم فى : ١ - كتاب الإيمان ، حديث ٢٤٨ (طبعنا) .

(٢) أخرجه مسلم فى : ١ - كتاب الإيمان ، حديث ٢٤٩ (طبعنا) .

(٣) [٤٠ / غافر / ٨٥] . . . سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ ، وَخَسِرَ هُنَالِكَ
الْكَافِرُونَ .

(٤) أخرجه الترمذى فى : ٤٥ - كتاب الدعوات ، ٩٨ - باب فى فضل التوبة والاستغفار
وما ذكر من رحمة الله لعباده ، حدثنا إبراهيم بن يعقوب .

قال الضحاك : من أدركه بعض الآيات ، وهو على عمل صالح مع إيمانه ، قبل الله منه العمل الصالح بعد نزول الآية ، كما قبل منه قبل ذلك . فأما من آمن من شركٍ أو تاب من معصية عند ظهور هذه الآية ، فلا يقبل منه . لأنها حالة اضطرار . كما لو أرسل الله عذاباً على أمة فآمنوا وصدقوا . فإنهم لا ينفعهم إيمانهم ذلك ، لمآنتهم الأهوال والشدائد ، التي تضطربهم إلى الإيمان والتوبة .

وقال ابن كثير : إذا أنشأ الكافر إيماناً يومئذ لم يقبل منه . فأما من كان مؤمناً قبل ذلك ، فإن كان مصلحاً في عمله ، فهو بخير عظيم . وإن لم يكن مصلحاً ، فأحدث توبة حينئذ ، لم تقبل منه توبته . كما دلت عليه الأحاديث . وعليه يحمل قوله تعالى (أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا) أى : لا يقبل منها كسب عمل صالح ، إذا لم يكن عاملاً به قبل ذلك . انتهى .

والأحاديث المشار إليها ، منها ما رواه (مسلم) ^(١) عن أبي هريرة : أن رسول الله ﷺ قال : من تاب قبل طلوع الشمس من مغربها تاب الله عليه . وروى (الترمذى) ^(٢) وصححه

(١) أخرجه مسلم في : ٤٨ - كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، حديث ٤٢

(طبعنا) .

(٢) أخرجه الترمذى في : ٤٥ - كتاب الدعوات ، ٩٨ - باب في فضل التوبة

والاستغفار وما ذكر من رحمة الله لعباده ونصه :

عن زر بن حبیش قال: أتيت صفوان بن عسال المرادى أسأله المسح على الخفين . فقال : ما جاء بك يا زر ؟ فقلت : ابتغاء العلم . فقال : إن الملائكة تضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يطلب . فقلت : إنه حك في صدرى المسح على الخفين بعد الغائط والبول ، وكنت امرأة من أصحاب النبي ﷺ . فبئت أسألك : هل سمعته يذكر في ذلك شيئاً ؟ قال : نعم . كان يأمرنا إذا سَفَرًا (أو مسافرين) أن لا نزرع خفافنا ثلاثة أيام ولياليهنّ إلا من جنابة . لكن من غائط وبول ونوم . فقلت : هل سمعته يذكر في الهوى شيئاً ؟ قال : نعم . كنا =

عن صفوان بن عسال المرادي قال : قال رسول الله ﷺ : بابٌ من قِبَلِ المغرب مسيرة عرضه (أو قال يسير الراكب في عرضه) أربعين أو سبعين سنة خلقه الله تعالى يوم خلق السموات والأرض . مفتوحاً للتوبة لا يغلق حتى تطلع الشمس منه . ولأبي داود^(١) والنسائي من حديث معاوية رفعه : لا تزال تقبل التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها .

قال ابن حجر : سنده جيد . وأخرجه أحمد^(٢) والدارمي^(٣) وعبد بن حميد من حديثه أيضاً

= مع النبي ﷺ في سفر ، فبينما نحن عنده إذ ناداه أعرابي بصوت له جهوري : يا محمد ! فأجابهُ رسول الله ﷺ نحواً من صوته « هاؤم » .

وقلنا له : ويحك اغضض من صوتك فإنك عند النبي ﷺ ، وقد نهيتَ عن هذا . فقال : والله ، لا أغضض . قال الأعرابي : المرء يحب القوم ولما يلحق بهم ؟ قال النبي ﷺ « المرء مع من أحب يوم القيامة » . فما زال يحدثنا حتى ذكر باباً من قِبَلِ المغرب مسيرة سبعين عاماً ، عرضه (أو يسير الراكب في عرضه) أربعين أو سبعين عاماً .

قال سفيان (أحد رجال السند) : قبل الشام . خلقه الله يوم خلق السموات والأرض مفتوحاً . (يعني للتوبة) لا يغلق حتى تطلع الشمس منه .

قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح .

(١) أخرجه أبو داود في : ١٥ - كتاب الجهاد ، ٢ - باب في الهجرة هل انقطعت ؟

حديث رقم ٢٤٧٩ ونصه :

عن معاوية قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول « لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة .

ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده بالصفحة رقم ٩٩ من الجزء الرابع (طبعة الحلبي)

ونصه كما جاء في أبي داود .

(٣) أخرجه الدارمي في : ١٧ - كتاب السير ، ٧٠ - باب إن الهجرة لا تنقطع .

بلفظ : لا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها . وروى الإمام أحمد عن ابن السعدي : أن رسول الله ﷺ قال : لا تنقطع الهجرة مادام العدو يقا تل . فقال معاوية وعبد الرحمن بن عوف وعبد الله بن عمرو بن العاص : إن النبي ﷺ قال : إن الهجرة خصلتان : إحداها أن تهجر السيئات ، والأخرى أن تهاجر إلى الله ورسوله . ولا تنقطع ما تُقْبَلَتِ التوبة . ولا تزال التوبة مقبولة حتى تطلع الشمس من المغرب . فإذا طلعت طُبعَ على كل قلب بما فيه ، وكُفِيَ الناسُ العملَ . قال ابن كثير : هذا الحديث حسن الإسناد ولم يخرج أحد من أصحاب الكتب الستة .

وَههنا مسائل

الأولى : ذهب الجمهور إلى أن المراد بـ (البعض) في الآية هو طلوع الشمس من مغربها . كما في حديث الصحيحين^(١) السابق . ولا يقال يخالف ذلك حديث مسلم^(٢) : ثلاث إذا خرجن لا ينفع نفساً إيمانها ... الحديث . وفي ثبوت ذلك بخروج الدجال نظر . لأن نزول عيسى ﷺ بعده . وفي زمنه خير كثير دنيوى وأخروى . فالإيمان مقبول وقتئذ . لأننا نقول : لا منافاة . وذلك لأن (البعض) في الآية ، إن كان عدة آيات ، فطلوع الشمس هو آخرها المتحقق به عدم القبول ، وإن كان إحدى آيات ، فهو محمول على المعين في الحديث ، لأنه أعظمها . كذا في (العناية) .

قال ابن عطية : إذا أخبر النبي ﷺ بتخصيص مانع القبول بالطلوع ، في الحديث الصحيح ، لم يجز العدول عنه ، وتعين أنه معنى الآية . انتهى .

وقال القاضي عياض : المعنى لا تنفع توبة بعد ذلك . بل يجتم على عمل كل أحد بالحالة التي هو عليها . والحكمة في ذلك أن هذا أول ابتداء قيام الساعة بتغير العالم العلوى . فإذا

(١) انظر الحاشية رقم ١ ص ٢٥٧٧ و ٢٥٧٨ .

(٢) انظر الحاشية رقم ٢ ص ٢٥٧٨ .

شاهد ذلك حصل الإيمان الضروري بالمعينة . وارتفع الإيمان بالغيب . فهو كالإيمان عند
الفرغرة . وهو لا ينفع . فالمشاهدة لطلوع الشمس من المغرب مثله .

الثانية : قال السيوطي في (الإكليل) : استدل المعتزلة بهذه الآية على أن الإيمان لا ينفع
مع عدم كسب الخير فيه . وهو مردود . ففي الكلام تقدير . والمعنى : لا ينفع نفساً لم تكن
آمنت من قبل ، إيمانها حينئذ ، ولا ينفع نفساً لم تكسب خيراً قبل ، توبتها حينئذ .
وقال الشهاب السمين : قد أجاب الناس بأن المعنى في الآية إنه إذا أتى بعض الآيات
لا ينفع نفساً كافرة ، إيمانها الذي أوقعته إذ ذاك . ولا ينفع نفساً سبق إيمانها ولم تكسب
فيه خيراً . فقد علق نفي نفع الإيمان بأحد وصفين : إما نفي سبق الإيمان فقط ، وإما سبقه
مع نفي كسب الخير . ومفهومه أنه ينفع الإيمان السابق وحده ، وكذا السابق ومعه الخير .
ومفهوم الصفة قوى فيستدل بالآية لمذهب أهل السنة . ويكون فيه قلب دليل المعتزلة ،
دليلاً عليهم .

وأجاب ابن المنير في (الانتصاف) فقال : هذا الكلام من البلاغة يلقب (اللف)
وأصله : يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفساً ، لم تكن مؤمنة قبل ، إيمانها بعد .
ولا نفساً لم تكسب خيراً قبل ، ما تكسبه من الخير بعد ، فلف الكلامين فجعلهما
كلاماً واحداً إيجازاً . وبهذا التقرير يظهر أنها لا تخالف مذهب أهل الحق . فلا ينفع بعد
ظهور الآيات اكتساب الخير ولو نفع الإيمان المتقدم من الخلود . فهي بالرد على المعتزلة أولى
من أن تدل لهم .

وقال ابن الحاجب في (أماليه) : الإيمان قبل مجيء الآية نافع ولو لم يكن عمل صالح غيره ،
ومعنى الآية : لا ينفع نفساً إيمانها ولا كسبها العمل الصالح ، لم يكن الإيمان قبل الآية ، أو لم
يكن العمل مع الإيمان قبلها . فاختصر للعلم .

وقل الطيبي كلام الأئمة في ذلك . ثم قال : المعتمد ما قال ابن المنير وابن الحاجب . وبسطه :

أن الله تعالى ، لما خاطب المعاندين بقوله تعالى (وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ . .)^(١) الآية ، علل الإنزال بقوله (أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَنْزَلَ الْكِتَابُ)^(٢) الخ إزالة للعدو وإلزاماً للحجة . وعقبه بقوله (فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ) الخ تبكيتهما لهم وتقريراً لما سبق من طلب الاتباع . ثم قال (فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ . .) الآية أى أنه أنزل هذا الكتاب المنير كاشفاً لكل ريب وهدايا إلى الطريق المستقيم ورحمة من الله للخلق ، ليجملوه زادا لمعادهم فيما يقدمونه من الإيمان والعمل الصالح . فجعلوا شكر النعمة أن كذبوا بها ومنعوا من الانتفاع بها . ثم قال (هَلْ يَنْظُرُونَ ...) الآية . أى ما ينتظر هؤلاء المكذبون إلا أن يأتيهم عذاب الدنيا بنزول الملائكة بالعقاب الذى يستأصل شأفتهم . كما جرى لمن مضى من الأمم قبلهم . أو يأتيهم عذاب الآخرة بوجود بعض قوارعها . فحينئذ تفوت تلك الفرصة السابقة فلا ينفعهم شيء مما كان ينفعهم من قبل ، من الإيمان . وكذا العمل الصالح مع الإيمان . فسكأنه قيل : يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفساً إيمانها ولا كسبها العمل الصالح في إيمانها حينئذ ، إذا لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً من قبل . ففي الآية لف . لكن حذفت إحدى القرينتين بإعانة النشر ، ونظيره قوله تعالى^(٣) : وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعاً .

قال : فهذا الذى عناه ابن المنير بقوله : إن هذا الكلام في البلاغة يقال له (اللف) والمعنى يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفساً ، لم تكن مؤمنة من قبل ذلك ، إيمانها من بعد ذلك ،

(١) [٦ / الأنعام / ١٥٥] ... وَاتَّقُوا لَعْنَكُمْ تُرْحَمُونَ .

(٢) [٦ / الأنعام / ١٥٦] ... عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ

لَعَا فِلِينَ .

(٣) [٤ / النساء / ١٧٢] ونصها : لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ

وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ، ...

ولا ينفع نفساً كانت مؤمنة، لكن لم تعمل في إيمانها عملاً صالحاً قبل ذلك، ما تعمله من العمل الصالح بعد ذلك. قال : وبهذا التقرير يظهر مذهب أهل السنة . فلا ينفع بعد ظهور الآية اكتساب الخير ، أى : لإغلاق باب التوبة ورفع الصحف والحفظة . وإن كان ماسبق قبل ظهور الآية من الإيمان ينفع صاحبه في الجملة .

ثم قال الطيبي : وقد ظفرت ، بفضل الله بعد هذا التقرير ، على آية أخرى تشبه هذه الآية وتناسب هذا التقرير معنى ولفظاً . من غير إفراط ولا تفريط . وهى : قوله تعالى : وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ ، يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفْعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ، قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ ... (١)

الآية . فإنه يظهر منه أن الإيمان المجرد قبل كشف قوارع الساعة نافع . وأن الإيمان المقارن بالعمل الصالح أنفع . وأما بعد حصولها فلا ينفع شيء أصلاً . والله أعلم . انتهى ملخصاً .

الثالثة : قال في (الوجيز) في قوله تعالى (أَوْ يَأْتِي رَبُّكَ) أى لفصل القضاء بين خلقه .

وإتيانه يؤمن به ولا نعرف كيفه . انتهى .

وفي حواشى (جامع البيان) : كيف لا يؤمن بإتيانه ومجيئه تعالى يوم القيامة ، وقد جاء في القرآن في عدة مواضع : هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ (٢) . وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا (٣) . إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ (٤) ، وأى أمر أصرح منه في القرآن ؟ .

(١) [٧ / الأعراف / ٥٣ و ٥٢] ... وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ .

(٢) [٢ / البقرة / ٢١٠] ... وَالْمَلَائِكَةُ وَفُضِي الْأَمْرُ ، وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ .

(٣) [٨٩ / الفجر / ٢٢] .

(٤) [١٦ / النحل / ٣٣] ونصها : هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ

أَمْرُ رَبِّكَ ، كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ .

وروى الطبري^(١) في (تفسيره) عن ابن عباس مرفوعاً : إن في الغمام طاقات يأتي الله فيها، محفوفاً . وذلك قوله^(٢) : هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ .

قال عكرمة : والملائكة حوله ، فهذا من صفات الله تعالى . يجب علينا الإيمان بظواهرها ونؤمن بها كما جاءت وإن لم نعرف كيفيتها . وعدم علمنا بكيفيتها ، بمنزلة عدم علمنا بكيفية ذاته . فلا نكذب بما علمناه لعدم علمنا بما لم نعلمه . وهذا هو مذهب سلف هذه الأمة وأعلام أهل السنة . انتهى .

وقوله تعالى « قُلِ انتَظِرُوا » أى : قل لهؤلاء الكافرين ، بعد بيان حقيقة الحال على وجه التهديد : انتظروا ما تنتظرونه من إتيان أحد الأمور الثلاثة لتروا أى شئ تنتظرون . « إِنَّا مُنْتَظِرُونَ » أى لذلك ، لنشاهد ما يحل بكم من سوء العاقبة . ثم بين تعالى أحوال أهل الكتاب ، إثر بيان حال المشركين بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥٩] (إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ، إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ)

« إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ » أى : اختلفوا فيه ، مع وحدته في نفسه ، فجملوه أهواء متفرقة « وَكَانُوا شِيَعًا » أى : فرقاً تشيع كل فرقة إماماً لها بحسب غلبة تلك الأهواء . فلم يتعبدوا إلا بآبادات وبدع ، ولم ينقادوا إلا لأهواء وخدع « لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ » أى : من عقابهم . أو أنت برى منهم محمى الجناب عن مذاهبهم . أو المعنى : أتركهم فإن لهم ما لهم . وقال القاشانى : أى : لست من هدايتهم إلى التوحيد في شئ . إذ هم أهل التفرقة

(١) الأثر رقم ٤٠٣٨

(٢) [٢ / البقرة / ٢١٠] ... وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ .

لا يجتمع همهم ولا يتحد قصدهم « إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ » أى : فى جزاء تفرقهم ومكافأتهم ، لا إليك « ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ » يعنى إذا وردوا يوم القيامة « بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ » أى : من السيئات والتفرقة ، لتأبئة الأهواء . ويجازيهم على ذلك بما يماثل أفعالهم .

تنبيه :

قال مجاهد وقتادة والضحاك والسدى : نزلت هذه الآية فى اليهود والنصارى . وروى العوفى عن ابن عباس فى الآية ؛ أن اليهود والنصارى اختلفوا قبل مبعث محمد ﷺ فتنفروا . وحمل بعضهم الآية على أهل البدع وأهل الشبهات وأهل الضلالة من هذه الأمة . وآخر على الخوارج . وأسندوا فى ذلك حديثاً رفعوه .

قال ابن كثير : وإسناد ذلك لا يصح . ثم قال : والظاهر أن الآية عامة فى كل من فارق دين الله وكان مخالفاً له . فإن الله بعث رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، وشرعه واحد لا اختلاف فيه ولا افتراق . فمن اختلف فيه (وكانوا شيعاً) أى فرقاً كأهل الملل والنحل والأهواء والضلالات ، فإن الله تعالى قد برأ رسول الله ﷺ مما هم فيه ، وهذه الآية كقوله تعالى : (شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ...) (١) الآية . وفى الحديث (٢) نحن معاشر الأنبياء أولاد علات . ديننا واحد . فهذا هو الصراط المستقيم ،

(١) [٤٢ / الشورى / ١٣] . . . وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ، كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ، اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ .

(٢) أخرجه البخارى فى : ٦٠ - كتاب الأنبياء ، ٤٨ . باب وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا ، حديث ١٦١٧ ونصه :

عن أبى هريرة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول « أنا أولى الناس بابن مريم . والأنبياء أولاد علات . ليس بينى وبينه نبي » .

وهو ما جاءت به الرسل من عبادة الله وحده لا شريك له، والتمسك بشريعة الرسول المتأخر. وما خالف ذلك فضلالات وجهالات وآراء وأهواء. والرسل براء منها كما قال الله تعالى : لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ؛ ثُمَّ قَالَ : وَقَوْلُهُ تَعَالَى : (إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُدَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ) كَقَوْلِهِ تَعَالَى : (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) ^(١) الآية. انتهى . وقد أخرج أبو داود ^(٢) عن معاوية قال : قام فينا رسول الله ﷺ فقال : أَلَا إِنَّ مَنْ قَبْلَكُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ افْتَرَقُوا عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ مِلَّةً . وَإِنْ هَذِهِ الْمِلَّةُ سَتَفْتَرِقُ عَلَى ثَلَاثِ وَسَبْعِينَ . ثِنْتَانِ وَسَبْعُونَ فِي النَّارِ ، وَوَاحِدَةٌ فِي الْجَنَّةِ ، وَهِيَ الْجَمَاعَةُ . ورواه الترمذی عن عبد الله بن عمرو ، وفيه : قالوا من هي يا رسول الله ؟ قال : من كان على ما أنا عليه وأصحابي .

ثم بين لطفه سبحانه في حكمه وعدله يوم القيامة ، فقال تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٦٠] (مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ، وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ)

« مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ » أى جاء يوم القيامة بالأعمال الحسنة « فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا » يعنى عشر حسنات أمثالها في الحسن .

قال (المهايى) : كمن أهدى إلى سلطان عنقود غناب يعطيه بما يليق بسلطنته ، لا قيمة

(١) [٢٢ / الحج / ١٧] ... إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ .

(٢) أخرجه أبو داود في : ٣٩ - كتاب السنة ، ١ - باب شرح السنة ، حديث

العنقود. انتهى . والعشر أقل ما وعد من الأضام . وقد جاء الوعد بسبعين ، وبسبعمائة وبغير حساب . ولذلك قيل : المراد بذكر العشر بيان الكثرة لا الحصر في العدد الخاص « وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ » أى : بالأعمال السيئة « فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا » في القبح .

قال المهيائي : فمن كفر خلد في النار ، فإنه ليس أقبح من كفره . كمن أساء إلى سلطان يقصد قتله . ومن فعل معصية عذب بقدرها كمن أساء إلى آحاد الرعية . انتهى .
« وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ » أى : بنقص الثواب وزيادة العقاب .

لطيفة :

قال القاشاني في قوله تعالى (فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا) : هذا أقل درجات الثواب . وذلك أن الحسنة تصدر بظهور القلب والسيئة بظهور النفس . فأقل درجات ثوابها أنه يصل إلى مقام القلب الذي يتلو مقام النفس في الارتقاء ، تلو مرتبة العشرات للآحاد في الأعداد . وأما في السيئة فلا أنه لا مقام أدون من مقام النفس ، فينحط إليه بالضرورة . فيرى جزاءه في مقام النفس بالمثل . ومن هذا يعلم أن الثواب من باب الفضل . فإنه يزيد به صاحبه ويتنور استعداده ويزداد قبوله لفيض الحق . فيتقوى على أضعاف ما فعل ويكتسب به أجوراً متضاعفة إلى غير نهاية ، بازدياد القبول على فعل كل حسنة وزيادة القدرة والشغف على الحسنة عند زيادة الفيض إلى ما لا يعلمه إلا الله . كما قال بعد ذكر أضعافها إلى سبعمائة : وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ ^(١) . وأن العقاب من باب العدل إذ العدل يقتضي المساواة . ومن فعل بالنفس ، إذ لم يعف عنه ، يجازى بالنفس سواء . انتهى .

(١) [٢ / البقرة / ٢٦١] ونصها : مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ ، وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ ، وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ .

تنبيه :

وردت أحاديث كثيرة في معنى الآية . فروى الإمام أحمد^(١) عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال ، فيما يروى عن ربه تعالى : إن ربكم تبارك وتعالى رحيم . من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة . فإن عملها كتبت له عشرة إلى سبعمائة إلى أضعاف كثيرة . ومن هم بسيئة فلم يعملها كتبت له حسنة . فإن عملها كتبت له واحدة أو يحوها الله ولا يهلك على الله إلا هالك . ورواه البخاري^(٢) ومسلم^(٣) والنسائي^(٤) وأحمد ومسلم^(٥) عن أبي ذر قال : قال رسول الله ﷺ : يقول الله تبارك وتعالى : مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا أَوْ أَزِيدَ . ومن جاء بالسيئة فجزاء سيئة مثلها أو أغفر . ومن تقرب مني

(١) أخرجه في المسند بالصفحة رقم ٢٧٩ من الجزء الأول (طبعة الحلبي) والحديث رقم ٢٥١٩ (طبعة المعارف) .

(٢) أخرجه البخاري في : ٨١ - كتاب الرقاق ، ٣١ - باب من هم بحسنة أو سيئة ،

حديث ٢٤٣٥ .

(٣) أخرجه مسلم في : ١ - كتاب الإيمان ، حديث رقم ٢٠٧ (طبعتنا) .

(٤) أخرجه في المسند بالصفحة رقم ١٤٨ من الجزء الخامس (طبعة الحلبي) .

(٥) أخرجه مسلم في : ٤٨ - كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، حديث ٢٢

(طبعتنا) ونصه بالكامل :

عن أبي ذر قال : قال رسول الله ﷺ « يقول الله عز وجل : مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا أَوْ أَزِيدَ ، ومن جاء بالسيئة فجزاؤه سيئة مثلها ، أو أغفرُ . ومن تقرب مني شبرًا ، تقربت منه ذراعاً . ومن تقرب مني ذراعاً ، تقربت منه باعاً . ومن أتاني يمشي ، أتيته هرولة . ومن لقيني بقراب الأرض (قراب الأرض ما يقارب ملأها) خطيئة ، لا يشرك بي شيئاً ، لقيته بمثلها مغفرة » .

شبراً تقربت منه ذراعاً . ومن تقرب منى ذراعاً تقربت منه باعاً . ومن أتانى يمشى أثيته هرولة ، ومن لقيني بقراب الأرض خطيئة بعد أن لا يشرك بى شيئاً ، لقيته بمثلها مغفرة . وروى الشيخان^(١) عن أبى هريرة . أن رسول الله ﷺ قال : يقول الله تعالى : إذا أراد عبدى أن يعمل سيئة فلا تكتبوها عليه حتى يعملها فإن عملها فاكتبوها بمثلها . وإن تركها من أجل فاكتبوها له حسنة ، وإذا أراد أن يعمل حسنة فلم يعملها فاكتبوها له حسنة . فإن عملها فاكتبوها له بعشر أمثالها إلى سبعمائة . لفظ البخارى . وروى الطبرانى عن أبى مالك الأشعرى قال : قال رسول الله ﷺ : الجمعة كفارة لما بينها وبين الجمعة التى تليها وزيادة ثلاثة أيام . وذلك لأن الله تعالى قال : مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا . وروى الإمام أحمد عن أبى ذر قال : قال رسول الله ﷺ : من صام ثلاثة أيام من كل شهر فقد صام الدهر كله . ورواه النسائى والترمذى وزاد : فأُزِلَ الله تصديق ذلك فى كتابه : مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ، اليوم بعشرة أيام .

وبقيت أخبار آخر . وفيما ذكر كفاية .

ثم أمر تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يخبر أولئك المفرقين دينهم بما أنعم سبحانه عليه ، من إرشاده إلى دينه القويم بقوله :

(١) أخرجه البخارى فى : ٩٧ - كتاب التوحيد ، ٣٥ - باب قول الله تعالى : يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ ، حديث ٢٦٠١ .

وأخرج فى معناه مسلم فى : ١ - كتاب الإيمان حديث ٢٠٥ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ١٤٦ من الجزء الخامس (طبعة الحلبي) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٦١] (قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا، وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)

« قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » وهو دين الإسلام الذي ارتضاه لعباده المخلصين « دِينًا » نصب على البديل من محل (إلى صراط) لأن معناه هداني صراطاً. بدليل قوله (وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) ^(١) أو مفعول لمضمر يدل عليه المذكور. أي عرفني دِينًا. أو مفعول (هداني). و (هدى) يتمدى إلى اثنين « قِيمًا » صفة (دِينًا) يقرأ بالتشديد أي: ثابتاً أبداً لا تغيره الملل والنحل، ولا تنسخه الشرائع والكتب، مقوماً لأمر المعاش والمعاد. ويقرأ بالتخفيف على أنه مصدر نعت به. وأصله قَوْمٌ كَعَوْضٍ. فاعِلٌ لا إعلال فعله كالقيام. « مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ » المتفق على صحتها وهي التي أعرض بها عن كل ما سواه تعالى. عطف بيان لـ (دِينًا) « حَنِيفًا » حال من (إِبْرَاهِيمَ) أي مائلاً عن كل دين وطريق باطل، فيه شركٌ ما، وقوله تعالى « وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ » اعتراض مقرر لنزاهته عليه السلام عما عليه المفرقون لدينه من عقد وعمل. أي ما كان منهم في أمر من أمور دينهم أصلاً وفرعاً. صرح بذلك ردًا على الذين يدعون أنهم على ملته من مشركي مكة واليهود والنصارى. أفاده أبو السعود.

تنبيه :

قال ابن كثير : هذه الآية كقوله تعالى : (ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا، وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) ^(٢) وليس يلزم من كونه أمرًا باتباع ملة إبراهيم الحنيفية،

(١) [٤ / النساء / ١٧٥] ونصها : فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ

فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ . . .

(٢) [١٦ / النحل / ١٢٣] .

أن يكون إبراهيم أكل منه فيها . لأنه عليه السلام قام بها قياماً عظيماً ، وأكملت له إكمالاً تاماً لم يسبقه أحد إلى هذا الكمال . ولهذا قال : أنا خاتم الأنبياء وسيد ولد آدم على الإطلاق وصاحب المقام المحمود الذي يرغب إليه الخلق ، حتى الخليل عليه السلام . وروى ابن مردويه عن ابن أبي عمير قال : كان رسول الله ﷺ إذا أصبح قال : أصبحنا على ملة الإسلام وكلمة الإخلاص ودين نبينا وملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين . وروى الإمام أحمد^(١) عن ابن عباس قال قيل لرسول الله ﷺ : أى الأديان أحب إلى الله تعالى ؟ قال : الحنيفية السمحة . وروى الإمام أحمد^(٢) عن عائشة قالت : وضع رسول الله ﷺ ذنبيه على منكبيه لأنظر إلى زفن الحبشة . حتى كنت التي مللت ، فانصرف عنهم . وقالت عائشة : قال لي رسول الله ﷺ يومئذ : ليعلم يهود أن في ديننا فسحة . إنى أرسلت بحنيفية سمحة . وأعيد الأمر في قوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٦٢] (قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

« قُلْ إِنْ صَلَاتِي » لما أن المأمور به متعلق بفروع الشرائع ، وما سبق بأصولها . أى : إن صلاتي إلى الكعبة « وَنُسُكِي » أى : طوافي وذبحي للهدايا في الحج والعمرة ، أو عبادتي كلها « وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي » أى : وما آتية في حياتي وما أموت عليه من الإيمان والعمل الصالح . أو طاعات الحياة والخيرات المضافة إلى المات ، كالوصية والتدبير . أو الحياة والمات أنفسهما « لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » .

(١) أخرجه في المسند بالصفحة رقم ٢٣٦ من الجزء الأول (طبعة الحلبي) والحديث

رقم ٢١٠٧ (طبعة المعارف)

(٢) أخرجه في المسند بالصفحة رقم ١١٦ من الجزء السادس (طبعة الحلبي) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٦٣] (لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ)

« لَا شَرِيكَ لَهُ » أى : خالصة لله لا أشرك فيها غيره « وَبِذَلِكَ » أى : القول

أولاً خلاص « أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ » أى : من هذه الأمة . لأن إسلام كل نبي متقدم على إسلام أمته .

قال ابن كثير : يأمر تعالى نبيه أن يخبر المشركين الذين يعبدون غير الله تعالى ويزبحون

لغير اسمه ؛ أنه مخالف لهم في ذلك . فإن صلاته لله ونسكه على اسمه وحده لا شريك له .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٦٤] (قُلْ أَغْيَرَ اللَّهِ آبَنِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ، وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ

إِلَّا عَلَيْهَا ، وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ، ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ)

« قُلْ أَغْيَرَ اللَّهِ آبَنِي رَبًّا » فأشركه في عبادته . وهو جواب عن دعائهم له عليه الصلاة

والسلام إلى عبادة آلهتهم ، وفي إيثار نبي البغية والطلب ، على نفي العبادة ، أبلغية لا تخفى

« وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ » حال في موضع العلة للإنكار والدليل له . أى وكل ماسواه مربوب

مثلى لا يصلح للربوبية ، فلا أكون عبداً لعبده .

قال ابن كثير : أى فلا أتوكل إلا عليه ولا أنيب إلا إليه . لأنه رب كل شئ ومليكه

وله الخلق والأمر . ففي هذه الآية الأمر بإخلاص العبادة والتوكل . كما تضمنت الآية التي

قبلها إخلاص العبادة له لا شريك له . وهذا المعنى يقرن بالآخر كثيراً . كقوله تعالى

مرشداً لعباده أن يقولوا : إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ . وقوله ^(١) : فَأَعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ .

(١) [١١ / هود / ١٢٣] .

وقوله (قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ ءَامَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا) ^(١) وقوله (رَبُّ الْمَشْرِقِ
وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا) ^(٢) وأشباه ذلك من الآيات .
« وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى » .

قال ابن كثير: إخبار عن الواقع يوم القيامة من جزاء الله تعالى وحكمه وعده؛ أن النفوس
إنما تجازى بأعمالها إن خيرا فخير وإن شرا فشر . وأنه لا يحمل من خطيئة أحد على أحد .
وهذا من عدله تعالى .

وقال أبو السعود : كانوا يقولون للمسلمين : اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ . إما
بمعنى ليكتب علينا ما علمتم من الخطايا لا عليكم ، وإما بمعنى لنحمل يوم القيامة ما كتب
عليكم من الخطايا - فهذا رد له بالمعنى الأول . أى لا تكون جنابة نفس من النفوس إلا
عليها . ومحال أن يكون صدورها عن شخص وقرارها على شخص آخر ، حتى يتأتى ما
ذكرتم . وقوله تعالى (وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى) رد له بالمعنى الثانى . أى : لا تحمل
يومئذ نفس حاملة، حمل نفس أخرى، حتى يصح قولكم .

تنبيه :

قال السيوطى فى (الإكليل) : هذه الآية أصل فى أنه لا يؤخذ أحد بفعل أحد . وقد
ردت عائشة به على من قال : إن الميت يعذب ببكاء أهله عليه . أخرجه البخارى ^(٣) ، وأخرج

(١) [٦٧ / الملك / ٢٩] فَسَتَمَلُؤْنَ مِنْهُ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ .

(٢) [٧٣ / الزمل / ٩] .

(٣) أخرجه البخارى فى : ٢٣ - كتاب الجنائز ، ٣٣ - باب قول النبى صلى الله عليه

وسلم « يعذب الميت ببعض بكاء أهله عليه . وسنسوقه بما فيه من الحوار الذى دار بين عبد
الله بن عمر رضى الله عنهما وبين سيدتنا أم المؤمنين عائشة رضى الله تعالى عنها .

عن ابن جريج قال : أخبرنى عبد الله بن عبيد الله بن أبى مليكة قال : توفيت ابنة =

ابن أبي حاتم عنها ؛ أنها سئلت عن ولد الزنى ؟ فقالت ليس عليه من خطيئة أبويه شيء . وتلت هذه الآية .

قال : الكيا المراسى : ويحتج بقوله : (وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا) في عدم

= لعثمان رضى الله عنه ، بمكة . وجئنا لنشهدا . وحضرها ابن عمر وابن عباس رضى الله عنهم . وإني لجالس بينهما (أو قال : جلست إلى أحدهما ثم جاء الآخر فجلس إلى جنبى) فقال عبد الله ابن عمر رضى الله عنهما ، لعمر بن عثمان : ألا تنهى عن البكاء ؟ فإن رسول الله ﷺ قال « إن الميت ليعذب ببكاء أهله عليه » .

فقال ابن عباس رضى الله عنهما : قد كان عمر رضى الله عنه يقول بعض ذلك . ثم حدث قال : صدرت مع عمر رضى الله عنه من مكة ، حتى إذا كنا بالبيداء إذا هو يركب تحت ظل سمرة . فقال : اذهب فانظر من هؤلاء الركب . قال فنظرت فإذا هو صهيب . فأخبرته فقال : ادعه لى . فرجعت إلى صهيب : فقلت : ارتحل فالحق أمير المؤمنين ، فلما أصيب عمر دخل صهيب يبكي يقول : وا أخاه واصحابه .

فقال عمر رضى الله عنه : يا صهيب ، أتبكي على وقد قال رسول الله ﷺ « إن الميت يعذب ببكاء أهله عليه » ؟

قال ابن عباس رضى الله عنه : فلما مات عمر رضى الله عنه ذكرت ذلك لعائشة رضى الله عنها . فقالت : رحم الله عمر . والله ! ما حدث رسول الله ﷺ : إن الله ليعذب المؤمن ببكاء أهله عليه . ولكن رسول الله ﷺ قال « إن الله ليزيد الكافر عذابا ببكاء أهله عليه » وقالت : حسبكم القرآن : وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى .

قال ابن عباس رضى الله عنهما عند ذلك : والله هو أضحك وأبكى .

قال ابن أبي مليكة : والله ! ما قال ابن عمر رضى الله عنهما شيئا .

ورقم حديث ابن عمر ٦٨٤ وعمر ٦٨٥ وعائشة ٦٨٦ .

نفوذ تصرف زيد على عمرو إلا لما قام عليه الدليل . قال ابن القرس : واحتج به من أنكر ارتباط صلاة المأموم بصلاة الإمام .

وقال بعض الزيدية : قوله تعالى : (وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى) يعنى فى أمر الآخرة . فيبطل قول إن أطفال المشركين يعذبون بكفر آبائهم . ويلزم أن لا يعذب الميت بيبكاء أهله عليه . حيث لا سبب له . وأما فى أمر الدنيا ، فقد خص هذا بحديث العاقلة . وكذلك أسر أولاد الكفار ونحو ذلك . انتهى .

« ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ » أى : رجوعكم بعد الموت يوم القيامة « فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ » بتمييز الحق من الباطل . وهذه الآية كقوله تعالى : (قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ * قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ)^(١) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦٥] (وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ، إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ)
« وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ » جمع خليفة . أى يخلف بعضكم بعضا

فيها ، فتعمرونها خلفا بعد سلف ، للتصرف بوجود مختلفة « وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ » أى فأت بينكم فى الأرزاق والأخلاق والحاسن والمساوى والناظر والأشكال والألوان ، وله الحكمة فى ذلك . كقوله تعالى (نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُلَخِيًّا)^(٢) وقوله

(١) [٣٤ / سبأ / ٢٥ و ٢٦] .

(٢) [٤٣ / الزخرف / ٣٢] ونصها : أَهْمُ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ ، نَحْنُ قَسَمْنَا =

سبحانه) انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا^(١)
وقوله تعالى « لِيَبْلُوَكُمْ فِيمَا آتَاكُمْ » أى : ليختبركم فى الذى أنعم به عليكم ، أى
امتحانكم ، ليختبر الغنى فى غناه ويسأله عن شكره ، والفقير فى فقره ويسأله عن صبره .
وفى صحيح مسلم^(٢) عن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن الدنيا
حلوة خضرة . وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون . فاتقوا الدنيا واتقوا النساء ،
فإن أول فتنة بنى إسرائيل كانت فى النساء . أفاده ابن كثير .

ثم رهّب تعالى من معصيته ورغب فى طاعته بقوله سبحانه « إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ
الْعِقَابِ » أى : لمن عصاه وخالف رسله « وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ » أى : لمن والاه واتبع رسله .

لطائف

الأولى : قال السيوطى فى (الإكليل) . استدل بقوله تعالى (جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ
الْأَرْضِ) مَنْ أَجَازَ أَنْ يُقَالَ لِلْإِمَامِ: خَلِيفَةُ اللَّهِ . انتهى .

أى : بناء على وجه فى الآية . وهو أن المعنى : جعلكم خلائف الله فى الأرض تتصرفون فيها .
ذكره المفسرون . وآثرت ، قبل ، غير هذا الوجه لأنه أدق وأظهر ، والله أعلم .

الثانية : قال القاضى : وصف العقاب ولم يصفه إلى نفسه ، ووصف ذاته بالمغفرة وضم إليه
الوصف بالرحمة ، وأتى ببناء المبالغة واللام المؤكدة - تنبيها على أنه سبحانه وتعالى غفور
بالذات ، معاقب بالعرض ، كثير الرحمة مبالغ فيها ، قليل العقوبة مسامح فيها . انتهى .

= بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ
بَعْضًا سُلْخِيًّا، وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ .

(١) [١٧ / الإسراء / ٢١] .

(٢) أخرجه مسلم فى : ٤٨ - كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، حديث ٩٩
(طبعنا) .

الثالثة : قال ابن كثير : إن الحق تعالى ، كثيرا ما يقرن في القرآن بين هاتين الصفتين كقوله : (وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ ، وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ)^(١) وقوله : (نَبِيُّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ)^(٢) . إلى غير ذلك من الآيات المستتمة على الترغيب والترهيب . فتارة يدعو عباده إليه بالرغبة وصفة الجنة والترغيب فيما لديه . وتارة يدعوهم إليه بالرهبة وذكر النار وأنكالها وعذابها والقيامة وأهوالها . وتارة بهما . لينجح في كل بحسبه . جعلنا الله ممن أطاعه فيما أمر ، وترك ما نهى عنه وزجر ، أنه قريب مجيب .

قد تم بحمدته تعالى الكلام على (محاسن تأويل) سورة الأنعام . وذلك ضحوة الأربعاء في ٢٨ ربيع الأول . في شباك السدة المينى العليا من جامع السنانية عام ١٣٢١ . وكان تخلل مدة شهر ونصف ، وقفت عن كتابة شيء من هذه السورة فيها ، وذلك من آخر البحث في قوله تعالى : (سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا ...) الآية ، لما رضى رحلتى إلى بيت المقدس

في ٢٨ محرم من العام المذكور . وبعد العود إلى الوطن في ٨ ربيع الأول

بدأت من قوله تعالى (قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمْ ..) الآية ، في ٢٠ ربيع

الأول ، وتمت السورة في التاريخ المتقدم ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ

الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنَّ

هَدَانَا اللَّهُ . بقلم جامعته جمال الدين

القاسمي

- وبليه الجزء السابع - ويحتوى على تفسير سُورَ : ٧ - الأعراف ، ٨ - الأنفال ، ٩ - التوبة

(١) [١٣ / الرعد / ٦] ونصها : وَيَسْتَعِجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ

مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَاتُ ،

(٢) [١٥ / الحجر / ٥٠ و ٤٩] .

جدول

بيان الخطأ والصواب الذي جاء بالجزء الخامس

بقلم حضرة صاحب الفضيلة عالم الشام الأوحد ، السيد محمد بهجة البيطار ، حفظه الله

رقم الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١١٠١	١٧	حويا	حويا
١١٠٦	٧	ومنهم	فمنهم
١١١١	٢١	نسوة	نسوة
١١٢٠	١٥	بقوله	بقوله (١)
—	بالهامش	(١) [٤ / النساء / ١٢٩]	
١١٢٣	٥	الايثاء	الإيتاء
١١٣٤	١٨	أجلهن	أجلهن
١١٤٥	٣	من بعد	من بعد
١١٤٨	١١	امرء	امرؤ
١١٤٩	٢٠	وصية	وصية
١١٥٨	٥	ان يخافا	أن يخافا
١١٦٤	١١	بهتانا	بهتانا
١١٧٤	٥	أرض نكم	أرضنكم
١١٧٩	٤	ومساررات	مساررات
١١٩٣	٨	عقدة	عقدة
١١٩٥	١	المؤمنات	المؤمنات
١١٩٥	٤	ذلك	ذلك

تصويب أخطاء الجزء الخامس

رقم الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١١٩٥	١٣	{ وان تصيروا	وَأَنْ تَصِيرُوا
١٢٠٠	١٧ و ٧		
١٢٠٢	٨	لَا تَأْكُلُوا	لَا تَأْكُلُوا
١٢٠٣	١	معارضة	معاوضة
١٢٠٦	٤	عُدُّوَانَا	عُدُّوَانَا
١٢١٤	١٥	الْأَرْحَامِ	الْأَرْحَامِ
١٢١٥	١٢	وَلِكُلِّ	وَلِكُلِّ
١٢٣٢	٤	الْبَرِّ	الْبَرِّ
١٢٤٨	٦	تقديره مضاف	تقدير مضاف
١٢٥٤	١٠	من حرج	من حرج (٣)
—	وفى الهامش	(٣) [٢٢ / الحج / ٧٨]	
—		(٣) أخرجه	(٤) أخرجه
١٢٥٥	٢	احتملت	احتملت
١٢٦١	٨	أَوْ لَا مَسْتَمَ	أَوْ لَا مَسْتَمَ
١٢٧٩	٩	سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا	سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا
١٢٨٥	٩	يَأْيِهَا ذَ الَّذِينَ	يَأْيِهَا الَّذِينَ
١٢٨٥	٢٠	انعم الله ..	أنعم الله عليه
١٢٩٠	٤	(إِنَّهُ لَا يَغْفِرُ)	(إِنَّهُ لَا يَغْفِرُ)
١٢٩٦	١٤	لَمَلَّى أَبْلَغَ	أَبْلَغُ
١٣٢٢	١٨	يَخْلَفَ	يُخْلِفَ
١٣٥٥	٢١	قد يعلم الذين	قد يعلم الله الذين
١٣٥٧	٦	لا يجاورنك	لا يجاورونك
١٣٥٧	٢٢	بما كسبت	ما كسبت

تصويب أخطاء الجزء الخامس

رقم الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٣٦٦	١٩	عنق	عنق
١٣٧٠	٨	(١)	(٥)
١٣٩١	٩	أن يتمدنى	أن يتمدنى
١٣٩٢	١٦	لَيُطِطَّنَ	لَيُطِطَّنَ
١٤٠١	٤	ان تصبهم	وإن
١٤٠٦	١١	افاده	أفاده
١٤٠٧	٦	إنما	فإنما
١٤١١	١٣	العدواة	العداوة
١٤١٦	١	لا بقضاء الله	إلا بقضاء الله
١٤٣٤	٧	والملائكة	والملائكة
١٤٣٦	١	في المناقون	في المناقنين
١٤٣٧	٤	في حير	في حير
١٤٥٤	٩	متعلقا	متعلقاً
١٤٥٩	١٥	ويخلد فيها	ويخلد فيه
١٤٦٢	٥	ويغفو	ويغفو
١٤٧٨	١	ثم طرحوا	ثم طرحوه
١٤٨٤	٦	درجات منه	درجات منه
١٤٨٦	٦	التفضيليين	التفضيليين
١٤٨٧	١٤	ءامنأ	ءامنأ
١٤٩٠	١٨	وبلق	وبلق
١٤٩١	٣	تغير	تغير
١٥٠٠	١	ضميرة	ضمرة
١٥٠٤	١٤	في الأرض	في الأرض

تصويب أخطاء الجزء الخامس

رقم الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٥٠٦	١٠	ولا جناح	و « لا جناح »
١٥٠٦	١١	ولا جناح عليهما	فلا جناح
١٥١٧	٣	وليأخذوا	وليأخذوا
١٥٢٠	٤	بإحدى الطائفتين	الطائفتين
١٥٢٠	٩	عن أبي عباس	عن ابن عباس
١٥٢٢	٦	لم يصلوا	لم يصلوا
١٥٢٢	٨	بإحدى الطائفتين	بإحدى الطائفتين
١٥٢٧	٤	حاز	جاز
—	٢٠	وليأخذوا	وليأخذوا
١٥٢٩	٧	قرح	قرح
١٥٣٩	١٦	هبوا	هبوا
١٥٤٢	٣	مرضاة	مرضات
١٥٤٤	١٢	الصوب	الصواب
١٥٥٨	٣	مرضاة	مرضات
١٥٦٥	١٧	ان يدعون إلا	إن يدعون من دونه
١٥٧١	٢٠	من من حاجتها	من حاجتها
١٥٧٨	١٠	إني برئ	وإني برئ
١٥٨٢	١٢	المتطهرين	المتطهرين
١٥٨٦	٥	وداومها	وداومها
١٥٨٨	١٥	والمستضعفين	والمستضعفين
١٦١٥	١٨	نصيب	نصيب
١٦٢٣	٢١	وسندع الزبانية	و : سندع الزبانية
—	٢١	ويوم يناد	و : يوم

تصويب أخطاء الجزء الخامس

رقم الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٦٣٣	٣	ما جيل	ما جِيل
—	٤	في التأويل قوله	في تأويل قوله
١٦٣٧	٨	التي نعيمث	التي نُعَيْثُ
١٦٣٨	١	وتطرف	وتطرّق
١٦٥٤	٢٠	جسدّ الرب	جسد الرب
١٦٦٢	١٦	رأوا مجده	رأوا مجده
١٦٦٦	٤	عند النبيّ	عند النبيّ
١٦٧٠	١	إلا اتباعُ الظن	إلا اتباعُ الظن
١٦٧٥	٧	إلى صوة	إلى صورة
—	١١	فأنا لأشك	فأنا لا أشك
١٦٧٧	١٧	عظمتان	عظيمتان
١٦٨٠	١٥	التوتر	التواتر
١٦٨١	٤	عليها	عليهما
١٦٩٠	٨	فلمّ	فلمّ
١٦٩٦	١٩	ومخترعات	ومخترعات
١٧٠١	٥	بانا با	بونا با
١٧٠١	١٣	مصدّفا	مصدّقا
١٧٠٧	١٥	القيامة	القيامة
١٧٠٩	١	ما لهم به إلا اتباع الظن	ما لهم به من علم
١٧١٠	١٩	وأجلّ المراتب	وأجلّ المراتب
١٧١١	٤	وإن من أهل أهل	وإن من أهل الكتاب
١٧١٧	١٠	وأكلهم أموال	أموال
١٧١٨	٥	الرّسخون	الرّاسخون

تصويب أخطاء الجزء الخامس

رقم الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٧١٨	١٠	أَنْزِلْ	أَنْزِلْ
١٧٢٦	١١	الْقُرْآنَ	الْقُرْآنَ
١٧٢٦	١٦	رُوحُ	رُوحُ
١٧٣١	٦	فَنَادَاهُ	فَنَادَاهُ
١٧٥٢	٦	تَضَعُ	تَضَعُ
—	١٥	أَهْلَ كِنَانِهِمْ	أَهْلَ كِنَانِهِمْ
١٧٥٥	١٦	أَوْ مَلَكًا	أَوْ مَلَكًا
١٧٥٧	١٠	فَالْقَصْدُ فِيهِ إِلَـ	إِلَى
١٧٦٠	١٦	شَهِيدًا	شَهِيدًا
١٧٦٣	١٩	طَبِيبًا	طَبِيبًا
١٧٦٤	٢	جَرَأَ	جَزَأَ
١٧٧٤	١٣	وَيَسْتَكْبِرُ	وَيَسْتَكْبِرُ
١٧٧٧	١٦	لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَا وَلَةٌ أخت	وَلَدٌ وَلَةٌ أخت

وجزى الله مولانا خير ما يجازى به عباده العالمين الصالحين العاملين النافعين . آمين .